بهاء الدين العاملي وفكرة المتصل والمنفصل

د. عبد الكريم اليافي

بهاء الدين العاملي عبقرية من عبقريات الحضارة العربية الاسلامية بزغت من بلاد الشام وتقلبت كالكوكب الدري في ربوع العالم العربي والاسلامي الواسعة • فقد ولد محمد بن حسين بن عبد الصمد في بعلبك سنة ٩٥٣ هـ = ١٥٤٧ م من أسرة عربية الأصل ترجع في نسبها الى الحارث الهمداني صاحب أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه •وكانت قبيلته حيًّا من اليمن • وتوفي بهاء الدين بأصفهان سنة ١٠٣٠ هـ أو ١٠٣١ هـ = ١٦٢١/١٦٢٢ م عن عمر يناهز الثامنة والسبعين قضاه في العلم والعمل والعبادة والسياحة • ونقل جثمانه الى مدينة مشهد فدفن فيها•

تاريخ وفاته مختلف فيه ويقع هذا الاختلاف في مجال سنة واحدة • وأكثر المحققين على أنه سنة ١٠٣٠ •ولكن روي أيضاً عام ١٠٣٥ • وحسبنا هنا ملاحظة واحدة عابرة على هذه الروايات وهي أنه من المعروف في علم السكان أن الأرقام التي تنتهي بالصفر أو الخمسة ذات جاذبية خاصة بحيث تَتَقرّب منها الأعمارُ فتتراكم عندها •

عاش بهاء الدين في النصف الثاني من القرن العاشر والربع الأول من القرن الحادي عشر الهجريين أي في النصف الثاني من القرن السادس عشر والربع الأول من القرن السابع عشر الميلاديين ،وهو عهد ذو أهمية كبيرة عند المؤرخين ، هو عهد الملوك العظام من أمثال السلطان العثماني سليمان القانوني (ملك في سنة ١٥٢٠ حتى وفاته سنة ١٥٦٦) ،وصلت جيوشه فحاصرت مدينة فينّة

عاصمة النمسة عام ١٥٢٩ ، والشاه عباس الأول الصفوي في ايران (ملك من سنة ١٥٨٧ حتى وفاته عام ١٦٢٩) ، والسلطان المغولي جلال الدين محمد شاه أكبر في الهند (ملك من سنة ١٥٥٦ حتى وفاته عام ١٦٠٥) ، والملكة اليزابت الأولى في انكلترة (ملكت من عام ١٥٥٨ حتى وفاتها عام ١٦٠٣) ولويس الرابع عشر في فرنسة انتحل زهوّاً لقب الملك الشمس (حكم بعدهم بقليل من سنة ١٦٤٣ حتى وفاته عام ١٧١٥) ·

شهر هؤلاء الملوك والسلاطين بحب العلم والاهتمام بالعمران وتحسين مرافق الدولة كما شهرت اليزابت بالتشجيع على التجارة وعلى الاستعمار البغيض ·

في ذلك العهد نشأ بتلك الدول علماء وفنانون كبار · نشأ في انكلترة فرنسيس بيكون صاحب الطريقة التجريبية (١٥٦١ ـ ١٦٢٦) التي أفاد فيها من مضمون التراث العلمي العربي، والشاعر شكسبير (١٥٦٤ ـ ١٦١٦) وفي فرنسة الفيلسوف روني ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) والراهب الرياضي غاسّندي (١٥٩٢ ـ ١٦٥٥) والشاعر المسرحي كورني (١٦٠٦ ـ ١٦٨٤) · وقد ولد موليير في سنة ١٦٢٢ أي في عام وفاة بهاء الدين العاملي تقريباً · وفي اسبانية الكاتب المشهور سرفانتس صاحب دون كيخوت (١٥٤٧ ـ ١٦١٦) والمصور الكبير فيلا سكيز (١٥٩٩ ـ ١٦٦٠) وفي ألمانية الفلكي كبلر (١٥٧١ ـ ١٦٣٠) وفي ايطالية الفيزيائي والفلكي غاليلو (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢) ·

وفي بلاد العرب والاسلام كتّاب وفلاسفة ومؤلفون ومؤرخون وعلماء يضيق هذا الحديث عن تعدادهم منهم بل في طليعتهم بهاء الدين العاملي والفيلسوف الاسلامي الكبير صدر الدين الشيرازي محمد بن ابراهيم (وفاته عام ١٠٥٩ هـ / ١٦٤٩ م) · ونحن هنا ذكرنا أمثلة على العبقريات الأجنبية المعاصرة دون حصر ولا استقصاء ·

لقد كان عهد تلك الدول جميعاً في اقبال ابّان تلك الحقبة ·

بلغ نجم الدولة العثمانية الأوج في زمن سلطانها سليمان القانوني ثم لم يُعَتِّم أن مال الى الانحدار بعده، وبدأت الصروف تتصعب وتسوء ولا سيما في البلاد العربية ومنها بلاد الشام ، فقد أهملت هذه الربوع وغدت الولاة تسمّى عليها وهي موطن العاملي دون اختيار الجديرين والمصلحين · « تعاقب على

دمشق خلال القرن الحادي عشر الهجري واحد وثمانون والياً وعلى حلب تسعة وأربعون والياً فكان الوالي لا يتمكن من الاصلاح ان أراده وقلبه متعلق أبداً بثبات منصبه ، والغالب أنه لا يتوفر على غير جمع المال بالطرق المنوعة ليوفي ماعليه من المقرر لجماعة الآستانة من الأموال ٠ وكان الولاة يبتاعون الولاية ابتياعاً والمزايد الأكبر هو الذي توسد اليه » (خطط الشام ج ٢ ص ٢٣٤) ٠ وروي أن السلطان مراداً في عهد العاملي أمر « أن يكتب الى أحمد باشا كوجك والي الشام بأن يدفع الى السلحدار باشا عشرين ألف ليرة ويبقى في منصبه فاضطر الوالي أن يؤدي المبلغ ٠ ومن أهم أدوات التخريب في هذا القرن خروج جند الانكشارية عن حد الاعتدال وكثرة اعتدائهم على الرعية يستطيلون على أموالها وأعراضها ويثلمون شرفها ويذللون أعزتها وهم القوة القاهرة وأذاهم لاحق بالكبير والصغير » (المرجع نفسه) ٠

وقد روى المؤرخون فيما رووه أنه في سنة ألف هجرية أمر قاضي دمشق مصطفى بن سنان بقيام النواب من المحاكم واغلاق أبوابها فأغلقت أسواق البلد كلها ٠ وسبب ذلك أن الدفتردار محمود ارتشى من ابن الأقرع بخمسة عشر ألف دينار وولاه على بعلبك بدل ابن الحرفوش فأدى ذلك الى خراب بعلبك (مسقط رأس العاملي) ظاهرها وباطنها ورحل أهلها عنها حتى تعطلت الأحكام الشرعية وعتا بها ابن الأقرع وأتباعه وصادر الناس مصادرة ليوفي بها المال الذي التزم به للسلطة (خطط الشام ج ٢ ص ٢٣١) ٠ ثم ان أرباب النفوذ وطائفة من العلماء في البلاد كانوا فاسدين متفرقين متملّقين للولاة والحكام ٠ ولو كانوا صالحين متعاونين لما استطاع الحكام والولاة أن يفعلوا شيئاً ، ناهيك بالشعب يعاني أصناف العسف والضغط والاستغلال ٠

كذلك بلغت الدولة الصفوية أوجها بزعامة الشاه عباس الذي كان أعظم ملوكها ٠ على أن العداء كان مستحكماً بين الدولة الصفوية الشيعية والدولة العثمانية السنّية وجرت حروب شعواء بينهما مع أن مُثُلَهما الدينية من ينبوع واحد ٠ وقد استعان الشاه عباس ببعض الضباط الانكليز لينظموا له جيوشه ويناوش بها الدولة العثمانية ٠ والغريب في هؤلاء الملوك المسلمين أنهم يستعينون بأعدائهم على أبناء ملتهم ٠ وفي عام ١٠٠٧ هـ/١٥٩٨ م نقل الشاه عباس

العاصمة من قزوين الى أصفهان واختصها بعناية فائقة وسرعان ما زخرت المدينة بالنشاط والفنون والصنائع • وعُني الشاه بالثقافة الأدبية والفنون والعمران وبناء القصور والمزارات وتقريب العلماء واجتذابهم وان ظلت الأحوال الداخلية يخامرها الفساد والارتشاء • ثم تردت تلك الأحوال في الداخل والخارج ترديا سريعا بعد وفاته •

ولم تكن الدولة المغولية في الهند في عهد سلطانها شاه أكبر بأقل احتفالا بالعلم وأهله وبالعمران وضبط أحوال الرعية بل كانت أعلى شأنا في هذه الميادين. كان هذا السلطان الذي يكاد يعرف القراءة والكتابة مشغوفا بالعلم والفلسفة متفهما لمسائلهما عميق الادراك لقضاياهما • كان يجمع العلماء من مختلف المذاهب لعله يستطيع توحيدها فيجمع الشعب المتفرق على منهج واحد ويريح الناس من تشتتهم أديانا ونحلا وطوائف •

كان عهده عهد حرية وتسامح وتعظيم للفكر في وقت كانت أوروبة تجتاحها عواصف مدمرة من التعصب اذكان الكاثوليك يفتكون بالبروتستانت في فرنسة ، والبروتستانت يذبحون الكاثوليك في انكلترة ، ومحاكم التفتيش تنكّل ببقايا المسلمين واليهود في اسبانية ، ورجال الكنيسة يحرقون جمهرة من العلماء بتهمة الهرطقة في ايطالية •

في هذا الاطار التاريخي ظلت بلاد الشام بما تأثّل فيها من علم ومجد وأماكن مقدسة مطمح الباحثين والسائحين والعلماء • وبهذه الصورة التي عرضناها نتفهم تقلب بهاء الدين العاملي في ربوع البلاد العربية والاسلامية حتى انه قضى في سياحته كما يذكر الرواة نحو ثلاثين عاما أضاف في هذه السياحة الى علمه خبرة واسعة بصروف الدنيا وحوادث الزمان .على أن رواية سياحته وتغربه هذه ان شك فيها بعض الباحثين فهي عندنا مقبولة اذا اعتبرنا محل اقامته موطنه الأول بعلبك وموطنه الأخير أصفهان لأن السياحة والهجرة لا بد فيها من النظر الى محل الاقامة الذي وطّن السائح المهاجر عزمه على اللبث فيه •

لقد نشأ بهاء الدين في بيت علم وأدب ودين وتقوى ، والده حسين بن عبدالصمد عالم فقيه رياضي شاعر ، ومن المعروف في العصر الحديث وباعتماد الاحصاء أن

النوابغ في بيوتات معروفة بالعلم أكثر احتمالاً منهم في غيرها ، اذ ينشأ الفتى فيتلقى ثمرات العلم والمعرفة دانية قطوفها لديه ، فلا بد من أن يفيد من هذا الجو العلمي وأن يتذوق حلاوته ويدرك علو درجات أصحابه . لقد كان هذا الأب الفاضل حريصاً على تخريج ولده في المدرسة الأولى مدرسة البيت خير تخريج سواء في الأخلاق الحميدة والمزايا الرشيدة وفي قرض الشعر والتفتح على عالم الرياضيات والعلوم وحب آل البيت، شأنه في ذلك شأن غالبية العلماء في ذلك الوقت اذ كانوا موسوعيين متبحرين في علوم شتى ، وكان العلم في ذلك الزمان الغاية المثلى للانسان المسلم ، وكانت قيمة المرء فيما يحسن من علوم لا فيما يملك من مال ومتاع ، هذا الى وجود رعاع من الولاة والحكام لا همَّ لهم الا جمع الحطام وتكديس المال الحلال والحرام .

ولم يكد الفتى يترعرع حتى جمع الى حب العلم والتبحّر فيه حب السفر والسياحة ، شأنه في ذلك شأن أبيه ، ويظهر أنه رافق أباه الى قزوين وكانت في ذلك العهد عاصمة للصفويين وشهدت حركة علمية واسعة ، ثم سافر أبوه الى هراة وتركه . ونجد في شعر الفتى الناشيء رغبة في اللحاق بأبيه . وقد أصيب في قزوين برمد تطاول أمده فأزعجه يذكر ذلك في أرجوزته الطويلة :

بُليتُ في قزوينَ وقتاً برمد	مقرحٍ للقلب من فرط الكمد
يمنع من صرف النهار فيما	يرضي اللبيب الحاذق الفهيما
من بحثٍ او تلاوةٍ أو ذكر	أو درسٍ او عبادةٍ أو فكر
ولم يكن من عادتي البطالة	لأنها من شيم الجهالة ... الخ

ولكنه لم يلبث أن لحق بهراة التي أحبها فوصف طبيعتها ومرافق الحياة فيها وصفاً بديعاً في تلك الأرجوزة نفسها .

ان بهاء الدين لم يسجل أحداث سياحاته الطويلة التي استمرت ثلاثة عقود كما سلف آنفاً ولا أزمانها ولكننا نجد لُمعاً من أخبارها منثورة في ثنايا تآليفه وفي روايات معاصريه ومؤرخيه . فلقد زار بلاد الشام كلها تقريباً والقدس وتركيا العثمانية ومصر والحجاز كما أنه لم يترك ناحية من نواحي المملكة الايرانية

الا زارها ولا سيما بعد أن تلقاه الشـاه عباس ومكّن له في دولته وقرّبه منه وغدا رئيساً في دار السلطنة بأصفهـان وشيخ الاسلام فيها • وقد رافق هذا السلطان في سياحاته وحروبه فزار خراسان وأذربيجان وأرّان وديار الكرج •

ويذكر المؤرخون أن البهائي كـان مطبوعاً على حب الحرية ومجافاة التصنع والتكلف ، مشغوفاً بمظاهر البساطـة في الحياة ، حسن الاختلاط بالناس ، محباً للخير ، ميالاً الى التصوف السليم الى جانب علومه الواسعة • ولا أستطيع أن أملك نفسي دون ذكر هـذه النـادرة في علاقاته بأقرانه ، فقـد حُكي أن الشـاه عباساً ركب يوماً الى بعض متنزهاته وكان البهائي والداماد (صهر السلطـان) في موكبه اذ كان غالبـاً لا يفارقهما وكـان الداماد عظيم الجثة والبهائي نحيفهمـا ، فأراد الشاه أن يختبـر صفاء الخواطـر بينهما فقال للداماد وهو راكب فرسـه في مؤخرة الجمع وقد ظهرت عليه آثار الاعياء والتعب والبهائي في مقدمـة الركب : ألا تنظر الى هذا الشيخ كيف تقدم بفرسه ولم يمش على وقار كمـا تمشي أنت ؟ فقال الداماد : أيها الملك ! ان جواد الشيخ قد استخفه الطرب عمن ركبه فهو لا يستطيع التأني • ألا تعلـم من ركبـه ! ثم قـال للبهائي : يا شيخنا ألا تنظـر الى هـذا السيد كيف أتعب مركبه بجثمانه الثقيل ؟ والعالم ينبغي أن يكـون مرتاضـاً مثلك خفيـف المـؤونـة • فقـال البهـائي : أيها الملـك ان جـواد الشيخ أعيـا بمـا حمل من علمـه الذي لا يستطيع حمـله الجبال • فعند ذلك نزل الشاه عن جواده وسجد لله شكراً على أن يكون علماء دولته بهذا الصفاء • وهكذا يسعد الزمان وأهله بأمثال هؤلاء العلماء المتواضعين المتعاونين على حين نجد في العصر الحاضـر من ألمّ بطرف من العلم يتنطـع ويطـاول الذرا العالية • هذا وكان البهائي واثقاً بنفسه عارفاً قدرها وهو القائل :

وإني امرؤ لا يدرك الدهر غايتي	ولا تصل الأيدي الى سبر أغواري
أخاطب أبنـاء الزمـان بمقتضى	عقولهـم كيـلا يفوهوا بانكاري

ومع هذا فقد كان في قرارة نفسـه يؤثر التفـرغ للعـلم والتخلي للعبـادة واعتزال الملوك والبعد عـن المناصب لأن بلاط الحكم لا يخلـو من دسائس ومـن حسد ومناوأة وأطماع ومنافسة • وقـد كتب يحاسب نفسه أيّ حساب ويحنُّ الى

وطنه العربي على الرغم من الصروف التي اعتورت هذا الوطن : « لو لم يأت والدي قدّس الله روحه من بلاد العرب ولو لم يختلط بالملوك لكنت من أتقى الناس وأعبدهم وأزهدهم • لكنه طاب ثراه أخرجني من تلك البلاد وأقام في هذه الديار فاختلطت بأهل الدنيا واكتسبت أخلاقهم الرديئة واتصفت بصفاتهم ثم لم يحصل لي من الاختلاط بأهل الدنيا الاالقيل والقال والنزاع والجدال ، وآل الأمر أن تصدى لمعارضتي كل جاهل وجسر على مباراتي كل خامل » •

نقول : هذا شأن كل مبرز في العلم والمعرفة سليم القلب طيّب السريرة • أما ما جاء في كتاب الكشكول من احماض ومن شعر خليع لابن حجاج أحياناً فمحمل ذلك على التفكّه وعلى الرغبة في اجمام القلب والترويح عن النفس الدؤوب في العمل الجاد • ويبدو لنا أن البهائي كان مجاملا في حياته للحكام وللجهال شأنه في ذلك شأن العلماء الذين يتحامون الشرور والاضطهاد ما استطاعوا ولكنه لم يكن راضياً عن الأحوال الداخلية التي كانت في بلاد الاسلام • ان بيت الشعر السالف :

أخالط أبناء الزمان بمقتضى — عقولهم كيلا يفوهوا بانكاري

دليل على ما نذهب اليه من وصفه بالمجاملة • ولذلك يحسن بمطالع كتبه وأشعاره في جانب ما زخرت به من فوائد جمعها أن ينتبه الى ما أدمجه فيها من فقرات وحكم ومواعظ • ففي الجزء الثاني من الكشكول (ص ٢٦٧ تحقيق طاهر أحمد الزاوي) وردت رواية عن علي بن أبي رافع الذي كان على بيت علي ابن أبي طالب رضي الله عنه في شأن اعارته بنته عقداً عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام • فهذه موعظة للولاة والحكام. وفي الجزء نفسه موعظة للمتنفذين وهي أنه « مرّ ديوجانس الحكيم بشرطي يضرب لصاً فقال : انظروا الى لص العلانية يضرب لص السر » • وعندنا أن قصيدته في اللغة الفارسية التي يصف فيها شاباً تقياً صالحاً قتل أمه الفاسدة لا تفهم الا على أنها رمز يهيب مؤلفها في أغلب الظن اهابة خفية بالشعب للثورة على الحكم الفاسد والا فان قتل الأم لا يجيزه عقل ولا شرع • انه في ذلك يجري على نسق الشعراء الايرانيين الذين تقدموه باعتماد الرمز في أشعارهم لافادة مقاصدهم (منطق الطير مثلا لفريد الدين العطار) •

من أجل دراسة أفكار العاملي و بيان علومه الواسعة لا بد من العمل قبل كل شيء على تجميع تراثه الفكري الواسع الذي يناهز تسعين مؤلفاً ورسالة وعلى طبعه واشاعته. ونحن في موضوعنا «المتصل والمنفصل في فكر العاملي» اعتمدنا نبذاً قليلة منثورة في كتاب «الكشكول» وحده لأن «المخلاة» لا تشتمل على شيء من موضوعنا • ولم نستطع أن نطلع على رسالته الموسومة بالجوهر الفرد التي تهمنا في هذا الموضوع • وقد راجعنا الى جانب ترجماته وما رواه المؤرخون عنه كتابه «خلاصة الحساب» الذي في المكتبة الظاهرية نسخة منه مطبوعة على الحجر، وكذلك عثرنا على شرح ممتاز ولكنه وجيز لكتاب العاملي «تشريح الأفلاك» ولم نعثر على الكتاب نفسه وعجبنا لهذه الأفكار الجيدة التي في الشرح حول سقوط الأجسام في الخلاء وسقوطها الحر في الهواء وعلى شؤون جاذبية الشمس والثوابت والسيارات والأقمار بحيث تسبق سبقاً لا مثيل له كلام نيوتن الذي ينسب اليه الكشف عن الجاذبية وقوانينها •

وكم يسعدنا حين نقرأ مسرحية لشكسبير أو لشاعر فرنسي مثل كورني وراسين وموليير أو مقالة لفيلسوف وعالم مثل ديكارت أن نجد الطبعات الكثيرة المحققة مع الشروح ومع الدراسات الكثيرة لكل منها • وكم يؤسفنا في المقابل حين نريد أن نفتش عن كتاب الجوهر الفرد للعاملي ولبعض رسائله العلمية ألا نجد لها أثراً أيّ أثر في مكتباتنا العامة أو الخاصة • أو°اه' كم نشعر بالمرارة وكم يحزّ في النفس أن الأموال العربية والاسلامية الطائلة تذهب هدراً في حروب مدمرة بين الاخوة والأشقاء ، وكان من الممكن أن يُصرف عشُر معشارها في خدمة التراث العربي والاسلامي لتجلى صحائفه وتصقل صفائحه ، هذا الى جانب مئات الألوف من القتلى والمشوهين وهم في ريعان الشباب ومخايل القوة والعطاء •

أما موضوع المتصل والمنفصل فهو حديث فكري فلسفي علمي طويل ومتشعب نعرض خلاصته عرضاً واضحاً لنبرز ألمعية الشيخ البهائي في اطار هذا الشأن • وكما أن العالم الفيزيائي يستطيع أن يحلل سناكوكب متوهج بمقياس الطيف ليعلم ما يشتمل عليه الكوكب من عناصر ، كذلك نستطيع أن نتبين من وراء فكرة واحدة وهي فكرة المتصل والمنفصل مثلا مدى تعمق البهائي في علم الحكمة • قضية

المتصل والمنفصل تبحث في الرياضيات وفي الفيزياء وفي الكيمياء • ومعنى المتصل أن الخط مثلا قابل للانقسام غير المتناهي ،وكذلك السطح والمادة • ومعنى المنفصل أن الخط أو السطح والمادة يتألف كل منها من نقاط أو أجزاء دقيقة محدودة وأن الانقسام يقف عند هذه الأجزاء فهومتناه فالمتصل والمنفصل لفظان شاع استعمالهما في التراث العلمي العربي وانتقلا الى اللغات الأجنبية على طريق الترجمة فيقال في اللغة الانكليزية والفرنسية مثلا للمتصل continu, continuous وللمنفصل discontinu, discontinuous وثمة لفظ ثالث أُلحِقَ بهما وهو discret بمعنى المنفصل أي المتقطّع يطلق على بعض الحوادث أو النقاط المفردة • اتصال الخطوط والسطوح والأجسام والطاقة والضوء أو انفصالها شغل المفكرين منذ قديم الزمان وقد عرضنا في أكثر من موضع من كتبنا ومقالاتنا هذه القضية فلا نفيض فيها بل نكتفي بعرض بعض المفارقات واللمع الفكرية في تاريخ الفلسفة والعلم لنصل الى موقف البهائي.

الانفصال في المادة عُرِفَ في كلا المذهبين نيايا وفايشيشكا عند براهمة الهند القدماء • ولقد نوه لوقيبوس وديمقريطس ثم أبيقورس عند اليونان بأن المادة تتألف في النهاية من أجزاء لا تتجزأ • ولكن المعلم الأول أرسطو اعتمد الاتصال والانقسام اللامتناهي • وقد ضحك زينون الايلي من فكرة الاتصال حين صوّر الخُلْفَ في فكرة الحركة المتصلة فمثّل أخيلوس ذا القدمين الخفيفتين يلحق بسلحفاة • فلو كان الطريق متصلا أي مؤلفاً مما لا نهاية له من الأجزاء لكان أخيلوس كلما قطع نصف المسافة بينه وبين السلحفاة مثلا ووصل الى النقطة التي كانت بها السلحفاة لزم أن تكون السلحفاة قد قطعت مسافة ما • وهكذا لا يمكن له أن يلحق بها منطقياً مع أن الواقع بلوغه مكانها • ولما جاء المفكر الروماني القديم لوقريطس انضم الى أبيقورس في تنويهه بانفصال المادة •

وثارت هذه القضية في التراث الاسلامي • فالاعتقاد بوجود الجزء الذي لا يتجزأ مذهب فريق واسع من المسلمين وهم غالبية المعتزلة وجمهور المتكلمين • وربما كانت آراؤهم بادىء بدءٍ صادرة عن دوافع دينية • ذلك أن أبا الحسن الأشعري أخذ هذه النظرية عن سابقيه من المعتزلة واعتمدها في دعم اتجاهه الديني اذ حصر التناهي في المخلوقات والأشياء المحدثة وترك اللاتناهي لله • لقد

ورد في القرآن الكريم : « وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » وورد فيه أيضاً « وأحصى كل شيء عدداً » ولا يتم هذا الاحصاء الا بما له نهاية • وعاود الفكرة تلميذه القاضي أبو بكر الباقلاني وأتباعهما من المتكلمين •

وكان العرب المسلمون يقولون للأجزاء التي لا تتجزأ الجواهر الفردة والذرّات • وقد تسربت فلسفة أرسطو الطبيعية الى التراث الاسلامي وهي قد أنكرت الذرات فلا غرو أن نجد بين المعتزلة من أنكر وجود الذرات أيضاً • وأبرز هؤلاء ابراهيم النظام • ورُدَّ على النظام بمثل المفارقة التي نوّه بها زينون وذلك أن الماشي الذي يقطع مسافة متناهية يقطع ما لا نهاية له لأن هذه المسافة تقبل القسمة الى غير نهاية • ولكن النظام تخلص من هذه الصعوبة بالطفرة ومعناها أن الجسم المتحرك لا يُماسُّ أجزاء المسافة التي يقطعها بل يصير الى مكان دون أن يمر بالذي قبله •

وفي تاريخ التراث العربي الاسلامي صور متعددة لهذه القضية التي كانت تلوح للمفكرين وتشغل عقولهم • فالشيخ الرئيس ابن سينا من أكبر ممثلي الفلسفة المشائية (فلسفة أرسطو وتلاميذه) • وقد قالوا ان الجسم كَمٌّ متصل وفرقوا بين الانقسام بالفعل والانقسام بالقوة فأجازوا الثانية الى ما لا نهاية وأنكروا الأولى •

ولما تحاور أبو الريحان البيروني وابن سينا جاء في السؤال الرابع الذي سأله البيروني ابن سينا في الرد على المعلم الأول : « لم استشنع أرسطوطاليس قول القائلين بالجزء الذي لا يتجزأ ؟ » وقد شعر البيروني بالصعوبة التي تكمن في القول بالجزء ولكنه وجد صعوبات أكثر في القول المقابل فأشار الى أن « القول بأن الجسم يتجزأ الى ما لا نهاية أشنع • » ثم يسأل كيف التخلص من حرج كلا الموقفين • ويجيب ابن سينا أن أرسطو انما أراد الانقسام بالقوة ولكن البيروني يُلزمه اذ ذاك بمشكلة أن لو قسمت الأبعاد انقساماً غير متناهٍ لوجب أن يساوي قطر المربع أحد أضلاعه لأن كليهما ينقسم الى ما لا نهاية • ويبدو من هذا أن النظرية تجاوزت الميدان الديني وغدت قضية مطروحة في الفلسفة الطبيعية عند مختلف المفكرين من ممثلي الفلسفة المشائية ومن المستقلين البارزين

أمثال البيروني وهبة الله أبي البركات البغدادي ومن علماء الدين أمثال فخر الدين الرازي • وقد عرض هذا المفكر العلامة فخر الدين في كتابه «المباحث المشرقية» مختلف المذاهب في هذا الشأن مع براهين كل فئة على مذهبها بحيث تتجلى صعوبة كلا الموقفين وحرجهما • وورث العلم والفلسفة هذه المشكلة في العصور الحديثة وتوزّعها الباحثون على اختلاف مذاهبهم فلاسفةً وفيزيائيين وكيميائيين • ولا يمكن في هذا العرض السريع جلاء تلك المذاهب • ولكن لا بد من الالماع ببعضها ثم تحقيق ما أفضى اليه العلم في هذا الشأن • يذكر الفيلسوف الانكليزي برتراندرسل في كتابه portraits from memory and other essays الذي ترجمه أحمد ابراهيم الشريف بعنوان «العقل والمادة» وراجعه الدكتور زكي نجيب محمود مثلا عجيباً على الاستغراق في الفلسفة وهو لقاؤه للفيلسوف اليوغسلافي برانسلاف بترونييفك سنة ١٩١٧ وانهماك هذا الفيلسوف في مشكلة الجزء والذرة منصرفاً عن الأحداث الخطيرة الجارية • يقول رسل: «وكان الصرب في ذلك الوقت قد نجحوا في الانسحاب الكلي الرائع أمام الغزاة الألمان وكنت متشوقاً لأن أعرف القصة منه لأنه شاهد عيان، ولكنه لم يرد الا أن يبسط رأيه في أن عدد النقط في المكان محدود وأنه يمكن تقديره حسب اعتبارات مستمدة من نظريات العدد • فكان هذا الاختلاف في الاهتمام من جانب كل منا مدعاة لحديث على شيء من العجب والغرابة • قلت: «أكنت في الانسحاب العظيم؟» فأجاب: نعم! ولكن ألا ترى أن طريقة حساب عدد النقط في المكان هي •••» فأقول: «أكنت ماشياً على قدميك؟» فيقول: «نعم، ان عددها لا بد أن يكون أولياً» فأقول: «ألم تحاول أن تحصل على حصان؟» فيقول: «بدأت على ظهر حصان ولكني سقطت من على ظهره، ولا يمكن أن يصعب علينا أن نعرف أيّ عدد أولي هو •» وعلى الرغم من كل محاولاتي لم أستطع أن أحصل منه على أكثر من هذا القدر عن موضوع تافه (!) كالحرب العالمية، وأحسست بالاعجاب بقدرته على التنائي بعقله عن حوادث وجوده الجسمي» •

أما في العلم الحديث فقد كان الاتصال أول الأمر من صفات الفيزياء الاتباعية التي سادت في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين • فالمكان متصل والزمان مستقل عنه وهو متصل أيضاً • ولكن العلماء بالتدريج

ولا سيما في الكيمياء اضطروا الى التخلي عن فكرة الاتصال في مجالات تجاربهم وتأملاتهم • غدوا يتصورون المادة تتألف من ذرات ولكن تصوّرهم كان مبهماً اضطروا اليه اضطراراً بسبب القوانين الكمية لاتحاد العناصر البسيطة بعضها ببعض كقانون النسب المحدودة لبروست وقانون النسب المضاعفة لدالتون وبسبب اعتبارات العالم الايطالي أفوغادرو لحجوم متساوية من الغازات تحتوي على عدد متساوٍ من الجزيئات وبالتالي من الذرات دون أن يستطيعوا بشكل من الأشكال أن يروا الذرة أو الجزيء ولو بأقوى المجاهر • حتى انهم حسبوا بطريق غير مباشرة عدد الجزيئات الحقيقية فيما دعوه بالجزيء الغرامي (سمي هذا العدد عدد أفوغادرو وهو يساوي ٦,٠٢٣×١٠^٢٣) • وحسبوا أن الذرة لا تنقسم ثم راعهم أن الذرة التي يدعونها في لغاتهم بالآتوم أي ما لا يتجزأ قد تجزأت ، وأن بناءها يشتمل على كهارب تدور حول نوى تتألف من أوّيلات وأوّيات (بروتونات ونترونات) وكذلك على أجزاء أخرى دقيقة اعتبروها جميعاً نهاية المادة • وكذلك الأمر في الضوء فبعد اعتباره مَوجيّاً متصلا نظر اليه على أنه يتألف من جسيمات دقيقة هي ما دعوه بالفوتون • ورأوا أيضاً أن الطاقة عند تبادل المادة والاشعاع لها انما يحصل التبادل بصورة منفصلة • ولكن العلماء أنفسهم في الوقت نفسه كانوا مضطرين الى الحفاظ على فكرة الاتصال لأنهم قرنوا بالأجزاء الدقيقة أمواجاً ذات مقادير رياضية والموج يفيد الاتصال • وكذلك رأوا أن تلك الأجزاء الدقيقة يؤثر بعضها في بعض تأثيراً متصلا ضمن مساحات في المكان تجاذبية وكهرطيسية وما الى ذلك • فالاتصال والانفصال بَدَوا جانبين متقابلين لحقيقة واحدة • فدعا العلماء هذا الاقتران المتقابل بالتتامية • وليست هذه التتامية الا شكلا نظرياً للحيرة التي يحيط العالم بها بدلا من أن تحيط به •

مثل هذه الحيرة أو التتامية • نجدها عند بهاء الدين العاملي • لقد كانت فكرة المتصل والمنفصل تشغل تفكيره اذ يتبدّى أحد الجانبين فيها تلو الآخر • فهو يعقد فقرة في كتاب « الكشكول » يبرهن فيها على ابطال الجزء فيقول : « مما سنح بخاطر جامع الكتاب تفرض دائرة مركبة من الأجزاء وتخرج فيها خطين مارين من المركز بين طرفيهما جزء واحد من محيط الدائرة فهما متقاطعان على

المركز فالانفراج الذي بينهما قبل التقاطع اما أن يكون بقدر الجزء أو أكثر أو أقل والكل باطل لاستلزام الأول كون المتقاطعين متوازيين والثاني كون المتقاربين في جهة متباعدين فيها والثالث الانقسام» • (طبعة ١٩٦١ ج ٢ ص ٦٠). ولكنه في الكتاب نفسه يذكر لنفسه برهاناً على امتناع اللاتناهي فقد ورد في اثبات الجزء قوله : «ليس لمثبتي الجزء حجة أقوى من حكاية وضع الكرة على السطح المستوي اذ لو انقسم موضع الملاقاة لوصل من طرفيه الى مركزها ليحدث مثلث متساوي الساقين ويخرج من ملاقاة القاعدة عمود الى المركز • فالخطوط الثلاثة الخارجة من المركز الى المحيط متساوية لأنها كذلك ويلزم أن يكون أطوال الساقين أكبر من العمود لأنهما وترا القائمتين وهو وتر الحادتين» (ج ٢ ص ١٤٥ ـ ١٤٦) •

وفي الكتاب نفسه أيضاً برهان آخر على امتناع اللاتناهي يسهل الرجوع اليه (ج ٢ ص ٥١) ويذكر المؤلف برهاناً ينسبه الى السيد السمرقندي على امتناعه (ج ٢ ص ١٩٧ ـ ١٩٨) ويناقشه • وهذا يدل فيما يدل على أن العاملي كان مُدمن الفكر في قضية اثبات الجزء أو نفيه • تارة يثبته وتارة ينفيه • فهو في هذه الحيرة العلمية يبدو في صف العلماء الحديثين اذ كان هؤلاء العلماء يلحون على التنافر بين هذين الوصفين المقترنين عند دراستهم للظواهر الميكروفيزيائية : يلوح فيهما الاتصال فيخفى الانفصال أو يلوح الانفصال فيخفى الاتصال ، فكأنهما وجهان لعُملةٍ واحدة لا نراهما معاً • وان قصارانا أن نرى الوجه الواحد تلو الآخر •

وليس معنى كلامنا أننا نقبل براهين بهاء الدين العاملي في هذا الشأن ، هيهات ! ذلك أن أساليب البحث والبرهان العلميين قد تبدلت تماماً حين تجاوز العلماء مقاييس الظواهر الفيزيائية في السلّم الانساني وبلغوا فيما دعوه بالميكروفيزياء شفا المادة والطاقة أي نهاية أطرافهما • ومع ذلك فهم يتساءلون هل الكهرب أي الالكترون وحبة النور أي الفوتون قابلتان للانقسام أولا ؟ وهم يستشفون الجواب من أشكال المعادلات الرياضية التي تفيد صيغها كلاً منهما •

المهم هو أن نسجل قلق عالم كبير مثل بهاء الدين العاملي تجاه هذه القضية • وهو يشبه قلق العلماء المعاصرين وان كنا نرى أدلته وأدلة أمثاله قديماً من

العلماء في غاية السذاجة • ولكنه يبدو أحصف موقفاً وأعمق فكراً وأنفذ ذكاءً حين يتردد بين الجانبين كأن كلاً من الجانبين يتمم الجانب الآخر على حد اصطلاح فلاسفة العلوم المعاصرين • بل ان هذا القلق الفلسفي حول الاتصال والانفصال، حول الانقسام اللامتناهي أو الانقسام المتناهي جعل العاملي يُدخِل هذه المشكلة في بعض ألغازه التي كتبها تنشيطاً للتفكير •

وصفوة القول أن بهاء الدين العاملي فقيه صوفي نحوي لغوي أديب راوية شاعر مهندس رياضي فلكي • وكأنما عناه القائل :

ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم في واحد

نعم لقد قل أن تجتمع هذه الصفات العلمية والأدبية عند الغربيين ، وان كنا نجدها أحياناً مجتمعةً ومؤتلفةً عند أعلام بارزين في الحضارة العربية الاسلامية بفضل الاسلام وحثّه على طلب العلم والمعرفة والحكمة • من هؤلاء الأعلام من نحن في صدد تكريم ذكراه • بل فوق ذلك كله نجده يمثل في شخصه التعاون العميق بين العرب والايرانيين في تجسيد القيم الرفيعة وفي ظل سلام العلم والمحبة •

ان التأمل في مزايا هذا العلَم الحميدة وخصاله الفريدة يجعلها تسري في خفاءٍ وبتعاطف عميق الى المتأمل • ولما كان شاعراً جعلني أتغنى بهذه الأبيات التي تلخص حياته وتحيّي ذكراه :

شدا كل العلوم وفاق فيها ... فيا لفتى العلوم العبقريّ
وبالعربيّ نَمَّقَ كلَّ نثرٍ ... وشعرٍ رائقٍ والفارسيّ
لسانـاه تعانقتا ائتلافاً ... تقول عناق أمّ للصبيّ
له الكشكول والمخلاة سارا ... مسير النور في الأُفق القصيّ
هما كنزان من علمٍ ووعظٍ ... وهندسةٍ ومن أدبٍ وضيّ
يزينان التراث على غناه ... كما ازدان الغواني بالحليّ
وما الأسماء ان حققّتَ الا ... ثمار تواضع القلب التقيّ
فيا لك عالماً وأديب عصرٍ ... وصوفياً وذا خلق رضيّ
تناهى الفضل والعرفان فيه ... وحبُّ الآلِ مَع حبّ النبيّ
وتلك حضارةٌ فاقت سموّاً ... حضارةَ عالَمٍ باغٍ غويّ

حضارةَ عالمٍ لا خُلْقَ فيها ... سعى فيها الشقيُّ مع الشقيّ
ليسترقا منازلنا ونُقصى ... عن الأقصى وعن حقٍّ جليّ
اذا صار الشقيّ رئيس قوم ... تَنَمَّرَ مُمعِناً في كل غيّ
قوى قد غطرست وطغَت عُتُوّاً ... وتاهت في الضلال العُنجهيّ
كأن الدهر بعد هداه أمسى ... هواه مع الأخسّ مع الدنيّ
لحاها الله من دنيا تمادت ... على ساح الوجود اليعربيّ

★ ★ ★

سنمشي للعلا قُدُماً ونَبني ... صروح المَجد والعيش الهنيّ
وما أحلى التعاونَ في شعوب ... أواصرُها من الدين السَّنِيّ
وليس يتمُّ الا بالتصافي ... وضمّ الصفّ والشَّمَم الأبيّ
أخاك أخاك ان أخاك حقاً ... لدى البأساء كالركن القويّ
اذا أوطانُنا ضُمَّت عُراها ... زهَت بالغار والزهر الجنيّ
ترى الرايات تخفق في رباها ... وتعلو في الغدوّ وفي العشيّ
يُشعُّ النور حلواً من حماها ... أليس النور غاية كل حيّ
وتُزكي كل مكرمة ثراها ... فأكرم بالثرى العطر الزكيّ
أمانٍ للقلوب ترفُّ فيها ... رفيفَ النجم في الليل العَتِيّ
لعمري أفضل الأعمال علم ... يقرّبنا من المولى العليّ
وما شخص الفتى الا خيال ... ويَبقى نور قلبٍ لوذعيّ

★ ★ ★

أتيتُ مُنوِّهاً بسنا بهائي ... نَظَرتُ اليه من طَرفٍ خَفيّ
ولا يسطيع أن يُوفي سناه ... سوى من كان مثل العامليّ
لعلّ الله يكلؤنا ويُضفي ... سلاماً عادلاً في كلّ حيّ
سلام الله والآيات تُهدى ... الى مجد النبوّة والوليّ
الهي أنت تعلم ضعف حالي ... فكن لي مسعداً في كل شيّ
وما عبد الكريم سوى فقيرٍ ... زكا برعاية الله الغنيّ
حبيبي كلُّ محبوبٍ لديهِ ... وعزّي بانتسابي للوصيّ

عبدالكريم اليافي

أساليب القرآن الكريم في معالجة النفس الإنسانية

- ٣ -

د. محمد فتحي الدريني

منهج البحث موجهاً ومفصلاً

أ ـ مقدمـــة

ب ـ الفرق الحاسم بين « الرجاء والأماني » في المفهوم القرآني ، مصدراً ، ومفهوماً ، وحكماً •

جـ ـ المعنى العقائدي، في الاسلام ، لاينفصل عن العمل الدنيوي ، وصلا للدين بالدنيا •

د ـ تحذير القرآن الكريم المؤمنين ، أن يميلوا عن سنن الله تعالى الثابتة المطردة ، والنافذة آثارها ـ منذ القدم ـ في الأولين ، بسبب من الغفلة ، أو عامل الاستهواء، والاغراء ، من قبل من يتبعون الشهوات في كل عصر ، أو بدواعي الرغبة في التحلل من تبعات رسالة التكليف ، ارسالا للنفس على عواهنها ، أو التلهي بالأماني الكواذب ، والتعلل بالأوهام ، على ماسيأتي تفصيله ، وبيان وجه الاستدلال عليه•

هـ ـ القرآن العظيم ، وتقويته لمعنوية النفس الانسانية ، وتعبئتها روحياً في مواطن الجهاد القتالي ، تنفيذاً لمقتضيات سُننه العامة المطَّردة في هذا الوجود ، وتجنيباً للانسان من اعتسافها •

و ـ القرآن العظيم ، اذ يزجي في النفس الانسانية المؤمنة ، روح البشرى والترجية ، يقرن ذلك بالتوعية ، والتبصير ، بحقائق الوجود ، وسنن الله تعالى التي بثّها في الحياة والأحياء ، ويقفها على منطق طبائع الأشياء ، من خلال ما جاء به من « بصائر » لتكون على بيِّنة من أمرها ، في كل ما تأتي به ، وما تذَر ، وما تتخذ من « مواقف » حاسمة ، في تقرير المصير•

ز ـ يقف القرآن العظيم ، النفس الانسانيةعلى مسارالتاريخ الانساني الطويل،بل والموغل في القدم ، يستحضره ، من خلال التجارب الحيوية الوافية التي مرت بها وعانتها الأمم الخالية ، لتستهدي بالعوامل المؤثرة في توجيهها ،ثمرة لآثار وسنن الله المتحكمة فيها .

ح ـ يرسم القرآن العظيم ، المنهج الأقوم الذي ينبغي أن تسلكه الانسانية جمعاء ، في مسارها الطويل ، لو ثابت الى رشدها ،واستهدفت المصلحة الانسانية العليا ،للبشرية كلها ـ وقد أعدها الله تعالى اعداداً خاصاً لذلك ، لتمكنها من التنفيذ ، والاداء ، مرشداً الى موضوعية قيَمه ، وانسانية مُثُله ، وعالمية مبادئه ، وشمولية مفاهيمه ، ومقدراً تغيُّر ظروفها ، بقوله تعالى : «ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » لكنه يحذّر ـ في الوقت نفسه ـ من غرور الأوهام ، وخَدَر الأماني ، ليبصِّر بما جاء به من بصائر وبيِّنات من الهدى والفرقان ، ويوقظ الوعي للذات ، ويهدي الى السنن العامة التي تقوم عليها حقائق هذا الوجود ، منذ نشأة الخلق الأول .

ط ـ شرع القرآن العظيم ، الوسائل العملية التي تعتبر من أصل تعاليمه ، في توهين القوى المعنوية للعدو ، ومنها ، وجوب المبادأة بمهاجمته اذا تعينت خير وسيلة للدفاع ، وتتبُّعه في كافة مواقعه التي لاذ بها ، أو اعتصم ، لمواصلة مقاتلته ، وتحريم التواني عن اللحاق به ،حيثما ثُقف ، أو استشعار الوهن في مجابهته ، وهو أصل عتيد مقرّر في هذا الكتاب العزيز ،بصريح النص .

ي ـ نهي المقاتلين عن التواني عن المبادأة بالهجوم ، اذا تعينت خير وسيلة للدفاع ، يشمل ـ لزوماً عقلياً ـ نهيهم عن أن يتيحوا لأسباب الوهن التي يبثها العدو من خلال وسائل اعلامه ، أن تتسرب الى نفوسهم،أوأن يُخدعوا بها عن أمرهم،ليُرد على العدو قصده من التخذيل ، والتثبيط، والتوهين ، ومحاولة تحطيم البُنى المعنوية للمجاهدين .

ك ـ معالجة القرآن للنفس الانسانية ، بالقيم الروحية ، ذات أثر بالغ في امكانية تحقيق الصلاح الذاتي ، توصلا الى مهمته الكبرى من الاصلاح العالمي ، وتفسير ذلك .

ل ـ الأصل أن الانسان الفرد ، لا يمكن أن يساهم في تحقيق حضارة انسانية اذا كان هو نفسه ، غير متحضر انسانياً ، وسبيل ذلك هو اعتبار القيم العليا الخالدة ، في المقام الأول .

م ـ أقام الاسلام الدليل البيّن على صدق تلك « الحقيقة» من « فطرية الوحدة الانسانية تمهيداً لتحقيق مهمته من الاصلاح العالمي فغدت تلك « الحقيقة » ـ في منطقة القرآني ـ « معتقداً » بصريح النص القاطع ، فضلا عن انها مما يكبُر على العقلاء ، والعلماء ، والمفكرين ،جحده، وانكاره .

ن ـ تأصيلا للمعنى الانساني العام في المجتمع البشري ، اعتبر الاسلام التمييز بالعنصر ، أو اللون ، أو اللغة ، نقضاً لانسانية الحضارة ، فضلا عن أن هذا التمييز ، يشكل افتئاتاً صارخاً على مكونات الفطرة ، ومقوماتها ، وخصائصها ، التي برأ الله الناس عليها ، مما يحول بالآخرة دون امكان تحقيق منهجه العام في الاصلاح العالمي ٠

ص ـ تكوين الانسان معتقداً ، على أساس من القيم الروحية الموضوعية المطلقة ، ذو أثر بالغ في مدى تشكيل أبعاد تصوره للحياة والأحياء ، وأن عناصر هذا « المعتقد » ومفاهيمه الكبرى ـ بما هي المنطلقات الأساسية للنشاط الحيوي في كافة أنواعه ، ومناحيه ، توجيهاً ، وتحديد مسار ، ولا سيما على الصعيد الدولي ـ من أهم العوامل المؤثرة في امكانية تحقيق مبدأ الاصلاح العالمي الذي نادى به الاسلام منذ نزوله على الأرض وحياً ، وتفسيرذلك٠

ع ـ القيم الروحية ضرورة حيوية لتحقيق مقتضيات الاصلاح العالمي ، بدليل أن كثيراً من ساسة الاستعمار في العالم ، وفي عصرنا هذا ، بوجه خاص ، لا يعوزهم «الضمير» ولكنه معطَّل الأحكام ، لغلبة الهوى والأثرة ، فضلا عن أن هذا « الضمير » يتأثر حتماً بعوامل شتى ، من البيئة ، والنشأة الأولى ، والتقاليد ، والعادات السائدة ، والأفكار الضالة المنبثقة عن نظريات سياسية أو اجتماعية فاسدة ، مما يفسد عليه تصوره ، أو يعتقل أحكامه ٠

* * *

أساليب القرآن الكريم في مُعالجَة النفس الإنسانيّة

مقدمـــة :

انتهينا في البحث الآنف ، الى تقريـر « **حقيقة يقينية** » قد أصَّلها القرآن الكريم، مؤداها : أن « الانسان » بمعناه الاستغراقي العـام ـ أفراداً وشعوباً وأمماً ، وفي ضوء الحكمة القرآنية ـ قد خُلق للأمل ،والعمل :أشرفه ، وأحسنه ، وأجوده ، **تعبيراًحياًواقعياً**، عن أمهات الفضائل التي صدَّق بها ابتداءً عقلا وقلباً ـ مصداقاً **لقوله** ـ عز وجل ـ : « فأما من أعطى ، واتقى ، وصدَّق بالحسنى »اذ لا يُجزِىءِ التصديق بها ، دون تحقيـق معانيها ، وتنفيذ مضمونها ـ تعاملاوسلوكاًـ بل ترى القرآن الكريم ، يقدّم « **العطاء** »في الذكر ، على التصديق ببواعثه ، في منطوقالآيـة الكريمـة التـي تلونا ، في حـين أن « التصديق » أو « الاعتقاد » سابق فيالوجودعلى العمل ، ذلك ما تقضي به طبائعالأشياء، والسُنن المطَّردة في الحياة ، وانما قدّم القرآن ما من شأنه التأخير ـ لكونه أثراً ، أو مسبَّباً **للاعتقاد ـ اهتماماً بشأن العمـل والعطاء** ، وحثاً للناس على الاستجابةلمقتضى ايمانهم ، اذ كثيراً ما يقع « **التناقض** » بينهمالدى كثير منهم ـ تهاوناً أو انحرافاً ـ وبهذا، جَعل القرآن أمرَ التصديق بالحسنى ـوهوالايمان الحق ، وما يقتضيه من الفضائل ـ جعل ذلك **اعتقاداً سلوكياً ، لا اعتقاداً** ذهنياًأو وجدانياً **مجرداً ، حتى يكـون للاعتقـاد ما صدق** عملي" في مواقع الوجود ، وليكون« السلوك اعتقادياً » أيضاً ، بمعنى أن لاقيمة لسلوك مهما كان حسناً ، اذا لم يكن نابعاًأصلامن عقيدة صحيحة، حتى اذا كان السلوك اعتقادياً ، كان ذا قيمة انسانية بالضرورة ،وهذا ـ في نظر العقل والشرع ـ هو الشأن في كل حيٍّ سوِيٍ ، **الأمر** الذي يؤكدماتبدّىلك آنفاً ، من أن حقيقة الرجاء القرآني ـفي ضوء ما قررنا مـن السلـوك الاعتقـادي ، والاعتقاد السلوكي ـ لا مكان فيها « **للأماني الكواذب** » عريّة **عن العطاء المطلق ،مقروناًبصدق الاعتقاد** ، لصريح ما تلونا ، وبذلك يميز القرآن العظيـم ـ كما ترى ـ **تمييزاًحاسماً ، بين كل من** « **الرجـاء والأماني** » **مصدراً ، ومفهوماً وحكماً** ، وهو ما نتناوله بالبحث والتفصيل فيما يلي .

الفرق الحاسم بين كل من الرجاء والأماني ، في المفهوم القرآني، مصدراً ، ومفهوماً ، وحكماً .

أ ـ **أما مصدراً** ، فلأن الرجاء في الله عزوجل ، وحسن الظن بـه ، **نابع من معين العقيدة نفسها ، معقوداً بالعمل ، أساساً له،أو شرطاً** فيه ، بصريح منطوق النص ـ كما أشرنا ـ فكان «الرجاء» لذلك ، **أمراً عقائدياً**، فضلا عن كونه **عملاً ايجابياً** بنَّاء منتجاً ، في آن معاً .

أما آية كونه **عقائدياً** في المقام الأول ،فذلك لأنه **أمرٌ تستلزمه طبيعة الاعتقادنفسه،** والايمان بوجوده سبحانه ، استلزاماً حتمياً ،اذ ليس من المتصوّر عقـلاً ، أن يكون ثمـة اعتقادٌ ، أو ايمان صادق بالله عز وجل ،دون رجاء فيه ، أو حسن ظن به ، أو أمل مستبشر في عونه ، ونصره ، وغفرانه ! والاكان « **الاستغناء** » عن الله تعالى ـ والعيـاذ بالله ـ وهو سبب شقوة الحياة ، كما بيَّنا ،**ولأن « الاستغناء » لايجتمع مع صدق الاعتقاد، للتنافي .**

يدل على هـذا ، أن القرآن الكريم جعل التضرع اليه سبحانه ـ ولا سيما ابان الأزمات والضوائق والمحن ـ آية صدق العبودية له ، مصداقاً لقوله عـز وجل : « **فأخذناهم بالبأسـاء والضراء لعلهـم يتضرعون !** » وقوله سبحانه ـ في وقعة بدر الكبرى ، حين ادلهم الخطبُ ، وعظُمت الكوارث ، واشتد القتـال ، وحمي الوطيس ـ يصف حـال المؤمنين في موقفهم الحاسم : « اذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم » فكانت « الاستجابة » وهي النصر ـ عقب الاستغاثة ، لأنها دليل حقيقة العبودية لله جل شأنه ، بل ترى القرآن الكريم ، ينعى على الذين لا يتضرعون اليه ،وقت الشدة ، ولا يلجأون الى ربهم ليكشف ما حل بهم من أرزاء ، في مثل قوله تعالى : « فما استكانوا لربهم ، وما يتضرعون ! » ولا ريب ، أن الاستكانة لله سبحانه ،واللجوء اليه ، تضرعاً ، مظهر **للعبودية الصادقة** ، ولا مرية أن العبودية من صميم الاعتقاد بوجود المعبود ، وحسن الظن به ، وذلك دليل كون الرجاء ـ والتضرع أبلغ من الرجاء معنىً ـ اعتقادياً في المقام الأول .

هذا ، وفي الحديث القدسي فيما يرويه الرسول ﷺ عن رب العالمين : « **أنا عند حسن ظن عبدي بي** » فكان الرجاء ـ وحسن الظن بالله أساسه ـ دليل صدق الايمان ، ومظهر الثقة العظمى به جل وعلا ، فكان ـ كما بينا ـ نابعاً من العقيدة ، وأمارة على صدقهـا ، ورسوخها ، ثم هو ـ آخر الأمر ـ « **مناط الابتلاء فيه ، لما تلونا** ، بخلاف « **الأماني** » في المفهوم القرآني ، وبيان ذلك :

أن مصدر « **الأماني** » ـ كما علمت ـ غرور الشيطـان ، وايحاءات الاستهـواء ، لصريح منطوق النص القرآني : « يعدُهم ،ويمنِّيهم ، وما يعدهم الشيطان الا غرورا » فيورث ذلك في « الانسان » **اغتراراً** بوعده، بعامل « الاستهواء » .

هذا ، وقد يكون « الاستهواء » بعامل الغريزة العمياء ، وايحاء منها ، وتزيين ، وأياً ماكان ، فالاغترار ، والاستهواء النفسي، هما مصدر الأماني الكواذب ، مما لا يمتالى

« الرجاء» الايجابي في مفهومه القرآني بصلة، لأن منبعه « العقيدة » الصحيحة ، والوعي النفسي بحقائق الوجود ، ولذا كان « الاغترار » بجميع مظاهره ، محرّماً قطعاً ، لأنه سبب « الغفلة » عن تلك الحقائق ، ويعمه الغافل في ميدان الحياة العملي ، لأمرين :

أولهما : أنه ضرب من الاتّباع لخطوات الشيطان ـ استهواء واغراء ـ وهومحرّم بالنص ، لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا، لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان ، فانه يأمر بالفحشاء ، والمنكر »(٢) ولقوله عز وجل : « يعِدُهم ويمنّيهم ، **وما يعدهم الشيطان الا غرورا**(٣)» **ولقوله** ﷺ : « الكيّس من دان نفسه ، وعمِل لما بعدالموت، **والفاجر من أتبَعَ نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني** » ·

ثانيهما : ان مواطن الاغترار بالأماني الجوفاء ، أو **مظانّه** ـ كما يقول الامام الشاطبي(٤) ـ قد جاء فيها « **التخويف** » في القرآن الكريم على نحو «أغلب وأشد » وعلّل ذلك بأن **درء المفاسد** آكد(٥)، فكانت «**الأماني**» اذن ـ وكما ترى ـ **من المفاسد الواجب درؤها قطعاً**، وذلك آية « **الحرمة** » التي تفسر لنا **شدة التخويف القرآني من الوقوع فيها** ، بما هي **أوهام ، أو رؤى حالمة** ، أو غفلة عن الواقع الحي للمجتمع الانساني ، وعن سنن الله فيه !

وعلى هذا ، يتبين لك الفرق حاسماً بين **مفسدة الأماني** ، **وبين عقائدية الرجاء والأمل** في الله تعالى ، **مصدراً** ، على ما يقرره القرآن الكريم ، كما رأيت ·

ب ـ وأما من حيث « **المفهوم** » **والحقيقة**، فالرجاء ـ بما ورد في القرآن الكريم **معقوداً بالعمل الصالح** ، **ارتباط الشرط بالجزاء** ـ كما قدمنا ـ يتضمن معنى «**ايجابياً**» قوامه **الأمل** المستبشر معقوداً بالعمل الجاد الصالح : الأمل في الله تعالى ـ فرعاً عن الايمان الصادق ـ والاستبشار بوعده ، عز وجل ، والاستيقان بانجاز ما وعد ، والوفاء به ، مصداقاً لقوله سبحانه : « ومن أوفى بعهده من الله !! فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به(٦)»

على أن هذا المفهوم القرآني للرجاء ، ليس استبشاراً خالصاً، بل هو مشوب بالخشية من الله وقاراً ، لايمان المسلم **بحتمية لقاء ربه يوم الحساب ! !**

يرشدك الى هذا ، صريح قوله عزوجل: « **والذين يؤتون ما آتوا ، وقلوبهم وجِلة ، أنهم الى ربهم راجعون** »(٧) · وقوله تعالى في تضمينه « الرجاء » معنى الخشية « **ما لكم لا ترجون لله وقارا**(٨) » فلم يخلص الرجاء ـ كما ترى ـ لمعنى الاستبشار ! !

هذا ، ويستقر معنى الخشية في مفهوم « الرجاء » في القرآن الكريم **بتأكيد حلول أجل هذا اللقاء ، حتماً** ، في مثل قوله تعالى: « فمن كان **يرجو لقاء الله** ، فان أجل الله لآت »(٩) · على سبيل التأكيد ، من دخول اللام على خبر أداة التأكيد ·

على أن هذا هو شان الايمان نفسه ، من أنه دائر بين الأمل والخشية ، على ماقرره القرآن الكريم ، وبيان ذلك :

حقيقة الايمان نفسه دائرة بين الخوف والرجاء .

يقرر الامام الشاطبي(١٠) هذه الحقيقة بقوله : « **ومن هنا يتصور للعباد ، أن يكونوا دائرين بين الخوف والرجاء ، لأن حقيقة الايمان دائرة بينهما » .**

والأدلة قد وردت في هذا الخصوص ، من قوله تعالى : « ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون(١١) » وقوله عز وجل « ان الذين آمنوا ، والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله، أولئك **يرجون رحمة الله** »(١٢) وقوله جل ثناؤه : « أولئك الذين يدعون ، يبتغون الى ربهم الوسيلة ، أيُّهم أقرب ، **ويرجون رحمته، ويخافون عذابه** »(١٣)

ج ـ وأما من حيث « الحكم » أو الوصف الشرعي ، فان الرجاء الايجابي العامل ـ سواء أكان مسبوقاً بأداء أمانة التكليف ، وانفاذ تعاليم الرسالة ، وتحقيق مثُلها العليا ، في الواقع الحيوي المعيش ، أم كان مقارناً لذلك ، أم لاحقاً له ، وبما هو فرع عن العقيدة الصحيحة ، وأمارة على صدقها ، كما بينّا ، فان هذا الرجاء الايجابي العامل ، مفروض و « مستجاب » من قبل الله تعالى ، بمقتضى وعده ، **ولكونه جارياً على سَنَن ثابت هو من وضع الله تكويناً ، ولكونه ـ آخر الأمر ـ من اللوازم الحتمية للايمان نفسه ، كما بينّا ، اذ لا يتصور خلو النفس الانسانية المؤمنة ، من الأمل المرجوّ في الله تعالى ـ مغفرة ، ورحمة ، وعوناً ، وانعاماً ، وتوفيقاً ، ونصراً ـ حتى اذا خلت من هذه البواعث والآمال ، كان مردّ ذلك الى أحد أمرين ، أو كليهما :**

أ ـ ضَعف الثقة به سبحانه ، أو الاستغناء عن الله ـ والعياذ بالله ـ وهذا ليس من صدق الايمان في شيء ، بل هو مما يناكره !

ب ـ لمكان اليأس والقنوط ، أو مظنته (١٤) والخوف من عدم الغفران ، للاسراف في الشر والاثم ، **وهذا قرين الكفر** ، كما أسلفنا ، بصريح قوله عز وجل : « **انه لا ييأس من رَوح الله ، الا القوم الكافرون** » .

أما مجرد « الأماني » باطّراح التكليف ، والتحلل من أعباء الرسالة ، كفراً بها ، وتكذيباً لها ، أو تهاوناً في أمرها ، أو تلهياً واغتراراً بأحلام المنى ـ فتلك ـ على النقيض من الرجاء العقائدي الايجابي ـ **تشكل موقفاً سلبياً تُجاه حقائق الوجود ، ومنافاة بيّنة للوضع الصحيح للحياة الانسانية التي وضعها الاسلام فيه ، تساوقاً مع فطرتها ، فكانت غفلة عن سنن الله الثابتة النافذة ، أو اعتسافاً لها ، وملهاة صارفة عن مقتضياتها، ومضيعة للحياة، وسبباً في خسارة الآخرة**، كما قدمنا، ومن هنا كانت هذه «الأماني» **محرمة قطعاً،** للأدلة التي أشرنا .

وتأسيساً على هذا ، فان ايمان المرء وحده ـ في شرعة الاسلام ـ لا يُعفيه من **المسئولية** عن نفسه ، وعن غيره من الأفراد والمجتمع أيضاً ، التزاماً بأداء التكاليف ، وتحقيقاً للتكافل الانساني الملزم ، ولا يعصمه بالتالي من توقيع الجزاء الوفاق على ما فرّط

في جنب الله ، وتنكّب سننه الثابتة في وضعها الشرعي العام ـ اخلالا وتعطيلا ـ **اذ لا ينفع نفساً أيمانُها ، دون تعبير عملي واقعي عنه ، ليتم الابتلاء فيه ، وذلك بتحمل أعباء التكاليف وأدائها على الوجه الأكمل ـ وفي حدود السَّعة والاختصاص ـ بجهاد مستمر أبداً ، وكدح دائب لا يفتر ـ ليقترب من مستوى المثُل العليا ، وأمهات الفضائل ـ تكملة للنفس ، وتنمية لها ، وأداء لتكاليفها ، ان لم يكن في وسعه بلوغه ، مهما طال جهاد الانسان العام، وكدحه عبر الأجيال المتعاقبة**، لقوله تعالى : « **يا أيها الانسان ، انك كادح الى ربك كدحاً ، فملاقيه** »(١٥) أي دنيا وأخرى !

يرشد الى هذا ، **أن كدح الانسان ابتغاء وجه ربه الأعلى ، يتطلب زمناً طويلا ، وعملا جاداً ، وعطاء كثيراً ، اذ عبَّر عن هذا المعنى قوله تعالى : « ولسوف يرضى » دون الاكتفاء بسين التسويف** (١٦) .

على أن مفهوم « الابتلاء » في القرآن الكريم ـ بما هو غاية الحياة الانسانية ـ ليس مقصوراً على العقائد ـ وان كانت هي المنطلقات الأساسية للسعي المسؤول ، والا حبط العمل ـ **بل الابتلاء معنى شامل بأبعاده، للعقائد والشرائع العملية أيضاً** ، بصريح النصوص ، فالاسلام **عقيدة** وشريعة **معاً** ، **والتكليف والابتلاء شامل لهما ، والشريعة بوجه خاص ، قوامها تكاليف** تستهدف تشييد الحياة الانسانية على **سنن ثابتة ، ودعائم راسخة ، هي عين سنن الفطرة ، لتبلغ أرفع مستوى من المعاني الانسانية ، والمثل الرفيعة، في كل عصر وبيئة ، عدلا مطلقاً ، واحساناً، ومساواة ، وحرية ، وأخوة ، وعزة وسيادة، ومنعة وصلاحاً ، وتزكية ، وايثاراً واصلاحاً**، وجهاداً بالأنفس والأموال، وتسامحاً ،ورحمة، وحضارة انسانية ، بل وتحريراً للمستضعفين المقهورين في الأرض ، ولو لم يكونوا يدينون بدين الاسلام ، ولا تربطنا بهم رابطة من المواطنة ، أو اللغة ، أو الدم ، أو الدين ، محقاً لأصول الظلم والعدوان والبغي في الأرض ، وليس ثمة من ايجابية ـ في التصور أو الوقوع ـ أقوى أثراً ، وأشمل محتوى من هذه المعاني والمثُل العليا الرائعة حقاً ، فيما نرى ، **فدل ذلك قطعاً على أن الايمان وحده دون أداء التكاليف لا يعفي من المسئولية ، تلك حقيقة من الحقائق المستقرة في شرع الله ودينه !**

على أن هذا **الأصل العظيم** ـ من العمل والأمل ـ لايتنافى ـ كما بيَّنا ـ ومقتضى المغفرة الشاملة ، على الرغم من اطِّراح العمل فترة ، أو اقتراف المعاصي ، اذا تمَّت **الانابة** اليه تعالى كما في قوله عز وجل : «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعاً ، انه هو الغفور الرحيم(١٣) ، **وأنيبوا الى ربكم** .. الآية » لاختلاف الحالين ، وبيان ذلك :

ان هذه الآية الكريمة، مسوقة لمقصد بيِّن، **هو معالجة النفس الانسانية وهي في مقام اليأس ، أو مظنته ، واحتمال وقوعه ، على ما يرشد اليه سبب نزولها الذي يكشف عن المراد منها** (١٤) ، **دون أن يحُد هذا السبب من شمول حكمها ، اذ العبرة بعموم اللفظ**

لا **بخصوص السبب** » حيث ترى القرآن الكريم في هذا المقام ، لا يني يبث في النفس الانسانية **روح التبشير والاطماع والتوجيه** ،حماية ووقاية لها أن تتردى في حمأة القنوط، أو تسترسل فيه بعد الوقوع ، لأن «القنوط»موت معنوي مبيد ـ كما أسلفنا ـ بخلاف « **مقام الاسترسال في الهوى والشهوات**»**اعتماداً**على « **التمني** » على الله تعالى في الغفران ، عجزاً ، وحمقاً ، واغتراراً بالأماني المجردة،دون انابة صادقة اليه عز وجل ، أو توبة نصوح ، أو عقد للعزم على استئناف حياةجديدة ، قوامها « **عمل ايجابي صالح** »يُتقرب به الى الله زلفى ، حيث ترى القرآن الكريم ـ في مثل هذا المقام ـ يؤكد وجوب « **الجزاء**» **على الامعان في اجتراح المعاصي ، والاصرارعلى انتهاك الحرمات ، ايقاظاً للنفس الانسانية من غفلتها ، وتبصيراً لها بمآل أمرها** ، لقوله تعالى : « **ليس بأمانيكم ، ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوءاً يُجز به،ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً**»(١٥)٠

ج ـ المعنى العقائدي في الاسلام ، لا ينفصل عن العمل الدنيوي ، وصلا للدين بالدنيا ٠

وعلى هذا ، **فالمعنى العقائدي** ـكما ترىـ **لا ينفصل عن العمل الدنيوي ، بل هو روحه وملاك أمره ، انفاذاً لرسالة الله في الأرض ،ووصلا للدين بالدنيا ، وتفسيراً للوجود الانساني فيها** ، بل العمل الدنيوي ـ بشتى صوره ومناحيه ـ **هو المظهر العملي الواقعي للمعنى الديني ، وتجسيـد** حي له ، **حالة الأداء والتنفيذ** ، **فلا فصل ، كما ترى ـ بين الدين والدنيا** ، وفي هذا من الدلالة البينة على أن المعاني العقائدية في الاسلام ، **حقائق وجودية ، تنفيذاً ومآلا** ، وليست مجردتجريدات ذهنية ، **أو فلسفية تأملية ، أوترف فكري ، أو مفاهيم ميتافيزيقية** ـ كما يقال ـ**ليس لها** « **ما صدقات** » **في الواقع الحيوي للمجتمع الانساني ! ! اذ لا يجوز شرعاً ، الاجتزاء بالمعنى العقائدي دون العطاء المطلق الذي يعبر عنه تعبيراً واقعياً حسياً وأميناً** ـ كما بينا ـ **فكانت العقائد ـ في الاسلام ـ سلوكية ، والسلوك اعتقادياً ـ كما ترى ـوهـذا سَنَن الهي ثابت ونافذ في الحياة الانسانية ، منذ النشأة الأولى ، لقوله تعالى** :« سنة الله في الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله قدَراً مقدوراً »(٢٠) لينهض بالوضع الصحيح للحياة الانسانية ، وهي ـ على التحقيق ـ سنن الفطرة التي فطر الله الناس عليها ـ كما أسلفنا ـ لا تبديل لها ، ومن هنا يشكل تعطيلها ، أو الاخلال بها ، أوالخروج عليها ، **نقضاً لطبيعة الفطرة نفسها، ولن يحقق عمل للانسان خيراً في حياته ، ولاصلاحاً في أمره ، اذا جاء على النقيض من طبيعة فطرته ! !**

وعلى هذا ، يتبين لك ، أن « **التحريم** »أو «**الايجاب** » **أو الأمر والنهي** في الاسلام ، لم يكن تحكماً ، ولا اعناتاً ، وانما هـوتدبير الهي للحياة الانسانية ، وتوجيهها الى ما تقتضيه طبيعة فطرتها ، وما تستلزمـه« معقولية » سنن هذا الوجود !!

د ـ تحذير القرآن الكريم المؤمنين ، أن يميلوا عن سنن الله تعالى الثابتة المطردة ، والنافذة آثارها ـ منذ القدم ـ في الأولين ،بسببمن الغفلة، أو عامل الاستهواء والاغراء،

من قبل من يتبعون الشهوات في كل عصر ،أو بدواعي الرغبة في التحلل من تبعات رسالة التكليف ، ارسالا للنفس على عواهنها ، أوالتلهي بالأماني ، والتعلل بالأوهام ، على ما سيأتي تفصيله ، وبيان وجه الاستدلال عليه .

هذا ، وأرشدهم ــ سبحانه ــ تطهيراً لهم من رجس الأمم المخالفة السابقة ، وتوبة منه ــ تعالى ــ عليهم ، رداً لاعتبارهم ــ أقول من أجل ذلك كله ، أرشدهم الى وجوب أن يستأنفوا ــ مع الاسلام ــ حياة انسانية جديدة **عاملة آملة** ، وملتزمة هديه الأقوم ،وسالكة سواء السبيل ، لتعبِّر بذلك عن خصائص فطرتها ، ولتتبوأ مركزها الصحيح الذي أعده الله لها ، مستعينة ــ لانجاح سعيها ، وبلوغ غايتها المرسومة لها ــ بما تزخر به مواطن العبر من التجارب الانسانية الواقعية مع هذه السنن ، عبر القرون ، بما هي غنية بالعظات البالغة ، وعناصر الاسترشاد الموجِّهة ، ممايقيم الدليل القاطع ، على صدق تلك السنن التاريخية ، وحتمية آثارها ، بوضع الله تعالى، قصداً منه سبحانه، الى ايقاظ الوعي الانساني، وتبصيره بالحقائق الاجتماعية والكونية الثابتة ، وتغليب جانب « **الحكمة** » والنظر العقلي الرشيد على منازع الهوى والشهوة وعوامل الاستهواء والتغرير ، وإلْف التقليد والمحاكاة العمياء ، تمكيناً لهم من الاستواء على جادة الحق ، وتجنب مواقع الميل والانحراف ، باجتراح المعاصي ، وانتهاك الحرمات ، وممارسة البغي والعدوان على الشعوب الآمنة والمستضعفة في الأرض ،واقتراف صنوف الاجرام الدولي في حقهم ، استلاباً للثروات، وابتغاء الاستعلاء في الأرض والهيمنة الدولية ، ظلماً وعلواً ، مما حذّر القرآن الكريم من انتهاج سبيله ــ سياسياً وعسكرياً ــ في مثل قوله تعالى : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ،ليذيقهم بعض الذين عملوا ، لعلهم يرجعون » (٢١) وقوله تعالى الذي يصف خصائص المعتدين ، والمجرمين دولياً ، بوجه خاص : « واذا تولى سعى في الأرض ، ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد »(٢٢) مما تعثرت ، بل انتكست به الحياة الانسانية في مسارها التاريخي الطويل، فأفضى بها ذلك حتماً الى الخروج عن طبيعة فطرتها ، ووضعها الانساني الرشيد ، حيث كان الهبوط ، والتدني ، والارتكاس ،واستشراء الظلم والفساد في الأرض ،ومعاناة أسباب الشقاء، واضطراب حبل الأمن والسلم العالمي ، مما اتخذ مظهره في الحروب الشرسة الضارية المدمرة التي تمتدُّ بسبب قوي الى العهد البدائية الأولى ، ولكن على نحو أكثر وحشية ، وأظهر بربرية ، بفضل تطوير أدوات الفتك والتدمير ، ولا سيما في هذا القرن العشرين !

يؤكد هذا ، بل ويؤصله ، قوله تعالى :« **يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم، والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات، أن تميلوا ميلا عظيما**»(٢٣)

وتفصيل ذلك ، أن القرآن الكريم اذ يحذّر المؤمنين ، أن يعتسفوا ما وضعه الله تعالى من السنن الفطرية الثابتة ، والمطردة، والنافذة آثارها في الأولين ، منذ النشأة الأولى، لقوله تعالى : « سنة الله في الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا(٢٤) أو يميلوا

عن حقائق القيم الانسانية ، والمثل العليـــا الموضوعية الثابتة المطلقة التي هي من مقتضيات الفطرة الانسانية وسننها ، أو يميلوا ميلا يخرجهم عن طبيعة فطرتهم ، أقول ان القرآن الكريم اذ يفعل ذلك ، يُحضر لهم صوراً من الماضي الانساني العريق في القدم ، ومـــا وليه ، تاريخاً حافلا بالتجارب الانسانية ، يحضره أمام النظر العقلي ، في كل عصر ـ تدليلا منه على صدق ما يبصر به من حقائق ثابتة مطلقة ، بما هي تجارب حيوية واقعية للأمم السابقة ، أثراً لتعاملهم مع تلك السنن ، ووفقاً لطبيعة مواقفهم منها ـ سلباً أو ايجاباً ـ وأرشدهم الى وجوب استخلاص مواطن العبرة منها ، بما هي مادة خصبة للدرس والبحث والاستنتاج والاعتبار ، لقوله تعالى : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألبـاب »(٢٥) وقوله عز وجل : « قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا في الأرض » (٢٦) .

هذا ، وانما عرض ذلك ، **تبيانا لحقائق تلك السنن التاريخية، وتبصيراً بآثارها الحتمية،** كما أشرنا ، **لأنها** تجارب واقعية حقيقية ، لا وهمية : « ما كان حديثاً يُفترى »(٢٣) مما يتضمن توجيهاً قوياً للمؤمنين ، أن يفيئوا الى تلك السنن الثابتة اذا ما انحرفوا عنها ، كيلا يصيبهم ما أصاب السابقين ممن تنكبوها ، لأن قصد الشارع من الالزام بها ، عملا ، تطهير عباده المؤمنين ، روحياً ، ونفسياً ، ومادياً ـ مما التاثت به الأمم المخالفة من رجس حين اتبعوا الشهوات ـ ايثاراً لها على حقائق القيم وأصول الفضائل ـ والارتقاء بهم الى مستوى انسانيتهم ، وتجنيبهم ما قد آل اليه أمر أولئك من سوء المصير في وجودهم الدنيوي، وهو المعني بقوله عز وجل : « والله يريد أن يتوب عليكم » .

هذا ، وتعقُّل حقائق السنن الالهية ، وأبعادها في الوجود الانساني التي أثمرت تلك التجارب الواقعية الغنية بالعبر والعظات، واستخلاص عناصر الاسترشاد منها ، انما يتم عن طريقين :

أولهما : النظر العقلي ، والبحث العلمي الموضوعي الحر ، مما ينهض بالحكمة ، لقوله تعالى : « ويعلمهم الكتاب والحكمة »(٢٨).

الثانية : تحصين النفس الانسانية بالتزكية عن طريق تعاليم الوحي الالهي : «قد أفلح من زكاها »(٢٩) أن تؤخذ بتأثير اغراء أو استهواء الذين يتبعون الشهـوات في كل عصر ، افتتاناً بها ، واستجابة لمنازع الهوى في المطامع المادية القريبة العاجلة والخاصة ، وتحللا من أعباء التكاليف التي لا تتفق وتلك المطامع والأهواء ، ليخرجوا بالحياة الانسانية عن الوضع الصحيح الذي وضعها الاسلام فيه.

هذا ، ويُستخلص من مواقع هــــذا « **التحذير** » الحقائق القرآنية التالية :

أولا ـ وجوب تغليب جانب الحكمة ، والنظر العقلي الرشيد ، كيلا تتحكم في النفس الانسانية ، شهواتها ، وتهيمن عليها أهواؤها، فتسد على العقل منافذ التفكير الموضوعـي الحر ، أو تعطل أحكامه ، فيكون حينئـذ ، « الميل » الحتمي عن سنن الحياة الانسانيـة الفطرية السوية ، وحقائق مُثُلها ، وقيمها الموضوعية الخالدة ، ويفضي الى سوء المصير.

ثانياً ـ واقعية هذه السنن التاريخية التي تنتظم الحياة الانسانية منذ القدم ، وعبر أحقابها المتطاولة ، مما جهد القرآن الكريم في ايقاظ الوعي الانساني بحقائقه وأبعاده، كيلا يستغرقه الاستهواء ، أو تنتابه الغفلة ، أو يستبد به الوهم والاغترار ، أو يتردى الانسان معه ـ آخر الأمر ـ في مهاوي القنوط عجزاً ، وحمقاً .

ثالثاً ـ حتمية آثار تلك السنن الالهية الثابتة بوضع الله تعالى ، تكويناً : « سنة الله في الذين خلوا من قبل ، **وكان أمر الله قدراً مقدوراً** »(٣٠) وقوله تعالى : « سنـة الله في الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنـة الله تبديلا »(٣١) وقوله سبحانه : « **سنّة الله التي خلت في عباده ، وخسر هنالك الكافرون**»(٣٢).

هذا ، وقد كانت تجارب الماضين ـ بما هي ثمرة حسية واقعية لتلك السنن، وفقا لطبيعة مواقفهم منها ـ ايجاباً أو سلباً ـ برهاناً ساطعاً على صدقها ، وحقيّتها وحتمية آثارها ، وهذا يفسر لنا السر في كثرة ورود النصوص الآمرة بوجوب التماس العبرة من تلك التجارب، ترشيداً للسعي الدنيوي على مقتضى من الحكمة ، والنظر العقلي ، والبحث العلمي ، ليخلص الى القياس المنطقي الاجمالي في المحسوسات ، بعد البحث والنظر ، أي « **اعتبروا أنفسكم بهم ، حتى اذا عملتم عملهم، وسلكتم مسالكهم، وسكنتم في مساكنهم، ظلماً وعلوا ، أصابكم ما أصابهم** » وهذا نوع من مجاوزة حال النفس الى حال الغير ، أو العكس ، مقارنة وقياساً ـ كما ترى ـ وهو ما تقضي به **الحكمة والتعقل ، وعمق الادراك ، وصواب التقدير** .

رابعاً : السنة الالهية الثابتة ، والنافذة في الخلق منذ القدم ، **قدر" مقدور** ، بوضع الله تكويناً ، بمقتضى نصوص الآيات التي تلونا ، وهي تقضي بأن **الغفلة عن مآل التحلل من أمانة التكليف ، واطراح رسالة الوجود الانساني ، والافتتان بالشهوة والهوى والتلهي بالأماني الكواذب** ، ميلا عنها ، أقول تقضي بأن الغفلة عن مآل هذا التحلل تؤدي ـ لامحالة ـ الى الخروج بالحياة الانسانية عن وضعها الفطري الصحيح ، والتسبب في انتكاسها ، مما يُعقب المذلة والهوان والشقاء في الدنيا أولا ، جزاء وفاقاً ، فضلا عن خسار الآخرة ، ووقائع التاريخ ، وتجارب الأمم ،أصدق شاهد على ذلك .

هـ ـ القرآن العظيم ، وتقويته لمعنوية النفس الانسانية ، وتعبئتها روحياً في مواطن الجهاد القتالي ، تنفيذاً لمقتضيات سُننه العامة المطردة في هذا الوجود ، وتجنيباً للانسان من اعتسافها .

ليس عسيراً على الباحث في آي القرآن العظيم التي تتعلق بتقوية النفس الانسانية، وتفجير طاقاتها الكامنة ، وايقاظ غوافي ملكاتها وقدراتها ، أن يلحظ ، أن هذه « التقوية، **والتعبئة ، والايقاظ والاستثارة** » تبدو ـ أكثر ما تبدو ـ في مواطن الجهاد القتالي ، ومجابهة أهوال الصراع المر العاتي ، بين الحق والباطل ، ليحملها على « الثبات » في

تحمل مشاقه ، والصبر على لأوائه ، على الصعيد الدولي ، بوجه خاص ، حيث ترى القرآن العظيم ، يبث في خلدها ، أن هـــذا الجهاد المستبسل في مجابهـة العدو ، ودفعاً لعدوانه ، وازالة آثاره ، واسترداداً لما اغتصب من الحق عنوة ، ان هذا الجهاد المستبسل في سبيل ذلك ، هو من « صميم التقوى » المتورعة ، باعتبار أن الجهاد ــ في منطق القرآن الكريم ــ هو التعبير العملي الواقعي عن « **التقوى ، وصدق العبودية** ، لله جل وعلا ، أو بالأحرى ، **هو الأمارة الظاهرة اليقينية على تغلغــل العقيدة في أعماق النفس الانسانية** ، ترى ذلك بيِّناً في مثل قوله تعالى « أحسب الناس أن يُتركوا ، أن يقولوا آمنَّا ، وهم **لا يفتنون**، ولقد فتنَّا الذين مــن قبلهم ، فلَيعلمنَّ الله الذين **صدقوا** ، وليعلمــن **الكاذبيــن**(٣٣) » فالفيصـل الحاسم بين الصـدق والكذب في الاعتقاد ـ كما ترى ـ هو الجهاد، **امضاءً لسنّة الابتلاء ! !**

هذا ، ومما لا ريب فيه ، أنه سبحانه يعلم ما تكنُّ الأنفس ، وما تُخفي الصدور ، وعلى هذا ، فانه سبحانه يعلم ما سيكون من المكلف قبل وقوعه ، ولكن الآية الكريمـة جاءت لتفيد تقرير سنّة الابتلاء **عملاً** ، ليرى المكلف نفسه ، ما يصدر منه واقعاً ، وليقيم الله تعالى الحجة عليه من واقع تصرفه ، قطعاً لحبائل المعاذير : « قل فلله الحجة البالغة » ولقوله عز وجل : « بل الانسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره »(٣٤) وترى هذا **الاقتران** بين **الاعتقاد والجهاد** ، مبثوثاً في مواضع كثيرة مـن القرآن العظيم ، ترسيخاً لهذه السنة الماضية في الأمم ، في مثـل قوله سبحانه : « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، **وجاهدوا** بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، **أولئك هم الصادقون**(٣٥) » وقوله عز شأنه : « **والصابرين في البأساء والضراء ، وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون** »(٣٦) فأمارة الصدق على **الايمان والتقوى** ، هو الصبر علـى احتمال أهوال الحرب ، والتمرس بآفاتها وكوارثها ، لأنها من أشد صنوف البأساء والضراء ، فتكاً وتدميراً . وعلى هذا ، فالقرآن العظيم يوقظ في النفس الانسانية كامل وعيهـا بحقائـق الوجود ، ويبصِّرها بالسُّنن الالهية الماضية في الحياة الانسانية ، ولا سيما فيما يتعلق **بتقرير مصيرها في الدنيا أولا** ، ويلفتهــا الفتاً قوياً ، الى أن الجهاد القتالي ، والثبات في مواطنه ، والصبر على كوارثه ، هــو (الماصدق) للايمان والتقوى ، ولهذا كان الجهاد ذروة سنام الاسلام ، كما جاء في الحديث « وذروة سنامه الجهاد » فلا يجتزىء الاسلام بالايمان وحده في تدبير الحياة الانسانية على وجه هذه الأرض ، كما ترى ، وان كان هو المنطلق الأساسي للسعي المسئول عن اقامتها ، اذ الاسلام لا يعرف الفصل بين المعتقد الديني ، وواقع الحياة الانسانية ، **توجيهاً وتدبيراً** ، مما يدل على **أن عقائده عملية حيوية ايجابية سلوكية** ، بدليل ما قدمنا ، **من ربطه الايمان والتقوى بالتكليف وتبعات الجهاد ، ربطاً محكماً** وعلى أساس أداء التكليف ، والنهوض بعبء الجهاد ، يكون تقويم الاعتقاد ، حقاً أو صدقاً ، أو زيفاً ونفاقاً ، فغدا الاعتقاد الحق ــ كما ترى ــ أمراً سلوكياً عمليـاً ، بل « **مواقف كبرى حيوية حاسمة مجسِّدة لأرقى ما يتصوره العقل من القيم الانسانية ، بالعطاء المطلق ، والايثار المنبعث من النفس الانسانية ، سجية روحية عارمة ، تضمحل ازاءها كافة الاعتبارات**

المادية العارضة ، بحيث تبلغ حد التضحية بذات النفس ، فضلا عن المال ، بل والتلهف على « **الاستشهاد** » في سبيل المثل العليا التي آمنت بها ، بما أطلق القرآن الكريم عليها « **كلمة الله** » وأنها هي « **العليا** » **معنى ،وقيمة ، ووجوداً** ، يستميت في سبيلها المجاهد، ليغيِّر ما قد حاق بالأمة من ظروف قاسية ،وما نزل بساحتها من كوارث ، حفاظاً على عزة كيانها ، وسؤدد وجودها الدولي ! ! ولانعلم للانسان الحر ، بعد هذا ، وجهاً من التضحية والفداء ، أشرف ولا أنبل ، ولاأسمى ، في سبيل الحق الذي آمن به ،والمعتقد الذي أشربته روحه لتحقيق عزة وجوده !!

سنة الجهاد القتالي رسالة ، وثيقة الصلة بسنّة التغيير وسيلة ·

هذا ، **وسنة الجهاد القتالي** في الاسلام ،**رسالة** ، وثيقة الصلة **بسنة التغيير** وسيلة ، لقوله عزّ شأنه : « ان الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم » ومقتضاها : أن تغيير الله تعالى أحوال الناس ، واعانتهم عليه، وتيسير سبله لهم ، انما هو رهن بتغييرهم هم أولا ، لما بأنفسهم ، **سنّة الهية مطردة** ، مما يجعل للارادة الحرة ، والاختيار الانساني ، الدور الأصيل في تحقيق التغيير واقعاً، والقرآن العظيم صريح الدلالة على ما أولى الارادة الانسانية الحرة من قيمة كبرى ، وأثر فعّال، في **التدبير والتصرف** في مصير الأمة ، سياسياً، وعسكرياً ، واقتصادياً ، واجتماعياً ،وعلمياً، لاطلاق النص ، مما ينفي « أصل الجبرية » في عقائد الاسلام نفياً قاطعاً ، تقريراً لمبدأ المسئولية والابتلاء ، عدلا ·

و ـ القرآن العظيم ، اذ يزجي في النفس الانسانية المؤمنة روح البشرى والترجية ، يقرن ذلك بالتوعية والتبصير ، بحقائق الوجود ، وسنن الله تعالى التي بثها في الحياة والأحياء ، ويقفها على منطق طبائع الأشياء، من خلال ما جاء به من « بصائر » لتكون على بيّنة من أمرها ، في كل ما تأتي به وماتذر ، وما تتخذ من « مواقف » حاسمة في تقرير المصير !

وتفصيل ذلك ، أن القرآن العظيم ، اذيبث في المجاهدين روح البشرى والترجية ، **نصراً ، أو استشهاداً ، وظفراً بنعيم الآخرة ـ وهي خير وأبقى** ـ تراه ـ في الوقت نفسه ـ يقرن ذلك ، **بايقاظ « الوعي » في النفس الانسانية ، وتبصيرها ، بحقائق الحياة ، وسنن الوجود ، وآثارها الحتمية ، بجعل الله تعالى** ، فتراه ـ على سبيل المثال ـ يبشر بالنصر المبين ، على أنه « **وعد** » منه تعالى لعباده المؤمنين المجاهدين الصادقين في جهادهم، بل هو « **حق** » قد قطعه الله تعالى ، وأوجبه على ذاته العلية : « **وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** » وبقوله جل ثناؤه « ان تنصروا الله، ينصركم ، **ويثبت أقدامكم** »، فقد جعل النصر المبين على الأعداء ، معقوداً بنصر شرائعه ،ومبادئه ، وسننه في الوجود ، عملا ،والتزاماً واداء ، عقد الشرط بالجزاء ، كيلا يستبد بأنفسهم الوهم ، أو يخالجها خَدَر الأماني ، أو تستغرقها غفلة أو عماية عن مكونات الواقع ، فتسبح في متاهات من الأخيلة والتصورات ، أو تستأثر بها منازع الهوى والأثرة ، اسرافاً في المادة والشهوة وحب

الذات ، فتتحرف عن معدلة الطريق ، وعماتقتضيه حقائق القيم، عمداً ، أو جحداًظاهراً مع استيقان النفس الانسانية بحقيّتها ،وسمو مضمونها ، وبالغ أثرها ، مكابرة ، وافتئاتاً ، لقوله عز وجل : « وجحدوا بها ،واستيقنتها أنفسهم ، **ظلماً وعلواً**(٣٧) » انسياقاً وراء منازع الأهواء ، أياً كانت صورةالهوى التي نزعت اليها ، من **العصبية ، أو العنصرية ، أو الطائفية ، أو حب الهيمنةوالاستعلاء على الشعوب المستضعفة المقهورة في بلادها ، انتهاباً لخيراتها ، وثرواتها** ،تجد هذا بيّناً في مثل قوله عز شأنه : « قد جاءكم **بصائر** من ربكم ، فمن أبصرفلنفسه،ومن عمي فعليها(٣٨) » وقوله تعالى : « هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون(٣٩) » ومن تلك البصائر ما ينتظم الوجود الانساني من سُنن هي عين السُّنن التي انتظمت الأمم الخالية ، **قدَراً مقدوراً** ، من نشأة الخلق الأول ، مصداقاً لقوله عزجل : « سنَّة الله في الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله ، قدَراً مقدوراً(٤٠) وفي هذاالمعنى يقولالامام الشيخ محمد عبده ،مانصه: « يصرح الكتاب أن لله في **الأمم والأكوان** ،سُنناً لا تتبدل ، والسُّنن هي الطرائقالثابتة التي تجري عليها الشئون ، وعلى حسبهاتكونالآثار ، وهي التي تسمى شرائع ونواميس ، .. والذي ينادي به الكتاب ، أن نظام الجمعية البشرية ، وما يحدث فيها ، هو نظام واحد لا يتبدل ولا يتغير ، وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع ، أن ينظر في أصول هذا النظام ، حتى يردّ اليها أعماله ،ويبني عليها سيرته ، وما يأخذ به نفسه ،فان غفَل عن ذلك ، فلا ينتظرنّ الا الشقاء(٤١)»

وعلى هذا ، فلا يملك أحد جحد سُنن الله تعالى في الخلق ، أو انكار آثارها فيهم ، كما لا يملك أحد لها تبديلا : « فهل ينظرون الا سنَّة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا »(٤٢) .

هذا ، وقد تمثلت هذه السنن وآثارها،في **الوقائع التاريخية الثابتة** ، فغيرت مسار التاريخ في عهد الرسالة المحمدية ، وما تلاها من العصور ، بل غيَّرت معالم الجغرافية السياسية للعالم الوسيط ابان انتهاجها ،والسير على مقتضاها باخلاص وتجرد .

ز ـ القرآن العظيم ، اذ يملأ النفسالانسانية أملا مستبشراً ، ووطيداً ، تقوية لمعنوياتها، ولا سيما في مواطن الجهادالقتالي،ويوقظ وعيها بما جاء به من « بصائر » ليبصرها بمكونات الواقع ، وسنن الوجود ،وآثارها فيه ، كما نوهنا ، تراه يقفها أيضاً، على مسار التاريخ الانساني الطويل ،يستحضره ، من خلال التجارب الحيوية الواقعية التي مرت بها ، بل وعانتها الأممالخالية ، لتستهدي بالعوامل المؤثرة في توجيهها ، ثمرة لآثار سنن الله فيها .

تبيَّن بجلاء مما قدمنا آنفاً ـ فيما نحسب ـ أن القرآن العظيم ، اذ يملأالنفس الانسانية ، أملا مستبشراً يشيع بين جنباتها،ورجاء واثقاً في الله تعالى ، وعداً قوامهالعون، والتوفيق ، والنصر في الدنيا ـ فضلا عن الأجر العظيم في الآخرة ـ ليصوغها على أشد

ما تكون **صلابة وعنفوانا في مواجهة الحياة ،بأحداثها ، وصروفها ، وأرزائها** ، ثم يبصّرها بحقائق هذا الوجود ، لتكون واقعية ، وعلى بيّنة من أمرها ، في كل ما تأتي به وما تذر، **لأن خوارق العادات ليست أصلا من أصولنا ،بعد الأنبياء والرسل** ، ولتتبيّن منطق طبائع الأشياء ، وما يسلكها من سُنن ثابتة مطردةآثارها ، كيلا **يفجؤها ما ينزل بساحتها** من كوارث وفواجع ، لأنها كانت ــ كما بينا ــ على وعي من **ارتباطها بأسبابها** ، أقول ان القرآن العظيم ، اذ يتخذ هذا المنهج القويم في معالجة النفس الانسانية ، ترجية ، وتبشيراً، وتوعيـة وتبصيراً أيضاً ، **تراه يقف النفس الانسانية** ــ في الوقت نفسه ــ **على مسار التاريخ الانساني الطويل ، يستحضره ، من خلال التجارب الحية الواقعية التي عانتها الأمم الماضية ، لتستهدي بالعوامل المؤثرة في توجيه وقائعه وأحداثه** ، سواء عن طريق « القصص الواقعية » التماساً للعبرة ، بعدتعقلها ، وامعان النظر في الأسباب الكامنة وراء أحداثها ، لقوله عز وجل : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، **ماكان حديثاً** يُفترى »(٤٣) أم كان من خلال الاشارة الى ما ينتظم الحياة مـن سنن الهيـة مطّردة ، حتمية الآثار ــ كما قلنا ــ لقوله جلّ شأنه :«يريد الله ليبيّن لكم ، ويهديكم سُنن الذين من قبلكم (٤٤) » تمكيناً لها من أن تتخذ«مواقف»حيوية حاسمة ، على ضوء مـن هـذه العبر المستخلصة، وآثار تلك السنن الماثلة في تجارب الماضين ، سواء أكانت تلك الآثار **سلبية أم ايجابية ، تبعاً لطبيعة « المواقف » المتخذة ،واتجاهاتها** ، ولا سيما ما يتعلق منها **بالقضايا الكبرى المصيرية** ، فتلخص ، أن آي القرآن العظيم التي تتعلق بتقوية النفس الانسانية، وتعبئتها ، معنوياً ، وروحيـاً ، وباستثارة كوامن ملكاتها العليا ،وتفجير طاقاتها الفطرية، تبدو ــ أكثر ما تبدو ــ **في مواطن الجهـــاد القتالي** ، حملا لها على « **الثبات** » في ميدان الصراع المرّ العاتي، وتحمل لوازمه ،ونتائجه الطبيعية ، من الكوارث ، والفواجع ، لأن هذه النتائج ، من مستلزمات القتال ، وسنة الله فيه ، ولذا أشار القرآن الكريم الى أنها « قدر مشترك » بين المجاهد وعدوه ، لقوله تعالى : « ان تكونوا تألمون ، فانهم يألمون كما تألمون »(٤٥) والفارق هو أنكم :« ترجون من الله ما لا يرجون »(٤٦) فالرجاء في الله تعالى في النصر المفعم به قلب المؤمن بربه، قوة نفسية، وطاقة روحية هائلة ، لا تنفصل أبداً عن القتال المستميت في سبيله ، وابتغاء مرضاته، والا كان خواء ، وضرباً من الأماني الكواذب، **وليس «التواكل»** عن هذا المعنى الأخير ببعيد.

هذا ، واذا كان الجهاد ــ كما قدمنا ــ من صميم « التقوى » لصريح قوله تعالى : « والصابرين في البأساء ، والضراء ، وحـين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم **المتقون** »(٤٧) فانه ــ في الوقت عينه ــ **أمارة**، ومظهر بيّن علـى صدق الايمان ، ورسوخ العقيدة ، بل هو مما تقضي به **سنة الابتلاء** التي هي الغاية القصوى من هـذا الوجود الانساني على وجه هذه الأرض ، لقوله تعالى:« تبارك الذي بيده الملك ، وهو على كل شيء قدير ، **الذي خلـق الموت والحيـاة ، ليبلوكم أيكم أحسن عملا** » فالابتلاء هي السنة الماضية في الأناسيّ منذ نشأة الخلق الأول ، **قدراً مقدورا** ، لقوله عز شأنه : « سنّة الله في الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله قدراً مقدورا »(٤٨)

ومن هنا ، تدرك ، أن القرآن الكريم ، يربط العقائد — ومن أجل ثمراتها التقوى — بالتكاليف بوجه عام ، والجهاد بوجه خاص ، وصلا لحقائق الدين بنظام الدنيا ، وصلا عضوياً واقعياً محكماً ، بحيث يكون أداء الثانية ، واقامتها ، دليلا بيِّناً على صدق الأولى ، أو مظهراً مجسداً لمضمونها ، ومقتضياتها ، حتى لا تبقى تلك العقائد مجرد تجريدات ذهنية فلسفية لا صلة لها بالواقع الحيوي ، وتدبير شئون الأمة ، بما يحقق مصيرها ، وليقيم الحجة البالغة على المكلفين أنفسهم من واقع تصرفهم في حياتهم ، ومما كانوا يتخذون من « مواقف » حيوية حاسمة ، تجاه أحداث عصرهم ، ومصائر شعوبهم ، وبذلك حسم القرآن العظيم ، **الفرق بين الرجاء الايجابي العامل الجاد المثمر البنّاء ، وبين التواكل ،** أو الأماني الخُواء في النصر ، أو في الحياة بعامة ، مجردة عن اتخاذ الأسباب العملية المناسبة والفعالة من الاستبسال في الجهاد ، بخاصة ، وأداء التكاليف ، واقامة الحياة الانسانية المثلى بعامة .

ح — القرآن العظيم ، اذ يرسم المنهج « الأقوم » الذي ينبغي أن تسلكه الانسانية جمعاء في مسارها الطويل لو ثابت الى رشدها ، واستهدفت المصلحة العليا للبشرية كلها — وقد أعدها الله تعالى اعداداً فطرياً خاصاً لذلك ، لتمكينها من التنفيذ والأداء ، مرشداً الى موضوعية قيمه ، وانسانية مُثله ، وعالمية مبادئه ، وشمولية مفاهيمه ، ومقدراً تغيُّر ظروفها ، بقوله سبحانه : « ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » يحذر — في الوقت نفسه — من غرور الأوهام ، وخدر الأماني ، ليبصِّر بما جاء به من بصائر ، وبينات من الهدى والفرقان ، ويوقظ الوعي للذات ، ويهدي الى السنن العامة التي تقوم عليها حقائق هذا الوجود ، منذ نشأة الخلق الأول .

هذا ، وترى القرآن العظيم ، ينص صراحة ، على أن « أماني المرء » التي تحمله على التواكل ، والاغترار ، والاسترخاء — بما هي خلوٌ من العطاء ، والتضحيات الجسام عند الاقتضاء ، ولا سيما في مواطن البأساء والضراء ، وحين البأس ، أي دون جهاد مُضن ، وتحمّل لأشد مشاق القتال ، أقول ان تلك الأماني ليست من السنن الالهيَّة في شيء ، بل « الأمانيُّ » المجردة ، أوهام وأخيلة ، أو هي من غرور الشيطان ووعده ، **لمناقضتها** لسنة الحياة نفسها ، ولكونها **مضادة** لمراد الشارع من وضعها ، ومفضية — آخر الأمر — الى نتائج عكسية ، ولأن المتمني على الله الأماني ، مجردة من تبعات التكاليف بعامة ، والجهاد بخاصة ، يطمس في نفسه « **أصول المسئولية الكبرى** » عن مصير أمته ، ويتجاهل سنة احراز النصر لها في جهادها الواصب مع عدوها ، ولأن النصر — في منطق القرآن العظيم — ليس هبة تعطى ، وليس ثمنه مجرد أمنية تطوف بالمخيلة ، أو دعاء يُتضرع به ، أو أمل سانح في سماء الأوهام ، والرؤى الحالمة ، بل « النصر » — في شرعة الاسلام — باهظ التكاليف في الأنفس والأموال ، بما يتطلب من النفس الانسانية أن تستفرغ كافة طاقاتها ، وتبذل من ذات نفسها ، وتصبر في مواطن المحن صبراً يكاد يشارف على ما يشبه اليأس ، ولكن لا يقع فيه ، لقوة ايمانه ، اذ « **النصر** » — كما تصوره الآيات الكريمة — وان كان من **عند الله تعالى القوي** العزيز الحكيم ، غير أنه « **مطلب عزيز** » **لا يناله الا أولو العزم ، ولو**

كانوا من الرسل !! حتى ليكاد الجهاد من أجل الظفر بالنصر ، يذهب بصبر المؤمنين ، ويأتي على رباطة جأشهم ، وقوة عنفوانهم ، بل قد يحمل – لشدة مآسيه ، وكوارثه – على الدخول في مداخل تشبه « **الاستيئاس** » لفرط ما كان الرسول نفسه ﷺ وأصحابه يتحملون من أهوال ، ويعانون من ويلات ورهق ، تجد هذا جلياً ، فيما تعبر عنه الآية الكريمة من قوله عز شأنه : « **مسَّتهُم البأساء والضراء، وزُلزلوا ، حتى يقول الرسول ، والذين آمنوا معه ، متى نصر الله(٤٩) ! !** » •

هذا ، والتعبير عن « **زلزلتهم** » بصيغة الماضي ، تأكيد للوقوع ، **هذه هي سنة الحياة، وتلك آثارها الحتمية، قدر" مقدور، لاتبديل له**، وقد جاءنا من نبأ الذين من قبلنا ، ممن سلكوا سبيلها ، والتزموا بها التزاماً طوعياً إيمانياً صادقاً ، فاجتنوا ثمارها جنيَّة بعد تمرس شديد بآفات الجهاد ونتائجه ، احرازاً للنصر المؤزر ، ما يدل على أن من ابتغى « **نصراً** » من غير هذه الطريق ، أو دون سلوك هذه السنة الثابتة المطردة في الحياة والأحياء، فلن يحرزه أبداً ، لأنه في غفلة عن سُنن الله التي أقام عليها هذا الوجود الانساني ، تفسيراً له ، نشأة واستمراراً ، ومصيراً ، وقد بصَّره القرآن العظيم بحقائقه ، ليستهدي بها ، اذ الأسباب التي وضعها الله تعالى في أيدي المؤمنين، **ينبغي اتخاذها** ، لتحقيق ما يرتجون ، ولتترتب عليها مسبباتها ، بارادة الله تعالى وجعلـه ، ونظام شرعه في كونه ، وفي حياة المخلوقين على السواء ، مما يدل دلالة قاطعة على أن من يضادّ الله تعالى في سُننه ، كمن يعصي الله في شرعه •

هذا ، واتخاذ « **مواقف** » مناقضة لسنن الله تعالى ، ثم العكوف على التمني ، أو الانعطاف على النفس – اقتناعاً لها ، بأن الله تعالى سيتولى نصرها – هو محاولة للتخفيف من أعباء التكاليف التي أوجبها الله تعالى لاحراز النصر في شرائعه، ومبادئه ، فضلاً عن عقائده ، ولا ريب أن التخفف منها منافٍ لمنطوق النص الصريح رأساً ، في مثل قوله جل وعلا : « ولينصرن الله من ينصره » أي في شرائعه وتعاليمه ومبادئه وسننه الثابتة، لأن هذا هو المعنى المراد ، والا فالله تعالى لايفتقر الى من ينصر ذاته العلية ، وانما المراد انفاذ كل أولئك عملا وأداء •

هذا ، وقد جاء الربط – كما ترى – بين نصر الله تعالى للمؤمنين ، في كافة شئون حياتهم ، لا في الجهاد القتالي فحسب ، لاطلاق النص في منطوق الآية ، وبين نصرهم هم **أولا** لشرائعه ، وسننه عملا ووقوعاً ، وأفرغـه **في صورة قسَم ، للتأكيد** ، « **ولينصرن الله من ينصره** » والله تعالى بارٌ بقسمه ووعده ، دون ريب ، وقد أكد الله تعالى هذا الربط أيضاً في صورة أخرى ، **كسنّة ثابتة من سننه في الوجود ، هي صورة الشرط والجزاء** ، في مثل قوله تعالى : « **ان تنصروا الله ينصركم، ويثبِّت أقدامكم(٥١)** » •

وعلى هـذا ، فلن يكون ثمة جزاء ايجابي اذا غاب شرطه ، ذلك من بدائه العقل والشرع ، لأن مثل هذا **الارتباط بين الشرط والجزاء** ، قد جرى الأسلوب القرآني على اعتباره « **سنّة الهية ثابتة مطّردة ، حتمية الآثار ، بجعل الله تعالى ، ووضعه تكويناً ،**

لا تنتقض ولا تتخلف ، فكانت نظاماً الهيـاثابتاً ، قد أقام الحياة الانسانية عليه ،ليؤتي ثماره ، والا كان النقيض !! وهذا مايقتضيه منطق طبائع الأشياء أيضاً ، فضلا عن منطق الشرع ، اذ لا يُعقل في مواقع الوجود ، أن يتم نصر" مؤزر دون جهـاد قد تم اعـداده وعُدَّته ابتداء" ، وانطلق المجاهدون بدافع عقائد صحيحة ومثُل عليا ، هي روح العمل القتالي ، وغاية أمره ، **والا كان مجرداقتتال على منافع مادية ، وتكالب عليها** ، كما هو الشأن في شريعة الغاب ، وما أهون ! لأن هذاانتكاس ، وتقهقر الى عهد الجاهلية الأولى ، حيث كانت « القوة » هـي التي تحتكم في العلاقات بين الناس ، ليصبح ما تمليه القوة الغاشمة ، وما تنتهي اليه ، هو « **العدل** »المزعوم ، مما يرفضــه العقل ، والوجدان ، والضمير ، والدين : « أفحكم الجاهلية يبغون ،ومن أحسن من الله حكماً ، لقوم يوقنون(٥٢)»

لهـذا ، ترى القرآن الكريم ، يعتبر « الأماني » على الله في تحقيق النصر ، دون أن يأخذوا أنفسهم بسنَّة الجهاد القتالي التي أرساها القرآن العظيم بصريح نصوصه في مواضع شتى ، مصوغة في أسلوب قسمي تارة، أو شَرطي تارة أخرى ــ كما بينا ــ اعتبر هذه الأمانيّ **مضيعة للحياة** ، وملهاة صارفة عن الوقوف على حقائق **الاسلام في هذا الوجود،** بل قد أشار الى أن **هذا التمني الأجوف** ــومنه التواكل ــ **من سمات الكفر** ، بصريح قوله عز شأنه : « **ذرهم يأكلوا ،ويتمتعوا ويُلهِهم الأمل ، فسوف يعلمون** (٥٣) » •

هذا ، ولا يخفى ما في تذييل الآية الكريمة بقوله تعالى : « فسوف يعلمون » ومـن التهديد ، مما يدل على أن التلهي بالآمال والمنى الكواذب منشؤه الكفر بالله تعـالى ، وشرعه ، وسننه •

ط ــ شرع القرآن العظيم ، الوسائل العملية التي تعتبر من آصل تعاليمه في توهين القوى المعنوية للعدو ، ومنها ، وجوب المبادأة بمهاجمته ، اذا تعينت خير وسيلة للدفاع ، وتتبعه في كافة مواقعه التي لاذ بها ، أواعتصم ، لمواصلة مقاتلته ، وتحريم التواني عن اللحاق به ، حيثما وجد ، أو استشعار الوهن في مجابهته ، وهو أصل عتيد مقرر في هذا الكتاب العزيز ، بصريح النص ، نفصله فيما يلي :

ان مــن آصـل مبادىء القــرآن العظيم ، فيما يتعلق بهـذا الصدد ، أعني الجهاد القتالي ، ما قرره ، من وجوب المبادأة بمهاجمة العدو ، والنهي عن التواني عـن مبادرة العدو بها ، **اذا تعينت هـذه المبادأة بالمهاجمة خير وسيلة للدفاع** ، حسب الأحوال، ومقتضيـات الظـروف ، ومعطيـات الخبرة العسكرية ، مما تمليه ظروف « الموقف » •

هذا ، وقد حرَّم الله تعالى التقاعس عن مواصلة مقاتلة العدو ، وتتبع مواقعه التي لاذ بها ، واعتصم ، بعد شن الهجوم عليه ابتداء، اشاعة للرعب في صفوفه ، واحباطاً لخططه المدبرة قبل تمكنه من تنفيذها ، وصداً له عن التمكن من المبادأة بالهجوم علينـا ، اتقاء لشرّه ، ودفعاً لعدوانه قبل الوقوع ، ولاريب أن هذا من قضايا العقل والدين ! !

هذا ، ومناط حكم وجوب شن الهجوم على العدو ابتداءً ، وتتبّعه حيثما ثُقف ، هو « **العداء السافر** » بما هو شعور" حاد" جارف يقذف بحمم من الغيظ الذي من شأنه أن يحمل العدو على **تبييت نية العدوان** ،**بل والمبادأة به ان استطاع** ، **وتنفيذ كل خطة ترمي الى تحقيق ذلك** كلما واتته الظروف ، وهذا أمر « **واقع** » لا سبيل الى تجاهله ، أو انكاره ، ومن هنا ، كان الأمر بالمبادأة بمهاجمته ، بنص الكتاب العزيز ، وتحريم التقاعس عنها ، **معاملة له بنقيض قصده** ، واحباطاً لسعيه ، وافساداً لخططه عليه ، ولأن هذا « **الهجوم المبتدأ** » قد تعين أنه خير وسيلة للدفاع ، على ما افترضنا .

أما النص الصريح الذي ينهض بوجوب **المبادأة بمهاجمة العدو** ، فذلك في قوله عز شأنه : « **ولا تهنوا في ابتغاء القوم ، فان تكونوا تألمون ، فانهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون** »(٥٤) .

ووجه الدلالة ، أن « **الابتغاء** » في منطوق الآية الكريمة بمعنى « الطلب » وطلب العدوّ لغة ، هو مبادأته بالهجوم مقاتلة وجاء **النهي صريحاً** بمنطوق النص ، عن التواني والاسترخاء عن النهوض بعبء هذه المبادأة، والنهي عن الشيء ، **أمر بضده** ، والأمر يفيد الوجوب ، وهو وجوب **شن الهجوم ابتداء** ، يؤكد ذلك ، سياق الآية الكريمة من الحث على تحمل **أرزاء الحرب** ، **وكوارثها** : « فان تكونوا تألمون ، فانهم يألمون كما تألمون » وهذا القدر المشترك من الآلام ، بين المجاهدين وعدوّهم ، لا يكون الا في ميدان القتال ! !

ي ـ نهي المجاهدين عن التواني عن المبادأة بالهجوم يشمل نهيهم عن أن يتيحوا لأسباب الوهن أن تتسرب الى نفوسهم .

على أن النهي عن التواني عن المبادأة بالهجوم يشمل ـ فيما يشمل ـ نهي المجاهدين أيضاً عن أن يتيحوا لأسباب الوهن أن تتسرب الى نفوسهم ، لاضعاف قواها وملكاتها ، وعزمها ، بأن يُصيخوا الى ما يبثه العدو ـ من خلال وسائل اعلامه ـ من عوامل « **التثبيط** » و « التخذيل » في اطار ما يسمى « الحرب النفسية » ليفتّ في عضدهم ، أو يُقعدهم عن مواصلة القتال، تهيباً وضعفاً ، أو أن يَخدعوا بها .

والنهي عن الشيء نهي عن لوازمه ، كل ذلك مشمول بقوله عز وجل : « **ولا تهنوا في ابتغاء القوم** » مما يدل **قطعاً** على أن الشارع الحكيم ، قد قصد تدمير القوى النفسية للعدو أولا ، وتحطيم بنيته العسكرية بهذه المبادأة ، والمتابعة ، للتغلب عليه ودحره !

تشير آي القرآن العظيم ، الى أن مقصد الشارع الحكيم ، من الجهاد القتالي ، هو مواصلة مقاتلة العدو ، حيثما ثُقف ، وفي كافة مواقعه ، بعد المبادأة بمهاجمته ، بما يكون المجاهدون قد أعدوا له من الخطط العلمية الحربية المدروسة ، وبما تمليه الخبرة والتجربة العملية في كافة فروع الاختصاص الحربي ، نتيجة للاحاطة بظروف

« الموقف » ومقوماته ، ومستلزماته ، « والموازنة » الدقيقة بين قوى الطرفين ، ومدى امكانياتهما ، وبما أعد المؤمنون من صنوف« القوة المرهبة » من أقوى الأسلحة ، فتكاً ومضاءً ، بل وعلى أرفع مستوى بلغهالعصرفي تصنيعها وابداعها ، وبأقصى جهدمستطاع، استئصالا لشأفة العدو ، اذ ليس المقصودمنهمجرد اشعال نار الحرب ، ارتجالا ، أياً كانت مآلاتها ونتائجها !

يرشدك الى هذا ، وجوب المبادأة بالهجومالساحق على العدو بنص الآية الكريمة التي تلونا ، وتتبع مواقعه حيثما ثُقف ، للقضاءعليه نهائياً، في مثل قوله عز وجل:«**واقتلوهم حيث ثقفتموهم** » (٥٥) وتشتيت شملهـم ،**وتشريد مَن خلفهم ممن يناصرهم** ، في مثل قوله عز وجل : « فشرّد بهم من خلفهم(٥٦)»**وأوجب الثبات العنيد في مواطن القتال** ، مهما عظمت الكوارث ، واحلولكت الفواجع،وادلهمت الخطوب ، لقوله عز وجل : « ومن يقاتل في سبيل الله **فيُقتل أو يَغلب** فسوف نؤتيه أجراً عظيما»(٥٧) حيث **قدّم الاستشهاد على النصر** ــ كما ترى ــ مما يوحي بأن المجاهد الحق هو من يضع نصب عينيه ، **احتمال الموت ، قبل احتمال الظفر بالنصر** ،ثم حرّم عليه **التولّي من الزحف عند المجابهة والتقاء الجمعين** : « يا أيها الذين آمنوا ، اذالقيتم الذين كفروا **زحفاً فلا تولّوهم الأدبار** »(٥٨) واعتبر التولّي من الزحفمن الكبائر، ومواقف الاثم الكبرى، وان المتولّي يبوء بغضب من الله مصيراً ، فالمؤمن الحق ،لا يعرف الجبن أو الخوَر الى قلبه سبيلا ، اذ لايجتمع فيقلبه ايمان وجبن ولا ذلة،فكانت« **الاستماتة** » **في القتال** ، **أولى ثمرات عقيدة الاسلام** ، كما ترى .

وأما اعداد **القوة المرهبة** ، فلقوله عزشأنه : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ،ومن رباط الخيل ، **ترهبون** به عدو الله وعدوكم(٥٩) ومعلوم أن « **عنصر الارهاب** » لا يتأتى وقوعه في نفوس الأعداء ، الا اذا كانت القوةالمعدة لدى المجاهدين ، أقوى مضاءً ، وأشد فتكاً ، مما يملك عدوه من قوة ، ولكل عصرنوعية أسلحته ، وأدواته القتالية ، ومعداته التي أنتجها مستوى العلم التجريبي فيه !

ان عنصر « الارهاب » في منطوق الآيةالكريمة : « ترهبون به عدو الله وعدوكم » هـو مناط الاستدلال على وجوب تطويـر الأسلحة المعدة ، ليبلغ أعلى مستوى مـن النوعية ، مضاء وقوة ونفاذاً ، مما أنتجـهالعلم في كل عصر ، حتى اذا تخلفتنوعيته ، فلن يتأتى « الارهاب » الذي هو الغاية منالاعداد .

أما الدليلعلى أنالشارع **قد قصدتدميرقوىالعدو النفسية، وتوهين معنوياته** ،فذلك، **لأن الشأن في المبادرة بالهجوم الساحق ، وعلىكافة المواقع الحربية للعدو ، براً وجواًوبحراً،** لاطلاق النص : « ولا تهنوا في ابتغاء القوم »أقول : ان الشأن في مثل هذا الهجوم الساحق، أن يشيع « **الترويع** » في صفوفه ، وهـــذا« الترويع » شامل أيضاً ، لشمول مواقعه ،

فكان أشد **وقعاً** على النفوس ، وأفتك بقواهامن « **الارهاب** » **الذي مبعثه ، مجرد اعداد القوة قبل المهاجمة ، بصريح قوله عز وجل:** « ترهبون بـه عدو الله ، وعدوكم » **فهو «ارهاب»** منشؤه **اعداد القوة قبل استخدامها** ـ كما ترى ـ **بخلاف « الترويع » بالقوة المهاجمة فعلا** ٠

وعلى هذا ، فان تدمير « القوىالنفسية» للعدو ، سواء بالترويع بالمبادأة الهجومية، أم بالارهاب باعداد القوة على أرفع مستوىمن المضاء ، والنفاذ ، مقصد شرعي قطعي، وحقيقة من الحقائق التي تقتضيها العلاقاتالدولية في الاسلام زمن الحرب ٠

هذا ، ويتناول النص ـولكن بمعقولهـ سائر وسائل « **الدعاية** » على اختلاف أنواعها، وطبائعها، مما ينهض به فن الاعلام في الدولة، اذ يعتبر من « جزئيات » ذلك المقصد الشرعي العام ، أو من لوازمه ٠

وتفصيل القول في « **تأصيل** » هذا المبدأ في الجهاد القتالي ، يتجلى في النقاط التالية:

أولا : لمقام النهي الصريح عن التواني عن طلب العدو « **ولا تهنوا في ابتغاء القوم**» والنهي عن الشيء ، أمرٌ بضده ، كماقدمنا، وهي مبادأة « الهجوم » والبدار اليه ، **والأمر يقتضي الوجوب** ، فكانت المبادأة بالهجوم **مفروضة** ٠

ثانياً : ما يفيد منطوق الآية التي تلونا، من استواء المجاهدين وأعدائهم ، في تحمل أرزاء الحرب وأوزارها ، **لأنها « نتائج »طبيعية للحرب** وحتمية ، **فكان ما يعانيه المجاهدمن** ويلاتها ، **مماثلا لما يعانيه العدو** من ذلك ، وقد أكد القرآن العظيم هذا « المعنى المشترك » في أكثر من موضع ، من مثل قوله سبحانه : « **ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله** »(٦٠) وهذا ما يؤكده قوله عز شأنه : « **ان تكونوا تألمون ، فانهم يألمون كما تألمون** (٦١) » فلا ميزة اذن، ولا فضل لفريق على فريق في تحمل مشاق القتال ، لأنه قدر مشترك ، اذ أرزاء الحرب نتائج طبيعية لها ، والا ما كانت حرباً ٠

هذا ، ولا سبيل الى التخفف مما تقضي به طبائع الأشياء ، وفي هذا من **تهوين** وقع آثار الجهاد على نفوس المجاهدين ما فيه !!حملاً لهم على **المبادأة بالمهاجمة ، وتشجيعاً عليها ، واغراءً بها** ، والاغراء بالشيء فرع عن ثبوت أصله شرعاً بلا مراء ٠

ثالثاً : ومما يؤكد هذا الأصل أيضاً ،من ألوان الاغراء به ، والحمل عليه ، أن القرآن العظيم، اذ يقرر منطق طبائع الأشياء،من وجوب الصبر على احتمال ما هو نتائج طبيعية للحرب ، وأهوالها ، وحتمية الاشتراك في أرزاءها ، يوحي الى المجاهدين ـ في الوقت نفسه ـ بأنهم أولى من العدو بتحمل آثار هذه المبادأة ، وكوارثها ، ذلك ، لأن « العدو » اذا كان يشترك في تحملها ، ويصبر عليها ،**وهو مبطل ، ظالم ، ومعتد ، فلأن يحتملها ،**

ويصبر عليها ، المؤمن الحق ، من باب أولى،ذوداً عن قيمه ، وحقه ، ووطنه ، وتحقيقاً لعزة وجوده ، واستئصالا لجذور العدوان والظلم والبغي ، ومحقاً لأسباب الفساد في الأرض ! !

ومؤدى هذا ، أنه ينبغي ألا تضعف نفوس المجاهدين ، أو تتوانى هممهم عن المبادأة بشن الهجوم على العدو ، ما دامت عداوته سافرة ، ونواياه ظاهرة ، وخططه واضحة ٠

رابعاً : ان القرآن العظيم ، **لا يني يبُث** في نفوس المجاهدين **روح الاستبشار بالنصر المؤزر ، أو الشهادة :** « ومن يقاتل في سبيل الله ، **فيُقتل أو يغلب** ، فسوف نؤتيه **أجراً عظيما**(٦٢) اغراء لهم بالاقدام على المبادأة بالهجوم ، قبل أن يبادئهم العدو بمهاجمة ديار **الاسلام ، ولأن دفع الضرر قبل الوقوع ، أولى وأجدر من معالجته بعد الوقوع، وقد يطول أمد ازالة آثاره ٠**

ترى ذلك بيّناً فيما جعله الله تعالى ، فيصلا حاسماً بين المجاهدين وعدوهم ، من **الترجية والاطماع والبشرى** في الآية التي تلونا:« **وترجون من الله ما لا يرجون** » أي من نصر الله لكم، بحكم ايمانكم ، وجهادكم واستبسالكم في سبيل الحق الذي آمنتم به ، ونهوضكم **بالمبادأة بالمهاجمة** فعلا ، أو ما ترجون من الظفر بنعيم الآخرة بالنسبة الى من كتبت له الشهادة ، لأنها احدى الحسنيين : **النصر أو الشهادة** ، وهو أمر لا يرتجيه العدو ، بل لا يخطر بباله ، لانتفاء أصل الرجاء لديه ، أولما اعتراه من نوازع **اليأس** الذي هو قرين الكفر ، لشدة ما يلقى من بأس المجاهدين واستبسالهم في ميادين القتال ، مما أفقده « الرجاء » أو « الأمل » في النصر ، وفي هذا تقوية لروح المجاهدين ، واستثارة لغوافي طاقاتهم ، لمبادأة الهجوم ، وتيئيس للعدو في الوقت نفسه ـ لتدمير معنوياته ، وأياً ماكان، فان افتقاد عنصر الرجاء في نفسية العدو ، فرع عن فقد أصله ، وهو الايمان ، ومن فقد الأصل ، فقد كل ثمراته ٠

الخبير بأسلوب القرآن الكريم ، يرى أنه اذ يربط وقائع ماضي البشرية ، بأحداث حاضرها ، ابان نزوله ، ليستحضرها في أذهان المؤمنين ، ويجلّيها لبصائرهم ، ثم يشير الى ما نجم عن ذلك كله من ثمرات ونتائج حاسمة ، تراه يوجه الى ما ينبغي أن يكون عليه أمر مستقبلها ، منبهاً الى وجوب تفادي أسباب الانحراف الذي يورث الشقاء الدنيوي، فضلا عما يؤول اليه مصيرها في الآخرة ،أقول : ان القرآن الكريم ، اذ يسير في أسلوبه البياني على هذا المنهج من الربط والتوجيه، فانما يقصد بذلك الى ايقاظ العقل ، ليقوم بدوره في التفكير والبحث والتأمل في تلك الوقائع والأحداث ، للوقوف على ما يسلكها من نواميس هذا الوجود ، لاستخلاص المغزى العميق الذي يكمن وراءها ، وهو ما يطلق عليه القرآن الكريم ، كلمة « العبرة » التي هي على غاية من الخطر والأهمية ، نتناولها فيما يلي بايجاز :

الأول : اثارة قدرات الانسان ،وملكاته، لادراك وجوه النشاط البشري ، ودوره وتأثيره في هذا الوجود، والنتائج الحتمية التي تمثلت على مسرح الحياة بحيث تُرى بالعين المجردة،

لأنها واقعة تحت الحس، بل ان القوم قد خاضوا غمارها ، بأنفسهم ، ربطاً للماضي الموغل في القدم ، بالحاضر الشاهد ، كأنه يقول لهم :ان كنتم لم تشهدوا وقائع التاريخ السحيق الذي أستحضره لكم ، وأقص وقائعه عليكم ،فعليكم أن تفكروا في الواقع الماثل أمامكم ، وعلى مرمى من أبصاركم ، لتوقنوا بصدق المبدأ الذي تجنون ثماره اليوم بأيديكم ، فان في هذا لعبرة لكل ذي بصر ، فضلا عن ذي البصيرة ، يقول سبحانه عقب بيان حال الأقدمين ، في هذا الشأن قولا يصف لنا الآية الكبرى المستخلصة من غزوة بدر: « لقد كان لكم آية في فئتين التقتا ، فئة تقاتل في سبيل الله ، وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم ، رأي العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، ان في ذلك لعبرة لأولي الأبصار(٦٤) .

هذا ، وقوله تعالى : « ان في ذلك لعبرة لأولي الأبصار » أي من اليسير استخلاص العبرة ، ولا تفتقر الى طول تأمل ، وتفكير،لأنها بادية للعيان ، مما يدل ــ بالمفهوم المخالف ــ على أن الذي يتغافل عن ذلك ،فليس من ذوي الأبصار ، بل هو في عماية أو ضلالة ، يتعثر بها ، أو يشقى في هذا الوجود،مصداقاً لقوله سبحانه : « ومن أعرض عن ذكري ، فان له عيشة ضنكاً ، ونحشره يوم القيامة **أعمى** ، قال رب لِمَ حشرتني **أعمى**، وقد كنت بصيرا ، قال كذلك ، أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تُنسى »(٦٥) .

وفي هذه الآية الكريمة ــ كما ترى ــ اشارة الى أن نسيان الآيات ــ في شرعه وكونه وسُننه الثابتة ــ سبحانه ــ وما تنطوي عليه من تشريع أمر ، وتوجيه ، وعبر مستخلصة من وقائع التاريخ ــ قديمه وحاضره ــ ومآلاتها التي استلزمها جريان سنن الله تعالى عليها، أقول : ان نسيان ذلك ، **والتغافل عنه** ،عماية فكرية وعقلية ونفسية **تستلزم عماية أخروية، اذ الجزاء من جنس العمل** : « قال رب لِمَ حشرتني أعمى ، وقد كنت بصيراً ؟ قال كذلك، أتتك آياتنا ، فنسيتها ، وكذلك اليوم **تنسى**»(٦٦) أي تُلقى وتطرح في مصير محتوم !

هذا ، والواقع أن ما عبَّر عنه القرآن من **التغافل أو الاعراض** عن آيات الله باطلاق، شرعاً ، وتوجيهاً ، وهداية ، وسنناً كونية ،عبَّر عن التغافل عن كل أولئك بالنسيان ، انما هو ــ في ضوء المفاهيم القرآنية ــ**نسيان للذات الانسانية نفسها ، لفقدانها الوعي الكامل المستبصر لكيانها ، وشخصيتها المعنوية** ، يؤكد هذا المعنى قوله عز وجل : « **نسوا الله فنسيهم** (٦٧) .

ولا ريب أن هذه « **مشاكلة لفظية** » والا فان الله تعالى لا ينسى، وهو سبحانه لايعزُب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ،وانما المقصود من النسيان ، الضياع ، والخسر ، مصداقاً لقوله تعالى : « والعصر ان الانسان لفي خسر ، الا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر »(٦١) فمصيره في الدنيا أن يغدو مضيَّعاً منسياً ومهملا في زوايا التاريخ ،يعاني صنوفاً من الذلة ، والشقاء ، وفقدان الذات والشأن ، والوجود المعنوي ، ومصيره في الآخرة على هذا الوزان ، كما قدمنا ، **اذ وحدة المصير يستوجبها وحدة السبب ،عدلا ، وجزاء وفاقاً** .

يرشدك الى هذا التوجيه الالهي فيمثل قوله سبحانه : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله، **فأنساهم أنفسهم (٦٩)** •

هذا ، واني اذ أذكر « **الانسان** وسعيه الدنيوي ، ومواقفه تجاه رسالة خلافته في هذا العالم، سلباً أو ايجاباً ، **فانما أقصد** «الانسان» بمعناه الاستغراقي العام ، أفراداً ومجتمعات، وشعوباً ، وأمماً •

الثاني : وجوب تبيُّن « **الأصول العامة** » التي تنتظم تلك الوقائع بنتائجها الحتمية ، **مستخلصة من جزئيات تلك الأحداث** ، كل طائفة منها متشابهة في طبيعتها ونوعيتها، ترتبت على مقدمات متشابهة أيضاً طبيعة وظروفاً، من حيث **البواعث ، والقصود** ، وما تتخذ من ألوان السعي، والنشاط ، والفاعلية، وما يستلزم ذلك كله من (**الآثار المادية الظاهرة التي هي من مدركات الحس تجسدت على أرض الواقع ، وتحكمت في مجرى التاريخ** أثراً لسنن الله فيها ، مما يقيم البرهان الساطع ، والحجة البالغة ، **على صدق تلك الأصول العامة في مقتضياتها** ، اذ ليس ثمة أدل على صدق الأصل العام من تحقق آثاره، **صدى لقوة نفاذه ، واستحالة تخلفه** ! وهو ما يطلق عليه القرآن الكريم « **سنّة الله** » وهي نظام نافذ في الحياة والأحياء ، بما هو من وضع الله تكويناً ، بل هي — بنص الكتاب العزيز — **قدر" مقدور** ، لقوله جل ثناؤه :« **سنّة الله في الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله ، قدراً مقدورا** » وقوله عز وجل :« يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم »(٧٠) ٢٦/النساء •

يوضّح هذا ، مما يتصل بموضوعنا ، بل ويؤكده ، ما تجده صريحاً في آيات متتالية، من سورة آل عمران ، قد جمعت فيما بينها « **وحدة الموضوع** » حيث ترى القرآن الكريم، في مثالنا الذي أوردناه ، **يربط ما كان من آل فرعون ، بل والأمم الذين من قبلهم ، في التاريخ الموغل في القدم ، يربط كل أولئك بما كان من مشركي قريش ، في وقعة بدر الكبرى في عهد النبوة ، وما آل اليه أمرهم جميعاً ، ماثلا تحت سمعهم وأبصارهم ، ربطاً محكماً** ، ليقيم الدليل البيِّن ، على أن وحدة السبب تستوجب وحدة المآل ، لا محالة، ولا نعني بالسنّة الالهية العامة الماضية النافذة الا هذا المعنى ، وبيان ذلك :

انه فيما **يتعلق بالأمر الأول** ، تجد القرآن العظيم صريحاً في مثل قوله تعالى : « **كدأب آل فرعون ، والذين من قبلهم** ، كذّبوا بآياتنا ، **فأخذهم الله بذنوبهم** ، والله شديد العقاب » ١١/آل عمران •

وأما فيما يتعلق « بوقعة بدر الكبرى ، مما يلي هذه الآية الكريمة التي تلونا آنفاً ، فتجده صريحاً أيضاً في قوله تعالى : « لقد كان **لكم آية في فئتين التقتا ، فئة تقاتل في سبيل الله ، وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأي العين** ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، ان في ذلك **لعبرة لأولي الأبصار** » آل عمران/ ٣

ولا ريب أن شدة العقاب ، تؤذن بعظم أسبابه . هذا ، وتأويل الآيـة الأولى ، أن « **الدأب** » ـ كما يقول الامام الطبري(٧١) . هو في الأصل العمل المستمر ، ويعني الامام الطبري ، أنه صار **شأنا** ، **أو عـادة مطّردة متحكمة فيهم وفيمن قبلهم من الذين ترسّموا خطاهم ، وساروا على سنّتهم ، من تكذيبهم بآيات الله الدالة ببراهينها الدامغة علـى الحقيقة الكبرى لهذا العالم ، وارتباطـه بالألوهية خلقاً وتدبيراً ومصيراً ،وهو تكذيب بعد قيام الحجة ، مما يعتبر مكابرة أو عناداً دافعاً** الى النكوص عن أداء أمانة التكليف ، وهـي رسالة الاستخلاف في هـذا العـالم ،عمراناً ، وحضارة انسانية ، واقامة للحق والعدل فيه ، وتحقيقاً واقعياً للمثل العليا ،والفضائل ، والقيم الروحية ، بحيث تصبح أوضاعاً قائمة في المجتمع ، وتكذيبهم أيضاً بما يتصل بتلك الحقيقة الكبرى لهذا العالم، من أن الحياة الدنيا فيه موصولة بالآخرة ،مما يفسر غائية الأولى تفسيراً ينفي عنها معنى العبث ، والسُدَوية ، واللامعقولية ، كما يستبعد عن الفكر الانساني ما يشل طاقاته ، من فكرة الفناء الأبدي الرهيب ، لقوله تعالى:« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ، وأنكم الينا لا تُرجعون »(٧٢) .

هذا ، ولا ريب ، أن التكذيب بعد قيام الحجة الدامغة ـ كما قلنا ـ مكابرة بل كفر" لا يسوّغه منطق انساني سليم ، ومن هنا ،**عوجلوا بالعقوبة من أخذهم نكالا ، واهلاكهم جزاء وفاقا** .

هذا في التاريخ الموغل في القدم ، والذي رُويت لنا وقائعه تواتراً ، فضلا عن ثبوت صدقه في قصص القرآن الكريم : « ان هذا لهو القصص الحق (٧٣) ولقوله تعالى : « لقد كان في قصصهـم عبرة لأولـي الألبـاب ،مـا كان حديثـا يُفترى **ولكـن تصديـق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ،ورحمة لقوم يؤمنون(٧٤)** .

أما فيما يتعلق **بوقعة بدر الكبرى بوجه خاص** ، ففيما تلونا آنفاً ، من قوله تعالى : « لقد كان لكم آية في فئتين التقتا ، فئة تقاتل في سبيل الله ، وأخرى كافرة » تجد ربط هذا الحاضر المشاهد في ساحة القتال ، في عهـد النبوة ، بالماضي السحيق ، كما نوهنا ،فاذا كان النصر المؤزر للفئة المؤمنة على قلتها ،عدداً وعُددا ، فان ذلك أكبر مظهر حسّي لانجاز وعد الله تعالى فيهم « ومن أوفى بعهده من الله » وتفسير ذلك :

أن ذكر الطائفتين ، مقرونة احداهما بصفة منافية لصفة الأخرى ، **مـن الايمان والكفر** ، فيه اشارة بيّنة الى أن « **الايمان** »**نفسه سنّة كونية لا تتخلف آثارها فيمـن أخذها بحقها ، وعلى شروطها ، وأن وعد الله تعالى في ترتيب ثمراتها لا تتخلف البتة ،وآية ذلك ماثلة عياناً في هاتين الفئتين ، والايمان تبعات جسام ، وأولها الجهـاد والتفاني في سبيل انفاذها ، لتصون الكيان والوجود والعزة، وان الاستغاثة والضراعة الى الله تعـالى** ، ولا سيما في أشد المواقف حرجاً ، وإبّان الأزمات العصيبة الحادة المعقدة ـ مما يحقق معنى « **العبودية** » لله تعالى خالصة مخلَصة **لا بد أن تتدخل عقبها العناية الربانية ازاء تلك المواقف**

بالاستجابة التي تعني النصر والتأييد : « اذتستغيثون ربكم فاستجاب لكم » وهي استغاثة أعقبتها الاستجابة ، وقد تأسّوا فيها برسول الله ، لما رأى من رقة حال أصحابه ، فقراً ، وجوعاً ، وحفاء ، بل وعُرياً ، فضلا عن قلة العدد والعدة ، حتى جاش فؤاده الشريف ﷺ يجأر بالضراعة والدعاء : « اللهم انهم حفاة، فاحملهم ، وعُراة فاكسُهم ، وجياع فأشبعهم، وعالة" فأغنهم من فضلك » مما يقطع بأنه قد كان لعون الله تعالى ومدده مكان في وقعة بدر الكبرى ، لا يمكن انكاره ، وهو ما عبَّرعنه القرآن الكريم بأبلغ عبارة وأروعها في قوله عز وجل : « ولقد نصركم الله ببدر ،وأنتم أذلة » (٧٥) على سبيل الامتنان ،وسيظل وقعها عميقاً في النفوس المؤمنة الى يوم القيامة.

هذا ، وتجد ذلك بيِّنـاً أيضاً في بث « روح الثبات » من الغيب في نفـوس هؤلاء المؤمنين ، وتقوية معنوياتهم ، مصداقاً لقوله سبحانه : « اذ يوحي ربك الى الملائكة ، أني معكم ، فثبتوا الذين آمنوا » ذلك ، لأن من لم يتخذ للحرب أهبتها الكاملة ، لا بد أن يداخله شيء من الوهن النفسي ، وهذا واقع في موازين البشر وتقديراتهم ، مدلولا عليه في الحوار الذي دار بين الرسول ﷺ وبين أصحابه هؤلاء ، حيث قالوا : « يا رسول الله! ما خرجنا لقتال ، انما خرجنا للعير (القافلة التجارية) هلاّ أخبرتنا أنها الحرب ،فنعد لها عدّتها ، ونتأهب لها أهبتها(٧٦) » ولقد قرر القرآن الكريم هذا المعنى ، وأنهم انما خرجوا للاستيلاء على الأموال الوفيرة التي تموج بها القافلة التجارية المقبلة من الشام الى مكة ، وهي عير قريش ، عوضاً عما استولى عليه كفار قريش من أموال المهاجرين وديارهم في مكة ، أقول : لقد أكّد القرآن الكريم هذا المعنى بقوله تعالى : « واذ يَعِدُكم الله احدى الطائفتين ، أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم (٧٧) ــ أي تودون « القافلة » لا جيش قريش المدجج بالسلاح ، والالتقاء به ، لمقاتلته ، وقطع دابر الشرك ، ولكن تدبير الخالق جل وعلا ، قد تبدى في ارادته التقاء الفريقين للحرب ، وأن العير انما كانت وسيلة للاغراء بهذا الالتقاء في ساحة القتال، ليحق الحق ، ويُبطل الباطل ، وهو المعنى الذي اتبعه سبحانه الآية التي تلونا آنفاً بقوله عز وجل : « ويريد الله أن يحق الحق بكلماته، ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ، ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون » (٧٨) ووصفهم بالاجرام ذو صدى بعيد في حكم أسراهم ،على ما سيأتي .

تدبير الهي قد تجلى في هـذه « الارادة والمشيئة العليا » التي اتجهت علـى خـلاف ما اتجهت اليه ارادة هـذه الطائفة المؤمنة ابتداءً ، بل ان الرسول نفسه ﷺ لم يخرج الى هذه الحرب ، ولم يسع اليها ، أو يقصدها، بل أخرجه الله تعالى اليها اخراجاً ، ودون أن يعلم بما يكون من أمرهـا بادىء الأمـر ،مصداقاً لقوله عز وجل :« كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وان فريقاً مـن المؤمنـين لكارهون ، يجادلونك في الحق بعدما تبين ، كأنما يساقون الى الموت ، وهم ينظرون(٧٩)

وعلى هذا ، فقد اتجهت ارادة الله تعالى الى تحقيق التقاء هاتين الطائفتين في مجابهة قتالية ليحسم أمراً يتغير به مجرى التاريخ ،وهو أسمى مقصداً ، وأعظم أثراً في حيـاة البشرية كلها ، حتى كانت وقعة بدر الكبرى كما أسماها القرآن الكريم بحق « فرقانا »

في قوله تعالى : « وما أنزلنا على عبدنا ،**يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير**(٨٠) ويوم الفرقان هذا هو يوم وقعة بدر الكبرى ، باجماع المفسرين(٨١) حيث فرق به الله تعالى ــ جلّت قدرته ــ بين الحق والباطل ، أو هو ــ في حقيقة الأمر ــ **فرقان حاسم بين جاهلية بادت ، وبين حضارة انسانية وعالمية قد ابتدأت ، لتأخذ مسارها** في الحياة البشرية الى الزمن المقدر لبقاء هذا العالم !

هذا ، وفي **تذييل** الآية الكريمة التي تلونا آنفاً ، بقوله تعالى : « **والله على كل شيء قدير** » ايحاء قوي بأن هذا الفرقان الحاسم ، لم يكن أمراً هيّناً ، ولا سهلا ، ولا سيما اذا لاحظنا ، أن الطائفة المؤمنة ــ بما فيهم الرسول ﷺ ــ لم تكن تقصد الحرب ، بادىء الأمر ، وأن فريقاً منهم **كان كارهاً لها، وانما أخرجوا اليها اخراجا بتدبير منه تعالى،** بصريح قوله تعالى الذي تلونا آنفاً : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وان فريقاً من المؤمنين لكارهون (٨٢) ولهذا **لم يتأهبوا للحرب أهبتها** ، بادىء الأمر ، كما أسلفنا ، فلم تتوفر لديهم من أسباب **لأمة الحرب** ،وعدتها ، وعتادها ، ما يضاهي أو يداني قوة العدو ، فاختل بذلك « **توازن القوى** »اختلالا بيّناً ، ولهذا ، كان هذا « **الفرقان الحاسم** » مفتقراً أشد الافتقار الى مدد من الغيب ، من عون الله تعالى ، **وقدرته** وتثبيته، والا ما كان لهذا التذييل من معنى ، وقد بدت مظاهر ذلك كله ، حسّية ، مجسدة على أرض المعركة ، **يشاهدها الفريقان** كلاهما ، بأم أعينهم ، لوقوعها بين ظهرانيهم ، مما يقطع بأن صلة « **الغيب** » **بالحياة البشرية** ، **أمر واقع ومشهود** ، بحيث يمكن القول ــ بصدد موضوعنا ــ بأنه لولا الغيب والقدرة الالهية، لما كان هذا النصر المؤزر ، **لأن** تقديرات البشر ، وموازينهم ، لا تنتج تحقق ذلك « **الفرقان** » الحاسم باطلاق ، **لاختلال توازن القوى اختلالا بيّناً** ــ كما أسلفنا ــ من حيث القوى المادية والنفسية ، بادىء الأمر « كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون(٨٣)

يؤكد هذا قوله تعالى : « **فلم تقتلوهم، ولكن الله قتلهم ، وما رميت اذ رميت ،ولكن الله رمى** »(٨٤) ولكن من حيث تحولت ارادة الاستيلاء على الغنيمة الى ارادة القتال ،بعد أن أخذ الرسول ﷺ **مشورتهم فيه** ، بل الى الارادة العامة للتضحية والتفاني ، نصراً لله تعالى في شرعه ودينه ، وطمعاً في نعيم جنته، كان المدد الالهي والعون الغيبي الذي اتجه حيث اتجهت الارادة العامة للطائفة المؤمنة من المهاجرين والأنصار ، وهنا **حقّت كلمة ربك،** انفاذاً لسنته ووعده ، في قوله سبحانه :«**ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ،انهم لهم المنصورون ، وان جندنا لهم الغالبون**(٨٥) »مما يؤكد ما قررنا آنفاً ، من أن الايمان نفسه اذا أخذ بحقه ، وشروطه ، وتبعاته الجسام، باخلاص وتفان ، هو بذاته سنّة الهية كونية ثابتة حتمية النتائج ، ورد تأكيدها بالأسلوب البياني البليغ على ما سيأتي بيانه ، وأن مدد الله العلي القدير ، من الغيب ، ملازم لهذه السنة، يتجه حيث تتجه الارادة العامة المؤمنة، ويؤكد هذا قوله تعالى : « ان الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم(٧٦) .

هذا ، ويؤكد اتجاه الارادة العامة للطائفة الى القتال ، بعد أن كان الهمُّ منصبّاً على الاستيلاء على الغنيمة ، ما جاء في استشارته ﷺ للمهاجرين والأنصار ممن كانوا معه

في بدر حيث قام أبو بكر الصديق ، فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب ، فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو ، فقال قولته المشهورة : « **يارسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا ههنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق ، لو سرت بنا الى برك الغماد** (موضع بناحية اليمن) **لجالدنا معك من دونه ، حتى تبلغه ، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ، ودعا له به** (٨٧) هذا موقف المهاجرين!

غير أنه ﷺ أراد أن يستوثق من أمر الأنصار ، حيث كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد على أن يحموه ويدافعوا عنه ، وعن دعوته ، كل من داهمه في « المدينة » ولم يكن العهد شاملا للالتزام بالدفاع عنه ﷺ خارجها، فطفق يستطلع رأي الأنصار ، وموقفهم من الحرب ، فقال : أشيروا عليّ أيها الناس - وهو يريد الأنصار - حتى اذا كان موقفهم من الحرب ايجابياً ، فقد اتحدت الارادة العامة للمهاجرين والأنصار على السواء ، فبرز سعد بن معاذ رئيسهم ، وقال : « والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل ! قال : فقد آمنا بك ، وصدقناك ، وشهدنا أن **ما جئت به هو الحق** ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا ، على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته، لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، **وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، انا لصبُرٌ في الحرب صُدُقٌ في اللقاء ، لعل الله** يُريك منا ما تَقرُّ به عينك ، فسِر على بركة الله ، فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد(٨٨)»

هذا ، ولا مرية أن المقصود بقوله تعالى « **كلمتنا** » في الآية الكريمة التي تلونا آنفاً « ولقد سبقت **كلمتنا** لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون ، وان جندنا لهم الغالبون (٨٩) » هي وعده سبحانه ، بل سُنته فيمن اتجهت ارادته لنصر الله ودينه وشرعه ، على النحو الذي رأينا في موقف كل من المهاجرين والأنصار ، وقد كان « النصر » والغلبة في وقعة بدر الكبرى ، مظهراً حسياً ومشهوداً ، لصدق هذا الوعد ، بل **آية** كبرى لأولي الأبصار في هاتين الفئتين يوم التقتا بنص الكتاب العزيز ، وهي سنة نافذة في رسل الله وجنده ، بل جاء التأكيد لهذه السنة التي تشمل بحكمها **القادة والأمة من المسلمين ، اذا أخلصوا لله دينهم ، والا ما كان لوجوب استخلاص « العبرة » في بدر أي معنى** ، قلت : جاء التأكيد لهذه السنة بالأسلوب القرآني البليغ من دخول « لام التأكيد » على خبر أداة التأكيد « أنهم » فاجتمع تأكيدان قاطعان ، لنفاذ هذه السنة، ولحتمية آثارها ، في كل من قوله تعالى «انهم لهم المنصورون » « وان جندنا لهم الغالبون».

ك - معالجة القرآن الكريم للنفس الانسانية بالقيم الروحية ، ذات أثر بالغ في امكانية تحقيق الصلاح الذاتي وصولا الى مهمته الكبرى من الاصلاح العالمي ، وتفسير ذلك :

لا مراء أن « الانسان » من حيث عناصر تكوينه ، وخصائصه الذاتية - بما منح من الملكات العليا ، والغرائز الدنيا ، فطرة - لا يتغير على الدهر ، لقوله تعالى : « فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله (٩١) » فالانسان هو الانسان ، أنى كان ، ذلك لأن

تلك المقومات والخصائص ، أو الملكات والغرائز ، من سنن الفطرة ، على ما أشارت اليه الآية الكريمة، غير أن « الانسان » منحيث **هوكائن حي ، مفكر ، ذو ارادة حرة ، يتغيرمن حيث وجوه نشاطه الفكري ، وألوان سعيهالدنيوي ، وطبيعة ما ينشؤه من علاقات بينة وبين أفراد مجتمعه الذي يعيش فيه ، ومايتخذ من « مواقف» حيوية حاسمة ، مما يعتبر** أثراً لعوامل عدة : بيئية ، وتيارات فكرية ،وسياسية، واجتماعية ، وقيم انسانيةرفيعة.

هذا ، ومن الثابت ، أن « **القيم** »**والمفاهيم الكبرى ، والقواعد الفكرية أو العقائدية التي تعتبر منطلقات أساسية**لنشاط الانسان ، قد تبلغ من الرسوخ في أعماق النفس الانسانية ــ اعتقاداً واقتناعاً ــ بحيث تنازع الوراثة أثرها .

ومما لا ريب فيه ، أن وجوه النشاطالانساني ــ المادية والمعنوية ــ تعتبر **مظهراً** لطاقاته ،وقدراته ، وانعكاساً لبواعثه ومشاعره ، وما يجري في وجدانه ، تحت تأثير ما استقر في عقله ونفسه من قيم ، وما تقتضيه« القواعد الفكرية ، التي انطلق منها ، عن تفهم ، وقناعة ، ورضا .

ومن هنا ، كان **التفاوت** بين الأفراد، من حيث « **نوعية** » السعي ، **ومدى آثاره،وغاياته** وتختلف بالتالي **المجتمعات البشرية ، باعتبارأن المجتمع ظاهرة يكونها الأفراد** ، أو بعبارة أخرى ، ان المجتمعات البشرية تختلف ، بلقد تكون متباينة من حيث **نوعية الحضارة ، وسماتها الأصيلة** ، ومستواها الانساني ،تبعاً لاختلاف أفرادكل مجتمع ، بما يسودهمن قيم ، وما يتحكم في توجيه نشاطه ممااعتنقوهمن مثل عليا ، اتجه سعيهم المسئول تجاه تحقيقها .

اذن ، منشأ طابع كل مجتمع واتجاهاته، هو « **المكونات المعنوية** » لشخصيات أفراده وعناصرها ، وما استكن في أنفسهم من بواعث ، ومقاصد توجه طاقاتهم ، وتتحكم في ارادتهم ، لتحقيق غايات معينة ارتسمت فيأذهانهم .

ل ــ الأصل أن الانسان الفرد ،لايمكنأن يساهم في تحقيق حضارة انسانية ، اذا كان هو نفسه غير متحضر انسانياً ، وسبيل ذلك ، **هو اعتبارالقيم العليا الخالدة في المقامالأول.**

لذا ، رأى الاسلام ــ وبحق ــ أن هذا« الأصل » لا يعقل أن يكون ممكن التطبيق عملا الا على أساس ربط الخليقة البشرية كافة بمفهوم « الانسان العام » الذي يستلزم تلك « الحقيقة » الخالدة ، ألا وهي « وحدةالنوع الانساني » لوحدة مصدره ، ومن هنا، جعل تلك « **الحقيقة** » « **معتقداً** » حيث أشاراليها في مواطن عدة من الكتاب العزيز ، بنصوص صريحة قاطعة ، قوله تعالى : « يأأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم **من نفس واحدة** ، وخلق منها زوجها ، وبث منهمارجالاكثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيباً (٩٢) ».

وتأكيداً لهذه « **الحقيقة** » وترسيخها فيضمير المجتمع البشري ــ ولا سيما في وجدان القادة ، والزعماء ، والمفكرين ، والساسة ،والمصلحين ــ أشار الى أن « **التمايز** » أو

التفاضل ،انما يكون بمدى تحقيق الخير الانساني العام ، دون أن يكون لاختلاف الأعراق ، والألسنة ، والألوان ، دخل في هذا التفاضل ، بل بما يعود على المجتمع البشري نفسه من أسباب الارتقاء في مدارج المعنى الانساني ، ومعراج العلم والحضارة ،تحقيقاً للمصلحة الانسانية العليا في المجتمع الدولي، لقوله تعالى : « يا أيها الناس ، انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً ،وقبائل، لتعارفوا ، **ان أكرمكم عند الله أتقاكم** (٩٣)» **وليس هذا الجعل الالهي من الانتماء الى الشعوب والقبائل ، بمخل بالوحدة الانسانية فتيلا ، ذلك لأن هذه الانتماءات الجزئية** بدء "طبيعي ، وتدرج واقعي، بحكم الولادة والنشأة الأولى ، سبيلا الى الارتقاء الى مستوى الوحدة الانسانية الشاملة ــ صلاحاً واصلاحاً ــ بحيث يتسع شموله ، ليغدو انسانياً عالمياً ،اذ الاصلاح الحق ، ينبغي أن يتسع نطاقه ، كيلا يحرم من مزاياه أي شعب من شعوب الأرض ، اذ النعمة ينبغي أن تعم ولا تخص، والعدل أو الرحمة ينبغي أن لا يتجزأ ، والا كانت **المحاباة ، والتفرقة بالعنصر** ،وهو ما حاربه الاسلام حرباً لا هوادة فيها •

م ــ أقام الاسلام الدليل البيّن على صدق تلك « الحقيقة » تمهيداً لتحقيق الاصلاح العالمي ، فكانت ــ في منطقه ــ القرآني ــ معتقداً ، بصريح النص القاطع، ــ كما نوهنا ــ مما يكبر على العقلاء ،والمفكرين ، جحده وانكاره •

لا أدل على صدق هذا المعتقد ، من « وحدة التكوين الفطري » منذ أن أبدع **أصل هذا « النوع البشري »** على وجه هذه الأرض ، **انساناً : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة » « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى(٩٤) »** • ولا ريب أن هذا **نظر**" موضوعي حقيقي واقعي ، يقرره العلم ، مما لا يستطيع أحد فيه جدلا •

ن ــ تأصيلا للمعنى الانساني العام في المجتمع البشري ، اعتبر الاسلام التمييز بالعنصر، أو اللون ، أو اللغة ، نقضاً لانسانية الحضارة ، فضلاً عن أن هذا التمييز ، يشكل افتئاتاً صارخاً على مكونات الفطرة ،ومقوماتها ، وخصائصها التي برأ الله الناس عليها مما يحول بالآخرة دون امكان تحقيق منهجه العام في الاصلاح العالمي : ذلك ، لأن مآل هذا « التمييز » ومعقّباته ، أو الادعاءبه ، مذهباً سياسياً ، أو قاعدة فكرية « ايديولوجية » مآل ذلك ، نشوء نزعة « **الاستعلاء** » والاستكبار في الأرض بغير الحق ، على ما هو واقع ومشهود على الصعيد الدولي ، **تلك النزعة البدائية** التي هي أشبه ما تكون بالعصبية القبلية الجاهلية ،ولا سيما اذا أتيح لها من المناخات والأجواء والظروف ما ينميها ، ليستشري فسادها في أرجاء العالم ، بما أوتيت من أسباب القوة المادية المدمرة التي أنتجتها التقنية الحديثة، أو العلم لتجريبي ، حتى أضحت تلك « القوة» الرهيبة المذهلة ، هي « المتحكمة » في العلاقات الدولية في عصرنا هذا •

هذا ، والدليل على استشراء الفساد ولاضطراب العالمي ، ما نراه اليوم ، من افضاء تلك النزعة من الاستكبار ، والاستعلاء ، الى شن حروب استعمارية شرسة على الشعوب

الآمنــة ، فتسلب حقوقهــا ، وتدمر معالــمحضارتها ، وتُشردها من أوطانها ، ظلماً وعتواً ، وما أمر الصهيونية ، ومن خَلفَها،ممن يغذي نزعتها التوسعية الاستيطانية في البلاد العربية ، عنا ببعيد ! ! .

هذا ،ومن أسف أن نرى مبدأ التمييز العنصري الظالم ، قائماً متحكماً حتى في هذا القرن العشرين ، بل وفي أرقى الدول حضارةمادية ، اذ تراه يتخذ من قوانينها الداخلية سبيلا الى تنفيذه قسراً وبسلطان الدولة ،ليصبح وضعاً اجتماعياً ، وسياسياً قائماًفيها.

وتأسيساً على هذا ، يمكن القول بأن «الحضارة المادية » مهما كان حظها من التقدم التقني ، لا تستلزم « الحضارة الانسانية »بالضرورة ، ولا تعتبر معياراً لها ، بل قد تكون ضداً عليها ، وهو ما جاء الاسلام على نقيضه تماماً ، فثبت يقيناً ــ فيما نحسب ــ أن « القيم الروحية » الموضوعية ،المطلقة ،والمثل العليا الخالدة ، قد باتت اليوم ،ضرورة حيوية ، ولا سيما لتحقيق مبدأ « **الاصــلاح العالمي** » المبرء من نزعة الاستعلاء والاستكبار، صدى للتمييز بين البشر فيما ليس لهم كسب في ايجاده ، من اختلاف اللون ، أو العنصر، أواللغة، ذلك المبدأمن الاصلاح الشامل المبني على المساواة، والحرية، والتكافل الانساني، والعدل المطلق بين البشر ، بل وعلى الرغم من اختلاف الدين ، اذ « لا اكراه في الدين، قد تبيَّن الرشد من الغي » .

ص ــ تكوين الانسان « معتقداً » على أساس من « القيم الروحية » الموضوعيــة المطلقة ، ذو أثر بالغ في مدى تشكيل أبعـادتصوره للحياة والأحياء ، وأن عناصر هذا « المعتقد » ومفاهيمــه الكبرى ــ بما هــي المنطلقات الأساسية للنشاط الحيوي في كافة أنواعه ومناحيه ، توجيها ، وتحديد مسار ،ولا سيما على الصعيد الدولي ــ مــن أهم العوامل المؤثرة في امكانية تحقيق مبدأ الاصلاح العالمي الذي نادى به الاسلام ، منذ نزوله على الأرض وحياً ، وتفسير ذلك :

أن الاسلام حين أقام حضارته الانسانية على أساس من المفهوم الحقيقي الموضوعــي الواقعي للانسان العــام ، حيثمــا كــان ،دون تزييف أو تحوير ، أو اجتزاء لذلــك المفهوم الفطــري ، أو تمييز باللــون ، أوالعنصر ، أو اللغة ، أو الدين ، وشرع هذا المبدأ تشريعاً عالمياً انسانياً ، وأبلغه للناس كافة ، في خطاب الهي انساني عام ، أقول : ان الاسلام اذ شرع ذلك ، كان منطقياً مــع نفسه حين اعتبر « الانسان » من حيث هو ، وحيثما كان « **القيمــة الكبرى** » في هــذاالوجود ، بل ومهيمناً عليه ، باعتبار أن هذا « الكون » بل وما في **السموات** ، قد خلــق مسخراً له ، يتصرف فيهما بطاقاته وملكاته التي فطر عليها ، تصرف ابداع ، واصلاح،وتعمير ، وانتفاع ، واستثمار ،بل جعل ذلك، **مادة ابتلائه** في حسن العمل وصلاحه مــدى حياته ، بل اعتبره «**الغاية القصوى** » مــن الوجود الانساني كله على وجه هذه الأرض الى أن تقوم الساعة ، تجد هذا صريحاً في قوله تعالى : « وسخر لكم ما في السموات ،وما في الأرض » أي من أجل اصلاح هــذا العالم ، وقال تعالى : « تبارك الذي بيــده الملك ، وهو على كل شيء قدير ، الذي خلق الموت والحياة ، **ليبلوكم أيكم أحسن عملا** »

وقال جل شأنه : « هو الذي أنشأكم من الأرض ، **واستعمركم فيها » أي طلب اليكم اعمارها ، مادة ومعنى** ، لاطلاق النص ·

هذا المنطق القرآني ، واتساقه ، بين تشريعه الانساني العام وقيمه ، من جهة ، وبين مقتضيات مبدئه المعلن على الناس كافة من الاصلاح العالمي ، قد ارتفع بالانسان الفرد عن تصور العنصرية ، وسائر ألوان العصبية البدائية المحدودة ، أساساً لمنطلقه ، أومحوراً لنشاطه الفكري ، أو غاية لسعيه الدنيوي بعامة ، حرصاً من الاسلام على تحقيق مهمته الكبرى ، من الاجتياز بالانسان ـ بعد تكوينه بنيته المعنوية ، معتقداً ، وبناء شخصيته الكاملة ـ العقبة الكأداء التي تحول دون تحقيق « انسانية الحضارة للمجتمع البشري كله ، حيث جعل « **التفاضل** » مشتقاً معياره من معدن هذا المبدأ ، عملا صالحاً مبدعاً نابعاً من الذات الانسانية ، وليس معياراً منحوتاً من أمر خارج عنها ، أو لا كسب لها في ايجاده ·

فتلخص ، أن الاسلام قد أقام منهجه في الاصلاح العالمي ، على أساس من « **المفهوم الحقيقي الموضوعي للانسان العام** » ·

واعتبره « **القيمة الكبرى** » في هذا الوجود ، وحمّله « أمانة التكليف » لينهض بمقتضيات هذا الاصلاح العالمي الشامل ، وقد أعد **لذلك** اعداداً فطرياً خاصاً ، وفي أحسن تقويم ، **خلقاً وتكويناً** ، تمكيناً له من أدائها ، **وتفسيراً** لاستخلافه في الأرض واقعاً ، وتبريراً لتفضيله وتكريمه على سائر المخلوقات ، بدليل تسخيرها له ، بل وتسخير ما في السموات أيضاً ، ولم يكن ذلك أمراً وهمياً يستعصي على التطبيق ، والتنفيذ ، بل رأيناه يتحقق فعلا فيما قام به من منجزات مذهلة ، كانت مظهراً لابداعه العلمي ، ولا يزال مستمراً في ابداعه هذا ، مؤذناً بانجازات مستقبلية ليس من اليسير على العقل تصورها ، أو تحديد مداها ·

تبين لنا ، أن نزعة العنصرية ، والاستعلاء ، كأثر لها ، من المستحيل تصورها بالنسبة الى الانسان المسلم ، باعتبار أن طبيعة « القيم الروحية » التي هي مناط التوجيهات في الاسلام ، تأباها اباء يجعل من المستحيل استساغتها ، بل هي عصيان واثم كبير ، وفساد عريض ، بدليل أن النصوص القاطعة التي نهضت بتلك التوجيهات ، جاءت لتحذر منها بما يوجب **خسران الآخرة** ، « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون **علواً في الأرض**، ولا فساداً(٩٥)» ولا جرم أن « الاستعلاء والافساد » كليهما ، سبب الاضطراب العالمي ، فثبت ، أن نقيضيهما هما سبب الاصلاح العالمي ، وهو ما جاء به الاسلام ، كما ترى ·

ع ـ **القيم الروحية ضرورة حيوية ـ ولا سيما في عصرنا هذا ـ لتحقيق مقتضيات الاصلاح العالمي ، بدليل أن كثيراً من ساسة الاستعمار في العالم ، وفي هذا القرن بوجه خاص ، لا يعوزهم « الضمير » ولكنه معطل الأحكام ، لغلبة الهوى ، والأثرة ، فضلا عن أن هذا « الضمير » يتأثر حتماً بعوامل شتى ، من البيئة ، والنشأة الأولى ، والتقاليد والعادات السائدة ، والأفكار الضالة المنبثقة عن نظريات سياسية فاسدة ، مما يفسد عليه تصوره ، أو يعتقل أحكامه ·**

ان عدم الايمان بالقيم الروحية ، والمثل العليا ، ومبادىء الأخلاق التي اعترفت بها البشرية جمعاء منذ أقدم العصور ، وسلخها عن السياسة ، أو عدم تبنيها « ايديولوجياً » كمنطلقات أساسية للتصرف السياسي العام — ان تعذر اعتناقها دينياً — سبب رئيسي من أسباب افساد الحياة الانسانية على وجه هذه الأرض ، لقوله تعالى : واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ، **فانسلخ منها** ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين ، ولو شئنا ، لرفعناه بهـا ، ولكنه أخلد الى الأرض ، واتبع هواه(٩٦) » ولقوله تعالى : « ولو اتبع الحق **أهواءهم ، لفسدت السموات والأرض** » وما عرفنـا كالهوى عابثاً بالتشريع ، لاطراحه قواعـد العدل ، والحق ، والمساواة ، والحرية ، والتكافل الانساني العام الملتزم بتلك المفاهيم ، وغير ذلك من القيم الخالدة وقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك ، أن تأثير « القيم الروحية » في ميدان النفس الانسانية ، لا يضاهيه تأثير الضمير الانساني فيه ، بل لا يدانيه باطلاق على ما هو واقع ومشهود على الصعيد الدولي بوجه خاص ٠

لذا ، كانت هي ميزان العمل الانساني العظيم المبرء من شرة الهوى ، ونزعـة العنصرية ، توقظ الضمير ، وتزكي النفس الانساني ، وتسمو بها الى ما تتشوق هي اليه من الفضائل والمثل ، وتسدد الارادة ، مما يشكل بالآخرة الأساس المكين لاصلاح هـذا العالم الذي لن يتم على الوجـه الأكمل الاصلاح المعتقد ، وما يتفرع عنه مـن القيم الانسانية الخالدة !

هذا ، وبالله التوفيق ٠

الدكتور محمد فتحي الدريني
عميد كلية الشريعة ورئيس قسم العقائد والأديان في جامعة دمشق

□ **الحواشـي :**

١ — النساء / ١٢
٢ — النور / ٢١
٣ — النساء / ١٢٠
٤ — الموافقات — حـ ٣ — ص ٣٥٨ وما يليها — للامـام الشاطبي ٠
٥ — المرجع السابق — حـ ٣ — ص ٣٦١ — يقول الشاطبي ما نصه : « ومواطن الاغترار يطلب فيها التخويف أكثر من طلب الترجية ، لأن درء المفاسد آكد ٠
٦ — التوبة / ١١١ ٠
٧ — المؤمنون / ٦٠
٨ — نـوح / ١٣
٩ — العنكبوت / ٥
١٠ — الموافقات — حـ ٣ — ص ٣٦٥ — ص ٣٦٦ ٠
١١ — المؤمنون / ٥٧ ٠
١٢ — البقرة / ٢١٨ ٠
١٣ — الاسراء / ٥٧ ٠
١٤ — المظنة هي الاحتمال ٠
١٥ — الانشقاق / ٦ ٠
١٦ — راجع تفسير جزء « عمّ » تفسير الشيخ محمد عبده ٠
١٧ — الزمر / ٥٣ — ٥٤ ٠
١٨ — الموافقات — حـ ٣ — ص ٣٦١ ٠
فقد جاء فيه ما نصه :
« ان اناساً من اهل الشرك ، كانوا قد قتلوا واكثروا ، وزنوا واكثروا ، فاتوا محمداً — صلى الله عليه وسلم — فقالوا : « ان الذي تقول ، وتدعو اليه ، لحسن ، لو تخبرنا النا عملنا ، كفارة ، فنزلت ٠
١٩ — النساء / ١٢٣ ٠
٢٠ — الأحزاب / ٣٨ ٠
٢١ — الروم / ٤١ ٠
٢٢ — البقرة / ٢٠٥ ٠
٢٣ — النساء / ٢٦ — ٢٧ ٠
٢٤ — الأحزاب / ٦٢ ٠
٢٥ — يوسف / ١١١ ٠
٢٦ — آل عمران / ١٣٧ ٠
٢٧ — يوسف / ١١١ ٠
٢٨ — البقرة / ١٢٩ ٠

٢٩ ـ الشمس / ٩ ٠
٣٠ ـ الأحزاب / ٣٨ ٠
٣٢ غافر / ٨٥ ٠
٣٣ ـ العنكبوت / ٢ ـ ٣ ٠
٣٤ ـ القيامة / ١٤ ٠
٣٥ ـ الحجرات / ١٥ ٠
٣٦ ـ البقرة / ١٧٧ ٠
٣٧ ـ النمل / ١٤ ٠
٣٨ ـ الأنعام / ١٠٤ ٠
٣٩ ـ الأعراف / ٢٠٣ ٠
٤٠ ـ الأحزاب / ٣٨ ٠
٤١ ـ الاسلام دين العلم والمدنية ـ ص ٩٧ ـ للامام الشيخ محمد عبده ٠
٤٢ ـ فاطر / ٤٣ ٠
٤٣ ـ يوسف / ١١١ ـ ١١٢ ٠
٤٤ ـ النساء / ١٠٤ ٠
٤٥ ـ النساء / ٣٦ ٠
٤٦ ـ النساء / ١٠٤ ٠
٤٧ ـ الملك / ١ ـ ٢ ٠
٤٨ ـ الأحزاب / ٣٨ ٠
٤٩ ـ البقرة / ٢١٤ ٠
٥٠ ـ الحج / ٤٠ ٠
٥١ ـ محمد / ٧ ٠
٥٢ ـ المائدة / ٥٠ ٠
٥٣ ـ الحجر / ٣ ٠
٥٤ ـ النساء / ١٠٤ ٠
٥٥ ـ البقرة / ١٩١ ٠
٥٦ ـ الأنفال / ٥٧ ٠
٥٩ ـ الأنفال / ٦٠ ٠
٦٠ ـ آل عمران / ١٤٠ ٠
٦١ ـ النساء / ١٠٤ ٠
٦٢ ـ النساء / ٧٤ ٠
٦٣ ـ النساء ١٠٤ ٠
٦٤ ـ آل عمران / ١٣ ٠
٦٥ ـ طه / ١٢٦ ٠
٦٦ ـ طه / ١٢٥ ـ ١٢٦
٦٧ ـ التوبة / ٦٧ ٠
٦٨ ـ العصر / ١ ـ ٥ ٠
٦٩ ـ الحشر / ١٩ ٠
٧٠ ـ النساء / ٣٦ ٠
٧١ ـ تفسير الطبري ـ حـ ٦ ـ ص ٢٢٣ طبع دار المعارف ـ القاهرة ٠
٧٢ ـ المؤمنون / ١١٥ ٠
٧٣ ـ آل عمران / ٦٢ ٠
٧٤ ـ يوسف / ١١١ ٠
٧٥ ـ آل عمران / ١٢٣ ٠
٧٦ ـ الأنفال / ١٢ ٠
٧٧ ـ سيرة ابن هشام ـ حـ ٢ ـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد ٠
٧٨ ـ الأنفال / ٧ ٠
٧٩ ـ الأنفال / ٧ ـ ٨ ٠
٨٠ ـ الأنفال / ٦ ٠
٨١ ـ الأنفال / ٤١ ٠
٨٣ ـ تفسير الطبري ـ حـ ١٣ ـ ص ٥٦٠ ـ ص ٥٦٣ ٠
٨٣ ـ الأنفال / ٦ ٠
٨٤ ـ الأنفال / ٦ ٠
٨٥ ـ الأنفال / ١٧ ٠
٨٦ ـ الصافات / ١٤١ ٠
٨٧ ـ الرعد / ١١ ٠
٨٨ ـ سيرة ابن هشام ـ حـ ٢ ـ ص ٦١٤ ـ تحقيق الأستاذ مصطفى السقا ٠
٨٩ ـ المرجع السابق ٠
٩٠ ـ الصافات / ١٤١ ٠
٩١ ـ الروم / ٣٠ ٠
٩٢ ـ النساء / ١ ٠
٩٣ ـ الحجرات / ١٣ ٠
٩٤ ـ الحجرات / ١٣ ٠
٩٥ ـ القصص / ٨٣ ٠
٩٦ ـ الأعراف / ١٧٥ ٠

☐ المصادر والمراجـع

- القرآن الكريم ٠
- السنة النبوية المطهرة ٠
- الموافقات في أصول الشريعة ـ للامام الشاطبي ٠
- تفسير الطبري ـ طبع دار المعارف ٠
- سيرة ابن هشام ـ تحقيق الشيخ محيي الدين عبدالحميد
- الاسلام دين العلم والمدنية ـ للامام محمد عبده ٠
- تفسير جزء عم ـ للامام محمد عبده ٠
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ للاستاذ محمد فؤاد عبدالباقي ٠

عودة إلى موسيقى القرآن

د. نعيم اليافي

تنزلت الكتب السماوية بلغة ايقاعية موزونة كما يرى علماء الاديان الثقات • وغاية كاتب المقال أن يشرح ما استطاع الوزن والايقاع في التنزيل الكريم • وهو يستعمل لفظ الموسيقى بهذا المعنى لتقوية ما يذهب الى اظهاره منهما في ذلك البيان المعجز • ويدرك الدكتور نعيم ذلك فهو يقول : « حقا أنه لا يوجد فيه ولا في الأدب عامة موسيقى بالدلالة العلمية الدقيقة لهذه الكلمة ما دام مقام الصوت منعدما ••• » وعلى هذا فاستعمال لفظ الموسيقى هنا من باب المجاز •

وقد قسم الكاتب بحثه أقساما درس في المقدمة اتزان الايقاع في الفواصل ثم مصدر النغم يريد به الايقاع والوزن في النص ، ثم مصدر المقرىء يريد به فن التلاوة التجويدية ، ثم مصدر المتلقي يريد به أثر التلاوة في النفس الانسانية ، ونحسب أن الكاتب كان يفكر من خلال الأقسام في مكانة الوقف وأنواعه من لازم وممنوع وجائز ومتعانق مع بقية مصطلحات الضبط سواء كان ذلك في ابراز الايقاع والوزن أو في تجويد التلاوة أو في أثرها العميق لدى السماع • وتلك القواعد تعطي التلاوة نصيبا آخر من حرية التجويد الخاصة بالمقرىء ، كما تلون أثر التلاوة في النفس المنصتة •

هذا وقد أبان الدكتور نعيم أموراً مهمة في ايقاع النص ووزنه وكذلك بعض الخصائص في تلاوة ثلاثة من كبار المقرئين• أما بيان أثر التلاوة في النفس فقد أجمله في الختام وربما عاد في المستقبل فتناول هذا الأثر بشيء من التفصيل زيادة على تناول بعض العلماء القدماء له من أمثال الغزالي وذلك في كتابه « الاحياء » حين بحث آداب التلاوة وأعمال الباطن في التلاوة •

ع. ك. ي

* * *

ينبع اهتمامي بموسيقى القرآن من أمرين: أولهما تأكيد التلاحم الوشيج في طبيعة التعبير الأدبي بين الإثارة الوجدانية ونظام الأصوات ، وثانيهما ابراز مكانة الايقاع في اعجاز النص وقدرته على الابلاغ • وقد سبق أن نشرنا مقالتين في هذا الشأن(١) •

وقد أرضت تلك المقالات فريقاً وأغضبت آخر ، ومن غضب أو من لم يستحسن احتج بأن القرآن كتاب مقدس لا يجوز أن نخضعه لمصطلحات العلم البشري الوافد الينا من الغرب أو من الشرق ، وكان يخلط في بعض ما ذهب اليه ـ كما أظن ـ بين فن الأداء الخاص لقارىء النص ، وبين مكونات النص الايقاعية أو طرائقه في تشكيل النغم ٠

أحاول في هذه المقالة أن أناقش هؤلاء وهؤلاء وأعرض وجهة نظري تحت عنوانين: القرآن والموسيقى ، ومصدر النغم في هذه الموسيقى ٠ هذا مع الاحتراز الدائم بأن التنزيل الكريم فوق كل الاعتبارات البلاغية والموسيقية ولكن هذه الاعتبارات تعين بعض الشيء على تفهم آثاره البليغة والعميقة ٠

☐ القرآن والموسيقى :

ملاحظة: الموسيقى في القرآن أمر يرفضه قوم ، ويتحرج من ذكره آخرون ، يرفضه أولئك الذين يزاوجون بين الموسيقى والوزن الشعري قافية ورويا وتفاعيل فينزهون القرآن عن هذا الوزن قافية ورويا وتفاعيل ٠ ويتحرج منه هؤلاء الذين يحسون فيه نغماً وجرساً وايقاعاً ، ولكنهم يجدون في المصطلح مادة غريبة ونابية عنه وعن مستلزماته من ورع وتقى وصلاح ٠

وموقفنا هو المقابل لهؤلاء وأولئك ، فنحن لا نرفض دعوى الموسيقى ولا ملاحظتها في القرآن لأن الوزن أو العروض لا يشكل الا وجهاً واحداً لقضية لها جانبان ثانيهما هو الايقاع ، واذا كان القرآن ينأى عن وزن الشعر ولو تلامحت فيه بعض أشطره وأبياته فانه لا ينأى عن الايقاع بل يتوسل به في نسقه العالي الجميل حقيقة لا ادعاء ، ولا نتحرج من استعمال المصطلح ما دام هذا المصطلح أو سواه مما يحمل معناه قد دخل معجمنا ولغتنا ونقدنا وأصبح جزءاً من فكرنا التراثي ، ونحن في زمن يعنينا فيه أن نوضح خصوصية كتابنا المقدس ومبلغ اعجازه فناً وأداء أكثر مما تعنينا أو تحرجنا حساسية فائقة أو زائفة تجاه بعض المصطلحات ، وانه لخير لنا ـ فيما أتصور ـ ولقرآننا أن نستعمل مصطلحاً عالمياً هو من خصائص التعبير السامي الرفيع فنثبت أن أسلوب القرآن ـ معجزة العربية الأولى ـ يتوسط به ويتوسل ، ويبدع في هذا التوسط والتوسل من أن تنأى عن استعماله ونتحرج ونؤثر عليه كلمات لا يفهمها سوى أصحابها ، كلمات أصبحت اليوم من الماضي البعيد ٠ ثم لنا أن نتساءل ما جدوى الرفض أو الحرج ما دام المصطلح لا يمس العقيدة ولا الشريعة بقدر ما يوضح روعة القرآن أسلوباً وأداء ، ويبين أو يساعد على بيان مدى اعجازه ؟٠

لا جناح عليّ اذن ولا تثريب اذا استعملت مصطلح الموسيقى في القرآن بالدلالة التي أوضحتها ، وسأصرف همي في هذا الفصل للتدليل على أن الكتاب الكريم في تعبيره وطريقة أدائه يسعى نحو الموسيقى ، ويتوخاها بدقة كبرى ، يتغياها عن قصد وهدف حتى يكون في أسلوبه أوقع وأحكم ، وفي تعبيره أكثر أناقة وأشد اشراقاً وتأثيراً ٠

سأفرق تفريقاً اعتبارياً بين الظواهر الأسلوبية التي تساعد على الأداء الموسيقي والظواهر الايقاعية أو قواعد التشكل ، في الظواهر الأسلوبية سواء أكان ذلك في فواصل الآيات أو سياقها تختار الكلمة غريبة أو مألوفة ، تقدم أو تؤخر ، تحذف أو تذكر يعدل عنها أو اليها لأسباب عدة من بينها الموسيقى . أما في قواعد التشكل أو الظواهر الايقاعية فان وضع الحرف أو الكلمة أو الجملة على هذا النحو من الأنحاء انما يكون لملامح فنية تأتي في مقدمتها الموسيقى ، وبذلك يضحي التعبير أبرع والتأثير أروع ، ولما كنا لا نفصل في طريقة دراستنا بين المعنى والمبنى، بين دلالة التركيب وشكله فليس لزاعم أن يزعم بأن وضع اللفظ على هذا النحو انما كان لمعنى في السياق وليس لضرورة الايقاع ومن أجله .

لقد لاحظ بعض القدماء مبلغ اتزان الايقاع في الفواصل فنقل السيوطي في الاتقان(٢) عن شمس الدين بن الصائغ أربعين وجهاً ونيفاً سماها « الأحكام التي وقعت في آخر الآي مراعاة للمناسبة » ورحنا نتتبع هذه الأحكام وسواها من الضروب المختلفة فأسقطنا معظمها لعدم وضوح المسوغ النغمي أو لأنها أقرب الى أن تدرس في علم المعاني من أن تدرس في ميدان الظاهرة الأسلوبية - الايقاعية(٣) ، وأضفنا غيرها ، ولم نقتصر في رصد الوجوه والأحكام على الفواصل وحدها بل عمدنا الى نسق الآيات وسياقها فكانت لنا جملة من الظواهر الموسيقية نحاول أن نمثل لها :

الظـاهرة	الصورة الحالية	الصورة القياسية
١ - التقـديـم :		
- تقديم المفضول على الفاضل	برب هارون وموسى	برب موسى وهارون
- تقديم الضمير على ما يفسره	فأوجس في نفسه خيفة موسى	فأوجس موسى خيفة في نفسه
- تقديم ماهو متأخر في الزمان	فلله الآخرة والأولى	فلله الأولى والآخرة
- تقديم خبر كان على اسمها	ولم يكن له كفواً أحد	ولم يكن أحد كفواً له
- تقديم المفعول على الفاعل	لقد جاء آل فرعون النذر	لقد جاء النذر آل فرعون
٢ - الحذف :		
- حذف المفعول	ما ودعك ربك وما قلى	.... وما قلاك
- حذف ياء الإضافة	فكيف كان عذابي ونذر	.... ونذري
	فكيف كان عقاب	.... عقابي
- حذف ياء المنقوص	الكبير المتعال ، يوم التناد	.. المتعالي ، التنادي
- حذف ياء الفعل غير المجزوم	والليل إذا يسر/ ذلك ماكنا نبغ	يسري ، نبغي
٣ - الذكر :		
- أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى		ومناة الثالثة/أو/الأخرى
- تلك - إذن - قسمة ضيزى		تلك قسمة ضيزى

الظاهـرة	الصورة الحاليـة	الصورة القياسية
٤ ـ الخطــف :		
	ـ الـذي خلقني فهـو يهـدين ٠٠ ويسقـين ٠٠	يهـديني ويسقيني ٠٠
	ـ يشـفين ٠٠ يحيـين	يشفيني ٠٠ يحييني
٥ ـ صـرف ما لا ينصـرف :		
	ـ قـواريـرا ٠٠٠ قـواريـر(*)	قـواريـر ٠٠ قـواريـر
٦ ـ العـدل عن الافراد الى سـواه والعكس :		
	ـ فـلا يخرجنكمـا مـن الجنـة فتشـقى	٠٠٠ فتشـقيا
	ـ واجعلنـا للمتقـين إمـامـا	٠٠٠ أئمـة
	ـ لا بيـع فيـه ولا خـلال	٠٠٠ ولا خلـة
٧ ـ ايراد أحـد الجزأين غـير مطـابق للآخر :		
	ـ وليعلمـن الله الذيـن صـدقـوا وليعلمـن الكـاذبـين	٠٠٠ الذين كـذبوا
	ـ أولئـك الذيـن صـدقـوا وأولئـك هـم المتقـون	٠٠٠ الذين اتقـوا
٨ ـ تغيـير بنيـة الكلمـة :		
	ـ طـور سـينـين	طـور سـينـاء

نختار بعض هذه الظواهر لدراستها :

● يقول تعالى: «**أفرأيتم اللات والعزى، ومنـاة الثالثة الأخرى**» ، لو قرأنا بحذف الثالثـة مرة والأخرى مرة لاختلت الفاصـلةوتأثر الايقاع لأن الآيـة تنقسم الى جملتين موسيقيتين متوازنتين ومتناسـبتين كلتاهمـامؤلفـة مـن ثلاث وحـدات « أفرأيتم اللات والعزى » ، « ومنـاة الثالثة الأخرى » ، فلوحذفنا مـن الجملة الأخيرة احـدى الوحدتين الثانيـة أو الثالثة لبقيت وحدتان وفقـدتالآية تناظرها واختل بالتالي تناسقها الصوتي أو النغمي ٠

● ويقول : « **ألكم الذكر وله الأنثى؟ تلك ـ اذن ـ قسمة ضيزى** » ، لو قرأنا الآية بحذفكلمة اذن لاختل الايقاع الذيلا يستقيمويتوازن الا بهـا وذلك :

١ ـ لأن التناظر بين جزأي الآية يتلاشىفكلاهما مؤلف من أربع وحدات ، نحن بازاء سلم موسيقي تام ، أربعـة أزمنـة صاعدة ،وأربعة أخرىهابطة، ولكل منها قرار وجواب٠

★ قراءة نافع والكسائي وعاصم في زوايا أبي بكر بالتنوينفيهما وحمزه وابن عامر والى عمرو وحفص بغير تنوين فيهما ، وابن كثير تنوين الأول ٠

٢ ـ تمثل كلمة اذن سكتة موسيقية أو وقفة ، ان النَّفَس عندها يستريح قبل أن يصل الى النهاية الموسيقية التي فرضت اللفظ الغريب ضيزى مراعاة للفاصلة ولو لم تكن هذه الوقفة لاندفع الصوت حتى ارتطم بهذه المفردة الخشنة الثقيلة التي تحمل معناها ، ولا تقوم مقامها كلمة أخرى .

● ويقول: « **أفرأيتم ما تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فانهم عدو لي إلا رب العالمين ، الذي خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذي يميتني ثم يحيين ، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين** » ، لقد خطفت ياء المتكلم في نهاية الآيات محافظة على رؤوسها حتى تتناسب أو تنسجم مع كلمات تعبدون والأقدمون والعالمين والدين ، ولو أعدنا الياء وقرأنا لشعرنا بنوع من الاختلال يبدو جلياً لكل ذي سمع رهيف .

● ويقول : « **يوم يدعو الداع الى شيء نكر ، خشّعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كانهم جراد منتشر ، مهطعين الى الداع** » ، القياس في الآية أن نقول الداعي بارجاع ياء المنقوص ، واذا نحن لم نخطف هذه الياء أو نحذفها في أثناء التلاوة لوجدنا ما يشبه الكسر في ايقاع العبارة ، ولما توازنت لفظة الداع مع كلمة عسر في رأس الآية .

● وقد لا يكون هناك حذف ولا تقديم ولا عدول عن صيغة الى صيغة ومع ذلك فانا نلحظ في الآية الموسيقى الكامنة في التركيب والتي تختل لو غيرنا نظامه ، ولنقرأ قوله تعالى : « **وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل** ... » ، ان التوازن أو التقابل بين المد في ابراهيم والمد في اسماعيل واضح ومتناسق فلو جعلنا اسماعيل يأتي مباشرة بعد ابراهيم وقرأنا لتوالى مدان وأحسسنا بالتالي أن الوزن سيختل لا محالة .

حين نتملى هذه الأمثلة والنماذج ، وننعم النظر فيها فانا نلاحظ أن التناسب أو الاتزان في التعبير هو مظهر في بيان القرآن، وهذا المظهر الايقاعي المتلاحم ينسجم مع طبيعة السماع أو التلقي ، فالأذن ترفض أن تتقبل الارتكاز المتتالي أو النبر الشديد في كلمتين متعاقبتين ، بل انها لترفض صيغة النقرة القوية يليها نقرتان خفيفتان أو زمنان ضعيفان وإعادة ذلك بصورة معكوسة أو صيغة نقرة قوية فضعيفة ثم أخرى قوية فرابعة ضعيفة تساوي زمن الثانية ، وانما تقبل أو تستريح للتوازن وتلذ به وتنتشي .

لنقرأ قوله تعالى : « **ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، إذ نادى ربه نداء خفيا ، قال رب إني وهن العظم مني ، واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك ربِّ شقيا** » ، تشكل وسط الآية الايقاعي حسب مواطن الارتكاز أو النبر ، أو حسب النقرات القوية والضعيفة هو على الصورة التالية :

قال	رب	إني	وهن	العظم	مني
●	•	●	•	•	●

وهي صورة متوازنة ومنسجمة تقبلها الأذن وتستريح لها ، فلو صرفنا السمع عن موسيقى الفواصل مؤقتاً ، وحاولنا أن نغيروضع كلمة منّي فنجعلها سابقة لكلمة العظم ، وأعدنا الياء المحذوفة أو المخطوفة الى كلمة رب حتى يصبح التشكل النغمي هكذا :

قال ربي إنـي وهن مني العظم

● ● • ● ● •

لأحسسنا ما يشبه التقلقل أو الاضطراب في نغم الايقاع ، والسبب في ذلك واضح لأن الأذن ترفض صورة الارتكاز المتتابع أو توالي النقرات القوية والضعيفة بالصورة السالفة، صورة التردد الرتيب وتؤثر عليه التنوع مع التناسق ، أو الانسجام في توالي المقاطع ٠

ان دور الموسيقى في القرآن ـ هذا الدور الكبير ـ لا تنبع أهميته من أنه أحد عناصر الأسلوب الفني أو وسيلته البارزة وسيلة التصوير والتعبير والتأثير فحسب بل لأن له هدفاً دينياً أولا ، ولأننا نستطيع أن نجعله ـ ثانياً ـ أساساً أو معياراً أو مفتاحاً ـ اختر ما شئت ـ لأحد علوم القرآن الكريم ٠

فالايقاع ذو هدف ديني من جانبين جانب الحافظ وجانب المستمع ، الأول يساعده على حفظ القرآن وتذكره وتلاوته ، والثاني يجعله ينفعل له ويتأثر به ويهتز ، ويحدثنا اليوم علماء اللغة وعلم النفس الموسيقي أن ادراك الطفل لنغم الكلام وجرسه يسبق ادراكه لمعناه وأخيلته ، ويقرون أن لدى الانسان ميلاغريزيا أو استعداداً فكرياً لالتقاط وتذكر جملة من المقاطع الصوتية المنغمة والمترددة أكثر بكثير من استعداده لالتقاط بعض المقاطع العادية غير الموسقة من الكلام ، وكل من شاهد حفظة القرآن من الولدان يعرف أنهم يجدون سهولة واضحة في حفظه وتذكره أكثر مما يجدون في حفظ غيره من النصوص وتذكرها لأن الايقاع يساعدهم على هذا ٠

وما يقال عن الحفظة الأطفال يقال عن المتلقين الكبار الذين يفعل فيهم القرآن فعل السحر حين يتلونه أو يستمعون اليه من قارىء مجود يرتل على آذانهم آياته البينات باحكام ، انهم يجدون له في أنفسهم آثاراً من صور الخشوع والحزن والتأمل والبشرى والحماسة والانفعال والاندفاع والبكاء ،وربما صاحبتها لدى العامة هزات جسمانية وآهات داخلية وصيحات عالية ٠٠ ذلك كله بسبب النشوة الموسيقية، نشوة النغم العجيب، نغم القرآن الذي يملك القدرة على تذكيرنا بالزمن والقدرة على محو شعورنا به في آن ٠

وبالايقاع أو بالموسيقى نستطيع أن نعرف المكي من المدني لا سيما في تلك السور التي وقع حولها خلاف فقيل انها مكية كما قيل انها مدنية(٤) ، ويمكن عن طريق فحص الموضوع والأسلوب وطريقة الأداء والوقوف عند نغم الآيات وايقاعها أن نحدد ـ ونحن مطمئنون ـ مكية بعضها مثل التكاثر والعاديات والزلزلة والرعد والرحمن ، ومدنية بعضها الآخر مثل الجمعة ومحمد والحج والنساء ،ولنأخذ سورة الزلزلة مثالا :

يقـول تعـالى :

« **إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالهـا ، وقال الانسان مالهـا ، يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها ، يومئـذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شـراً يره** » ٠

تبـدأ حركة النص عنيفة قويـة ، انه يوم القيامـة حيث ترجف الأرض وتزلزل ، وتنفض ما في جوفها ، تتخفف من أثقالها التي حملتها وناءت بهـا ، مشهد مروع مخيف أين منه مشاهد الدنيا في زلازلها وبراكينها ٠٠؟! ،ويقف الانسان دهشاً ضائعاً مذعوراً يتساءل: ما الأمر ؟ ما لهـذه الأرض تـرج وتزلزل ،ماذا أصابهـا ؟ ، وتتحـدث الأرض ، تصف ما جرى لهـا ، انه أمر الله ، أمرها أن تمورفمارت ، أن تقذف ما في بطنها فقذفت ، هنا والانسان مشدوه يكاد لا يلتقط أنفاسـه ،خائف يترقب ، في لمحـة سريعة يعرض مشهد القيامة مـن البعث حتى الحساب ، النـاس يصدرون كالجـراد ، وينتشـرون موزعـين متخالفين، فقوة الزلزلة ، هول البركان العظيم فرقهـم ، جعلهـم مذعورين خائفـين أشتاتاً أشتاتاً حيارى يهرعون في كل اتجـاه ، ولكن إلى أين؟ إلى الميزان ليحاسبوا، ليروا أعمالهم، فمن يعمل الخيـر أو الشر مهما يكن هـذا أوذاك ضئيلا ودقيقاً سيجده ماثلا إزاءه ، يراه رأي العـين ٠

ايقاع النص يساوق هذا المعنى ويحمله فهـو مثلـه لاهث سـريـع يرجف كالأرض وكالانسان فرقاً واضطراباً ٠٠٠ كل ما فيه متحرك بارز ماثل ، الكلمات في جرسـها ، في طباقهـا وتوافقها ، فيما تنشره مـن أفيـاء وظلال ٠٠ الزلزلة ، أثقال ، مثقال ، ذرة ، أشتاتاً ، ليروا ، يره ٠٠٠ تشي بالموقف وتعبرعنـه ، ومع ذلك فهذه الكلمات وسائر ما في المعجم من أمثالها لا تبلغ في وصف المشهد قدرما يبلغه الخيال السمعي والبصري حين يتملى النص ، فالسورة هزة ، وهزة عنيفة للقلوب الغافلة ، هزة يشترك فيها الموضوع والمشهد والايقاع اللفظي ، انها صيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها ، فما يكادون يفيقون حتى يواجههم الحساب والوزن والجزاء في بضـع فقرات قصار ، فهل هـذا أو بعض هذا مما يجيء في السور المدنية ، أو تعبر عنه وتصفه السور المدنيـة ؟!

هـذه هي الموسيقى في القرآن تأخـذ مجراها ، وتفعل فعلها، تهز القلوب والنفوس والأرض والسماء ، تصور ، توحي ، تؤثر ،تميز ، تحكم ٠٠٠ فهل لنـا أن نضيق بهـا ذرعاً ولهـا هـذا الدور ؟٠

على أولئك الذين يرفضونهـا ، أو يحرجهـم الحديث عنها ، عـن مكانتها ووظيفتها وطبيعتها أن يتذكروا أن هذا الكتاب قد نزل على قلب محمد ﷺ بلسان عربي، بيانه غناء، وآياته حكم وأمثال ، ولغته موسيقى وايقاع ،وترتيل قرآنه عبادة ، وهتاف نبيـه المنسوب اليه يملأ الآفاق :

« ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن » ٠

ومعناه كما يذكر الشراح ليس من العاملـين بسنتنا الجارين على طريقتنا مـن لم يحسن صوته بـه لأن التطريب به أوقـع في النفوس وأدعى للاستماع والإصغاء ٠

مصدر النغم :

أستعمل كلمة نغم هنا بدلالة خاصةوواسعة لتشمل الايقاع والتنغيم معاً وأتساءل: ما مصدر النغم في القرآن إلامَ يرجع ؟ أوَ يرجع الى الآيات بما فيها من قيم موسيقية ؟ أم يرجع الى التنغيم بما فيه من قيم انشائية، أم يرجع ثالثة الى مصدر غيبي بما له من سحر خفي نحس أثره في النفس ولا نعرفمنبعه ؟ وبكلمات أخرى هل يعود النغم في القرآن الى النص أو الى المقرىء أو الى المتلقي ؟ تناقش المصادر الثلاثة ٠

أولا : مصدر النص ـ الايقاع :

ميزنا في مقالة سابقة بين الوزن وبين الايقاع، ورأينا أن الأول من خصائص الشعر، وأن الثاني من خصائص الشعر والنثر معاً ،وعلينا الآن أن نميز بين ثلاثة أنواع من الايقاعات النثرية :

ايقاع النثر العادي أو العام الذي يفلتمن عنصري الانتظام والتوقيت ٠

وايقاع النثر الفني الذي يعتمد بالصنعة عليهما ٠

وايقاع القرآن الذي يباينهما لينشىءتدرجات صوتية مختلفة وكيفيات نغمية تتراوح بين الانتظام والتناسب ، بين التوازنوالتقابل تبعاً للفكرة أو للموضوع ، للموقف أو للمعنى الذي يريد أن يعبر عنه أو يوصله ٠

في كل سورة أو نص قرآني ينبع الايقاعمن اندماج عنصرين : من نغمة خاصة تناسب الفكرة ، وتقوم القافية فيها بدور المفتاح ،ومن لحن ينتظم النغمات جميعاً على اختلاف درجاتها وفي شكل منسجم ومتناسب يخلف فيروح المتلقي شعوراً ما ، بالنغمات يوقع القرآن ايقاعات شتى على أوتار النفس ،وباللحن المتساوق يترك وحدة الأثر ، والعلاقة بين النغمات التي تصنع اللحن علاقة ذاتأساليب شتى ، فقد تقوم على الشوق أو الترقب ، أو على الترجيع أو على سواها منقواعد التشكل حتى يثير القرآن في أنفسنا ألواناً من الانفعالات تنصهر أخيراً في بوتقةالاحساس النهائي حين تتجه الى غايتها المنشودة ٠

ندرس أحد النصوص :

١ ـ والنازعات غرقا ، والناشطات نشطا ،والسابحات سبحا ، فالسابقات سبقا ، فالمدبرات أمرا ٠

٢ ـ يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ،قلوب يومئذ واجفة ، أبصارها خاشعة ، يقولون إننا لمردودون في الحافرة ، أئذا كنا عظاما نخرة ، قالوا تلك إذن كرة خاسرة، فانما هي زجرة واحدة ، فاذا هم بالساهرة ٠

٣ـ هل أتاك حديث موسى ، إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ، اذهب الى فرعون إنـه طغى ، فقـل هـل لك الى أن تزكى ، وأهديك الى ربك فتخشى ، فأراه الآية الكبرى ، فكذب وعصى ، ثم أدبر يسعى ، فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، إن في ذلك لعبرة لمـن يخشى ٠

٤ـ أأنتم أشد خلقـاً أم السماء بنـاها ، رفـع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعـد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ، متـاعاً لكم ولأنعامـكم ٠

٥ ـ فاذا جاءت الطامة الكبرى ، يوم يتذكر الانسان ما سعى ، وبُرِّزت الجحيم لمن يرى ، فاما من طغى ، وآثر الحياة الدنيا ، فانالجحيم هي المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المـأوى ٠

٦ـ يسألونك عـن الساعة أيان مرساها ، فيم أنت من ذكراها ، إلى ربك منتهاها ، إنما أنت منـذر من يخشاها ، كأنهـم يوم يرونهـا لم يلبثوا إلا عشـية أو ضـحاها ٠

موضوع السورة يوم البعث ، شغل القرآن الشاغل في الآيات المكية ، فهذا اليوم الذي ينكره ويهزأ به الكافرون كيف يثيره في نفوسـهم ؟ يلفت نظرهم أولا الى واقـع مادي ماثل يشاهدونه كل يوم ، منظر الخيل المغيرةالسابحة التي تكابـد وتنزع في أعنتها حتى تنهي الحرب ، وتدبر أمر الظفر والغلبة ٠ويستحضر لهـم في المقابل واقعـاً آخر غيبـاً يرفضونه ولا يؤمنون به ، ومثل ما يحدث فيهـمن هزة عنيفة تغير الثابت من نظام الكون مثل تلك الهزة التي أعقبت الغزاة ، ثم يأخذبهم ثانيـاً في الماضي وفي الحاضـر ، فيما يسمعون وفيما يرون ، ويعود بعد ذلك الىالقضيـة ، يوم القيامـة فيصف مـآل الناس فيها الى نعيم مقيم أو عـذاب خالد ، ويختم بالسؤال عـن موعد هـذا اليوم وعن ترقبه الداهـم ٠

يتألف ايقـاع السورة مـن ست جمل موسيقية :

١ ـ الجملة الأولى واجفـة مسرعة ، تركض ركضـاً ، وتنزع نزعـاً ، وتستحيل في ارتفاع درجتها ، وحدة جيشانها الى خمسةتركيبات متساوية كأنها موزونة وزن الشعر (مستفعلن فعولن) ، وهذا المطلع السريع يتفقم ظل المعنى الغامض وايماءاته المتعددة وما يثيره في النفس من هزة ورهبة وتوجس ، انالأنفاس تكاد تتقطع ذعراً وارتجافاً وانبهاراً مرة بالموسيقى الخاطفة القارعة ، ومرة بفيءالمعنى الغـامض ٠

٢ ـ ثم تجيء الجملة الثانية ـ المشهدالأول ـ طابعها مـن طابع المطلع ، وايقاعها مـن ايقاعه كأنمـا المطلع لهذا المشهد اطار ،الموسيقى ما زالت واجفة ، هزاتها في الحس قوية ، وتوجساتها في الشعور تهول وتروع ٠

٣ ـ تتغير النغمة أو الايقاع في العبارةالثالثة ـ المشهد الثاني ـ فجو الحكايةوعرض الماضي واستحضار الذكريات لا تناسبه نغماتقارعة ولا واجفة ، معها يهدأ الايقاع وينساب

تمتـد العبارة ، وتطول الجملة ، ويتحـول الخيال السمعي الى خيال تأملي استرجاعي ، ومما يوافق هذا الخيال ـ شريط الذكريات ـ نغمات لا تعنف ولا تشتد بل تبطيء وتسترخي .

٤ ـ ترتفـع نبرة النغمـة في الجملة الرابعة ـ المشهد الثالث ـ حين ننتقل من ساحة التاريخ والذكرى الى كتـاب الكون المفتوح ومشاهده الهائلة ، هنـا يبدو التعبير قـوي الأسر قوي الايقاع ولكنه لا يصل الى درجة المطلـع أو المشهـد الأول ، فزمنـه أضعف ، ونقراته أخف .

٥ ـ يجيء المشهـد الرابـع في الجملة الخامسة ، مشهد الطامة الكبرى فتعود النغمة حادة كما كانت في المطلع ، تتسق معـه قوة وعنفـا وبروزا .

٦ ـ في اللحظة التي يغمر فيها الوجدان ذلك الشعور المنبعث من التوقيعات المختلفـة واللمسات الموحيـة يرتـد السياق في الجملة الأخيرة الى المكذبين بيوم الساعة بايقاع حازم هائل وسريع يزيد مـن روعة الساعة وهولها وضخامتهـا في الحس وفي النفس ، وتشارك الهـاء الممدودة في تجسيم الهـول وتشخيص الضخامـة .

ولقـد كانت القافية في النغمات جميعا تقوم بدور المفتـاح فتلون النغمـة وتمنحها درجتها ، وتعددت القوافي بتعدد النغمات حتى بدت كأنها النهايات الطبيعية التي كانت تصل اليها كل موجـة متدفقة مـن موجات التعبير الزاخر بالحركة والجيشان .

أما لحـن السورة ، مجموع النغمـات بمفاتيحهـا وقوافيهـا ، في ارتفـاعاتهـا وانخفاضاتها فانه يعتمد على لونين من الايقاع ايقاع هادىء بطيء هو اللون الثانوي كما في الجملة الثانية ، وايقاع شديد بارز هو نغمة القرار الرئيسـة ، ويبدو في حـدة نقراته ، وشدة نبراته : النزع ، الغرق ، الراجفـة ، الرادفة ، الزاجرة ، الطامة ، طغى ، برّزت ، الجحيم (لم يقل جهنم) .. وكان يتم الانتقال مـن نغمة الى نغمة ، أو من جملة الى جملة ضمن اللحن العام بالشوق أو المشابهة ١ـ٢ أو بالمغايرة ٢ـ٣ أو بالتناسب ٣ـ٤ أو الترجيع ٤ـ٥ـ٦ ، وجميعها صور من صور التعانق أو التآلف تسـري فيها حركة واحـدة رغم تموجهـا ، حركة الايقاع وحركة الصورة ، حركة الكون الخارجي وحركة النفس الداخلية ، حركة تقوم على الرجف والوجف والاضطراب ، وتكون النتيجة أن القلب البشري يحس في ذاته آثار الزلزلة والهول ، ويهتز هزة الخوف والوجل ، ويتهيـأ لادراك ما يصيب القلوب يوم الفزع الأكبر من ارتعاش لا ثبات معه ، وبذلك تبلغ الحركة قرارها ، ويصل القرآن الى مقصـده .

هـذا هو المصدر الأول لنغم القرآن ، موسيقى النص أو ايقاعه يتجلى واضحاً لكل من عاش القرآن ، واستلهم روحه ، وأرهف السمع لنغماته ، حقاً انه لا يوجد فيه ولا في الأدب عامة موسيقى بالدلالة العلمية الدقيقة لهذه الكلمة ما دام مقام الصوت منعدماً ، الا أن فيه عنصراً موسيقياً ما دامت الكلمات ذات تعاقد تكون سريعة أو بطيئة ، خفيفة أو متثاقلة ، حادة أو خشنة ، صلدة أو لينة ، فيه عنصر موسيقي لأننا نشعر في طريقة تعبيره بجوهر ما يطرأ على الأشياء من حالات أو تبدلات : من صمت أو حركة ، من هبوط أو ارتفاع ،

من جيشان أو انحسار ، من توافق أو تطابق ،من تنافر أو انسجام ، من توقع أو مفاجأة ٠٠ كل ذلك موسيقى أو عنصر موسيقي يتوسل به النص ، ويمكن تمليه ودراسته ٠

ثانياً : مصدر المقرىء ـ التنغيم :

نميز تلاوة القرآن من تنغيمه ، فالتلاوة بطرائقها الثلاث : الترتيل والتدوير والحدر علم شرعي يتناول الحروف في مخارجها واوصفاتها ، وهو علم قديم له أصوله وقواعده التي ثبتت عبر العصور فلم تتغير ، ولعل القرآن من هذه الجهة هو الحافظ الوحيد الذي حفظ العربية وطريقة نطق حروفها ،ومن يستمع الى المصحف المرتل يستطيع أن يتمثل أحكام النطق ومواقع النبرات في لغتنا(٦) ٠

أما التنغيم أو التغني فأمر آخر مختلف، انه فن المقرىء الخاص ، كيفية أدائه للقرآن، مظهر من مظاهر الابداع، أو محاولة من المرتل لاظهار براعته علاوة على تعميق أثر النص الذي يقرؤه في نفوس سامعيه ،وبهذه الدلالة للتغني يكون أقرب الى الموسيقى منه الى التلاوة ، فهو والغناء صنوان يلتقيان في الأصل الايقاعي وفي الجذر اللغوي ثم يفترقان أو يتخالفان ٠٠ كل في طريق فيلتزم الغناء باللحن المؤلف المكتوب غالباً ، ويتقيد بالزمن الايقاعي تقيداً صارماً في حين يجنح التغني الى الترنم المفتوح المرتجل أو الحر ٠

ويبدو أن التغني مثله مثل الغناء والموسيقى يتطور خلال العصور ويتأثر بهما في هذا التطور ، واذا ما وازنا مثلا بين طبيعة التغني في الصدر الأول وبين طبيعته في العصرين الأموي والعباسي فسنجد الفارق كبيراً ، في العصر الأول كان التغني فطرياً وبسيطاً ، كان مد الصوت وترقيه ورفع طبقته يتم دون درجة صوتية ولا معرفة موسيقية ، فلما أن اتسعت علوم الغناء والموسيقى بعد ذلك اتسع معها التغني بالقرآن وتنوع ، حلت أصوات مدربة مصقولة مثقفة محل الأصوات الفطرية الأفقية ذات النغمات المتقاربة ، امتدت الدائرة التي تتحرك فيها أوتار الحناجر ، ظهرت كيفيات من الأداء تتغنى باحكام ، وتعرف مواقع النغم ، وهذا معنى ما نقوله من أن التغني كالغناء يختلف من عصر الى عصر ومن جيل الى جيل ،ومن مقرىء الى مقرىء ٠

لكي نفهم نوع العلاقة بين القيم الموسيقية للقرآن وبين القيم الموسيقية لفن المقرىء لا بد أن نميز بين طراز الصوت المعبر به وعنه وبين كيفية أدائه ، طراز الصوت هو نظمه وطريقة تواليه ، هو عنصره الايقاعي الكائن في نغم العبارة الفنية ، أما كيفية أدائه فهي تنغيمه ، أي تلوين حالات التعبير من اخبار وتأكيد واستفهام وتعجب وارتفاع في الطبقة ، أو تغير في موجاتها ،صحيح أن كيفية الأداء هي تحقيق لطراز الصوت بيد أنه تحقيق فردي أو شخصي يضاف اليه ، وقد يحرف أصلا من أصوله ويشوهه ، انه عنصر ذاتي خاص بالمقرىء ،واذا كنا نزعم لأنفسنا أننا نستطيع دراسة موسيقى طراز الصوت فانا لا نزعم أننا نستطيع أن نقيم علماً للايقاع ولا حتى دراسة جادة له من خلال كيفيات الأداء الفردية ٠

لقد أتاحت لي الفرصة خلال ربع قرن أن أستمع غير مرة الى أشهر المقرئين وفي مقدمتهم ثلاثة: محمد رفعت ومصطفى اسماعيل وعبدالباسط عبدالصمد ، سمعت للأول معظم ما أذيع له ، واستمعت الى الآخرين حيث كانا يقرآن في الجامع الأزهر ومسجد الإمام الشافعي في القاهرة ووجدت أن لكل منهم طريقة في الأداء تباين طريقة صاحبيه وتتحكم فيها أمور عدة منها خلقية (امكانات الصوت وطاقته) وثقافية (مدى المعرفة بالنغم والمقامات الموسيقية) وابداعية (موهبة القارىء وحسه المرهف) ، وسنوازن فيما بينهم من منظور ذاتي لنبين أن التفاوت في الأداء لا يعود الى موسيقى القرآن بل هو في منأى عنه ٠

لا أدري لم يتمثل لي مصطفى اسماعيل بالصانع الماهر ، وعبدالباسط عبدالصمد بالمطرب المحبوب ، ومحمد رفعت بالفنان المتخصص الموهوب ؟ ، ولعل السبب يعود الى طريقة كل منهم في تغنيه للآيات ، حين نستمع للأول (ولا أقول نسمع فشتان ما بين السمع والاستماع نحس صوتاً جميلا تغلبه صفة صاحبه ، يغلبه وقاره وجلاله والأصول الدقيقة لعلم التجويد وان خولفت في بعض الأحيان ، فمصطفى ماهر في الابانة والاظهار والتفخيم والترقيق والتشديد والغنة والحركة ، وربما كان من أجل هذا المقرىء الرسمي للدولة حتى وفاته ٠

أما عبدالباسط فهو المطرب وأبلغ ما يتصف بهذه الصفة حين يلتقي بالجماهير ويتغنى في المسجد ، عندها يحاول أن يثير ويستثير ، يروض الانفعالات في النفوس ويطلقها فتعلو التأوهات والصيحات ، وهو يلجأ - لكي يحقق ذلك - الى أداء الآية الواحدة بأكثر من صورة كما يلجأ الى شتى الطرائق التي تحرك الجماهير ، وتؤثر في عواطفهم مثل الترعيد والترقيص والتطريب والترديد والتحزين ، قد نقول انه ظاهرة في قراءة القرآن ، وهذا لا ريب فيه ، غير أن هذه الظاهرة جنحت نحو النغم وفضلته على صحة التلاوة ٠

يبقى أولهم محمد رفعت المقرىء التقي الضرير الذي مات بالفالج فقيراً معدماً فهو الفنان الذي لا يضارع ، لقد وهب الله له - إذ فقد البصر - البصيرة والحس السليم ، وآتاه حظاً من الثقافة في النغم والموسيقى ، ومنحه صوتاً ثرياً رغم صغر حجمه وخفوته الا أنه يمتد على مساحة واسعة مكنته من التنقل صعوداً وهبوطاً دون مكابدة ولا معاناة، والذي ينصت اليه حين يتلو « طه » أو غير « طه » من آي الذكر يحس كأنما أتى هذا الشيخ الى الدنيا بشيراً ونذيراً ، في آيات الرحمة يندى صوته بالفرحة والبشرى ، وفي آيات الزجر والعقاب يهتز هزة الوجل والاستغفار، مع ذكر الجنة تشم الأنوف عطرها، وتتنسم أريجها ، وينعم الانسان بظلها ومائها السلسبيل ، ومع ذكر الجحيم يتسعر الجلد فرقاً من العذاب ، وتتلظى النفس برمضاء النار ، ويمج الفم طعم الزقوم والغسلين ٠٠٠

أليس هذا كله نوعاً من أنواع التدبر ؟ سئل - رحمه الله - مرة كيف تختار لكل آية من الكتاب أداء يناسب معناها ؟ أجاب - حين أتلو يذهب أدائي الى معاني الآيات ويذهب صوتي الى أدائي وينجاب من حولي الظلام فأرى كل شيء في النور ٠

ـ وما حكاية فنك العجيب الباهر الذي تتشكل بـه نبرات صـوتك حسب الأصـول الموسيقيـة ؟

ـ ما تسمونه فنـاً أسميه تغنياً على الأصول الشرعيـة ·

قد يكون حكمي على قراءة الثلاثة حكماً شخصياً وقـد لا يكون فالمهم ان لكل منهم طريقـة في الأداء أو التغني وهـذه الطريقة شخصية الى أبعد الحدود ولا تدخل في تقديرنا عندما ندرس مسألة الايقاع ، اننـا نعـدهاـ بشكل أو بآخر ـ مصدراً من مصادر النغم في تلاوة الكتاب الا أنها لا يمكن أن تعد في أي حال مصدراً مـن مصادر موسيقى القرآن ·

ثالثا : مصدر المتلقي ـ النفس :

الذين يتحدثون عن الايقاع في فن الأدب ـ شعره ونثره ـ ينتهون الى أن الفيصـل في وجود هذا الايقاع يتوقف الى حد كبير على الاحساس بـه ، والذين تناولوا بشكـل عام وسـريـع موسيقى القرآن يعترفـون بأن في القرآن نوعاً مـن الموسيقى الخفية تلفظ ولا تشرح ، او تدرك بهبة لدنية(٧) ، فهل يعني هذا أو ذلك أن ثمة عقبـة كأداء تعترض في أثنـاء الدراسة تسمى مرة الاحساس وأخرى الخفاء ؟ في ظني أن الموقفين لا يبرزان عقبة بقـدر ما يشـيران مشكلة هي التلقي ، كيف نتلقى القرآن ؟

ان الدراسات النفسية والجماليـة(٨) لعملية التلقي أثبتت أن تركيب الأثر الفني لا يكون تاماً ولا كاملا الا اذا التقت في رحابه وتداخلت طاقتان : الطاقة الكامنـة في النص والطاقة المنبثقة عـن التلقي ، ولقـد كانت معظم الدراسات القديمـة ـ اللهـم الا تلك التي أشارت الى تأكيـد العامل النفسي في اثبات الاعجاز ـ تذهب الى فصل الصورة عن المـادة ، فصل المدرك عن المدرك ، وبالتالي ترى ان القرآن يحمل قيمه الفنية الى الجاهل والعالم على السواء ويؤثر فيهما ·

رؤيتنا اليـوم تختلف لأن تحليل عملية الادراك يختلف ، القرآن ـ الموضوع ـ يلتقي فيه عالمان عبر عنهما بالاستماع والتدبر ونعبر عنهمـا بعـالم النص وعالم المتلقي ، الأول حياة تعج بالحركة والامتداد ، كلمات تعبيرية ، صور فنية ، قيم موسيقية ، تركيبات بلاغية ، والثاني حياة وخبرات جمالية وثقافية تتصف هي الأخرى بالحركة والتقابل والامتداد ، في عمليـة الادراك تتصالح الحيـاتان ، تلتقي الطاقتان ـ الطاقة الكامنة في النص ، والطاقة المنبثقة عن القارىء ، ولن يكون التلقي كاملاً ، ولن يدرك القرآن ادراكا كاملا ، الا اذا حدثت المعجزة ، وتداخل العالمان وتناغما ·

يملك القرآن قيمـه الروحية والفنيـة الخاصة به ، وهذه القيم لا تحضر اليـه أو تفرض عليـه ، والمتلقي الذي يكابد قراءته وتدبره ، ويعيش عالمه ، ويحلله لا يجلب معه قيماً يتخيلها ، أو لا يوجد في النص الذي بين يـديه قيماً غير موجودة ، انـه يكشف القيم الكامنة فيه ، وفي حالة القرآن تبدو العلاقة بـين النص وقارئه أقـوى لأن الأمر يتعلـق بالايمان ، بتلك الحالة النفسية التي اشترط بعضهم وجودها لادراك ما في الكتاب من جمال ومن أداء ومن اعجـاز ·

حين يعيش المتلقي عالم موسيقى القرآن يجد نفسه في واحد من أربعة مواقف :

١ ـ أن يشعر بالايقاع وجوداً ونوعاً ويعلله ٠

٢ ـ الا يلاحظ شيئاً اسمه ايقاع ٠

٣ ـ أن يرى تناقضاً بين المعلومات التي يعرفها عن الايقاع وهذا الذي يجده في النص ٠

٤ ـ أن يحس الايقاع ولكنه لا يستطيع أن يشرحه ويعلله ، أو يحدد مصدره ٠

الموقف الأول منطقي ومتماسك ، والثاني يشير الى أن احدى الطاقتين الكامنة أو المنبثقة معطلة ، والثالث يدعونا الى أن نجعل من معلوماتنا في خدمة الاحساس والا حكمنا بفسادها ولو جزئياً اذا ناقضته ، اما الرابع فقد أغنانا عن التعليق عليه الخطّابي حيث ذهب في رسالته عن اعجاز القرآن(٩) الى أن (السبب قد يخفى وأثره في النفس واضح ، وهذا لا يقنع في باب العلم) ، ودون أن نصل الى ذلك نقول ان مجرد المحاولة لتلمس الظواهر الايقاعية الداخلية في التعبير القرآني مهما خفيت تظل ضرورية بغض النظر عن نتائجها ٠

موسيقى القرآن هي موسيقى النفس ، للعبارة معنيان ـ أولهما أن الايقاع هو احساس المتلقي يضفيه على النص وهذا هو الخطل بعينه ، وقد بينا فساده لأن القارىء لا يحضر الى النص قيماً ليست فيه ، والنظرية الانفعالية في معالم الجمال التي كانت ترى أنه حالة شعورية في النفس أكثر منه قيمة مستكنة في الموضوع ذهبت الى غير رجعة ٠

المعنى الثاني أن موسيقى القرآن تعبر عن حالات النفس ، وترتبط بحركة شعورها ، وهذا أمر نقصد اليه ونقرره ونسعى الى بيانه ، أجل صوت الموسيقى في القرآن هو صوت النفس البشرية ، صوت حالاتها المتباينة ، صوت فرحها وحزنها ، أملها ويأسها ، غضبها وسعادتها ٠٠٠ لقد لامس أعصابها ، ووقّع على أوتارها ، وصور حركة احساسها ، وكان صدى مشاعرها وانفعالاتها ، وبلغ في ذلك الغاية ، وأربى على الغاية تعبيراً وتأثيراً ٠

كانت هذه مصادر النغم في القرآن ـ مصدر النص والتلاوة والنفس لا نستطيع أن نضعها على مستوى واحد ، ولا أن نقبلها على علاتها دون مناقشة ، فالأخير مقبول بمعنى ومرفوض بآخر ، مقبول بمعنى التعبير والتأثير ، ومرفوض بمعنى الاحساس ، والثاني أمر متبدل يتعلق بكيفية الأداء ، ولا يمت الى موسيقى الأثر بصلة ، وكلا المصدرين خارج عن حدود هذه الدراسة ، يبقى المصدر الأول ـ النص ـ فهو الظاهرة الفنية الجمالية التي يمكن تمليها وتحليلها بكل اطمئنان ٠

★ ★ ★

□ الحــواشي :

١ ـ من هذه المقالات :

١ ـ قواعد تشكل النغم في موسيقى القرآن ، التـراث العربي ع/١٥ ـ ١٦ ص/١٢٢ نيسان ١٩٨٤ ·
٢ ـ ثلاث قضايا حول الموسيقى في القرآن · التراث العربي ع/١٧ ص/٨٩ تشرين الاول/٨٤ ·
٣ ـ حروف القرآن ، دراسة دلالية في علمي الاصـوات والنغمات مجلة الفيصل ع/١٠٢ ص/١٠٣ ايلول/١٩٨٥ ·

٢ ـ انظر جلال الدين السيوطي · الاتقان ص/٩٩ ج/٢ القاهرة ١٩٥١ ·

٣ ـ من الأمثلة التي تساق :

تقديم الكلمة لتقدمها في الزمن او العمل ، أو للترقي من القليل الى الكثير · او لتقدم هذا على ما دونه، أو للاختصاص واجراء غير العاقل مجرى العاقل ·

استخدام صيغ المبالغة ، الفصل بين المتعاطفين ، الفصل بين الصفة والموصوف ، ايقاع الظاهر موقع الضمير ، وقوع مفعول موقع فاعل والعكس ، ايقاع حرف مكان حرف ، العدول عن صيغة الماضي الى المستقبل اللف والنشر ···
ولنا أن معظم هذه الضروب يمكن أن تدرس في باب علم المعاني فهي به أولى ، وان كان لا يعني ذلك ابتعادها عن الهدف الايقاعي ولا دلالته المتوخاة ·

٤ ـ انظر ـ بدر الدين الزركشي · البرهان في علوم القرآن ١/ ١٨٧ القاهرة ١٩٥٧ ، والسيوطي · المرجع السابق ٦/١ ·

٥ ـ روي الحديث بصيغ عدة ، احداها للبخاري عن أبي هريرة، وثمة أحاديث كثيرة حول هذا الموضوع يستدل بها الحنفية والشافعية على جواز القراءة بالتلحين · أنظر في ذلك محمد علي الصابوني روائع البيان/٦٣٠ دمشق ١٩٨٥ ·

٦ ـ هـذا الحكـم فيه شيء من المجازفة وشـيء من التجـوز نلتقي فيه مع ابراهيم انيس وشكري عياد وتمام حسان انظر للأول « موسيقى الشعر » و « الأصوات اللغوية » وللثانـي « موسيقى الشعر العربي » وللثالث « اللغة العربية معناها ومبناها » و « اللغة بين الوصفية والمعيارية » مراجع سبق ذكرها ·

٧ ـ انظر في ذلك ـ ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ، الرماني والخطابي والجرجاني ، تحقيق محمد خلف الله ، القاهرة ·

٨ ـ من هذه الدراسات ـ جون ديوي ـ الفن خبرة · وكولنغوود « مبادىء الفن » مرجعان سبق ذكرهما · وارجـع في بسط المعضلة ومناقشتها الى المؤلف في كتابه « الشعر بين الفنون » الفصلان الثالث والرابع ·

٩ ـ انظر · الخطابي ، رسالته في اعجاز القرآن · المرجع السابق ·

★ ★ ★

قراءة في فكر ابن جنّي من خلال «الخصائص» على ضوء علم اللغة الحديث

محمد وليد حافظ

ينتمي ابن جني مثل معظم اللغويين الكبار في تاريخنا ، سيبويه والفراء والفارسي والزمخشري وغيرهم الى المعتزلة ، وهم الجماعة المعروفة بتحكيم العقل : فالاعتزال « منهج في البحث والتجربة والاستدلال العقلي »(١) . « وقد كانت ثقة المعتزلة كبيرة بالعقل لا يحدّها إلا احترام أوامر الشرع ؛ فكل مسألة من مسائلهم يعرضونها على العقل ؛ فما قبل أقرّوه ، وما لم يقبل رفضوه »(٢) .

وجعلته هذه الأرضية الفكرية وتمثّله لتراث سابقيه يلح على جعل اللغة علماً . واليه يمكن أن ننسب باطمئنان وضع القاعدة اللغوية المطّردة الشاملة التي لا يطعن فيها طاعن ، فهو بهذا ذو عقل شمولي متميز ، خطّ لمن بعده أسس البحث اللغوي وأساليبه .

ألّف ابن جني كتاب الخصائص ليبحث النظام العام للغة منطلقاً من تمثله لآراء أستاذه أبي علي الفارسي القائمة على دراسة اللغة دراسة بنيوية وظيفية ، فشرح عموميات اللغة في مستهل الخصائص ، كالفرق بين القول والكلام ، ومعنى النحو والإعراب والبناء . وتطرق الى أصل اللغة ؛ أوحي هي أم اصطلاح ، ولم يجزم بواحدة منهما ، وقبل بنظرية ثالثة هي نظرية الأصل الطبيعي . ولم يتوقف طويلاً عند هذا الموضوع ما دام لا يغير شيئاً من حقيقة القوانين اللغوية . وأوضح أن هدفه تأسيس أصول للنحو على غرار أصول الفقه ورفع العلل النحوية التي كانت مضرب المثل في الضعف الى مرتبة العلل الكلامية ؛ فخطط أسلوب البحث العلمي ، وطريقة وضع القواعد الشاملة . وأكد أن للغة قوانين تحافظ عليها ، وأفرد أبواباً كثيرة للقياس الذي يتزعم مدرسته الى جانب دراسات صوتية تصب هي الأخرى في مجرى النظام العام للغة .

بوأه الأستاذ أحمد أمين زعامة مدرسة القياس(٣) . وراه الأستاذ سعيد الأفغاني أعلى علماء العربية كعباً في جميع عصورها، وأغوصهم عامة على أسرار علم العربية، والاهتداء الى النظريات العامة فيها. ونسب اليه ابتداع نظريه الاشتقاق الأكبر، وتأسيس فقه اللغة، وإمارة علم التصريف بلا منازع(٤) وكذلك أقر الأستاذ محمد علي النجار محقق الخصائص بنبوغه في الصرف، وسعة درايته وروايته وفضله على المتأخرين(٥) . ونسب اليه الدكتور شوقي ضيف وضع القوانين الكلية في التصريف(٦) .

وهاجمه، وسائر النحاة المعتزلة، كثيرون بتهمة اضطراب الرؤية اللغوية نتيجة لإقحام المنطق في النحو . وعلق أبو علي الفارسي نفسه على مزج أحد النحاة المعتزلة في عصره، وهو الرماني، النحو بالمنطق قائلا: « ان كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء، وان كان ما نقوله نحن فليس معه منه شيء »(٧) .

ولتلمس موقع الرجل بين هذه الاطراءات والاتهامات، ولبيان مدى نجاحه في محاولته، لا بد من العودة الى شيء من علم اللغة العام .

يعود تاريخ علم اللغة العام الى بدايات القرن العشرين، عندما أعلن عالم اللغة ماييه عام ١٩٠٦ : « ان التاريخ لن يكون بالنسبة للغوي غاية بل وسيلة »(٨) مشيراً بذلك الى أن جهود علماء اللغة في القرن التاسع عشر وما قبله انصبت على الأبحاث التاريخية والمقارنة، وعلى اثبات القرابة بين اللغات: ولا سيما بعد اكتشاف اللغة السنسكريتية، وردة الفعل العنيفة ضد قواعد بور رويال . وفي العام نفسه بدأ عالم اللغة الشهير سوسور في جامعة جنيف محاضراته في « علم اللغة العام » فأسس عملياً هذا العلم .

« وهكذا أدار علم اللغة ظهره للدراسات المقارنة التاريخية، وأكد امكان اخضاع كل حالة من اللغة الى دراسة سكونية متزامنة بغض النظر عن التطور الذي تعد هذه الحالة امتداداً له؛ وبناء على هذا المفهوم طرح سوسور التمييز بين « التطورية » التي هي دراسة التغيرات عبر الزمن، و « التزامن » الذي هو دراسة حالات محدودة من اللغة في فترة محدودة من التطور . فانقسم علم اللغة الى فرعين: علم لغة تعاقبي أو تطوري (Une linguistique diachronique ou évolutive) وعلم لغة تزامني أو سكوني (Une linguistique synchronique ou statique) وتنضم الطريقتان التزامنية والتعاقبية موضحة احداهما الأخرى »(٩) وينطبق هذا التقسيم السوسوري على اختصاص ابن جني بالدراسة التطورية للغة، واختصاص الإمام الجرجاني بالدراسة التزامنية لها في دلائل الاعجاز . وتنضم الدراستان في مدرسة واحدة يطلق عليها اسم مدرسة أبي علي الفارسي .

لماذا علم اللغة العام ؟ وما مدى اسهام ابن جني فيه ما دام عمله لا يتعدى حدود اللغة العربية ؟

« اذا كان هناك علم لغة عام فلأنه يمكن صياغة مبادىء تنطبق انطباقاً عاماً على وظيفة اللغات وتطورها وعملها؛ وهذا هو مفهوم علم اللغة العام أو الكلي (Panchronique)

مقابل علم اللغة الخاص (Idiochronique) الذي هو دراسة سكونية أو تطورية للغات خاصة »(١٠) ٠

« ويرتبط علم اللغة العام بعلم اللغة الخاص بلغة ما ، كالعربية ، لأنه يقوم على ما هو عام ومشترك بين اللغات جميعها؛ كما أن علم اللغة الخاص يستفيد بدوره من النتائج التي يتوصل اليها علم اللغة العام بتطبيقها على اللغة التي يختص بدراستها »(١١) ٠

« ولذلك فان لعلم اللغة العام في المرحلة الأولى ، قبل مرحلة البحث عن القوانين العامة مهمة وصفية ؛ فمن مجموع الدراسات الخاصة المنفذة على اللغات المختلفة تستخلص تعليمات ذات طابع عام عن نماذج الأنظمة المتحققة في اللغات »(١٢) ٠

ترتبط الخصائص العامة للغة بحقيقتين كبيرتين :

١ ــ كل لغة هي نظام اشارات ٠

٢ ــ كل لغة تتجلى في اطار اجتماعي يحدد انتظام عملها وتطورها ٠

تعرّف الاشارة اللغوية بأنها « الكل المحصل من ضم دال ومدلول » ويرتبط الدال بالصورة السمعية ، والمدلول بالتصور أو المعنى المجرد ، وتمثل ظاهرة التلفظ وظاهرة الاصغاء الجانب الفيزيولوجي ــ النفسي ؛ أما موضوع علم اللغة فهو الجانب النفسي الصرف ، أي التلازم بين الفكرة والصيغة ٠ وقد شبه سوسور العلاقة بين الدال والمدلول بوجهي الورقة الواحدة ؛ فكما أن من المحال تصور ورقة بوجله واحد ، فمن المحال تصور دال بدون مدلول ؛ والعكس صحيح ٠ واذا انعدم التلازم بين الدال والمدلول كان لدينا تعاقب صوتي لا يصح أن نعده اشارة لسانية، فتعاقب (ك ت ب) أو (ك ب ت) يعطي اشارة لسانية ؛ أما تعاقب (ت ب ك) فلا يعطي اشارة لسانية ٠ والعلاقة بين الصيغة اللفظية وما تحيل اليه هذه الصيغة هي علاقة اعتباطية (Arbitraire) موضوعة بالاتفاق أو التواطؤ (Convention) فليست الاشارة اللسانية من قبيل الرمز بمعناه المحدد لأننا لا نستطيع التصرف بالرموز كما نشاء ؛ فنحن نرمز الى العدالة مثلا بالسيف أو الميزان ، أو بهما معاً ؛ ولكن لا نرمز اليها بكتاب أو مصباح ٠ أما الاشارة اللسانية فانها لا تتقيد بمثل هذه الرموز ، فالاشارة اللسانية الى (الطويل) تساوي الاشارة الى (القصير) ٠

صيغ مصطلح الاعتباطية في الفرنسية من (Arbitre) التي تعني الحاكم المستبد أو السيد المطلق ٠ وفي العربية من فعل (اعتبط) ، ومعناه القتل ظلماً ، أو ذبح الذبيحة سمينة فتية لا علة فيها ٠ وعلى هذا يلتقي المصطلحان عند فكرة الظلم والتعسف ٠ ومن الجدير بالذكر أن اللغويين العرب القدامى استعملوا هذا المصطلح بمعنى اللاسببية (١٣) ٠ أما سوسور فقد شعر بأن المصطلح الفرنسي لا يعبر تمام التعبير عن العلاقة بين الاشارة اللسانية والشيء الخارجي ، فاستخدم مصطلحاً أوضح وهو (Immotivé) ، أي اللاسببية ، أو دون علاقة طبيعية ٠ وبدهي أنه تستثنى من هذه العلاقة

الاعتباطية الألفاظ التي لها ارتباط طبيعي بالأشياء كالخرير والزقزقة ، والألفاظ ذات الدلالات النفسية ، مثل (أف) و (آه) ، وهي محدودة في كل لغة .

اوضح ابن جني أن الاعتباط أحد أسس اختيار الأصول الثلاثية في اللغة العربية ، وهي اصول الاغلبيه العظمى ، قائلا : « اعلم ان واضع اللغة لما أراد صوغها وترتيب احوالها هجم بفكره على جميعها ، ورأى بعين تصوره وجوه جملها وتفاصيلها ، وعلم انه لا بد من رفض ما شنع تألفه منها ، نحو (هع) و (قج) .. فنفاه عن نفسه ، ولم يمرره بشيء من لفظه، وعلم ان ما طال وأمل بكثرة حروفه لا يمكن فيه من التصرف ما أمكن في اعدل الاصول واخفها وهو الثلاثي ... فلما كان الأمر كذلك اقتضت الصورة رفض البعض واستعمال البعض ، وكانت الأصول ومواد الكلم معرضة لهم ، وعارضة أنفسها على تخيرهم ، جرت لذلك عندهم مجرى مال ملقى بين يدي صاحبه ، وقد أجمع انفاق بعضه دون بعضه ، فميز رديئه وزائفه ، فنفاه البتة ، كما نفوا عنهم تركيب ما قبح تأليفه . ثم ضرب بيده الى ما أطف له من عرض جيدة ، فتناوله للحاجة اليه ، وترك البعض لأنه لم يرد استعمال جميع ما بين يديه منه لما قدمناذكره، وهو يرى أنه لو أخذ ما ترك مكان آخذ ما أخذ لأغنى عن صاحبه ، ولأدى في الحاجة اليه تأديته ؛ الا ترى أنهم لو استعملوا (لجع) مكان (نجع) لقام مقامه وأغنى مغناه »(١٤) .

يكشف النص السابق تصور ابن جني مراحل وضع ألفاظ اللغة على النحو التالي :

١ ـ **رفض ما شنع تألفه من الأصوات، وغالباً ما تكون ـ حسبما يشرح في مكان آخر من الخصائص ـ الأصوات التي لها مخرج واحد ، مثل (هع) .**

٢ ـ **الابتعاد ، لا الرفض المطلق ، عن الأصول الطويلة ، أي عن الرباعي والخماسي .**

٣ ـ **الانتقاء من بين الأصول الثلاثية ، لأنه لا يمكن استيعاب كل هذه الأصول . ويتعلق هذا الانتقاء بقانون آخر سنتعرض له في حينه .**

٤ ـ **لا مقياس في هذا الانتقاء الا مقياس الاعتباط .**

ومن مظاهر الاعتباطية التي تخرج عن ساحة البحث ، والتي ساقها ابن جني في الخصائص ظاهرة عدل بعض الكلمات دون بعضها الآخر ؛ يقول في الباب الذي استقينا منه النص السابق « فقد نجد في اللغة أشياء كثيرة غير محصاة ، ولا محصلة ، ولا نعرف لها سبباً ، ولا نجد الى الاحاطة بعللها مذهباً ؛ فمن ذلك اهمال ما أهمل ، وليس في القياس ما يدعو الى اهماله ، ومنه أنهم عدلوا (فُعَلا) عن (فاعل) في أحرف محفوظة ، وهي ثُعَل وزُحَل وعُمَر ... وما يقل تعداده ، ولم يعدلوا في نحو مالك وحاتم وخالد ، وغير ذلك ، ولسنا نعرف سبباً أوجب هذا العدل في هذه الأسماء التي أريناكها دون غيرها »(١٥) .

ومن مظاهر الاعتباطية التي لها علاقة باجتماعية الظاهرة اللغوية أوثق من علاقتها باعتباطية الاشارة اللغوية ظاهرة الاستغناء ، انما تعنينا منها هنا الكيفية التي تم بها

الاستغناء ؛ فلماذا استغني عن ماضي (ذَرْ)و (دَعْ) ولم يستغن عن الماضي (وثب) اذا جرت هـذه الظاهرة على الأفعـال المبـدوءةبالواو ، ومثـل هـذا التساؤل في الاستغناء بجمع القلة عن جمع الكثرة أو العكس •

ان الخوض في المظهرين الأخيرين ، العدلوالاستغناء يتطلب الكثير من الحذر ، وأعتقد أنهما يحتاجان الى بحث تاريخي تطـوري •

ومظهر رابعللاعتباطية ، وهو التصادفاتالواقعة في اللغة أو ما يسميه ابن جني « تلاقي اللغة » ويستشهد له باسمي العلم (سلمان)و (سلمى): « ألا ترى أن فَعْلان الذي يقاوده فَعْلى انمـا بابه الصفة كغضبـان وغضبىوعطشان وعطشى ؛ وليس سـلمان وسلمى بصفتين ولا نكرتين ، وانما سلمان من سلمىكقحطان من ليلى • غير أنهما كانا مـن لفظ واحـد فتلاقيا في عُرض اللغة مـن غير قصدلجمعهما ، ولا ايثار لتقاودهما »(١٦) •

ويتطلب الحديث عن اجتماعية الظاهرةاللغوية التقـديم بأصـل الكلام الانساني • ونستطيع اجمال النظريات التيظهرت لتفسيرأصل الكلام الانساني في الاتجاهات التاليـة :

١ ـ النظريات الطبيعيـة التي نسبت أصـلالكلام الى تقليد أصوات الطبيعـة •

٢ ـ النظريات الأنترويولوجيـة التي نسبتهالى العلاقة الرمزية المتبادلة بين وقـع المصدر الصوتي ومعناه ، أو الى الأصوات المرافقـة لجهـد عضـلي •••

٣ ـ النظريات الفلسفيـة التي نسبتـه الى العقل الانساني المتمتع بغريزة خاصة زوّد بهـا جميـع أفراد الجنس البشـري •

٤ ـ النظريات اللاهوتية التي عدت اللغـةهبـة مـن الله •

وقد وقعت النظريات السابقة في خطـأ اهمال العامل الاجتماعي في نشوء الكلام • وهذا ما أدركته وتداركته كلتـا المدرستين اللغويتين المنبثقتين في القرن العشرين ، وهما البنيوية في الغرب ، والمدرسـة اللغـويـةالسوفييتيـة •

أما مدرسة الفارسي فقد أدركت هـذامنـذ مئات السنين ، يقـول الإمام الجرجاني « فان الناس انما يكلم بعضهم بعضـا ليعرفالسامع غرض المتكلم ومقصوده »(١٧) ويؤكد على أن المفردات لم توضـع لتعرف معانيهـا بأنفسها ، وانما ليضم بعضها الى بعض ، فيعرف ما بينها من فوائد ، أي أن نشأة الكلمةالمفردة ارتبطت بنشأة الكلام ، ولم تقتصـر مهمة الكلماتالمفردة منذ نشأتها علىالتسمية، بل كانت مهمتها الإخبار أي الوظيفة الأساسية للغة هي كونها أداة اتصال بـين الناس •

وينتمي الإمام الجرجـاني بهـذا الى مدرسة الفارسي ، يقول ابن جني في (باب في هذه اللغة ، أفي وقت واحد وضعت أم تلاحقتابع منها بفارط) : « اعلم أن أبا علي رحمه الله كـان يذهب الى أن هـذه اللغـة ـ أعنيما سبق منهـا ثم ما لحق به بعده ـ انما وقع كل صدر منها في زمان واحد • وان كان تقدمشيء منها على صاحبه فليس بواجب أن يكون

المتقدم على الفعل الاسم ، ولا أن يكون المتقدم على الحرف الفعل ... وانما يعني القوم بقولهم : « ان الاسم أسبق من الفعل »أنه أقوى في النفس ، وأسبق في الاعتقاد من الفعل ؛ لا في الزمان ؛ أما الزمان فيجوز أن يكونوا عند التواضع قدموا الاسم قبل الفعل، ويجوز أن يكونوا قدموا الفعل في الوضع قبل الاسم ، وكذلك الحرف . وذلك لأنهم وزنوا حينئذ أحوالهم ، وعرفوا مصاير أمورهم ،فعلموا أنهم محتاجون الى العبارات عن المعاني ، وأنها لا بد لها من الأسماء والأفعال والحروف ؛ فلا عليهم بأيها بدؤوا ؛ أبالاسم أم بالفعل أم بالحرف لأنهم أوجبوا على أنفسهم أن يأتوا بهن جُمَع ؛ اذ المعاني لا تستغني عن واحد منهن . هذا مذهب أبي علي ، وبه كان يأخذ ويفتي »(١٨) .

يؤكد علم اللغة الحديث بدوره على اجتماعية اللغة ، وعلى أنها تتمثل لنا خارجياً كأداة للتواصل بين الناس ؛ فهي تظهر في كل مكان حيث يعيش أناس في مجتمع . ولا تمارس لغة دون أن تستخدم وسيلة اتصال . ويعرف اللغة على تنوع أشكالها : الفصيحة، والعامية واللهجات المحلية على أنها « وظيفة انسانية تستند الى ضم محتويات الفكرة الى أصوات منتجة بواسطة الكلام »(١٩) .

وتتوضع اللغة لكونها وسيلة اتصال ضمن مجموعة الأنظمة العلامية المستخدمة للتواصل، مثل أنظمة المرور وطقوس الزواج والوفاة . وعلى هذا وجدت ــ ولا تزال ــ لغات غير منطوقة بجهاز النطق الانساني مثل نداءات الانذار ، وقرع الطبول في افريقية ؛ ولكن الأساس هو وجود لغة منطوقة يتكون نظام عملها من بث واستقبال أصوات منتجة بعملية الكلام . وهذه اللغة هي موضوع علم اللغة .

وأدت الحاجة الى التواصل بين الناس الذين يتكلمون لغات مختلفة ؛ لا الى تعلم احدى المجموعتين لغة المجموعة الأخرى فحسب،وانما الى ظهور لغات خاصة تسمى « لغات الاتصال » تتميز عن اللغات القومية ، مثل لغة البدجين (Pidgin) المكونة من عناصر انكليزية وصينية وماليزية ، ولغة السابير (Sabir) ذات الأصول الرومانية ، التي كانت تستخدم سابقاً على شواطىء البحر المتوسط(٢٠) .

كيف تؤدي اللغة وظيفتها بصفتها أداة اتصال ؟

١ ــ يجب أن يكون للغة نظام . يقول ابن جني في معرض حديثه عن الاختلاف بين لغة تميم ولغة الحجاز : « هذا الخلاف لقلته ونذارته غير محتفل به ولا معيج عليه . وانما هو شيء من الفروع يسير ، فأما الأصول وما عليه العامة والجمهور فلا خلاف عليه . وكل واحد محافظ على لغته ، لا يخالف شيئاً منها، ولا يوجد عنده تعاد منها ؛ فهل ذلك الا لأنهم يحتاطون ويقتاسون ولا يفرطون ولايخلطون »(٢١) و « لو كانت هذه اللغة حشواً مكيلا وحثواً مهيلا لكثر خلافها وتعادت أوصافها فجاء عنهم جر الفاعل ورفع المضاف اليه »(٢٢) .

اذن ما يختلف فيه العرب قليل بالقياس الى ما يتفقون عليه ، ثم ان ما يختلف فيه

العرب قليل بالقياس الى ما يختلف فيه العلماء؛ وذلك لأن العلماء اختلفوا في الاعتلال لما اتفقت عليه العرب ، كما اختلفوا أيضاً فيما اختلفت العرب فيه ·

ويعود الفضل في اتساق النظام اللغوي في رأي ابن جني الى القياس ·

٢ ــ يجب أن يكون هذا النظام قائماً على حاجة الناس الى اللغة ، وعلى استعمالهم لها ؛ فاللغة ملك الجميع · كما أنه ليس بوسع فرد أو أفراد ابتكار لغة خارج نطاق المجتمع · ولهذا أخفقت المحاولات التي قام بها في القرن السابع عشر خاصة بعض الفلاسفة مثل ديكارت ولايبنز لوضع لغات اصطناعية ·

٣ ــ ويجب أن يتصف هذا النظام بالمرونة لتلبية الحاجات المتزايدة من الألفاظ · ان الأساس الوطيد لهذه المرونة هو الاعتباط ، ثم القياس · فكيف فهم ابن جني العلاقة بين الاستعمال والقياس ؟

يمهد ابن جني لشرح هذه العلاقة بتقسيم كلام العرب الى أربعة أضرب :

١ ــ مطرد في القياس والاستعمال جميعاً ؛ وهذا هو الغاية المطلوبة ، نحو : (قام زيد) و (مررت بسعيد) ؛ يعني رفع الفاعل ونصب المفعول وجر المجرور ·

٢ ــ مطرد في القياس ، شاذ في الاستعمال : وذلك نحو الماضي من (يذر) و (يدع) ؛ يعني أن القياس يجيزهما ، غير أنهما شاذان في الاستعمال ·

٣ ــ مطرد في الاستعمال ، شاذ في القياس : نحو (استصوب) و (استحوذ) · والقياس أن يقال : استصاب واستحاذ ، بإعلال العين ·

٤ ــ شاذ في القياس والاستعمال جميعاً ، مثل تتميم (مفعول) فيما عينه واو ، نحو (فرس مقوود) و (ثوب مصوون) ، والقياس بحذف الواو الثانية منهما ·

ثم يشرح العلاقة بين الاستعمال والقياس على النحو التالي :

١ ــ اذا تعارضا ، أي اطرد في الاستعمال ، وشذ عن القياس أخذت بالأول ، أي بالاستعمال لأنك تتكلم كلام العرب ؛ ولكنه لا يتخذ أصلاً يقاس عليه غيره ·

٢ ــ اذا شذ في القياس وكثر في الاستعمال أخذت بما كثر في الاستعمال ؛ وان لم ينته قياسه الى ما انتهى اليه استعماله ، أي وان لم تكن قوته في القياس على قدر قوته في الاستعمال · والعربي قد يتكلم اللغة وغيرها أقوى في القياس عنده ·

٣ ــ اذا أوصلك القياس الى شيء ، ثم سمعت العرب تنطق غيره فدع ما كنت عليه الى ما هم عليه ·

٤ ــ اذا أيد قياسك سماع فأنت مخير فيه ؛ فان صح عندك أن العرب لم تنطق بقياسك كنت على ما أجمعوا عليه البتة ، وأعددت ما كان قياسك أداك اليه لشاعر مولّد ، أو لساجع ، أو لضرورة لأنه على قياسهم ·

٥ ــ واذا فشا الشيء في الاستعمال ، وقوي في القياس فذلك ما لا غاية وراءه ، نحو منقاد اللغة من النصب بحروف النصب والجر بحروف الجر ٠

٦ ــ وأما ضعف الشيء في القياس وقلته في السماع فمرذول مطرح ؛ غير أنه قد يجيء منه الشيء الا أنه قليل ٠

ويؤكد ابن جني أهمية العامل الاجتماعي في مواضع أخرى من الخصائص على النحو التالي :

١ ــ لا يقصد بالاستعمال استعمال فرد أو أفراد ، بل الاستعمال الاجتماعي ؛ يقول « فان ورد عن بعضهم شيء يدفعه كلام العرب، ويأباه القياس لا يقنع في قبوله أن تسمعه من الواحد ، ولا من العدة القليلة ؛ الا أن يكثر من ينطق به منهم »(٢٣) ٠

٢ ــ يحذر ابن جني من أن الخطأ اذا تكرر توطد ، يقول « ومنهم ــ من العرب ــ من اذا طال تكرر لغة غيره عليه لصقت به ٠ ووجدت في كلامه ــ يعني أبا علي ــ : ألا ترى الى رسول الله ﷺ وقد قيل : يا نبيء الله ، فقال : لست بنبيء الله ولكنني نبي الله ٠ وذلك أنه عليه الصلاة والسلام أنكر الهمز في اسمه ، فرده على قائله ، لأنه لم يدر بما سماه ، فأشفق أن يمسك على ذلك »(٢٤) ٠

٣ ــ يجب أن يرتبط القياس بالاستعمال ، أي بالواقع الموضوعي ، ولا يجوز أن يؤخذ بمعناه النظري الصرف أخذاً مطلقاً ، ولذا يستنكر وفقاً لهذا الفهم أن يكون قولهم « رفع عقيرته » مشتقاً من (عقر) مثلما أوّله أبو اسحاق ، ويوافق على أن معنى الصوت في (عقيرته) مأخوذ افتراضاً من أن أحدهم قطعت رجله ، فرفع رجله المعقورة، وصرخ ؛ فقالوا: رفع عقيرته ٠ ثم يقول ابن جني « ولذلك قال سيبويه في نحو من هذا : أو لأن الأول وصل اليه علم لم يصل الى الآخر ؛ يعني ما نحن عليه من مشاهدة الأحوال والأوائل »(٢٥) ٠

ويلح على أن مشاهدة حال المتكلم في أثناء الكلام ، أي ربط الكلام بالموقف الذي يجري فيه أشد نفعاً للغوي من شعر الفرزدق اذا أخبر به ولم يحضره ينشده ٠

٤ ــ لا تستدرك اللغة كلها قياساً ؛ فمنها ما لا بد من ايراده ، ونص ألفاظه اذا لم يجدوا بداً منها ، ولا منصرفاً عنها « ومعاذ الله أن ندعي أن جميع اللغة تستدرك بالأدلة قياساً »(٢٦) ٠

٥ ــ وهناك حدود لامكان التصرف في اللغة لا يمكن تجاوزها ، مثل حدود الحذف والفصل والتقديم والتأخير ٠

ولا شك أن المسموع الذي وصل الى عصر التدوين من كلام العرب قليل بالنسبة الى حجم اللغة وامكاناتها التوليدية ٠ يقول عمر بن الخطاب « كان الشعر علم القوم ، ولم يكن لهم علم أصح منه ٠ فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد ، ولهيت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الاسلام وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب في الأمصار راجعوا

رواية الشعر ، فلم يؤولوا الى ديوان مدون،ولا كتاب مكتوب فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عنهم كثيره »(٢٧) ٠

ولا يعقل طبعاً أن ترد اللغة الصحيحةكلها عن طريق السماع ، ولا يعقل كذلك أن تتجمد اللغة على المسموع ؛ فكيف تغتني اللغةوتتجدد ؟ وكيف يتأصل الجديد ؟

١ ـ لا شك أن اقتران الاستعمالبالقياس الصحيح يؤصل القياس ، بدليل قوله « اذا فشا الشيء في الاستعمال ، وقوي فيالقياس فذلك ما لا غاية وراءه ، نحو منقاد اللغة »(٢٨) ٠

٢ ـ ما قيس على كلام العرب فهو منكلام العرب « ألا ترى أنك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كلّ فاعل ولا مفعول ؛ وانما سمعت البعض منه ، فقست عليه غيره ، فاذا سمعت : (قام زيـد) أجزت (ظـَرُف َ بشر) و (كرمخالـد) »(٢٩) ٠

٣ ـ وينطبق هـذا على الألفـاظ الأعجميـة التي تدخـل اللغـة « قـال أبو علي الفارسي : اذا قلت : (طاب الخشكنان) فهذامن كلام العرب ؛ لأنك باعرابك اياه قد أدخلته كلام العرب »(٣٠) ٠

يعني الإعراب اذن اخضـاع اللفظـة الأعجميةلنظام العربية صوتياً وصرفياً ونحوياً، فاللفظة حين تنتقل من لغتها الى العربية تغيرأصواتها ، ويتصرف في وزنها بحيث تندرج في أقرب وزن من أوزان العربية ، ويحرك آخرهابحركات الإعراب ، ويشتق منهـا ، فيقال : (درهمت الخبازى) ، أي صارت كالدراهم ،فاشتق من الدرهم ، وهو اسم أعجمي ٠ كذلك يدخلون على هـذه الألفـاظ الدخيلـة لامالتعريف تشبيهاً لهـا بأصول كـلام العرب ، أي النكرات(٣١) ٠

٤ ـ عـن طريق التدريج ؛ وهو « أن يشبه شيء شيئاً من موضع ، فيُمضى حكمه علىحكم الأول، ثم يرقى منه الى غيره »(٣٢) ٠ومن أمثلته قلب الذال دالاً في (ادّكر) ، ثم تدرجوا منه الى غيره بأن قلبوها دالاً في غير(افتعـل) ، فقالوا : (الدّكر) ٠ وفي شـرح مثال آخر للتدريج يستخدم ابن جني لفظةهامـة المدلول ، وهي الاعتيـاد ، يقـول : « لاعتيادهم عليهـا حتى صارت كأنهـا كانتأصـلاً »(٣٣) ٠

٥ ـ استـعارة اللفظـة والاستـعمـالالطويل لهـا ؛ يعلل ابن جني اجتماع لغتـين فصيحتين أو أكثر في لغة رجل واحد قائلاً :« وقد يجوز أن تكون لغته في الأصل احداها ، ثم انه استفاد الأخرى من قبيلة أخرى ، وطالعهده بها ، وكثر استعماله لها ؛ فلحقت لطول المدة ، واتصال استعمالها بلغته(٣٤) ٠ ويقولفي موضع آخر : « ومن العرب مـن اذا طال تكرر لغة غيره عليه لصقت به ، ووجدت في كلامـه »(٣٥) .

ويلخص علم اللغة الحديث توطد اللفظة بالقوانين التاليـة(٣٦) :

اعتباط × وضع ← اصطلاح ٠ أيأنه تم وضع الألفاظ على أساس الاعتباط ٠

اصطلاح × استعمال ← عرف • أي أن الاصطلاح يجب أن يؤيده الاستعمال ليصبح عرفاً •

عرف × تواتر ← اطراد •

ويتفق هذا مع مفهوم ابن جني في أن كثرة الاستعمال مع طول المدة تلحق اللفظة باللغة • ويعلل هذا المفهوم عجزنا عن تصحيح الأخطاء الشائعة ، وعجز المجامع اللغوية عن فرض مصطلحاتها •

لماذا اصرار ابن جني على أن الاستعمال هو الأصل مع أنه وريث مدرسة القياس البصرية ؟

١ ــ اللغة عقد اجتماعي ، كما يقول علم اللغة المعاصر ، ومؤسسة موضوعية ، بمعنى أنها لا تتعلق بارادة فرد أو أفراد من المجتمع ؛ فلا قيمة للغة خارج استعماله •

٢ ــ يحد الاستعمال من استطالة القياس ، فيحد من اتساع اللغة الناجم عن الاسراف في القياس • ويرجع السبب في هذا الى :

أ ــ ان الامكانات النظرية للغة هائلة • يعلل ابن جني قلة استعمال الأصلين الرباعي والخماسي قائلاً : « ذلك أن الثلاثي يتركب منه ستة أصول ، والرباعي يتركب منه أربعة وعشرون أصلاً ••• واذا كان الرباعي مع قربه من الثلاثي انما استعمل الأقل النذر منه فما ظنك بالخماسي ؛ ألا ترى أنك لا تجد شيئاً من نحو (سفرجل) قالوا فيه : (سرفجل)، ولا نحو ذلك ؛ مع أن تقليبه يبلغ به مائة وعشرين أصلاً ، ثم لم يستعمل من كل ذلك الا (سفرجل) وحده »(٣٧) •

ثم هناك امكان تقليب كل أصل ثلاثي من الأصول الستة تسع مرات بتغيير حركة العين في الماضي والمضارع ، وهناك صيغ الزوائد أيضاً • ان هذه الامكانات اذا أطلقت ستؤدي الى ما يشبه التضخم الاقتصادي • وتحتفظ اللغة بهذه القدرات الى حين اللزوم؛ وعلى هذا يطلق على اللغة اللاتينية التي لم تعد تستخدم لغة اتصال مصطلح (En conserve) أي قيد الحفظ ، تشبيهاً بالمخزون الغذائي يستجر منه على قدر الحاجة •

ب ــ وما دامت اللغة وسيلة اتصال فانها يجب أن تكون مفهومة من قبل كل الذين يتكلمون بها ليستطيعوا التفاهم عن طريقها ، ولتكون عامل توحيد لهم ؛ والا فقدت وظيفتها الابلاغية الاجتماعية ، وعليه تشبه وظيفة الابلاغ بالمقود الذي يوجه اللغة انتشاراً أو تقليصاً •

٣ ــ ينتمي ابن جني بشكل ما الى مدرسة البصرة التي أدركت حقيقة هامة ، وهي أن اللغة نظام ، بمعنى أنه يجب احتواء ما يمكن احتواؤه من كلام العرب ضمن النظام اللغوي ، واعتبار ما يقع خارج تلك الحدود شاذاً يحفظ ، ولا يقاس عليه ، ويكون حسب مفهوم ابن جني منبهة على أصل بابه •

اذا كان الاستعمال قـوة ضاغطة على اللغة باتجاه التقليص ؛ فما القوة التي تجعل النظـام اللغـوي مرناً يستجيب لمتطلبات التواصل من جهـة ، ولمتطلبات التطور مـن جهة ؟ انها مرونة القياس ومن مظاهرها في فكر ابن جني :

١ ــ جواز القياس على ما يقل ، ورفضه على الأكثر منه اذا كان الأكثر غير قياس.

٢ ــ ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب .

٣ ــ للانسان أن يرتجل من المذاهب ، ما لم يلو بنص ، أو ينتهك حرمة شرع . وليس اجماع أهل البلدين ــ يعني البصرة ،والكوفة ــ بحجة عليك اذا لم تخالف المنصوص ؛ يقصد حرية الاستنتاج والبحث العلمي .

٤ ــ يحمل على الظاهر ، وان أمكن أن يكون المراد غيره ، تسهيلا للبحث واللغة ، ومثاله حمل سيبويه كلمة (سيِّد) على الياء لأنه الظاهر ؛ وان كانت الواو أكثر وروداً في هذا الموضع ، أي عين الاسم .

٥ ــ الاستحسان ضرب من الاتساع والتصرف ، ومن أمثلته ترك الأخف الى الأثقل من غير ضرورة ، والحاق نون التوكيد باسم الفاعل تشبيهاً له بالمضارع ، وما خرج منبهة على أصل بابه ، مثل (استحوذ) و(استصوب) .

٦ ــ اذا انفرد العربي بشيء نظر الى كلامه ؛ فان كان كلامه فصيحاً قبل منه ؛ فقد يكون من لغة قديمة . ان ابن جني يتجاوز هنا قاعدة الاستعمال الجماعي ، ويقبل الاستعمال الفردي لتسهيل احتواء النظام للغة .

٧ ــ الحمول والاضافات والالحاقات لكثرة هذه اللغة وسعتها وغلبة حاجة أهلها اليها للتصرف ؛ يقول سيبويه : « وليس شيء يضطرون اليه الا وهم يحاولون به وجهاً »(٣٨).

٨ ــ قبول لغتين أو أكثر « لأن لكل واحد من القومين ضرباً من القياس يؤخذ به، ويخلد اليه ، وليس لك أن ترد احدى اللغتين بصاحبتها »(٣٩)، ومثاله اعمال(ما) واهمالها.

٩ ــ لا تجوز المبالغة في التشكك بكل لهجة أو لغة أو قياس ؛ لأن هذا التشكك « يوحشك من كل لغة صحيحة لأنه يتوجه منه أن تتوقف عن الأخذ بها مخافة أن يكون فيها زيغ حادث لا تعلمه الآن ، ويجوز أن تعلمه بعد زمان ... وان اتجه هذا انخرط عليك منه ألا تطيب نفساً بلغة ؛ وان كانت فصيحة مستحكمة »(٤٠) وكذلك « لا يجوز ترك الحاضر الذي له وجود من القياس لغائب مجوّز ليس عليه دليل »(٤١) .

١٠ــ ولا بد أن نضيف الى ما سبق باباً واسعاً في الخصائص سماه المؤلف « شجاعة العربية » يعني بها الحذف والفصل والتفريق والتقديم والتأخير .

كيف تحافظ اللغة على توازنها بين هاتين القوتين المتعاكستين : قوة التقلص المتأتية من قيود الاستعمال الاجتماعي ، وقوة الانتشار الناتجة عن مرونة القياس ؟

١ ـ لا يتغير النظامان الصرفي والنحوي للغة الا ببطء شديد ، وما دام هذان النظامان قادرين على استيعاب الدخيل من الألفاظ ،فلا خوف على اللغة ٠

٢ ـ أما المعاني الجديدة التي يفرضها التطور الحضاري فان اللغة تتمكن من التعبير عنها دون اللجوء الى التوسع المعجمي في غالب الأحيان عن طريق العبور باللفظة من الحقيقة الى المجاز ، وتتحقق كذلك عبر السياقات المختلفة للفظة ؛ يقول ابن جني عن الحقيقة والمجاز « الحقيقة ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة ، والمجاز ما كان ضد ذلك ٠ وانما يقع المجاز ويعدل اليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة ، وهي الاتساع والتشبيه والتوكيد »(٤٢) ٠

ويقول الدكتور عبدالسلام المسدي : « ان العملية التي سماها العرب في وقت ما المجاز ، من فعل جاز ، هي عبور باللفظة من حقل دلالي الى حقل آخر ، وكذلك الاستعارة؛ فاللفظة قادرة على التحول الذاتي ، أي على أن تتحول دلالتها ضمنياً عبر الزمن ٠ وتشبه هذه العملية عملية الانسلاخ في الكائنات الحية ، حيث تجدد اللفظة معناها دون أن تفقد جوهرها »(٤٣) ٠

وتخفف اللغة حملها المعجمي عن طريق الاستغناء ، وهو على أنواع :

١ ـ نوع استعمالي ؛ حيث تموت اللفظة المهجورة زمناً طويلا وفقاً للقاعدة نفسها التي تثبت بها اللفظة الجديدة عن طريق الاستعمال ٠

٢ ـ نوع تمنعه قواعد القياس ، وهي القواعد التي تسمح في الوقت نفسه بتوسع اللغة ، مثل صيغ التعجب والتفضيل من بعض الأفعال ٠

٣ ـ نوع اعتباطي لا ضابط له ، كالاستغناء بجمع القلة عن الكثرة أو بالعكس ، والاستغناء عن صيغ بعض الأفعال ببعضها الآخر كالاستغناء عن (فقر) و (شد) بصيغتي (افتقر) و (اشتد) والاستغناء عن الأصل المجرد بما استعمل مزيداً ؛ وهو صدر صالح من اللغة كما يقول ابن جني ، نحو (كوكب) و (حوشب) اذ لم يرد في كلامهم (ككب) ولا (حشب) ٠

وينطوي تحت عنوان اجتماعية الظاهرة اللغوية ما يسميه الاستخفاف والاستثقال وحس المتكلم ، يقول في باب (علل العربية أكلامية هي أم فقهية) : « قال أبو اسحاق (الزجاج) في رفع الفاعل ونصب المفعول : انما فعل ذلك للفرق بينهما ، ثم سأل نفسه فقال: فان قيل : فهلا عكست الحال ، فكانت فرقاً أيضاً ؛ قيل : الذي فعلوه أحزم ، وذلك أن الفعل لا يكون له أكثر من فاعل واحد ،وقد يكون له مفعولات كثيرة ؛ فرفع الفاعل لقلته ، ونصب المفعول لكثرته ؛ وذلك ليقل في كلامهم ما يستثقلون ، ويكثر في كلامهم ما يستخفون »(٤٤) ٠ ويمثل ابن جني لهذا بثقل الواو الساكنة بعد كسرة في نحو مِوْزان، وثقل الياء الساكنة بعد ضمة في نحو مُيْسر ؛فقلبوا الواو ياء والياء واواً ٠

ولهذا الحديث أكثر من موضع في الخصائص ؛ وانما أوجز أبرز مظاهره فيما يلي :

١ ـ اختيار الأصل الثلاثي دون الرباعي والخماسي لخفته ولثقلهما ٠

٢ ـ الهروب من الحركة الثقيلة الى الخفيفة، مثل تسكين المتحرك في نحو (عضُد ـ عَجُز) وورود معظم الحروف المنفردة على الفتح كألف الاستفهام وواو العطف ؛ وما ورد منها مكسوراً انما كسر لمعنى ، مثل لام الأمر ٠ وورود الأحرف المثناة كلها مفتوحة الأول ، مثل هَلْ و لَمْ ٠٠

٣ ـ الإعلال الذي سبقت أمثلته ؛ بالاضافة الى أنه يشبه تقليب الأصول الثلاثية بالإعلال ، ويجعل هذا الشبه أحد أسباب النفور من التقليبات الممكنة ٠

٤ ـ اختلاس الحركة ، مثل قراءة بعضهم « مالك لا تأمننا على يوسف »(٤٥) مختلساً حركة النون ٠

٥ ـ الإشمام ، ومعلوم أنه للعين ، لا للأذن ، وليس هناك حركة البتة ، يقول ابن جني « فاذا قنعوا من الحركة بأن يومئوا اليها بالآلة التي من عادتها أن تستعمل بها عن النطق بها من غير أن يُخرجوا الى حس السمع شيئاً من الحركة ٠٠٠ لم يبق وراء ذلك شيء يستدل به على عنايتهم بهذا الأمر (يعني الاستخفاف) »(٤٦) ٠

٦ ـ ادراج همزة الوصل ٠

٧ ـ الحذف ، سواء بحذف الكلمة كلها ، أم بحذف جزء منها ٠

٨ ـ ظاهرة أسماء الشرط والاستفهام التي يسأل بها عن الكثير ٠

٩ ـ الإلحاق بالأفعال من أولها ، وبالأسماء من آخرها ، وزيادة الألف فقط على الخماسي لخفتها ، مثل (قبعثرى) و (ضبغطرى) ٠

وفي علم اللغة الحديث ما يسمى بقانون المجهود الأدنى(٤٧) ٠ يشرحه الدكتور عبدالسلام المسدي على النحو التالي « تنزع اللغة الى ابلاغ أكثر عدد من الشحنات الاخبارية ، أي أكبر عدد من المعلومات بأقل ما يمكن من الجهد العضلي ، ومن أمثلته في العربية تحول اللغة العربية الى لهجات والوقوف على ساكن »(٤٨) ويحسن هنا ذكر ملاحظة ثاقبة لابن جني يضيفها الى حديث الاستخفاف والاستثقال ، وهي أن اللغة تنزع أحياناً الى الأطول والأثقل دفعاً للملل وطلباً للتنوع ، كالعدول عن الياء مع خفتها الى الواو على ثقلها في كلمة (حيوة) ، وحقها أن تقلب واوها ياء ، وكذلك العدول عن الإعلال مع توفر العلة في نحو (استصوب) و (استحوذ) ٠ ويعلل الدكتور المسدي هذه الظاهرة بأنها وظيفة نفسية واجتماعية للغة ، وهي وظيفة تركيز دعائم الاستئناس التي يتكلم بها مع المخاطب »(٤٩) ٠

ونشير أخيراً اشارة عابرة ، لتشعب الموضوع ، الى صنيع آخر لابن جني يصب في التيار نفسه ، وهو توجيهه للقراءات الشاذة في كتابه « المحتسب » لأن هذه القراءات أنما هي لهجات تكلمت بها مجموعات بشرية ، قلّت أو كثرت ٠ واكمل ابن جني بهذا صنيع أستاذه أبي علي الفارسي الذي وجه القراءات السبع في كتابه « الحجّة » ٠

الحواشي :

١ ـ في أصول النحو للأستاذ سعيد الأفغاني ط ٣ مطبعة جامعة دمشق ص ٩١ ·
٢ ـ المذاهب الاسلامية · أحمد أبو زهرة ص ٢١٥ ·
٣ ـ في أصول النحو ص ١٠٣ ·
٤ ـ المصدر السابق ص ١٠٤ ·
٥ ـ مقدمة الخصائص ، مطبعة دار الهدى · الطبعة الثانية ص ٤٧ ·
٦ ـ المدارس النحوية · د· شوقي ضيف ص ٢٦٨ ·
٧ ـ في أصول النحو ١٣٧ ·
٨ ـ La linguistique. Jean Perrat. 11ᵉ édition, P. 96
٩ ـ المصدر السابق ص ٩٩ ·
١٠ـ المصدر السابق ص ١٠٠ ·
١١ـ «الدور الايجابي للمتكلمين والمعتزلة في علم اللغة العربية» محاضرة للدكتور جعفر دك الباب · ألقيت في المؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة الاسلامية بدمشق عام ١٩٨١ ·
١٢ـ La linguistique, P. 100
١٣ـ انظر مثلا مغني اللبيب ص ٣٦ مطبعة دار الفكر ـ الطبعة الثانية ·
١٤ـ الخصائص ١/٦٤ ـ ٦٥ ·
١٥ـ الخصائص ١/٥٢ ·
١٦ـ الخصائص ١/٣٢٢ ·
١٧ـ دلائل الاعجاز للامام الجرجاني منشورات دار المعرفة ص ٤٠٨ ·
١٨ـ الخصائص ٢/٣٠ ·
١٩ـ La linguistique, P. 5
٢٠ـ المصدر السابق ص ٣٤ ·
٢١ـ الخصائص ١/٢٤٤ ·
٢٢ـ الخصائص ١/٢٤٤ ·
٢٣ـ الخصائص ٢/٢٥ ·
٢٤ـ الخصائص ١/٣٨٣ ·
٢٥ـ الخصائص ١/٢٤٨ ·
٢٧ـ الخصائص ١/٣٩٨ ·
٢٨ـ الخصائص ١/١٢٦ ·
٢٩ـ الخصائص ١/٣٥٧ ·
٣٠ـ الخصائص ١/٣٥٧ ·
٣١ـ الخصائص ١/٣٥٧ ·
٣٢ـ الخصائص ١/٣٤٧ ·
٣٣ـ الخصائص ١/٣٤٩ ·
٣٤ـ الخصائص ١/٣٨٣ ·
٣٥ـ الخصائص ١/٣٨٣ ·
٣٦ـ مجموعة محاضرات للدكتور عبد السلام المسدي ألقيت على طلبة الدراسات العليا بجامعة دمشق عام ١٩٨١ ·
٣٧ـ الخصائص ١/٦١ ـ ٦٢ ·
٣٨ـ الخصائص ١/٢١٤ ·
٣٩ـ الخصائص ٢/١٠ ·
٤٠ـ الخصائص ١/٢٥٢ ·
٤٢ـ الخصائص ٤٤٢ ·
٤١ـ الخصائص ١/٢٥٢ ·
٤٣ـ محاضرات الدكتور عبد السلام المسدي ·
٤٤ـ الخصائص ١/٤٨ ـ ٤٩ ·
٤٥ـ يوسف ١٢/١١ ·
٤٦ـ الخصائص ١/٧٣ ·
٤٧ـ La linguistique, P. 121
٤٨ـ محاضرات الدكتور عبد السلام المسدي ·
٤٩ـ المصدر السابق ·

تكملة لتحقيق «بديع القرآن»

د. علي ميرلوحي فلاورجاني

الدكتور علي ميرلوحي مدرس اللغة العربية في كلية اللغات بجامعة اصفهان • وقد كلف ترجمة « بديع القرآن » لابن أبي الاصبع العدواني • وهذا الكتاب من افضل الكتب التي تناولت بلاغة القرآن الكريم• فكلف الدكتور علي على نقله الى الفارسية نقلا دقيقا وأمينا • هذا والقارىء لنص الكتاب ربما لا يقف عند بعض المواضع الغامضة أو القلقة أو المحرفة • ولكن المترجم الدقيق ينعم النظر عند كل جملة بل عند كل كلمة فيحققها ويتفهم معناها في السياق • وهكذاكان شان المترجم • فانه لما عالج النص معالجة علمية متفهمة ورجع الى كتاب المؤلف الأول « تحرير التحبير »والى مظان الشواهد في غير الكتابين استطاع أن يصحح بعض الجمل وينبه على سهو المؤلف والمحقق وأراد أن ينشر تكملة لتحقيق « بديع القرآن » خدمة لوجوه البلاغة في القرآن الكريم وخدمة للغة العربية الأصيلة •

ع• ك• ي•

□ مقدمة :

لا ريب أن دراسة المخطوطات وتحقيقها تحقيقاً علمياً وفق المناهج المتبعة اليوم من أهم الوظائف التي ألقيت على عاتق الباحثين والعلماء الذين اعتنوا باحياء ما ورثه لنا المتقدمون من آثار قيمة وكتب نفيسة • فكم هنا وهناك من درر ثمينة هي من ثمار جهود العلماء السالفين ما زالت محجوبة وراء ستار الغفلة والذهول ؛ وبينها كتب تحتوي على طرائف الأفكار وبدائع الآراء ، ومصابيح مضيئة تنير طريق البحث وتساعد على تقدم العلم في شتى المجالات •

ومن حسن الحظ قام العلماء المعاصرون بتحقيق المخطوطات وعرضها للنشر عرضاً يفيد الدارس والباحث الى حد بعيد • ولكننا مع ذلك بحاجة الى مزيد من النشاط وبذل الجهود في هذا المجال ؛ اذ ان المخطوطات التي نشرت حتى الآن لا تخلو عن ثلاثة أقسام :

قسم طبع عن نسخة واحدة أو وحيدة دون أي تحقيق ، وقسم نشر عن تحقيق غير

مكتمل ، وقسم طبع بعد التحقيق الكامل والمقابلة بأقدم النسخ وأصحها ؛ مع براعة المحقق واضطلاعه في موضوع للكتاب المحقق ، وهذا القسم الأخير هو القليل عددا والكثير فائدة .

وأما كتاب « **بديع القرآن** » هذا الكتاب الذي ندرس ونكمل تحقيقه في هذه المحاولة فهو كتاب حققه الاستاذ حفني محمد شرف ونشر عام ١٣٧٧ هـ ، ولما قرات الكتاب وجدت فيه من الأخطاء ما بعثني على كتابة هذا المقال تكملة لتحقيقه « فكم ترك الأول للآخر » .

وقبل الخوض في البحث ، ينبغي أن نشير الى موضوع الكتاب وأهميته والى مؤلف الكتاب وشخصيته :

أما موضوعه . فهو ـ كما يظهر من اسمه ، عرض لأنواع البديع التي وردت في القرآن الكريم ؛ ولا يخفى ما فيه من الأهمية ، لأنه وجه من الوجوه التي بها ينظر الى اعجاز القرآن الكريم ، وهو المعروف بالاعجاز البياني . وقد اعتنى به الأدباء منذ العصور الإسلامية الأولى ؛ فنرى بعضهم قد تكلموا على بلاغة القرآن ونظمه العجيب وبيانه البديع(١) ، ولكن ليس بينهم قبل ابن أبي الاصبع من خصص كتاباً بدراسة بلاغة القرآن : فكتابه « بديع القرآن » يعد أول كتاب افرده مؤلفه لهذه الدراسة ، ويعتبر الكتاب الوحيد الذي استخرج مؤلفه ما استطاع من آيات القرآن التي اشتملت على الوجوه البديعية ؛ وانه كثيراً ما يعرض على القارىء أنواعاً بديعية عديدة تحويها ألفاظ قليلة من آية واحدة .

أما مؤلف الكتاب ، فهو أبو محمد زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن عبدالله بن محمد المصري المعروف بابن أبي الأصبع العدواني (٥٨٥ ـ ٦٥٤ هـ)(٢) ، كان أديباً شاعراً مفسراً ومتضلعاً في علوم البلاغة ولا سيما البديع منها ، وهو صاحب الابداع في فن البديع ؛ لأنه اخترع أنواعاً بديعية كثيرة أوردها في آخر كتابه هذا « **بديع القرآن** » ، وفي كتابه « **تحرير التحبير** » ، وفي كتابه بديع القرآن لمحات دالة على أنه قد نال نصيباً من علم المنطق ، والكلام والفلسفة والحديث وبعض العلوم الأخرى .

وقد اعتمدت في تبيين موارد الخطأ وايضاح الوجه الصواب على النص نفسه ، وأخذت الدليل منه عليه ، وربما استنبطت الصواب بمعونة القرائن المكتنفة بالنص أو بمراجعة بعض مصادر علم البديع ولا سيما « تحرير التحبير » الذي يعتبر أصلا لهذا الكتاب(٣) .

وبعد هذا العرض الموجز عن بديع القرآن ومؤلفه نبدأ ببحثنا عن نصه ، وبيان موارد الخطأ ووجه الصواب فيها :

مقدمة المؤلف « في مساق الحديث عن أبواب الكتاب » ص ١٥ جاء ما نصه : « ... فاستنبطت واحداً وثلاثين باباً » .

والوجه الصواب ينبغي أن يثبت « اثنين وثلاثين باباً » ، ودليل ذلك أن الأبواب التي أوردها المؤلف في آخر الكتاب ونسبها الى نفسه هي اثنان وثلاثون باباً ، أولها باب التخيير ، ص ٣٣ : وآخرها باب حسن الخاتمة .

باب الاستعارة :

«في معرض الكلام على استعارة المحسوس للمعقول » ص ٢٢ ، س ٦ ، أتى النص كما يلي : « ... ومن هذا القسم أيضاً قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر »(٤) فالمستعار منه الزجاجة والمستعار الصَّدع وهو الشَّقّ والمستعار له [عقوق] المكلفين » .

والصواب « ... (عقول) المكلفين » لأن معنى « العقوق » لا يتناسب وسياق الكلام اطلاقاً ، ويؤيد هذا الوجه ما جاء من لفظة « القلوب » بعد تلك العبارة ، التي يراد بها نفس معنى العقول ؛ جاء بعدها : « والمعنى صَرِّحْ بجميع ما أوحي اليك وبيِّن كل ما أمرت ببيانه ، وإن شقَّ ذلك على بعض القلوب فانصدعتْ » ونقل المحقق عن نسختي « ا » و « ب » الوجه الذي استصوبناه .

باب المذهب الكلامي :

« في معرض الحديث عن المذهب الكلامي الواقع من الآيتين الأوليين من سورة الكوثر » ص ٤٠ ، س ١٦ ، ورد النص كالتالي : « ...عطية الكوثر تعدل جميع العطيات ... وكل عطية كان الشكر عليها جميع العبادات (لأنه ﷺ أمر بالصلاة والنحر والصلوة جامعة لجميع العبادات) فهي تعدل جميع العطيات ، وانما قلنا ذلك لأن المأمور به جميع العبادات البدنية .

ويلاحظ القارىء أن الكلام بهذا النظم لا يفيد المعنى ، وفيه قلق واضطراب ؛ وانما يعطي المعنى اذا أخرّت العبارة الموضوعة بين الهلالين الى ما بين « جميع العبادات » و « البدنية » فينتظم الكلام على الشكل التالي : « ... وكل عطية كان الشكر عليها جميع العبادات فهي تعدل جميع العطيات وانما قلنا ذلك لأن المأمور به جميع العبادات (لأنه ﷺ أمر بالصلاة والنحر والصلوة جامعة لجميع العبادات) البدنية ... » .

باب الالتفات :

١ ــ « في البحث عن أقسام الالتفات » ص ٤٤ ، س ١٢ ، جاء ما نصه : « ... أو الانصراف عن التكلم الى المخاطبة كقوله تعالى : ... » .

والصواب « أو الانصراف عن التكلم الى الأخبار » ودليله كلام المؤلف بعيد ذلك : « ثم قال منصرفاً عن التكلم الى الأخبار ... » كما يشهد لذلك نفس الآية أيضاً .

٣ ــ أيضاً في معرض الكلام على الالتفات » ص ٤٥ ، س ١ ، جاء نص كالتالي : « ... أو الانصراف من التكلم الى الاخبار كقوله تعالى : إن يشأ يذهبكم ... وما ذلك على الله بعزيز » .

وكما يلاحظ القارىء ليست الآية مثالا لهذا القسم من الالتفات ، بل هي مثال للالتفات من الضمير الى الاسم الظاهر .

باب الكناية :

« في تعريف الكناية » ص ٣ ، س ٧ : عرف الكناية بالنص التالي : « هي عبارة عن تعبير المتكلم عن المعنى القبيح باللفظ الحسن وعن النجس بالطاهر وعن الفاحش بالعفيف ، هذا اذا قصد نزاهة كلامه عن العيب (وقد يقصده بالكناية عن ذلك) وهو أن يعبر عن الصعب بالسهل ...

وعندي أن العبارة الموضوعة بين الهلالين محرفة لأنها لا تفيد معنى لائقاً بموضوعها من الكلام . ويبدو أنها حرفت عن « وقد يقصد بالكناية غير ذلك » .

باب التشبيه :

« في بيان وجوه التشبيه » ص ٥٨ ، س ٣ : جاء النص في عبارة هي : « منها (اخراج ما تقع عليه الحاسة) ... » .

والصواب (اخراج ما لا تقع عليه الحاسة [الى ما تقع عليه الحاسة] ودليل ذلك تكرار النص بوجهه الصواب بعد ذكره بقليل .

باب المساواة :

« في معرض الحديث عن المساواة الواقع في الآية الكريمة : (وقيل يا أرض » ...(٥) ص ٨٠ ، س ١٤ جاء ما نصه : « وذلك أنه لمّا قال سبحانه في أول القصة : « وكلّما مرَّ عليه ملأ من قومه سخروا منه »(٦) ، وقال بعد ذلك : « ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون »(٧) .

ولا يستقيم المعنى الا اذا قلنا انّ الآيتين وقع في نقلهما تحريف بتقديم المؤخرة وتأخير المقدمة ؛ وذلك ان الآيتين متعاقبتان وهما بالترتيب : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون . ويصنع الفلك وكلما مرَّ عليه ملأ من قومه سخروا منه ... » .

باب الايغال :

« في البحث عن الايغال الواقع في الآية الكريمة : «ولا تُسمع الصمَّ الدعاء...»(٨)، ص ٩١ ، س ١٤ ، جاء النص كالتالي :« ولما أخبر سبحانه – وهو أعلم – بذكر توليهم متمماً للمعنى في حال الخطاب » .

والصواب « ولما أخبر سبحانه ـ وهو أعلم ـ [أنهم صم لا يسمعون أرام] بذكر ٠٠٠ » ٠

يلاحظ أن الكلام ناقص دون زيادةالعبارة الموضوعة بين الهلالين ، وهذه الزيادة وردت في نص التحرير ، نفسالموضع ، ص ٢٣٥ ٠

باب المواربـة :

« في معرض التمثيل بالآية الكريمة : « ٠٠٠ إن ابنك سرق(٩) » ص ٩٥ ، س ٩ جاء في شرح الآيـة على قراءة « سُرِّقَ »ما نصه : « فان يوسف عليه السلام سُرِّقَ ولم يَسرِق » ٠

والصواب « فان أخا يوسف عليه السلام٠٠٠ » لأن المراد من « الابن » في الآية هو أخو يوسف لا هو نفسه ٠

باب الاستثناء :

« في توضيح الاستثناء الواقع في الآيـة« فأما الذين شقوا ٠٠٠ » ص ١٢٢ ، س ١٨ ورد النص كالتالي : « فانه سبحانه عَلِمَ أن أهل الشقاوة الذين ٠٠٠ استثنى سبحانه ٠٠٠ » ٠

يلاحظ أن العبارة لا يوجد فيها ما به ترتبط جملة « استثنى بجملة « علم » مع ما نفهم من الكلام من معنى الترتب ؛فينصرف الذهن الى سقط أداة تربط الجملة الثانية بالأولى ٠ وأسلوب المؤلف في الكتابة يرشدنا الى أن الأداة الساقطة لا تكون الا « لما » فاتى بها قبل « علم » فالصواب« فانه سبحانه [لما] علم ٠٠٠ » ٠

باب التـوهيـم :

« في توضيح الآية : قل تعالوا أتل ما حرم ربكم ٠٠٠ »(١١) ٠

١ ـ ص ١٣٣ ، س ٤ـ٥ جاء ما أنصه: « ولذلك عطف بثمَّ دون حروف النسق » ٠

والصواب « ٠٠٠ من بين حروف عطفالنسق » كما نقل النص كذلك في أنوار الربيع ، ص ١٣٢ ٠

٢ ـ وأيضاً في نفس البابوالصفحة س٦وردت عبارة نظيرة العبارة السابقة ، وهي « فانَّ ثمَّ دون حروف العطف » ٠

والصواب فيها نفس الصواب في سابقتها ٠

٣ ـ وأيضاً في البحث عن الآية السابقة، ص ١٣٤ـ١٣٥ ، س ٢١ ، جاء النص كالتالي : « فان قيل : فلم عدل عن لفظالتأويل ، ولم لا جاء التنزيل به ، ولفظ

التأويل على ما بينتم أبلغ واخصر ، به يرتفع الإشكال الوارد على ظاهر الكلام ؟ وتحريم الشرك هو اهم ما في هذه الوصايا ، فانالايمان أصل الدين وأسسه عليه تبتنى هذه الوصايا وغيرها من الدين وتتفرع فروعه منه ، ولا جرم أنه قدم الاهتمام به ، فاقتضت البلاغة التصريح بلفظ التحريم لذلك ،فان قلت ٠٠٠ » ٠

يلاحظ أن الشرط لم يأت له جواب فيمساق هذه العبارة الطويلة ٠ فلا جرم أنه سقط من قلم النساخ او سها عنه المؤلف ،وعلى اية حال ، لا يكون الا « قلت » فيجب ان يزاد حيث تنتهي جملة الشرط ، والظاهرانها تنتهي عند قوله « على ظاهر الكلام » فنزيد جملة « قلت » بعده ، وقبل « وتحريم الشِّرك » ، فيصير نظم الكلام على الشكل التالي : « فان قيل : فَلِمَ عدل ٠٠٠ علىظاهرالكلام [قلت٠٠٠] وتحريم الشرك٠٠٠»، ويبدو أن صدر جملة الجواب سقطت منهاعلاوة على « قُلْتُ » أجزاء أخرى » ٠

باب نفي الشيء بايجابه :

في الحديث عن الباب في قوله تعالى : «أَلَهُم أعين ٠٠٠ »(١٢) ص ١٥٢ ، س ٥ ، ورد النص كالتالي : « فان ظاهر هذا الكلاميقتضي نفي هذه الجوارح وباطن الكلام يقتضي ٠٠٠ » ٠

والصَّواب : « فان ظاهر هذا الكلاميقتضي نفي هذه الجوارح [وملزومه يقتضي اثبات الإلهية لمن يكون له مثل هذه الجوارح]وباطن الكلام يقتضي ٠٠٠ » والعبارة المثبتة بين المعقوفتين زدناها من التحرير نفس البابص ٣٧٧ ٠

باب الاتساع :

ص ١٧٣ ، س ١٥ ورد الشطر الثانيلبيت شريح بن أوفى ، كالتالي :

« فهلاّ تلا قبل التقدم » ٠

والصواب : « فهلاّ تلا حاميم قبل التقدم » كما ورد في التحرير نفس الباب ، ص ٤٥٦ ٠

باب المجاز :

١ ـ « في بيان حذف المفعول » ص ١٨٨، س ١٢ جاء النص كما يلي: « واذا كان كذلك قال : قد طلبنا مثلا في السؤدد والمجدفلم نجده لم يوقع نفي الوجود على المثل وأوقعه على ضميره ٠٠٠ » ٠

والصَّواب : « واذا كان كذلك [فلو] قال٠٠٠ بزيادة « فلو » وبدونها تظل العبارة خالية عما يربط جملة « لم يوقع » بجملة« قال » ، ويبقى الكلام غير متماسك الأجزاء ٠

٢ ـ « في بيان وجوه المفاضلة بين آية القصاص » وقول العرب « القتل أنفى للقتل » التي نقلها عن الامام فخر الدين ص ١٩٣ـ١٩٧ ، وقعت أخطاء عجيبة من التحريف والتقديم والتأخير ؛ هي كالآتي :

أ ـ في بيان الوجه السادس من كلام الإمام فخرالدين ، ص ١٩٣ ، س ١٠ ، جاء ما نصه : « وهذا الوجه أيضاً جيد » .

ليس هنا موضع هذا الكلام ، وليس قبله ما تشير اليه لفظة « أيضاً » بل موضعه حيث اعاد المؤلف ذكر الوجه السادس بصددالتعليق عليه ، ولمزيد الايضاح نورد تعليق المؤلف على الوجه الخامس وما جاء بعده بصدد التعليق على الوجه السادس ـ كي يتضح كيف وقع هناك فراغ ينبغي أن يملأبكلامه هذا الذي أقحم أثناء الوجه السادس نفسه ـ ، جاء في التعليق على الوجه الخامس وبعده على الوجه السادس ، ص ١٩٧ ، س ٧ ما نصه : « والوجه الخامس لعمري هوجيد لا مقال فيه ، وهو قوله : ان حروف القصاص حياة عشرة ، وحروف كلامهم أربعة عشر حرفاً وهذا أمر معتبر في الايجاز، والوجه السادس وهو قوله : انه ليس فيقولهم : « القتل أنفى للقتل » كلمة يجتمع فيها حرفان متلاصقان متحركان الا فيموضع واحد ، بل كلها الا ذلك الموضع أسباب خفيفة أكثرها متوالية وذلك ينقص من سلاسة الكلمة ، بخلاف قوله تعالى : « ولكم في القصاص حياة » [...] .

فنلاحظ أن تعليق المؤلف هذا ناقص لا يتم الا بقوله : « وهذا الوجه أيضاً جيد » الذي أقحم أثناء ذكر الوجه السادس . زد على ذلك أن لفظة « أيضاً » في سياق الكلام هذا تجد مرجعها اللائق في الوجه الخامس .

ب ـ وفي كلام المؤلف نفسه على ترجيح آية القصاص ، وقع انفصال بين أجزائه وتقديم وتأخير فيها ،

وبيان ذلك أن معظم كلامه جاء مقحماً بين الوجه السادس والسابع من كلام الإمام فخرالدين ، وهو قوله في الصفحة ١٩٣ ، س ١٤ : « والذي يجب أن يرجح به نظم القرآن على نظمهم ما جاء في تلك اللفظتين من البديع الذي لم يأت في نظمهم على طوله بالنسبة ؛ فانهما جاء فيهما المجاز والادماج ، والايضاح ، وحسن البيان ، والارداف ، والطباق ، وأما الارداف فان الأصل أن يقال : « موت القصاص حياة » فتجوزت الحقيقة بحذف المضاف ، فجاء الارداف مدمجاً في المجاز لأنه عبَّر عن المعنى بغير لفظه الموضوع له ، وأما الطِّباق ففي اللفظتين ، فان الحقيقة فيهما [الموت المخصوص حياة مخصوصة] وهذا طباق معنوي (فهذه ستة أضرب من البديع في لفظتين عدة حروفهما عشرة) والايضاح فيهما فهو ايضاح ما على نظم العرب ...

فانت ترى أن كلام المؤلف هنا لم يتم بعد ؛ لأنه فصل ما أجمل بيانه من المجاز والادماج ، والارداف ، والطباق ، ولم يتم تفصيله حول الايضاح ولم يرد شيء من التفصيل حول حسن البيان ، فنبحث عن تفصيلهما ، فنجده في آخر الفقرة الأولى ،

ص ١٩٧ ، س ١٢ ، وهو قوله : « ... الإشكال من جهة انه لا يدل على المعنى المراد بظاهره وحسن البيان من حيث أن السامع يفهم منه المعنى المراد من غير مراجعته بخلاف الأول [...] والله أعلم .

ولكي يمكننا ضم الجزء الأول من كلام المؤلف الى الجزء الثاني الذي انفصل عنه ، يجب أن نزيد كلمة « من » بينهما ؛ لأنها هي التي تربط الجزء الثاني بالجزء الأول . وهنا ينبغي الانتباه الى أن الجملة المثبتة بين الهلالين في الجزء الأول من كلامه ، وقعت في غير موقعها ، ويجب أن تثبت حيث فتحنا لها المعقوفتين في الجزء الثاني .

فبعد ما شرحناه من ضم الجزء الأول الى الثاني ، ورد الجملة المتقدمة عن موضعها الى مكانها ينتظم كلام المؤلف على الشكل التالي : « والذي يجب أن يرجح به نظم القرآن ... ايضاح ما على نظم العرب [من] الاشكال من جهة انه لا يدل على المعنى المراد ... بخلاف الأول [فهذه ستة أضرب من البديع في لفظتين عدة حروفهما عشرة] والله أعلم .

ونظم الكلام يقتضي أن يثبت كلام المؤلف هذا بعد انتهائه من التعليق على الوجوه المذكورة للامام فخر الدين ، لا متوسطاً أو معترضاً بين تلك الوجوه .

ج ــ وفي كلام المؤلف على الوجوه السبعة ، ص ١٩٥ ، س ١٥ ، جاء ما نصه : « وفي هذه الوجوه السبعة مقال اذ لا يسلم منها الا الأول » .

ولا شك أن الكلام اما وقع فيه الخطأ من قبل النساخ أو اختلط الأمر فيه على المؤلف نفسه ؛ لأن مفهومه يخالف ما يورده من الاشكال على الوجه الأول ، وما ينص عليه من تأييده للوجهين الخامس والسادس .

د ــ ويبدو من قول المؤلف : « وفي هذه الوجوه السبعة مقال » ان كلامه حول الوجه السابع سقط من المتن ..

٣ ــ « في معرض الكلام عن الايجاز المختصر » ص ١٩٨ ، س ١٧ جاء ما نصه : « فان قوله هذا تأويل رؤياي من قبل » حتى « وخروا له سجداً » مقتصراً ..

والصواب : « فان قوله « وخروا له سجداً » حتى « هذا تأويل رؤياي من قبل » مقتصر (أو جاء مقتصراً) .

باب الايضاح :

في شرح الايضاح الواقع في الآية « إن الله فالق الحب والنوى ...(١٣) » ص ٢٤٩ ، س ٤ ، جاء ما نصه: « ووجب أن يقتصر على ذكر الحب دون النوى » .

والصواب : « ... أن لا يقتصر ... » .

باب الافتنـــان :

« في بيان الجمع بين التعزية والتهنئة » ص ٢٩٨ ، س ١٥ جاء ما نصه : « وأما قول أبي نواس ... » .

ولا يوجد لأما هذه جواب بعدها ولا توجدقرينة تدل على حذفه ، فلا بد من القول بأنه سقط من النص ، وقد يكون عبارة كالعبارةالتالية : « أما قول أبي نواس ... [فأحسن شعر فنن فيه بالجمع بين تهنئة وتعزية] وقدزدناها هنا عـن التحرير (نفس الباب ونفس الموضع ص ٥٨٩) ووقعت هنـاك كمبتـدألكـلام .

باب المقـارنـة :

« ص ٣١٩ ، س ٧ » جاء النص كما يلي: « فان هذا الشاعر قرن الاستعارة ... » .

والصـواب : « ... قـرن الاسـتعارة[بالتشبيه] » بزيادة بالتشبيه وبدونها لا يتم الكـلام .

باب الانفصـال :

١ ـ « في ايضاح الانفصال الواقـع فيالآية « ومـا مـن دابة ...(١٤) » ص ٣٢٧ ، س ٤ ، جاء ما نصه « لأنـه لا يطلق الجناححقيقة الا علىالعضو الذي ليس له ريش..».

وانمـا يصـح النص بحذف « إلا » أو « ليس » وهذا معلوم لا خفـاء فيه :

٢ ـ « في بيان الانفصال الواقع في الآية«... فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج » ص ٣٣٨ ، س ١٢ ورد النص كمـا يلـي :« فانه يقـال لِمَ خصص هذين الحرفين ... (ويقال) : ان النحاة ... » .

والصواب : « فانه يقـال لِمَ خُصِّص... (ولا يقال) ان النحاة... » وقد اشتبه الأمر على المحقق حيث أثبت الوجه الخطأ فيالنص وأورد الصواب في الحاشـية ، وخطـأه بقوله : « وهي مفسدة للمعنى » ؟

هنا ينتهي ما قصدت ايضاحه من مواضعالخطأ التي وجدتها في كتاب « بديع القرآن »، وحاولت أن أبين وجه الصواب قدر المستطاع« ولا يكلف الله نفساً الا وسعها » .

وبقي موارد من الخطأ لا أرى من الضروري اثباتها؛ لأنها من الوضوح بدرجة لا تحتاج الى اقامة دليـل . فنثبت هنـا وجه الصوابمشيرين الى موضعها من الأبواب والصفحات والسطور :

البـــاب	الصفحة	السطر	الخطــا	الصــواب
الاستعارة	٢٦	٦	المستعار	المستعار له
الطّبــاق	٣٥	٣	معنويــا	منعوتاً
الالتفــات	٤٣	٣	مَنْ عَجَزَ	مِنْ عَجْزِ
التشبيــه	٥٨	٦	وقد أصبحتــا	وقد اجتمعا
التشبيــه	٥٨	١٣	وقد اجتمعتا	وقد اجتمعا
صحة التفسير	٧٦	١٥	كمــا	كُلّما
الاشــارة	٨٢	١٦	قاتِلْهم	قابِلْهم
باب ائتلاف الفاصلة مع ما يدل عليه سائر الكلام	٨٩	٤	في موضوعها	في موضعها
التعطّــف	٩٧	٢	المشاركة	المشاكلة
التفويف	٩٩	١٨	والاعتراف	الاعتراف
التورية	١٠٣	١١	ان يسمّى	ان يورّى
القسـم	١١٢	٩	القسم عليه	المقسم عليه
الاستدراك والرجوع	١١٨	٧	من القتل والرّمي	من القتل الى الرّمى
الاســتثناء	١٢١	٩	ولانّ	لأنّ
التوهيم	١٣٤	١١	لا هذا	الاّ هذا
التوهـم	١٣٥	٧	ألاّ تشركوا	ان تشركوا
التكميــل	١٤٤	٤	موجب	موجباً
المناسبة	١٤٦	١٠	الباب الابصار	اولى الأبصار
التذييــل	١٥٧	١٤	واحدهما	واحدها
التذييــل	١٥٨	٢	وفي ذكر البيتين	وفي عَجُزِ البيتين
التذييــل	١٥٨	١٤	من المواضع الأول	من الواضع الأوّل
براعة التخلص	١٧١	١٨	وغيرما	وغيره ممّا
الايجــاز	١٨٤	١٨	ايجازهما	انجازهما
الايجــاز	١٨٥	١٠	ازْلِفَتْ	ازلِقَتْ
الايجــاز	١٨٧	١٥	اكرمتنى	اكرمتُ
التنكيت	٢١٠	١٣	الرّابع	الواقــع
التنكيت	٢١٣	٥	وقــوا	تفاوتوا
التدبيج	٢٢٤	٨	التعويل	التهويل

الصواب	الخطأ	السطر	الصفحة	الباب
العالمين	العاملين	٧	٢٥٦	البسط
الباب	الكتاب	١٢	٢٥٨	العنوان
أن لا يقتصر	ن يقتصر	٤	٢٦٩	الايضاح
الى انَّ مَنْ	الى مَنْ	١٣	٢٦٤	الايضاح
دون بقيّة حروف النسق	دون حروف النّسق	١٥	٢٦٤	الايضاح
أكل مِن بيته	اكل بيته	١٢	٢٧١	الايضاح
في جزاء	في جزء	٥	٢٧٤	الايضاح
عَنْ قَوْلِهِ	عن قولهم	١٢	٢٧٦	الايضاح
لِينفى	ليبقى	١٠	٢٩٤	النزاهة
وما مشى	ومشى	١٣	٢٩٩	الافتنان
باستخلافه	باستخلاصه	٤	٣٠٢	المراجعة
حتّى اذا	كلّما	١٦	٣١٣	التفريق والجمع
يوم لقائه	يوم القيامة	٢	٣١٨	حصر الجزئي والحاقه بالكلي

أنتهى بعون الله تعالى

د. علي ميرلوحي فلاورجاني
مدرس قسم اللغة العربية
في كلية اللغات بجامعة اصفهان

* * *

الحواشي :

١ ـ راجع مقدمة المحقق لكتاب بديع القرآن ص ٤٠ .
٢ ـ راجع مقدمة المحقق لكتاب بديع القرآن ص ٦٧ .
٣ ـ راجع مقدمة المؤلف ص ١٥ .
٤ ـ سورة الحجر : ١٥ ، آية ٩٤ .
٥ ـ سورة هود : ١١ ، آية ٤٤ .
٦ ـ سورة هود : ١١ ، آية ٣٨ .
٧ ـ سورة هود : ١١ ، آية ٣٧ .
٨ ـ سورة النمل : ٣٧ ، آية ٨٠ .
٩ ـ سورة يوسف : ١٢ ، آية ٨١ .
١٠ـ سورة هود : ١١ ، الآيات من ١٠٦ ـ ١٠٨ .
١١ـ سورة الأنعام : ٦ ، آية ١٥١ .
١٢ـ سورة الأعراف : ٧ ، ١٩٥ .
١٣ـ سورة الأنعام : ٦ ، آية ٩٥ .
١٤ـ سورة الأنعام : ٦ ، آية ٣٨ .

الشعر العربي الحديث والتراث
القرآن الكريم
دراسة في التناص*

د. عبدالنبي اصطيف**

□ مقدمة :

يستطيع المتأمل في طبيعة الأدب العربي الحديث أن يقع فيه على نوعين من المكونات Constituents : داخلية وخارجية ؛ داخلية Internal تشمل البنى Structures اللغوية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ـ هذه البنى التي يشكل مجموعها السياق Context الذي يحكم انتاج هذا الانشاء Discourses اللغوي الذي توظف فيه اللغة على نحو خاص؛ وخارجية External تشمل البنى المتنوعة المتصلة بواقع المواجهة مع أوروبا والعالم بشكل عام ـ هذه المواجهة المتعددة الوجوه والأبعاد ، والتي تنعكس عادة في الإشارات الضمنية Implicit والصريحة Explicit ، الثقافية وسواها، الى هذا المكون الخارجي ، والتي تدرس من قبل المعنيين بالأدب المقارن بصفتها مؤثراً أجنبياً له دور معين في حفز أنماط Modes من التغيير على مختلف المستويات في هذا الأدب .

واذا ما رغب المرء في التركيز على واحدمن المكونات الداخلية هو اللغة ، فانه يمكن

★ التناص ، أو تفاعل النصوص ، ترجمة لمصطلح Intertextuality .

★★ عبد النبي اصطيف هو مدرس النقد الحديث (العربي والأوربي) في جامعة دمشق ، ومدرس مشارك لمادتي الادب المقارن و النقد الأدبي في قسم اللغة الانكليزية في جامعة البعث في حمص . حصل على درجة الدكتوراة في النقد المقارن (عربي ـ أوربي) من جامعة اكسفورد ، وله مساهماته المعروفة في مختلف المؤسسات الجامعية والثقافية والاعلامية . نشر أكثر من مائة وخمسين بحثا ودراسة ومقالة وترجمة باللغتين العربية والانكليزية في دوريات القطر العربي السوري والوطن العربي وأوربا ، وحضر العديد من المؤتمرات المتصلة بحقل تخصصه داخل القطر وخارجه .

أن يشير الى أن هذه اللغة بالنسبة الى منشىء هذا الأدب العربي الحديث ليست مجرد نظام لغوي Langue يحكم انتاج انشائه الفردي Individual discourse ويكفل لـه الوصول الـى الآخرين وحسب ، بـل هي أيضاً أداة للتفكير لهـا اجراءات وعادات وأعراف معينة تفرض نفسها على مستخدم هذه اللغة • وفوق هذا وذاك ، ان اللغة هي الأداة الأهم من غيرها التي تتجلى من خلالها الثقافة الموروثة لمن يستخدم هذه اللغـة • ان ممارسة أية لغـة لا يعني مجرد استخدام أداة توصيل وتفكير فقط ، بل انه يتضمن أيضـاً استيعاباً لجملة متفاوتة من الثقافة التي دونت فيها • بل ان عملية الاستيعاب هـذه تتأثر وتؤثر بمدى استيعاب مستخدم اللغة لهـا ، حتى أن المرء ليخال أنهما عملية واحدة ، أو أنهما وجهان لعملة واحدة تستهدف استيعاب العالم فينـا ومن حولنا ، وادراكه ، وأسره ، والتحكم فيه•

ان التكوين الثقافي Cultural formation للأديب العربي الحديث يشمل ــ دون شك ــ عناصر متنوعة جـداً • ولكن ليس ثمة مـن يماري في أن موروثه الثقافي الذي ينتقل اليه عبر اللغة كما تقدم ، والتي هي مـن الناحية العملية بالنسبة له على الأقل مجموعة نصوص Texts أدبية وغير أدبية من مختلف العصور يواجهها هذا الأديب في مختلف مراحل تكوينه الثقافي • ان القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف ، والشعر العربي مـن الجاهلية الى العصر الحاضر ، ونصوص التاريخ العربي ، والقصص ، والفكر في مختلف تجلياته ، هي مكونات صغرى لهذا العنصر الذي يتسرب الى خلفيـة الأديب الثقافية عـن طريق اللغة ، ويتجلى فيما بعد في الانشاء الأدبي نفسه ، في النص الذي ينشئه والذي هو في الحقيقـة تراكم نصوص سابقـة •

ومعنى هـذا أن دراسة مجدية للأدب العربي الحديث لا يمكن أن تتم دون أخذ دور هـذا المكـون Constituent الداخلي بعـين الاعتبار • والواقع أن هذه الدراسة ينبغي أن تشمل الجوانب التاليـة :

١ ــ تحديد الشكل الذي يتجلى به هذا المكون الداخلي في النص الجديد أي في الانشاء الأدبي العـربي الحـديث •

٢ ــ بيان أصوله من جهـة ، والتحولات التي طرأت عليه في النص الجديد من جهة أخرى •

٣ ــ ربط هـذه التحولات بالوظيفة الجديدة التي أسندت اليـه في معرض انتـاج الدلالة الكليـة للنص الجـديـد •

٤ ــ الحكم على أهمية هذا المكون الداخلي من خلال تقويم مدى حيويـة الوظيفة التي يؤديها في السياق الجديـد •

وربما كان من الهام هنا التأكيد على أن دراسة هذه الجوانب ينبغي أن تتم في اطار الدراسة الشاملة للنص الجديد ــ هذا الاطار الذي تحدده بشكل عام طبيعة هـذا النص •

* * *

وما دام هذا اللون من الدراسة لا يزال في مراحله التكوينية الأولى ، وفي طور التجريب ، فأنه ربما كان من الأفضل أن يبدأ المرء ببعض النماذج التطبيقية التي ربما توضح بعض هذه الجوانب المشار اليها آنفاً ٠وقد تم اختيار نص للسياب أحد أعمدة الشعر العربي الحديث لبيان جوانب تأثير النص القرآني فيه ، ومدى افادة السياب منه ٠ وربما كان من لوازم فائدة دراسة كهذه زعزعة رأي ساد الكثير من دراسات السياب ، وهو أنه مدين أساساً في شعره للمؤثرات الأجنبية التي كانت وراء ما فيه من عبقرية

* * *

□ **القصيدة ـ النص الجديد :**

لأني غريب

لأن العراق الحبيب
بعيد ، وأني هنا في اشتياق
اليه ، اليها ٠٠٠ أنادي : عراق
فيرجع لي من ندائي نحيب
تفجر عنه الصدى
أحس باني عبرت المدى
الى عالم من ردى لا يجيب
ندائي ،
وإما هززت الغصون
فما يتساقط غير الردى :
حجار
حجار وما من ثمار ،
وحتى العيون
حجار ، وحتى الهواء الرطيب
حجار يندبه بعض الدم
حجار ندائي ، وصخر فمي
ورجلاي ريح تجوب القفار

□ التحليـــــل :

مهمـا اختلفنا حول طبيعة الأدب ، أو حول ما يشكل أدبيته ــ على حد تعبير رومان جاكبسون ــ فان ثمة اجماعاً على أنه انشاء لغوي توظف فيـه اللغة توظيفاً خاصاً ، وهو بمعنى ما نسيج مؤلف من خيوط متنوعة ،مختلفة الشيات والألوان ، والجيد منه نسيج محكم غايـة الإحكام ، يصعب تمييز خيوطـهالمكونة ، وان كان بالطبع لا يستحيل ٠

واذا كـان الأدب نسيجاً ، فان دراسـتهتغـدو تفكيكاً لهـذا النسيج من أجـل تبين مكوناته ٠ فالنص ، أي نص ، هـو انشاء فينهـاية الأمر ، حصيلة تراكمـات لنصـوص مختلفة في مخزون المنشيء الثقافي ٠ ومعنى ذلك أن من ضمن مهام الناقد معرفة الطريقة التي تراكمت فيها هذه النصوص لتكون فيمابعـد النص الجديـد ٠

والحقيقة أن لكل نص مفتاحـاً رئيسياًيمكن من خلاله الوقوع على النقطة الحساسة التيتمكن القارىء ــ والناقد قارىء متمعن ــمن وضع يده على مكوناته ، خيوطه ، عناصره التي تراكمت وكونت النتـاج الجديد ٠ اذتكاد تتجمع في هذه النقطة ــ نقطة الفك ــ نهايات الخيوط المشكلة للنسيج ٠ ومن هنـاكانت أهمية وضع اليد على هـذه النقطة اذ دونهـا يسـتغلق النص ، ويحجب دلالاتـهالأساسية عـن مستهلكه ، أو تنعـدم عمليـة التواصل بينه وبين القارىء ، فينصرف الأخيرعنـه لنصراف اليائس ، المتشكك ، الزاهد أحياناً٠ وبالطبع فان هذ يحمل خطراً ما بعده خطر على عملية الانتاج الأدبي ، فالأدب في النهاية انتاج بحاجة الى مستهلك مهما كانشانه ٠ ولعل احدى أهم وظائف الناقد تسهيل عمليتي انتـاج الأدب واستهلاكه وتطويرهماباستمرار ٠

* * *

واذا ما حاول قارىء قصيـدة السيـاب« **لأني غريب** » أن يلج الى عالمها ، أن يقـع على مفتاح يكشف له دلالتها الأساسية ، فانهربما وجـد في موقف القطيعة ، الذي تحمله الغربة ، مع الآخر والعالم ، النقطة الحساسةالتيتتجمع فيها نهاياتخيوط نسيجالقصيدة٠

فثمة انقطاع عن الآخر (وطناً وحبيبة ــوأني هنا في اشتياق اليه، اليها٠٠٠) ، وهناك مسافـة فيزيائيـة ونفسية بـين أنا الشاعروالآخر الذي يهمـه شـأن التواصل معـه ٠ الشاعر كما تذكر كتب السـيرة المتعلقة بـهكان في بيروت للاستشفاء(١) ٠ ومعنى ذلك أن حاجته الىالتواصل مع الآخر تتكثف، تتركز٠فالمرض ضعف ، شعور بالعجز وبالحاجة الى الآخر ، والغربة كذلك ضعف ، شعور بالعجزوالحاجـة الى الآخر ٠ وعنـدما يتزامنان ، يتكثف الحنين نحو الآخر ، ويتجمـع في بؤرةتصدر عنها هـذه الصرخة الضارعة :

آنادي : عراق

ولكن ما هي حصيلة هـذا التمدد باتجاهالآخر ، وهذا النداء الحار له ٠ انها النحيب،

رجع الموت ، رجع عالم من ردى لا يجيب النداء . وهكذا يتعمق الشعور بالقطيعة ، ويكتسب مأساوية جديدة تضاف الى مأساوية الموقف الأساسي (تزامن الغربة والمرض) .

ان الشعور بالانقطاع عن الآخر (وطناً وحبيبة) واستحالة التواصل معه بسبب سيادة الموت ، يضع الشاعر في موقف يشبه الى حد كبير موقف السيدة مريم التي تدرّج انقطاعها عن الآخر ، على نحو مماثل .

ولنقرأ ما ورد من آيات كريمة بشأنها . يقول الله عزّ وجل :

« واذكر في الكتاب مريم إذ **انتبذت من أهلها مكانا شرقيا** ★ فاتخذت من دونهم **حجاباً** فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويّاً ★ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ★ قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً ★ قال كذلك قال ربك هو عليَّ هيّن ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمراً مقضياً ★ فحملته **فانتبذت به مكانا قصياً** ★ فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت **يا ليتني مت** قبل هذا وكنت نسياً منسياً ★ **فناداها من تحتها** ألاّ تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً ★ **وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً** ★ فكلي واشربي وقرّي عينا .. »(٢) .

والحقيقة أن نقاط التشابه في الموقفين لا تقتصر على الانقطاع عن الآخر ، ذاك الانقطاع المتكثف تدريجياً (السيدة مريم تنتبذ من أهلها مكاناً شرقياً ؛ وتتخذ من دونهم حجاباً ؛ وتنتبذ بعد حملها بجنينها مكاناً قصياً . والسياب منقطع عن الوطن والحبيبة لغربته، ومنقطع عنهما بضعفه وعجزه لمرضه)، بل تشمل كذلك حضور الموت (السيدة مريم تتمناه لنفسها ، هو شفاء دائها الوحيد(٣) ،والسياب يضرع الى عالم من ردى لا يجيب ، وهو الى جانب ذلك يرقب في مرضه شبحه الذي يلوح في الأفق القريب) . وأهم من ذلك كله مأساوية الموقف نتيجة تعمق الشعور بالحاجة الى الآخر من ناحية ، ومعرفة استحالة تواصل كهذا من ناحية أخرى بسبب طبيعة الظرف الخاص بكليهما (البعد الفاصل بين بيروت وبغداد لدى السياب المريض العاجز ،والحمل غير المعهود ، والذي لا سبيل الى تفسيره هو عقبة التواصل مع الآخر لدى مريم) .

مهما كان الأمر فان لمعاناة السيدة مريم نهاية ممكنة ، هي ولادة السيد المسيح الذي سيقوم بشرح كل شيء ، وبذلك يعيد قنوات التواصل بين أمه والآخر . وفوق ذلك فانه بمجرد ولادته سيحمل عزاء من نوع ما للسيدة مريم . ومعنى هذا أن ثمة ما يمكن أن تنتظره في المستقبل القريب ، وفي هذا عون من نوع ما على تحمل ما هي فيه . ولكن يبدو أن ذلك كله لم يكن كافياً للاطمئنان عن السيدة مريم بالنسبة للخالق الرحيم وهكذا ناداها مناد « من تحتها ألاّ تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً ★ وهزي اليك بجذع النخلة تساقطْ عليك رطباً جنياً ★ فكلي واشربي وقرّي عيناً » .

إن لحظة حضور الموت الممكن (الموت المرغوب فيه شفاء لدى السيدة مريم ، والموت المنادى ، والمهدد لدى السياب) جعلت السياب مباشرة يفكر في هز الغصون الذي قد يحمل له بعض ما حمله للسيدة مريم ، وثمة ما يجعل هذا المؤمل اقرب وأدنى فهو محمول على الغصون وهزها أسهل وثمرها أقرب متناولا ، ان مأساوية موقف السياب التي تضارع الى حد بعيد ماساوية موقف السيدة مريم الجأته الى الامل الوحيد المتاح أمامه ، خاصة انه لم يناده مناد يطمئنه ، أو يشير عليه بهز الغصون ، وهكذا كان ، هز السياب الغصون طمعاً في الرطب الجني ، في أن ياكل ويشرب وتقر عينه . ولكن ماذا كانت الحصيلة ؟

انها لم تكن غير تعميق مأساة الانقطاع عن الآخر ، اذ هو غير موجود . ليس هناك غير الحجارة ، الثمار حجارة ، والعيون حجارة ، والهواء الرطيب حجارة ، ونداؤه كذلك حجارة ، بل انه ليس ثمة من دلالة على وجود حياة ما في هذا الدفق من الحجارة غير بقايا الدم ـ دمه هو ، دليل الجرح ، دليل المأساة . وهكذا يسود التحجر ، والإقفار ، كل ما يحيط بالسياب ، وقد كان يطمع في الرطب الجني ، في أن يطعم ويشرب ، وفي ولادة تحمل معها السلام ، وقرار النفس ، وطمأنينتها وسكينتها . ان حس مأساته يتعمق ، فهو مشرف على الموت ، وهو لذلك أقرب الى عالمه وما فيه ومن فيه ، من هذا العالم الحي بما فيه ومن فيه .

* * *

ان قصيدة السياب ، كما يلاحظ القارىء ، تبدأ بذرة هي لحظة الانقطاع عن الآخر وطناً وحبيبة . ومع نمو القصيدة تتسع اللحظة ويتعمق الاحساس بها ، حتى إن الشاعر لا يكاد يظفر بالصدى ، برجع ندائه ، اذ لا يأتيه الا النحيب الآتي من عالم الموت ، متمدداً هو أيضاً باتجاهه ليأتي عليه بشكل أو بآخر .

وكآخر سهم في جعبة الشاعر الذي يصارع الموت ، يهز الغصون ، وبدلا من الرطب الجني ، والطعام والشراب والسكينة ، تأتيه الحجارة التي تنهال على رأسه وتتندى بدمه ، ويكاد الكون كله يتحجر ، يتحول الى حجارة (هي المعادل الموضوعي لانعدام استجابة الآخر ، ليقينية القطيعة بينه وبين الشاعر) تجسد الانقطاع وتشير الى استحالة التواصل .

وربما كان من أهم ما يلفت النظر في هذه القصيدة هو الاستخدام العبقري للصورة القرآنية . والواقع أن السياب يطورها تطويراً يمليه عليه موقفه هو ، ويحاول أن يزيل حجاب الألفة عنها ، ويخون بذلك توقعات القارىء ، وبالتالي يقدم له في النهاية صورة جديدة على نحو مثير . انه يكاد يفجرها حيوية وطاقة تعبيرية ، بل يجعلها محوراً للقطيعة التي تحيط به ، اذ تجسد ما يبدو في ظاهره الطريق الى نقيض هذه القطيعة ولكنها ترتد في النهاية لتصبح أقصى التطرف في عملية التواصل السلبي بينه وبين الآخر . ان الانسان

ليحن شوقاً ، ويذوب وجداً نحو الآخر ، وانهليضرع اليه ، وأقصى ما يمكن أن يتوقعه من سلبية منه هو الصمت المميت القاتل · ولكنأن يتلقاه بالحجارة التيتتراكم عليه، وحوله، حتى لتكـاد تأتي على الكون كلـه ، فـذلك تواصل هو في جوهره قمة القطيعة ، تكثيفلها ما بعـده تكثيف ، وتركيـز الـى الدرجـةالقصوى التي ما بعدها تركيز · هكـذا تنمو القصيدة ، وهكذا تتعمق القطيعة حتى تشملالكون ، ويقف الشاعر وحيداً ، ويفرق فرقاً شديـداً ، وتتحول رجـلاه الى ريـح تجوبالقفـار ·

جامعـة دمشـق
أيار ١٩٨٥

* * *

☐ هوامش :

١ ـ انظـر :

د· عبد الكريم حسن ، الموضوعية البنيوية : دراسة في شعر السياب ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ص (٣٨٤ ـ ٣٨٦) · و

د· احسان عباس ، بدر شاكر السياب : دراسة في حياتهوشـعره ، دار الثقافـة ، بـيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٢ ، ص ص (٣٤٥ ـ ٣٦٧) ·

٢ ـ القرآن الكريم ، سورة مريم ، الآيات (١٦ ـ ٢٦) ·

٣ ـ اشارة لقول المتنبي :

كفى بك داء" أن ترى الموت شافيا   وحسب المنـايـا ان يكـن أمـانيا

* * *

في التعريب و"المعرَّب"

وهو المعروف بـ "حاشية ابن برّي على كتاب "المعرَّب" لابن الجواليقي

بتحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي

صلاح الدين الزعبلاوي

— ٤ —

وجاء في الكتاب (ص / ٣٥ و ٣٦)

قال أبو منصور : و (إرْمينية)(١) كذلك . وكان القياس في النسب اليه (إرميني) ، الا أنه لما وافق ما بعد الراء منها ما بعد الحاء من (حنيفة) حذفت الياء كما حذفت من (حنيفة) في النسب وأجريت... مُجراها في (روميّ) و (روم) و (سِندي) و (سِند) أو يكون مما غيِّر في النسب(٢) .

قال ابن بري : شاهد (أرمني) قول سيَّار(٣) [من الطويل] :

ولو شهدت أم القديد طعاننا ... بمرعش خيل الأرمني لرنَّت

ويعني أن الياء في (رومي) للفرق بين الواحد والجماعة ، كتمر وتمرة(٤) .

وقال ابن بري أيضاً : انه لما كانت الياء مع الميم المكسورة قبلها بمنزلة الياء **مع**(٥) (حنيفة) مع النون المكسورة قبلها . وكان ما بعد النون من (ارمينية) ياء النسب المنزلة منزلة تاء التأنيث التي بعد الفاء من (حنيفة) نزلت منزلتها في حذف الياء منها وصح ما قبلها ، فقيل (أرمنيّ) كما قيل (حنفي) . والياء في (إرمينية) هي عنده مخففة من ياء النسب كما أن الياء في (انطاكية) **والألف**(٦) في (يمان) للنسب ، وان لم يكن في معنى نسب .

١ ـ فات المحقق أن يحكم ضبط (إرمينية) فقد أثبتها بكسر الهمزة وضم الراء . ولعل الخطأ خطأ في الطبع سها المحقق عن تصحيحه . ف (إرمينية) في المعرّب (المطبوع ١٩٤٢)

بكسر الهمزة وسكون الراء وتخفيف الياءالثانية ، وهي كذلك في أدب الكاتب وتقويم اللسان • وحكى ياقوت فيها جواز فتح الهمزة ، كما حكى القاموس جواز تشديد الياء •

قال المحقق : (المعرب/ ٢٩) • ونص الخبر فيه كالنص الذي أثبتناه، وهو في الأصل• ولا أرى من صلة بين الكلام على (إرمينية) و (حنيفة) في مسألة النسب اليهما ، وبين قول ابن الجواليقي ••• وأجريت مجراها في (رومي وروم) و (سندي وسند) ••

أقول : أنى للمحقق أن يتبين معنى ماقاله الجواليقي وهو لم يحاول أن يضبط النص الوارد في الأصل ، ويعارض ما بينه وبين ما جاء في (المعرب / ٢٩) • فقد زعم أن النص في المعرّب كالذي أثبته في الأصل ،وليس الأمر كذلك • فقد سقط من الأصل بعد قوله (وأجريت ••) عبارة لو أثبتت لاستبان من المعنى ما لم يتبين • اذ جاء في المعرب (وأجريت ياء النسب في إرمينية مجرى تاء التأنيث في حنيفة كما أجريت مجراها في رومي وروم وسندي وسند ••) وهذا ما جاء في حواشي المخطوط (٩٠١٢) وفي معجم البلدان لياقوت وفي التاج • ولا فارق فيما جاء بين هذه المظان ، من ذلك ، غير أن نص المعرّب (كما أجريناها مجراها)بدل(كما أجريت مجراها) في نص المخطوط ، وبدل (كما أجرينا مجراها) في معجم البلدان والتاج • وغريب على هذا ، أن يمضي المحقق في التعقيب على النص فيقول:(ولا أدري صلة بين الكلام على إرمينية وحنيفة في مسألة النسب) قبل أن يقف على معناه • وسيأتي تفسير قول أبي منصور وتعقيب ابن بري على ذلك مفصلاً فيما بعد•

٣ ــ **قال المحقق** : البيت في معجم البلدان غير منسوب ، والرواية فيه : ولو شهدت ••• طعائنا •

أقول : لم يأت (طعائنا) في معجم البلدان كما ذكر المحقق ، ولعله رآه في مرجع آخر، وهو غريب على كل حال• وجاء صدر البيت في الأصل ومعجم البلدان ومعجم ما استعجم واللسان (ولو شهدت أم القديد طعاننا) ، وقد نسب البيت في هذين الى سيار بن قصير الطائي • وجاء عجز البيت فيما عدا الأصل (بمرعش خيل الأرمني أرنّت) ، وجاء في الأصل (لرنّت) •

وتفسير البيت أن أم القديد لو شهدت طعاننا لخيل الأرمني بمرعش لأرنّت ، أي صاحت •

وفي اللسان : رنت ترن رنيناً ورننت ترنن ترنيناً ، وأرنّت : صاحت •

٤ ــ أقول فحوى كلام أبي منصور أن الأصل في النسبة الى (إرمينية) كما قال أبو علي ، أن تثبت الياء الأولى ، لكنهم حذفوا هذه الياء فقالوا (أرمني) وألحقوا بذلك فتح الهمزة والميم • وعلل ذلك بأن (إرمينية) قد شبه ب (حنيفة) • فوافق ما بعد الراء في الأولى ما بعد الحاء في الثانية ، فحذفت الياء الأولى من (إرمينية) كما حذفت ياء (حنيفة) •

يقول أبو منصور : (وأجريت ياء النسب في إرمينية مجرى تاء التأنيث فيحنيفة كما أجريت مجراهـا في رومـي وروم) •والمقصود بهذا أن ياء النسب أنزلت منزلة تاء التأنيث • وقد مثل لذلك بموضعـين :الأول حين حذفت ياء النسب في (إرمينية) وهي الياء الثانية المخففة ، كما حذفت تاءالتأنيث في حنيفة ، عند النسب اليهمـا • وذلك كما لو نسبت الى (شافعي) و(طلحة)فانك تحذف ياء النسب المشددة في الأول ، كما تحذف التاء في طلحة • أما الموضع الثانيفان ياء النسب في (أرمني) قد أنزلتأيضاً منزلة تاء التأنيث حين دلت على الواحد ،وكان (أرمن) يدل على الجماعة • وكذلك رومي وروم وسِندي وسند • وقد جاء ذلك في كثير من المظان •

قال الجوهري في الصحاح (يقال روميوروم مثل زنجي وزنج ، فليس بين الواحد والجمع الا الياء المشددة ، كما قالوا تمرةوتمر ، ولم يكـن بين الواحد والجمـع الا الهاء) • وجاء ابن سيده في المخصص (١٠١/١٦) بكماة وكمء • وأشار الى أن الأول يدل على الواحد ، والثاني على الجمع ،وقال : (وجرى مجرى تاء التأنيث في هـذا ياء النسب فقالوا : زنجي للواحد ، وزنـجللجماعـة • وعلى هـذا قالوا رومي وروم وسِندي وسِند) •

وقال أبو منصور : (أو يكون مما غيَّرفي النسب) وتمام النص في معجم البلدان والتاج (أو يكون ذلك مثل بدوي ونحوهمما غير في النسب) • والقصد أن قولـك (أرمني) في النسب الى (إرمينية) اما أنيكون على حنفي وحنيفة ، أو يكون مما غيَّر في النسب كبدوي في النسبة الى البادية) •

والنسب الى (إرمينية) : أرمني بفتحالهمزة والميم مع سكون الراء ، كما جاء في الصحاح واللسان والتاج ، وجـاء في أدبالكاتب بكسر الهمزة والميم ، وهو في معجم البلدان بفتح الهمزة وكسر الميم •

٥ ــ أقول الصواب : بمنزلة الياء من(حنيفة) لا مع حنيفة •

٦ ــ قال المحقق : هذا هو الصحيح أي(والألف) وفي الأصل (والياء) • وذلك أن الألف في (يمان) عوض عن ياء النسب• أنظر اللسان (يمن) •

ــ أقول: الذي أتى به المحقق أي (والألف) غير صحيـح ، والصحيح ما جاء في الأصل وهو (والياء) • وبيان ذلك أنالياءالمخففة في آخر ــ يمان ــ وهي تحذفبالتنوين كياء قاض ــ هي للنسب ، وان لم يكن فيهامعنى النسب • أما ما جاء في اللسان من أن ألف ــ يمان ــ عوض عن ياء النسب ، فذلكأن للنسب في الأصل ياء مشددة ، وقد أثبت احداهما في ــ يمان ــ طرفاً ، وجاءت الألفعوضاً عن الثانية• قال ابن جني فيالخصائص (٥٠٤/١) : (ويزيد عندك في وضوح ذلكأنهم قالوا فيالاضافةالى اليمن والشأموتهامة: يمانٍ وشآمٍ وتهامٍ ، فجعلوا الألف قبلالطرفعوضاً عن احدى الياءين اللاحقتين بعدها•)•

وجاء في الكتاب (ص / ٣٦ و ٣٧) :

قال أبو منصور : و (الأبيل) الراهب، فارسي معرّب ، قال الشاعر :(١) [من الطويل]

وما سبَّح الرهبـان في كل بيعـة   أبيلَ الأبيلين المسيحَ بن مريما

قال ابن بري : و (الأبيلين)(٢) مثل(الأشعرين) فيحذف ياء النسب · وقيلهذا البيت من الشعر في القصيدة :(٣)

أما ودمـاء هادراتٍ (٣) نخالهـا   على قنّة العزّى وبالنسر عَندما

وجواب القسم في البيت الثالث ، هو :

لقد ذاق منـا عامرٌ يوم لعلعٍ   حُساماً اذا ما هُزَّ بالكف صمَّما(٤)

قال المحقق : في الأصل زيادة هي (وهوجاهلي) ، وفي اللسان (قال ابن عبدالجن) وفي شرح القاموس (عمرو بن عبد الحق) ·ولعل الذيفي شرح القاموس مصحفوالصواب ما جاء في اللسان · والذي يقوي هذا أن الشاعر جاهلي ، ولم يعرف في الجاهليـــة (عبد الحق) من أعلامهم ·

ـ أقول كل ما حكاه المحقق هنا فيتحقيقاسم الشاعر وأنه (عمرو بن عبد الجن) ، هو بعض ما جاء به الأستاذ أحمد محمدشاكرفي تحقيقه على المعرب (٣٠) · أما قول السامرائي (في الأصـل زيادة هي : وهـوجاهلي) فليس بشيء · ذلك أنـه مثبت في المعرب المطبوع ، وفي مخطوطه (٩ · ١٢) فضلا عن الأصل فليس هو اذا زيادة على النص ، وابن عبد الجن ، هو شاعر جاهليحقاً · فالزيادة ليست قلقة في موضعها ،وقد حلت بمركزهـــا · وجـــاء في معجـم المرزباني (١٨) :

وقال ابن عبدالجن :

أمـا ودمـاءٍ مائراتٍ تخالهـــا   علىقُلّة العزّى أو النسر عَندما

وما قدّس الرهبان في كل هيكلٍ   أبيلَ الأبيلين عيسى ابن مريما

ورواية النهاية (وما سبَّح الرهبان فيكل بلدة) وروايـة اللسان (ومـا قدّس الرهبان في كل هيكل) وعجز البيت فيهما وفي المعرب وفي تاريخ الطبري (أبيل الأبيلين المسيح ابن مريما) ·

٢ ـ قال المحقق : في الأصل وأبيل الأبيلين ·

أقول : فات المحقق أن يوضح معنى قول ابن بري (الأبيلين مثل الأشعرين ··) ، وأن يبحث أصل لفظ الأبيل · فقول ابنبري(الأبيلـين مثـل الأشعرين) يعني أنك اذا جمعت (الأشعري) بياء مشددة قلت الأشعرون والأشعرين بحذف ياء النسب المشددة ، وقد ذكر ذلك سيبويه في الكتاب (٢/١٠٣)،وكذلك الأبيلون والأبيلين جمع الأبيليّ ·

أما لفظ (الأبيل) فقد ذهب الجواليقي الى أنه فارسي معرّب ، لكنه لم يذكر أصله الفارسي أو يستدل على عجمته بدليل وحكاه عنه الخفاجي في الشفاء ولم يزد على ما قاله الجواليقي .

والذي يستبين بالبحث أنه عربي ، ذلك أن ابن دريد ذكره في الجمهرة فقال (والأبيل الذي يضرب بالناقوس) ولم يشر الى أنه دخيل (١/ ٣٢٥) . وكذلك فعل صاحب المقاييس فقال (قال الخليل الأبيل من رؤوس النصارى) . وجاء به الجوهري فقال : (والأبيل راهب النصارى .. كانوا يسمون المسيح عليه السلام أبيل الأبيلين ..) كذلك فعل صاحب الأساس لكنه ذكر أصله فقال (وقد أبل أبالة فهو أبيل ، كما تقول فقه فقاهة فهو فقيه . وتقول فلانة لو أبصرها الأبيل لضاق بـــه السبيل) .

هذا وقد ذكر الميداني النيسابوري (المتوفى ٥١٣ هـ) الأبيل في كتابه (السامي / ٤٤) على أنه عربي وأتى بما هو في معناه بالفارسية ، فليس هو ، على هذا ، فارسياً .

وجاء في النهاية لابن الأثير (كان عيسى عليه السلام يسمى أبيل الأبيلين . الأبيل بوزن الأمير الراهب . سمي به لتأبله عـن النساء وترك غشيانهن ، والفعل منه أبَلَ يأبل أبالة اذا تنسك وترهب . قال الشاعر: وما سبح الرهبان ..) .

وذكر الأستاذ عبدالوهاب عزام ، رحمه الله ، في مقدمة كتـاب المعرّب المطبوع أن (الأبيل) ليست فارسية بل سريانية ، ومعناها في الأصل الحزين ، وتقال للراهب . قلت قد رأيت أن الأبيل عربي ، وقـد اتضح اشتقاقه . وليس كل لفـظ عربي عرف في السريانية ، دخيلا على العربية ، كما ذكرناقبل ، وأشار اليـه الأستاذ عزام نفســه ، فيكون (الأبيل) اذاً من الألفاظ الساميـة المشتركة ، فهو عربي وسرياني .

على أن ثمة (الأيبُل) على فيعل بفتح فسكون فضم ، وهو بمعناه ، ويبدو أنــه أعجمي ، اذ ليس في كلام العرب (فيعُل) بهـذا الضبط كما قال سيبويــه في الكتاب (٢/ ٣٢٥) . وسيأتي الكلام عليه ، في باب الطاء .

٣ ـ قال المحقق : في اللسان: مائرات .

أقول : (مائرات) هو الصواب ، وفات المحقق أن يثبته بدلا من اللفظ المصحف وهو (هادرات) . والذي جاء في المظـان (أما ودماء مائرات تخالها) لا (نخالها) كما بيناه قبل . ومار يمور الشيء اذا تردد في عرض ، وفار الدم يمور على وجه الأرض اذا انصب فتردد عرضاً . والقُنَّة من الجبل أعلاه كالقُلَّة والجمع القنن والقلل . ونسر: صنم ، وقد تدخله الألف واللام ، والعندم صبغ أحمر .

٤ ـ أقول : ثمة خلاف في نسبة الأبيات الثلاثة ، وقد جعلهـا ابن بري في قصيـدة واحدة ، وفات المحقق أن يشير الى ذلك . قال ابن بري (وقبل هـذا البيت مـن الشعر في القصيدة ـ أي وما سبّح .. ـ أما ودماء . وجواب القسم في البيت الثالث : لقد ذاق). والغريب أن المحقق قد أثبت (وقيل هذا) بالياء ، بدلا من (وقبل هذا) بالباء .

فالبيت الأول (وما سبّح الرهبان ٠٠)والثاني (أما ودماء مائرات ٠٠) منسوبان الى عمرو بن عبد الجن الشاعر الجاهلي ،كما جاء في المظان لا سيما معجم المرزباني ٠ أما البيت الثالث (لقد ذاق منا عامر يوم لعلع ٠٠) فقد تبين أنه بيت من قصيدة طويلة تجاوزت مئة بيت منسوبة الى حُميد بن ثور الهلالي ، جاءت في ديوانه المطبوع بتحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمني ، ولم يذكر فيها البيتان الآخران ٠ وقد نسب هذا البيت (لقد ذاق ٠٠) الى حميد في شرح الحماسة للمرزوقي (١١٢٥) واللسان (لعلع) ٠ وحُميد هذا شاعر اسلامي مُجيد شهد الأصمعي أنه أحد عظماء شعراء العرب الأربعة في الاسلام،وهم: (راعي الابل النميري ،وتميم بن مقبل العجلاني ، وعمرو بن أحمر الباهلي ، وحميد بن ثور الهلالي) ٠٠

ولعلع اسم جبل ، وقد ذكر في الحديث وكانت به وقعة مشهورة ٠

وجاء في الكتاب (ص/٣٧ و ٣٨) :

قال أبو منصور : ومن ذلك قولهم لبيت المقدس (أوري شَلِم) (١) قال الأعشى [من المتقارب] :

وقد طفت للمال آفاقه عُمانَ فحمص فأوري شَلِم(٢)

قال ابن بري : (شلّم) اسم بيت المقدس ، بالتشديد عند سيبويه ، فينبغي أن يكون عند التخفيف (شلَم) بفتح اللام في بيت الأعشى ، وقد روي بكسر اللام ، وينبغي أن يكون بالتخفيف (شلم) بالفتح(٣) ٠

قال أبو منصور : (ايلياء) بيت المقدس أيضاً ، وهو معرّب(٤) ٠

قال ابن بري : (ايلياء) فِعلياء مثل كبرياء وجربياء ٠ وفي كتاب سيبويه (جِلحِطاء) غير معجمه(٥) ٠

وحكى ابن دريد عن أبي حاتم (جِلخِطاء) بالخاء(٦) ٠

قال أبو منصور : وهي الأرض الحزن ٠

١ ـ **قال المحقق** : قال ياقوت انه يروى بفتح اللام أيضاً ، وقال : هو بيت المقدس بالعبرانية وفي اللسان : المشهور (أوري شلّم) بالتشديد ٠ أقول (أورشليم) كما ينطق بها في عصرنا هو معرب (أورشالايم)ومعناها مدينة السلام ٠

أقول : الذي نص عليه أبو منصور في المعرَّب أن لام (شَلِم) بالكسر والتخفيف، واستشهد على ذلك ببيت الأعشى ٠ واعترض ابن بري فقال : جاء به سيبويه بالفتح والتشديد ، فاذا خفف كان بالفتح لا بالكسر خلافاً لروايته في بيت الأعشى ، ورواه أبو عبيدة بالكسر أيضاً ، كما حكاه المعرب ٠وذهب ياقوت ، كما ذكر المحقق ، أن الرواية قد أتت بالكسر والفتح جميعاً ٠

وممن جاء به مشددا ابن خالويه في كتابه (ليس) اذ قال : (لم يصرف الاسم اذا جاء على فعَّل لأنه يشبه الفعل ... وقدجاءمنه عشَّر وبذّر موضعان ، وخضَّم قبيله ، وبقّم صبغ ، وشلّم : اسم بيت المقدس /١٤٣) ، وقد قصد بالاسم اسم العلم .

أما عن أصل اللفظ فقد ذهب أبو عبيدةالى أنه عبراني معرّب ، وكذلك قال ياقوت. وقيل معناه (بيت السلام) على أن نسبةالاسم الى العبرية لا تمنع أن يكون في الأصل اسماً كنعانياً . والكنعانية لغة سامية ، قويةالشبه بالبابلية والعبرية . وقد انتهى المؤرخون حديثاً الى أن (أورشليم) أو(أورشالم) هو اسم القدس الكنعاني ، وأن المدينة قامت في العصر الحجري النحاسي .ودلت حفائر (ابله) بسورية على أنها احدى المدن الكنعانية المعروفة منذ نحو (٢٥٠٠)ق.م. واسمها مشتق من اسم الاله الكنعاني (شالم) أو (شليم) . وقد أسمى الكنعانيون كثيراً من مدنهم بأسماء آلهتهم .

٢ ــ أقول : هذه روايةالبيتفيديوان الأعشى (٤١) ، أما في معجم البلدان(٢٧٩/١) فهو طوّفت للمال ..) .

٣ ــ أقول : قد فات المحقق أن في كلامابن بري ما هو محذوف لا بد من ذكره ،وما هو مزيد لا بد من حذفه . أما المحذوف فهو(بالفتح لا غير) بعد كلمة (شلم) وسياق الكلام يقتضي ذلك، وأما المزيد فقوله فيآخرالكلام (وينبغي أن يكون بالتخفيف شلم بالفتح) وهو قول مكرر فصحة العبارة(فينبغي أن يكون عند التخفيف شلمبالفتح لا غير ، وقد روي بكسر اللام) كذا جاء فيحواشي المعرب (٩٠١٢) . ولعل الناسخ قد سها فأعاد كتابة (ينبغي أن يكون ..)آخر الكلام .

٤ ــ قال المحقق : (المعرّب / ٣١) .

أقول : (ايلياء) اسم لبيت المقدس ،وهو معرب من أصل رومي . تصوروا أنه ثلاثي الأصل فقالوا انه (فعلياء) ككبرياءمن الكبر وجربياء لريح الشمال من جرب . وتصوروا أنهفوق الثلاثي فقالوا انه (فعللاء)بكسرتين بينهما سكون ملحق بجلحطاءللارض لا شجر فيها ، بالطاء ، كما ذهب اليهسيبويهفي كتابه ، هذا ما حكاه ابن بري . وذكر ابن سيده (٧١/١٦) في مخصصه وجهاً ثالثاًفقالانه (فيعلاء) نحو سيمياء للعلامة ، وقد يذكر (سيمياء) على أنه فعلياء أيضاً .

وقد جاء (ايلياء) بالمد والتخفيف ، وقد تحذف الهمزة الأولى فيقال (الياء) وقد يقصر فيقال (ايليا) وقد تشدد الياء الثانيةفيقال (ايليّا) (اللسان ومعجم البلدان).

وجاء في المظان التاريخية أن العاهل الروماني هادريان أو أدريان (١١٧ ــ ١٣٨ م) قد أسمى بيت المقدس باسمه (اليا) لأناسمه في الأصل (اليوس) : (تاريخسورية ليوسف دبس ٣٢٢/١) .

٥ ــ فات المحقق هنا أنيرم الأصلبردّما سقط منه . فقد أثبت قول ابن بري (وفي كتاب سيبويه جلعطاء غير معجمة) ولامعنى له ، والأصل الصحيح (وفي كتاب

سيبويه ، فعلاء جلحطاء بطاء غير معجمة)٠قال سيبويه في الكتاب (٣٣٨/٢) : (ويكون على مثال فعلاء بالكسر ، وهو قليل ،قالواطرمساء وجلحطاء ، وهما صفتان) ٠فقد جعل ابن بري (فعلياء) وزناً لايلياء اذا كان الأصل ثلاثياً ، و (فعلاء) كجلحطاء ، اذا كان الأصل فوق الثلاثي ٠ وأرض جلحطاءاذا غلظت ووعُرت ، وهذا ما قصد اليه أبو منصور حين قال : (وهي الأرض الحزن)٠

٦ ـ أقول حكاية سيبويه (جلحطاء) بحاء وطاء ، وحكاية الجمهرة (جلحظاء) بحاء وظاء (٤١٢/٣) ، وهي في اللسان ،وفي التاج انها حكاية ابن أخي الأصمعي ٠ وجاء ابن دريد في الجمهرة بـ(جلخظاء) بخاءوظاء أيضاً ، وقيل انها حكاية ابن أخي الأصمعي ٠ وثمة حكاية رابعة هي (جلخطاء)بخاء وطاء، شك فيها ابن دريد خلافاً لماأثبت في النص (٣٢١/٣) ،وعزاها ابن أخي الأصمعي الى عمه ، وجاء بها اللسان وعزاها التاج الى الصاغاني ٠

وجاء في الكتاب (ص / ٣٨) :

قال أبو منصور : قال أبو علي : ومماجاء على لفظه من ألفاظ العرب (ايَّل)وهو فِعَّل ويكسَّر على (أيايل)(١) ٠

قال ابن بري : ذهب ابن حبيب الى أن (الأيِّل) من الحيوان هو الواحد بوزن(سيِّد) والجمع عنده (ايَّل) بكسر الهمزة ، والذيذكره أبو علي (ايَّل) في الواحد بكسر الهمزة ٠ وكذلك يروي ابن حبيب(٢) قول النابغة(٣) [من الطويل] :

وقد شربتْ من آخر الليل أيِّلا

على وزن سيِّد ٠

قال أبو منصور : قال أبو حاتم : قالوافي النسب اليه (٤) (إصطخرزي) كما قالوا في (مَرو) : مروَزي) ٠

قال ابن بري : وانما قالوا في (مرو)مرْوزي لأن العجمي اذا نُسب اليه قالوا (مروجي)(٥) بين الجيم والزاي ، فأحالتها العرب زاياً (٦) ٠

١ ـ **قال المحقق :** (المعرب / ٣٣) ٠والايَّل بكسر الهمزة وتشديد الياءالمفتوحة هو الذكر من الأوعال ، ويجوز فيه ضم الهمزة مع فتح الياء المشددة ، ويجوز فيه فتح الهمزة مع كسر الياء المشددة ، وأيايل هو الجمع ، بالياء ولا تقلب همزة ٠

ـ **أقول : هذا كلام الأستاذ أحمد محمدشاكر محقق المعرب ، وقد جاء به السامرائي على سبيل النسخ (المعرب /٣٣) وفاته أن يقول شيئاً فيما ذكره ابن بري خلافاً لأبي منصور** • فمن جعل المفرد كقنب بكسرففتحمع التشديد فقد جعل الجمع (أيايل) بالياء وحسب ، وهو ما ذكره الجواليقي وحكاه عنأبي علي الفارسي • وأما من جعل المفرد كسيِّد بفتح فكسر مع التشديد فقد اعتدجمعه كقنب بكسر ففتح مع التشديد أو كخلَّب بضم ففتحمع التشديد أو أيايل بالياء،وهو ما حكيعن الخليل وتابعه فيه ابنحبيب، وذكره ابن بريحين جعل جمع (أيل) كسيِّدعلى (ايَّل) كقنب • واذا أخذ بالروايتين صح قولك في المفرد (أيِّل وإيَّل) كسيِّدو قنَّب • أما (أيَّل) بالضم كخُلَّب ،فقد قال الطوسي انه مفرد ، وقال الخليل وابنجنيّ أنه جمع • ولا ننس أن لفظ (الأيل) عربي ، وفارسيته (كوزن) بكاف فارسيةوفتح ما بعدها أو (كوز) بالتخفيف(اللسان والمعجم الذهبي) •

٢ ـ **قال المحقق** : هو محمد بن حبيبالبغدادي ، كان عالماً بالنسب وأخبار العرب واللغة والشعر ، نسب الى أمه (انظر تاريخبغداد ـ ٢/٧٧) و (معجم الأدباء ـ ٦/ ٤٧٣) •

ـ **أقول** : هو أبو جعفر محمدبن حبيباللغوي النحوي صاحب ثعلب ، توفي (٢٤٥هـ) ومن كتبه : المذهب في أخبار الشعراء وطبقاتهم ، ونقائض جرير (إنباه الرواة ـ ٣/ ١٢٩ ، والبلغة للفيروزابادي/٢١٥) •

٣ ـ **قال المحقق** : هو النابغة الجعدي يهجو ليلى الأخيلية ، وصدر البيت :

وبرذونةٍ بلَّ البراذين ثفرهـــا

ـ **أقول** : روي البيت في اللسان (وقدشربت من آخر الصيف ٠٠) وضمت الهمزة في(أُيَّلا) ، ورد ابن حبيب الضم وروى(وقد شربت من آخر الليل أَيِّلا) بوزنسيد ورأى ابن بري صواب رواية الصدر (بُريذينة) بالرفع والتصغير ، مستنداً الى ما جاء قبله • وقد فسر (الايَّل) في شعر الجعديباللبن الخاثر ، وذهب ابن حبيب الى أنه الوعل في الأصل ، وقد حذف المضاف ،والمعنىالمراد (لبن أيَّل) [اللسان والتاج] •

٤ ـ **قال المحقق** : الضمير في (اليه) يعود الى (اصطخر) السابق في كلام ابن الجواليقي في المعرّب •

ـ أقول فات المحقق هنا أن يثبت ما سقط من كلام أبي منصور ، وهو (قال أبو منصور : وإصطخر اسم البلد أعجمي أيضاً ،وقد ورد في أشعارهم ٠٠ قال أبو حاتم : قالوا في النسب اليه : اصطخرزي ، كماقالوافي مرو : مروزي) • وقد اعتاد ابن بري أن يبدأ قوله برواية كلام صاحبه الجواليقي ثم يمضي في التعقيب عليه • ويحسن الاشارة هنا الى أنه جاء (اصطخريّ) على القياسفي النسبة الى (اصطخر) كما حكاه الصغاني في شوارده ، عن أبي حاتم السجستاني •

وجاء في النسبة الى (مرو) : (مرويّ) أيضاً بفتحتين وبفتح وسكون (اللسان) وممن نسب الى (اصطخر) أبو سعيد الحسن الاصطخري القاضي أحد أئمة الشافعية (ت /٣٢٨) وأبو سعيد عبدالكريم بن ثابت الاصطخري الجزري وسواهما ، واصطخر من كور فارس ·

٥ ـ قال المحقق : (المراد بالعجمي : اللسان العجمي) ·

ـ أقول الغريب أن يثبت المحقق الأصل على هذا الوجه (لأن العجمي اذا نسب اليه قالوا : مروجي) ويعتذر من ذلك بقوله (المراد بالعجمي : اللسان العجمي) · فصحة العبارة : (لأن العجم اذا نسبوا اليه قالوا : مروجي) ، ويصح قولك (لأن العجمي اذا نسب اليه قال : مروجي)

٦ ـ فات المحقق أن يوضح كلام ابن بري في تعليل كون النسبة الى (مرو) بالعربية (مروزي) ·

قال ابن بري (لأن العجم اذا نسبوا اليه قالوا : مروجي ، بين الجيم والزاي) · وقد جاء (مروجي) في الأصل ، كما أثبت هنا ، بالجيم ، وليس في الفارسية جيم بين الجيم والزاي ، وانما ثمة (زاي) فارسية بين الجيم والزاي ، والنسبة الى (مرو) بالفارسية (مروزي) بزاي فارسية أحيلت بالتعريب الى (زاي) خالصة · وهكذا القول في النسبة الى (الري) بالفارسية فانها (رازي) بزاي فارسية آلت بالتعريب الى (زاي) خالصة · ويبدو أن (الزاي الفارسية) في (مروزي) قد أصبحت تلفظ فيها زاياً خالصة أيضاً ، فقد جاء في المعجم الذهبي وهو معجم فارسي (مروزي) بزاي خالصة ، ولو كانت زاياً فارسية لكتبت بثلاث نقاط ·

وجاء في الكتاب (٣٩ و ٤٠) :

قال أبو منصور : وروي عن أم الدرداء أنها قالت : زارنا سلمان من (المدائن) الى الشام ماشياً وعليه كساء و (أندرا ورد) يعني سراويل مشمَّرة ، وهي كلمة أعجمية ليست بالعربية(١) ·

قال ابن بري : المشهور عند أهل اللغة والنحو في (الشأم) للناحية المعروفة بغير ألف بعد الهمزة ، وربما جاءوا بالألف ، كما يجيء في النسب(٢) ، قال الفرزدق [من الكامل] :

أبلــغ معاويــة الذي بمكّنتــه ... أمرَ العراق وأمر كلّ شآم(٣)

وقال النابغة [من الوافر] :

علــى أثر الأدلـة والبغايــا ... وخفق الناجيات مــن الشآم(٤)

وقال النحام التغلبي(٦) [من الوافر]:

تركت مُخَيّجات(٦) وراء ظهري وسرت من العراق الى الشآم

وقال أبو الأخزم(٧) [من الرجز] :

من دير صِفّين الى الشآم

١ ـ قال المحقق (المعرب / ٣٧) ٠

١ ـ أقول : هكذا جاء لفظ (آندرا ورد) في الأصل ، وفي مخطوط المعرّب (٩٠١٢) وفي المعرب المطبوع (١٨٦٧م)والمطبوع (١٩٤٢) ٠ وذكر محقق المعرب الأستاذ أحمد محمد شاكر أنه جاء بالألف(أندرا) ودون ألف (أندر) كما في اللسان ٠ وانه بالألف في الأصول المعتمدة للمعرب ، ودون ألف في طبقات ابن سعد ، وبالزاي (أندروزد) فيالنهاية ٠ قال ابن الأثير (في حديث علي ـ رض ـ أنه أقبل وعليه أندروزدية ، قيل هي نوع من السراويل ٠٠٠ ومنه حديث سلمان ـ رض ـ أنه جاء من المدائن الى الشام وعليهكساء أندروزد ، كان الأول منسوب اليه)٠

على أن أدّي شير أورده (أندر ود) بدال تلي الواو ، اذ قال (الأندرود والأندر ودية ، اسم لنوع من السرا ويل مركب من أندر ـ أي داخل ومن ـ ور ـ أي ذو) ويؤيد المعجم الذهبي معني (أندر) ومعنى(ور) كما جاء به أدي شير ، فاذا صح هذا كانت (الدال) آخر اللفظ مزيدةبالتعريب٠

٢ ـ أقول ما جاء في الشام بلا همز : (الشأم) بفتح أوله وسكون الهمزة ، و (الشأم) بفتحتين و (الشآم) بالمد ٠ويقالفي النسبة الى (الشأم) : (شاميّ) بالهمزة وياء مشددة و (شآم) بالمد وياء مخففة تحذف بالتنوين و (شآميّ) بالمد وياءمشددة، حكاه سيبويه ٠ وتقول في التأنيث : امرأةشامية بالهمزة وتشديد الياء وشآمية بالمد وتخفيف الياء ٠

٣ ـ قال المحقق : في الديوان (ط ٠ صادر) (ص/١٨٣) : أبلغ معاوية الذي بيمينه :

ـ أقول : صحة الرواية للبيت (أبلغ معاوية الذيبيمينهأمرالعراق..) برفع(أمر) ٠ كما أثبت في الديوان وفي الأصل وفي حواشي المخطوط (٩٠١٢) ٠ ولست أدري كيف تراءى للمحقق أنه في الأصل (٠٠ الذي يمينه أمر العراق ٠٠) بنصب (أمر) ، ولا مكان له في سياق الكلام ٠

٤ ـ قال المحقق : كذا في الأصل ، وأما في الديوان (السآم) ٠

ـ أقول : أثبت المحقق رواية البيت (على أثر الأدلة ٠٠) بالذال المعجمة ، كما جاء في الأصل ، وفاته أن الصحيح (على أثر الأدلة ٠٠) بالدال غير المعجمة ، كما في الديوان٠ وهو جمع دليل ، والبغايا الطلائع تتقدم الجيش ، والخفق الاضطراب ، وهو في

الأصل الضرب بشيء عريض والناجية السريعة. والذي في الديوان (السآم) لا (الشآم)، وهو الملال . وقد أخذ على النابغة قوله (السآم) بالمد ، وقيل ان صوابه (السأم) بلا مد . وقد نص على (السآم) في غير معجم معتمد .

٥ ـ **قال المحقق :** لم أهتد الى (النحّام التغلبي) ولعله (النحام) واسمه نعيم بن عبدالله بن أسيد ، قتل يوم مؤتة شهيداً (انظر الاشتقاق لابن دريد / ١٣٦) .

ـ **أقول :** (النحام) الذي ذكره صاحب الاشتقاق (١٣٦) هو من بني عدي بن كعب، وبنو عدي ليسوا من بني تغلب ، وقد ذكر ابن دريد شعراء تغلب (٣٣٥) ولم يذكر منهم (النحام) . وقد جاء اسم الشاعر في حواشي المخطوط (٩٠١٢) : (أبو النجام) وأحسب أنه (أبو النجم العجلي) وهو القائل:

المرء كالحالم في المنام	**يقول اني مدرك أمامي**
في قابل ما فاتني في العام	**والمرء يدينه من الحِمام**

كما جاء في معجم الشعراء للمرزباني (١٨٠) وجاءت ترجمته في طبقات فحول الشعراء للجمحي (٧٤٧/٧٥١) .

قال المحقق : لا أدري أ (محيرجات) هي أم (مخيرجات) بالخاء المعجمة ، أم شيء آخر ؟ فلم أستطع معرفتها ولا وقفت على شيء منها في كتب المواضع والبلدان .

ـ **أقول :** الذي جاء في حواشي المخطوط (٩٠١٢) : (تركت أرّجان) بفتح الهمزة وتشديد الراء المفتوحة ، وهو بلد بفارس ،وقد يكون (جويخان) بضم فكسر ، وهو بلد بفارس أيضاً ، وهو أشبه ما يكون بالأصل ، أو (خُوجّان) بضم ففتح وجيم مشددة ، من قرى مرو ..

٧ ـ **قال المحقق :** لا أدري أ (أخزم)أم (أخرم) أم (أحرم) لم أهتد الى ذلك في المصادر ، ولكني أميل الى (الأخزم) لأنه من الأسماء التي سُمّوا بها . انظر الاشتقاق، ولم أهتد الى الرجز و (صفين) موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات . انظر (معجم البلدان) .

ـ **أقول :** قد نسب الرجز في حواشي المخطوط (٩٠١٢) الى راجز هو (أبو الأحزر) بالحاء والزاي ، وصحته (أبو الأخزر) بالخاء والزاي . وجاء في المؤتلف والمختلف للآمدي (٦٦) : ومنهم أبو الأخزر الحماني بكسر الحاء وتشديد الميم ، الراجز .. وهو القائل :

أنا أبو الأخزر ذو استكتام	**لا حَصَري يُخشى ولا عُرامي**
قد كنت أهوى البيض في الكِمامِ	**والرجعَ من أصواتها الرُّخام**
فقد تأهبت عن التهيام	**بهن الا مُلَتَّحَ الكلام**

وقد يكون البيت الذي جاء به ابن بري من هذه الأرجوزة • وذكر صاحب اللسان أن اسمه (قتيبة) ولقبه (أبو الأخزر) • وقد اهتدى الى هذا الدكتور الضامن في تعقيبه على تحقيق الدكتور السامرائي وجاء البيت الثالث (فقد تأهبت عن التهيام) وذكر محقق المؤتلف أن الصواب (فقد تناهيت ••) ويتجه لي أنه (تأبهت) بمعنى تنزهت •

وجـاء في الكتـاب (ص/ ٤٠) :

قال أبو منصور : قال الحربي(١) : قال أبو عمرو (٢) : الأسابذ (٣) قوم من الفرس كانوا مسلحة المشقر ،منهم المنذر بن ساوى(٤) من بني عبدالله بن دارم ، ومنهم عيسى الخطبي وسعد بن دعلج(٥) •

قال ابن بري : المشقّر حصن قديم بالبحرين • قال لبيد [من الطويل] :

وأنزلن بالدومي من رأس حصنه   وأنزلن بالأسباب ربَّ المشقّر(٦)

والدومي هو الندب (٧) (صاحب دومة الجندل) •

١ ــ قال المحقق : هو أبو اسحاق ابراهيم الحربي ، كان قيماً بالأدب جماعاً للغة حافظاً للحديث ، توفي ٢٨٥ هـ • (نزهة الألباء / ١٤٥ ، إنباه الرواة ــ١/١٥٥) •

٢ ــ قال المحقق : لا أستطيع أن أقطع في (أبي عمرو) هذا ، أ أبوعمرو بن العلاء أم أبو عمرو الشيباني •

ــ أقول : أبو عمرو الشيباني هو أبو اسحاق بن مرار (ت ٩٦ هـ) وأبو عمرو بن العلاء هو زبان بن العلاء بن عمار أحد القراء السبعة (ت ١٥٤ هـ) وثمة أبو عمرو حفص بن سليمان الأسدي (ت ١٨٠ هـ) •وليس في ترجمة أبي اسحاق ابراهيم الحربي ما يشير الى أنه كان يروي عن أحد هؤلاء خاصة •على أن الراجح أن الذي قصده الحربي وحكى عنه هنا هو أبو عمرو الشيباني ، لا سواه ،اذ جاء في معجم البلدان لياقوت (١/ ١٧١) انه قد حُكي عنه تفسير لفظ (أسبذ)وصلته بأصحاب حصن المشقر •

٣ ــ أقول : فات المحقق أن يقول شيئاً في (أسبذ) ، وهو بفتح الهمزة وسكون السين وفتح الباء ، وقد اختلف فيه ، اذ جاء في المعرب (٣٨) أنه اسم قائد من قواد كسرى • وجاء في كتاب الفتوح للبلاذري (١٠٦/ ١١٠) أنه اسم قرية بهجر ، وجاء في الألفاظ الفارسية لأدي شير أن (أسب) بمعنى حصان و (باد) بمعنى حارس •

أما (أسبذي) بياء النسبة ففي المعرب (أن الأسبذيين ضرب من المجوس من عبدة البراذين كانوا حماة لحصن المشقر • وفي الفتوح أن (الأسبذي) نسب الى قرية بهجر يقال لها (الأسبذ) وأن الأسبذيين قوم يعبدون الخيل بالبحرين ، فلما كان سنة(٨) وجه الرسول ﷺ العلاء بن عبدالله الحضرمي الى البحرين يدعو أهلها الى الاسلام أو الجزية فأسلم منهم العرب ، ورضي المجوس واليهود بالجزية • وكان ممن أسلم المنذر بن ساوى

والي البحرين · وجاء في معجم البلدان عن هشام بن محمد بن السائب (وقيل لهم الأسبذيون لأنهم كانوا يعبدون فرساً ، قلت، ان الفرس بالفارسية ــ أسب ــ زادوا معه ذالا تعريباً) ·

٤ ــ **قال المحقق :** المنذر بن ساوى كان والياً على البحرين · انظر الاصابة ــ ٦ / ١٣٩ ، وطبقات ابن سعد ١/٢/١٩ ·

ــ أقول : هذا بعض ما جاء في تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر للمعرب نسخه المحقق بالحرف · وفي السيرة النبوية لابن هشام (٤/٢٢٢) : (وقد كان رسول الله ﷺ بعث العلاء بن الحضرمي قبل فتح مكة الى المنذر بن ساوى العبدي فأسلم فحسن اسلامه ثم هلك بعد رسول الله ﷺ قبل ردة البحرين والعلاء عنده أميراً لرسول الله ﷺ على البحرين) · وجاء في معجم البلدان (وكان بالبحرين من قبل الفرس المنذر بن ساوى بن عبدالله بن زيد بن عبدالله بن دارم بن مالك بن حنظلة ··· وعبدالله بن زيد هذا هو الأسبذي نسبة الى قرية بهجر ·) ·

٥ ــ **أقول :** في المعرب المطبوع (١٨٦٧) : (عيسى الخطي) بدلا من (الخطبي) و (سعيد بن دعلج) بدلا من (سعد بن دعلج) ·

٦ ــ **قال المحقق :** الديوان (ص/ ٥٦) وروايته فيه (وأعوصن بالدومي ··) ·

ــ أقول : في الصحاح (دوم) : (وأعصفن ··) أي ذهبن به وأهلكن ·· وفي الديوان (وأنزلن ··) بمعنى انقلبن به ، وفي الصحاح (شقر) : (وأنزلن بالرومي ·) وهو محرف لأن الكلام على (الدومي) بالدال نسبة الى (دومة الجندل) · والمشقّر بضم الميم وفتح الشين وتشديد القاف حصن بالبحرين ، وربّ المشقر هو (أكيدر) بضم الهمزة وفتح الكاف على صيغة التصغير ، صاحب دومة الجندل ، وهو أكيدر بن عبد الملك ، كما في الاشتقاق ·

٧ ــ أقول : فات المحقق أن يوضح معنى قول ابن بري (والدومي هو الندب صاحب دومة الجندل) فما معنى (الندب) هنا · وقد تبين بالبحث أن اللفظ قد شوه وصحته (أكيدر) كما حكيناه في الحاشية السابقة عن الصحاح ، وهو أكيدر بن عبدالملك كما حكاه الاشتقاق ·· وقد جاء كذلك في حاشية المخطوط (٩٠١٢) ·

وجاء في معجم البلدان (٢/٤٨٨) : (دومة الجندل بضم أوله وفتحه ·· وسميت دومة الجندل لأن حصنها مبني بالجندل ···وهو حصن أكيدر الملك بن عبدالملك بن عبد الحي ·· وكان النبي ﷺ وجه اليه خالد بن الوليد من تبوك ··) وجاء فيه (وأحسن ما ورد من ذلك ما ذكره أحمد بن جابر في كتاب الفتوح ·· قال بعث رسول الله ﷺ خالداً ــ رض ــ السنة التاسعة الى أكيدر بن عبدالملك بدومة الجندل فأخذه أسيراً وقتل أخاه وقدم باكيدر على النبي ﷺ فأسلم وصالح النبي على أرضه ·· فلما مات الرسول ﷺ منع أكيدر الصدقة ·· وقيل أن خالداً لما انصرف من العراق الى الشام مرّ بدومة الجندل التي غزاها أولا بعينها ففتحها وقتل أكيدر) ·

وجاء في الكتاب (ص / ٤١) :

قال أبو منصور : قال أبوسعيد(١) : سمعت العرب تقول للاربعة (استار) لأنه في الفارسية (جهار) فأعربوه فقالوا (استار) قال جرير : [من الكامل] :

ان الفــرزدق والبعيــث وأمّــه وأبا الفرزدق شر ما استــار(٢)

قال ابن بري : ويجمع (أساتير) ويقال لكل أربعة (استار) ٠

١ ــ قال المحقق : لعله أبو سعيد الضرير أحمد بن خالد ٠ انظر (نكت الهميان ــ ص/٩٦) ، واستبعد أن يكون (الأصمعي)لشهرة(الأصمعي) وليس (أبا سعيد) ٠

ــ أقول لا شك أنه اذا قيل (أبو سعيد)لم يذهبوا بــه الى الأصمعي ٠ ولم يذكــر أبو منصور الأصمعي في المعرب مرة الابلقبه أي (الأصمعي) ٠ لكنه اذا قال (أبوسعيد) عنى به (أبا سعيد السكري) وهو الحسن بن الحسين المتوفى (٢٧٥ هـ) وكان ذا ثقة، راوية للبصريين ٠ ويتحقق ذلك بمراجعة غيرموضع من المعرب (١٩٥ و ٣٣٣) ٠والمعروف أنهم اذا عنوا الضرير قالوا أبو سعيدالضريرولم يكتفوا بكنيته ٠

٢ ــ قال المحقق : ورواية البيت في الديوان (ص/٣١٧) :

ان الفــرزدق والبعيث وأمّــه وأبا البعيث لشــر ما استــار

ــ **أقول**:قيل(استار) بكسرأوله والجمع أساتير وهو معرب (جهار) بالجيم الفارسية، ومعناه (أربعة) ٠ وقيل استار رابع أربعة ، كماقيل استار لكل أربعة من جنس واحد (المعرب وشفاء الغليل) ٠ ومن ثم قال جرير :

ان الفــرزدق والبعيــث وأمــه وأبــا الفرزدق شــر ما استــار

والبعيث اسم شاعر من بني تميم ٠ وجاءت رواية العجز في الديوان والنقائض واللسان (وأبا البعيث لشر ما استار) ٠وفي الصحاح بيت آخر هو (قُرن الفرزدق والبعيث وأمه ٠ وأبو الفرزدق قبّح الاستار)وجاء كذلك في النقائض ، وشفاء الغليل ٠ أما عن أصل (استار) فلا شك أنه معرب اللفظ الفارسي (جهار) بجيم فارسيــة مفتوحة ومعناه (أربعة) ، كما جاء في المعرب وأيده فيه ابن بري ٠ وقد جاء (إستار) في شعر الأخطل والكميت ٠ لكن لفظ (استار) هذا قد جاء في المعجم الذهبي على أنه لفظ فارسي معناه (أربعة) أو (وزن يعــادل أربعة مثاقيل) فما تعليل ذلك ؟ أقول أكبر الظن أن الفارسية قد اقتبسته وأدخلتــه في ألفاظها كما فعلت في كثير من المعربات ،وهو لم يرد في بعض معاجم الفارسية ٠

وجاء في الكتاب (ص / ٤١ و ٤٢) :

قال أبومنصور : الألُوَّة العود الذي يُتبخر به ، ذكر أبوعبيدة : أنه معرّب(١)·

قال ابن بري : قال المفضل بن سلَمة :يقال ألُوّة وأُلُوّة بالفتحفي الهمزةوضمها· وفي الحديث في صفة الجنة (**ومجامرهم الألُوَّة**) (٢) ·

وحكى اللحياني : أَلُوّة وأُلُوّة ولُوّةولِيَّة(٣) وحكى ابن الاعرابي (لِيَّة)وأنشد [من الرجز] :

لا يصطلي ليلة ريحٍ صرصرِ الا بعود لِيَّة أو مِجمر

وقد جاء (ألاوِيَة) في بيت ، أنشده ابن الجراح(٤) [من الطويل] :

بساقين ساقي ذي قِضين تحشّها بأعواد رندٍ أو ألاوية شُقرا(٥)

١ ــ قال المحقق (المعرب ــ ص/٤٤)·

ــ أقول فات المحقق أن يقول شيئاً حول لفظ (الألوة) وأصله · فقد تبين بالبحث أن (ألوّة) بضم الهمزة واللام وتشديد الواو المفتوحة ، للعود يتبخر به · وما دامت همزته أصلية فهو قبل الادغام (فُعْلُلَة)كسُنْبُلَة · وهو يجمع في الأصل على(ألاو) وقد دخلته الهاء كما جاء في اللسان للاشعار بعجمته فاصبح (ألاوية) ،·وفي النهاية أنها همزة أصلية وقيل زائدة · وقد جاءت فيه لغات (ألوة) بفتح الهمزة كما قال المفضل، و (لُوّة) بحذف الهمزة ، كما حكى اللحياني ، و (لِيَّة) بكسر اللام وتشديد الياء ، كما ذكره ابن الأعرابي ·

أما أصله فقيل انه فارسي ونفى أبومنصور ذلك وقال انه هندي ، كما في اللسان· وجاء في الألفاظ الفارسية لأدّي بشر أنه فارسي أصله (ألوا) وأن معناه نبات(الصبر) بفتح فكسر ، وأنه يوناني أيضاً وهو منقول من (الآرامية) لأن (الصبر) موطنه الشرق· وفي اللغات اللاتينية كالفرنسية والايطالية،وفي اللغتين الجرمانية والانكليزية مثل هذا اللفظ اسماً لنبات الصبر المشهور بعصارته المرة · أما في المعاجم الفارسية فان (ألاو) و (ألو) لشعلة النار · فاذا صح أن الأصل واحد ، كان اللفظ للعود من هذا النبات ·

٢ ــ قال المحقق : وتمام الحديث في اللسان : ومجامرهم الألوّة غير مُطرّاة ·

ــ أقول جاء في النهاية (وفي صفة أهل الجنة ومجامرهم الألوّة هو العود الذي يتبخر به ·· ومنه حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يستجمر بالألوة غير مطراة) واجتمر واستجمر بالمجمرة · تبخر بها ، وطرّاه جعله طرياً ·

٣ ــ أقول : زاد المحقق هنا (لِيَّة)نقلا عن اللسان كما ذكر · اذ اقتصر الأصل ومخطوط المعرب (٩٠١٢) في حكاية اللحياني على اللغات الثلاث· وأما الرابعة أي (لِيَّة)

فقد جعلها حكاية ابن الأعرابي وحده ، وقداستشهد بقول الراجز (الا بعود ليَّة أو مجمر) ، ويؤيد هذا سياق الكلام ٠

٤ ـ فات المحقق أن يعرّف ب (ابن الجراح) على ما جاء في الأصل ٠ والذي جاء في حواشي مخطوط المعرب (٩٠١٢) : (أبو الجراج) بجيمين ، وكلاهما محرّف ٠ ويتجه لي أنه أبو الجراح بتشديد الراء وحاء في آخره ، وقد جاء ذكره في المظان ٠ ففي الشعر والشعراء لابن قتيبة (/ ٢١٠) أنه الأسود بن يعفر ، وهو جاهلي من بني حارثة ، ويكن أبا الجراح ، كان أعمى ٠

و (يعفر) بفتح الياء وزان (يقتل) فهو غير مصروف ، وقيل بضم الياء والفاء فهو مصروف لزوال شبهه بالفعل وقد تحدث أبو محمد الأعرابي الملقب بالأسود الغندجاني عنه في كتابه (فرحة الأديب) وذكر شيئاً من شعره (١٩٩) ٠ وفي المؤتلف والمختلف للآمدي (١٦) أن الأسود بن يعفر التميمي هذا هو أعشى نهشل ، وقد جاء الصبح المنير بشعره (٢٩٨) وما أظنه استوفاه ٠ ويؤكد هذا ما جاء في طبقات الجمحي (١٤٧/١٤٨) ٠

٥ ـ قال المحقق : في الأصل : بساقين سلقي ذي قعين تحثها ٠

ـ أقول فات المحقق أن يقول شيئاً في بيت أبي الجراح ٠ ف (ذو قِضين) بكسر القاف اسم موضع ، و (قضون) في الأصل جمع (قضة) بكسر أوله الأرض المخفضة ، ترابها رمل ، كما جاء في كتاب العين ، ومعجم البلدان (٣٦٨/٤) وساقا هاجبلاها ، وتحشّها بمعنى تطعمها ٠ وفي الأساس (حش النار أشبّها وأطعمها الحطب) ٠ وهو ينصب مفعولا ثانياً أو يتعدى اليه بالحرف ، كما جاء في التاج ٠ وقد جاء في عجز البيت (ألاوية) بالنصب وهو معطوف على مجرور كذا جاءت روايته في التهذيب واللسان (ألو)، وفي موضع آخر من اللسان (قضى) ٠ ونسب البيت فيه الى أبي (الحجاج) وأحسبه محرّفاً ٠ وأغلب الظن أن الشاعر استجاز عطف المنصوب على المجرور للضرورة جرياً على قول من قال (مررت بزيد وعمراً) ٠ قال ابن جني في الخصائص (١١٢/١) : (ألا ترى أنك تحكم لموضع الجار والمجرور بالنصب فتعطف عليه فينصب لذلك ، فتقول: مررت بزيد وعمراً) ٠ وأشار الى ذلك صاحب المغني ٠

وجاء في الكتاب (ص ٤٣ و ٤٤)

قال أبو منصور : و (البرزيق) الفارس بالفارسية ، والجماعة من الفرسان : (البرازيق) قال جهمة بن جندب(١) : [من الكامل] ٠

تظل جياده متمطرات ۝ برازيقا تصبّح أو تغير(٢)

قال ابن بري : قوله (البرزيق : الفارس) وهم ، وانما البرزيق الجماعة من الناس فرساناً ورجالة، والبرازيق الجماعات٠

وفي الحديث : ولا تقوم الساعة حتى يكون الناس برازيق (٣) ، وقال أبو عُبيد : أي جماعات(٤) ٠

وقال الليث : البرزيق جماعة خيل دون الموكب . وقال زياد(٥) : ما هذه البرازيق التي تردد . وقد يجمع برزيق على برازق بحذف الياء . قال عُمارة بن طارق (من الرجز) .

أرض بها الثيران كالبرازق(٦)

وقول أبي منصور ، ابن الجواليقي :(والبرازيق هي الجماعات من الفرسان)لأن البرزيق هو الجماعة ، والبرازيق هي الجماعات (٧) .

١ ـ **أقول** : لم يذكر المعرّب اسم الشاعر (٥٥) وانما جاء به محقق المعرّب الأستاذ أحمد محمد شاكر وذهب الى أنه (جهينة بن جندب بن العنبر بن تميم) نقلا عن الجمهرة واللسان وأثبته الدكتور السامرائي (جهمة بن جندب) بفتح الجيم في (جهمة) ، وعندي أنه (جهمة) بن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم) كما جاء في الصحاح وحكاه عنه صاحب التاج . والجيم في جهمة مضمومة . وقد جاء في الأصل (جهمة بن جندب) وكذلك في حواشي المعرّب (٩٠١٢) . ويثبت صحة حكاية الصحاح أن (جهمة) بالضم وجندباً والعنبر كلهم من بني تميم على ما جاء في الاشتقاق لابن دريد . وفيه أن من بطون جندب بنو جهمة بالضم (٢١١) .

وقد ذهب الدكتور حاتم صالح الضامن فيما تعقب به الدكتور السامرائي الى أنه (جهينة) اذ قال (والصواب جهينة بن جندب كما في غريب الحديث **لأبي عبيد** القاسم بن سلام ـ ٤/١٠٠ وجمهرة اللغة ـ ٣/٣٠٥ واللسان ـ برزق) أقول ان ما جاء به أبو عبيد وصاحب الجمهرة واللسان لا يدحض حكاية الصحاح لما بيناه .

٢ ـ **قال المحقق** : في المعرب (٥٥/٥٦) والرواية (برازيق تصبح أو تغير)والبيت ثاني بيتين وردا في اللسان، والرواية برازيقا بالنصب .

٢ ـ **أقول** : هذا بعض ما ذكره محقق المعرّب الأستاذ أحمد محمد شاكر . وقال ان رواية الجمهرة قد جاءت بالرفع في (٣/٥٠١)لكنها جاءت بالنصب في (٣/٣٠٥) وحكاه عنه اللسان ، ورواية اللسان :

رددنا جمع سابور وأنتم ... بمهواة متالفها كثير

تظل جيادنا متمطرات ... برازيقاً تصبح أو تغير

وقد أغفلت رواية الصحاح وهي كرواية اللسان ، ولكن جاء في صدر البيت الثاني (**تظل** جياده ..) . والمتمطرات المسرعات من (تمطّر) بتشديد الطاء . وقد جاء في الأساس (ومر الفرس يمطر مطراً ويتمطر: يعدو بشدة كصوت المطر) . والبرازيق جماعات الخيل .

٣ ـ **أقول** : في النهاية لابن الأثير (لاتقوم الساعة حتى يكون الناس برازيق ، ويروى برازق أي جماعات واحده برزاق وبرزق) قلت قد يكون البرازق أو البرزق

كما جاء في النهاية ، أو البرزيق كما جاء في المعرّب وحواشي ابن بري وشفاء الغليل ، مجموعاً على برازق أو برازيق ٠ فالكوفيون قد أجازوا في كل جمع على (مفاعل) أو هيئته ، أن تزاد فيه الياء ، وأجازوا حذفها فيما جاء على (مفاعيل) وهيئة أيضاً ،كما نص عليه الهمع (١٨٢/٢) ٠ وقد أخذ بهذا جماعة وعبروا عن زيادة الياء في نحو (مفاعل) أو هيئته ، باشباع الكسرة ،وأسماه ابن جني في الخصائص (١٥١/٣) وفي المحتسب (٣٥٧/١) اشباعاً للحركة أو مطلها ٠ وردّه ابن الأنباري في الانصاف و (٣١/١) وقصره على الشعر ٠

وأصل (برزق وبرزيق) فارسي ٠ قال أدّي شير في ألفاظه (فلم أر سوى بروز ، وهو اصطفاف الخيالة والرجالة من العسكر على شكل حلقة) ٠ وفي المعجم الذهبي (بروز) بباء فارسية حلقة الجند ،وحاشية الثوب ، وتلفظ بفتح الباء والواو ٠ وهكذا عُرّب (بروز) الفارسي ومعناه الاطار أو الحاشية أو الحلقة من الجند الى (برزق أو برزيق) ، ومعنى البرازيق الجماعات من الخيل أو الفرسان ، وجاء في التاج عن الصاغاني أن البرازيق : الطرق المصطفة حول الطريق الأعظم ٠

٤ ـ **قال المحقق** : وقول أبي عبيد في اللسان ، وهو من غير شك من (الغريبين)٠

وعلق الدكتور الضامن فقال : ان أبا عبيد المذكور هو القاسم بن سلام (المتوفى ٢٢٤ هـ) وقوله في كتابه غريب الحديث (١٠٠/٤) ٠ ووهم الأستاذ المحقق فظنه أبا عبيد الهروي أحمد بن محمد (المتوفى ٤٠١ هـ) صاحب كتاب الغريبين ٠

ـ **أقول** : أكد المحقق الدكتور السامرائي أن الذي أراده ابن بري هو أبو عبيد صاحب كتاب الغريبين : غريب القرآن وغريب الحديث ، دون أبي عبيد القاسم بن سلام الأزدي صاحب غريب الحديث ، ولم يعتل لذلك ، والحق أن ابن بري هو أحد الأئمة الذين حكوا عن الغريبين خاصة ، وذلك في حواشيه على الصحاح ، وعلى درّة الغواص للحريري ٠ لكن الذي جاء في الغريبين من مادة (برزق ــ ١٥٧/١) هو : (وفي حديث آخر : والناس برازيق ، يعني جماعات ٠ وفي حديث زياد : اذا لم يكن منكم نهاة تمنع الناس عن كذا وكذا وهذه البرازيق) ،على حين أورد أبو عبيد القاسم بن سلام ما حكاه عنه ابن بري نفسه فقد جاء بالحديث (لا تقوم الساعة حتى يكون الناس برازيق) وأردف (يعني جماعات) ، ويؤكد هذا أن ابن بري قد عنى أبا عبيد القاسم بن سلام ٠

٥ ـ **قال المحقق** : لم أتبين (زياداً) هذا ٠

وعلق الدكتور الضامن على هذا فقال: هو زياد بن أبي سفيان ، وقوله في اللسان (برزق) ٠

ـ **أقول** : الذي في اللسان أنه (حديث زياد) ٠ وقد جاء به ابن قتيبة عبدالله بن مسلم في غريب الحديث (٥٧٢/٢) فذكر أنه (حديث زياد بن أبي سفيان) ، وكان زياد هذا والي البصرة في عهد معاوية ٠ ونص الحديث كما جاء في اللسان (وفي حديث

زياد : ألم تكن منكم نهاة يمنعون الناس عنكذا وكذا ، وهذه البرازيق ٠٠) كما في النهاية٠ وأردف:(وقالزياد: وهذه البرازيقالتي تتردد) وفي غريب الحديث (ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارةالنهار وهـذه البرازيق) ٠ أما في البيان والتبيين (٢/٦٢) فقد جاء فيه ما جاء فيغريب الحديث ولم تذكر فيه (البرازيق) وكذلك العقد الفريد (٤/١١٠ ـ ١١١) ٠

٦ ـ **قال المحقق :** وتمام الرجز في اللسان : كأنما يمشين في اليلامق ٠

ـ **أقول :** اليلامق جمع يلمق بفتح فسكون ، وهو القباء بفتح القاف أي الثوب الذي يلبس فوق الثياب ، وأصله الفارسي(يلمه) كما في المعرب (٣٥٥) ٠

٧ ـ **قال المحقق :** والعبارة : وقول أبيمنصور ، ابن الجواليقي : (والبرازيق ٠٠) هو من كلام ابن بري في توضيح وتفسيركلامصاحب المعرب ، المتقدم ٠

ـ أقول هذا صحيح ، لكن صحة كلامابن بري (وقول أبي منصور الجواليقي : البرازيق الجماعة من الفرسان ، صوابـهأن يقول الجماعات من الفرسان) وكذلك جاء في حواشي مخطوط المعرب (٩٠١٢) ٠أما ما أثبته المحقق مـن قول أبي منصور (والبرازيق هي الجماعات من الفرسان)فليس صحيحاً والصحيح هو (والبرازيق الجماعة من الفرسان) وهذا ما دعا ابنبريإلى أن يتعقبه بقوله (وصوابه أن يقول : البرازيق الجماعـات مـن الفرسـان) ٠والمعروف أن أبا منصور الجواليقي صاحب المعرّب هو الجواليقي أو ابن الجواليقي ،لأن (الجواليقي) لقب لجد مـن أجداده ، نسبة الى الجواليق جمع جوالق بكسر الجيم٠وهو في (انباه الرواة ـ ٣/٣٣٥):(موهوب بن أحمد بن محمد بن الحسن بن الجواليقي ،أبو منصور بن أبي طاهر) وهو في (بغيـة الوعاة / ٤٠١) : (موهوب بن أحمد بنمحمد بن الحسـن بن الخضر ، أبو منصور الجواليقي) ٠

وجاء في الكتاب (ص / ٤٤ و ٤٥) :

قال أبو منصور : و (بسطام) ليسمنكلام العرب ، وانمـا سمي قيس بن مسعود ابنه (بسطاماً) باسم ملك من ملوك فارس٠

قال ابن بري : اذا ثبت أن (بسطاماً)اسم أعجمي علَم ليس بجنس فلا وجهلصرفه٠

وقال ابن بري : بعد ذلك اذا ثبت هذافان (بسطاماً) مصروف لأنه منقول مـن جنس (١) ٠

قال أبو منصور : قال رؤبـة :(٢) [منالرجز]

كمرجل الصباغ جاش بَقَمّه

قال ابن بري : صوابه العجاج وقبله :

يجيش من بين تراقيه دمه   كمرجل الصبَّاغ جاش بقمّه(٣)

١ ـ **أقول :** اذا عدنا الى المعرّب (٥٦ و ٥٧) ألفينا أن أبا منصور ذكر في (بسطام) وجهين : الأول وقد نسبه الى ابن دريد : **أنه في الأصل** (علَم في الفارسية) لأنه اسم ملك من ملوك الفرس فعقب ابن بري على ذلك بما معناه : اذا ثبت أن بسطاماً نقل الى العربية وهو في الأصل علَم أعجمي فهو ممنوع ولا وجه لصرفه .

الثاني : ولم ينسبه الى أحد ، **أنه في الأصل** (اسم جنس في الفارسية) فعقب ابن بري على هذا بما معناه : اذا ثبت أن بسطاماً قد نقل الى العربية علَماً ، وهو في الأصل اسم جنس أعجمي ، فانه مصروف وقد كان ينبغي أن يثبت هذا قبل تعقيب ابن بري ، وأن يشير المحقق اليه . وجاء في المعرب في تفصيل هذا الوجه (قال أبو منصور : وقال غيره ، أي غير ابن دريد ، وسمي بسطاماً لأن أباه كان محبوساً عند كسرى فنظر الى غلام يوقد تحت شيء ، يحركه بحديدة فبُشّر به ، وقيل ولد لك غلام . فقال أي شيء تسمّون هذا ؟ قالوا فسمّوه بسطاماً) . والذي تبين بهذا أن السؤال كان عن اسم الحديدة التي كان الغلام يحرك بها النار ، واسمها في الفارسية (أستام) . قال صاحب المعجم الذهبي (أستام سيخ حديدي يستعمل لتحريك نار الأتون والتنور) . وأنكر محقق المعرب الأستاذ أحمد محمد شاكر أن يكون الجواب عن اسم الحديدة في النص (أسطام) وأكد أنه (بسطام) واثباته اياه كذلك في المعرب خطأ والصحيح ما ذكرناه ، وهو (أستام) . وجاء في مخطوط المعرب (٩٠١٢) : أوستام ، وفي المعرب المطبوع عام (١٨٦٧) : (إسطام) ولكن كيف آل (أستام) هذا الى (بسطام) بالتعريب ، وفي العربية (الاسطام) كما يعنيه اللفظ الفارسي ؟ قال الزمخشري في الأساس (حرّك النار بالاسطام) ، أفليس الأعدل أن يكون (الاسطام) هذا معرباً من (أستام) الفارسي ؟ وأن يكون (بسطام) منقولا الى العربية من (بسطام) اسم العلم الفارسي . ومن ثم أكد ابن خالويه أنه (لا ينبغي أن يصرف) وجاء في الصحاح أنه منقول من اسم علم أعجمي ، كما ذكره ابن دريد في الجمهرة ، وكذلك جاء في شفاء الغليل .

وبسطام بن قيس بن مسعود هو أحد فرسان العرب الثلاثة عامر بن الطفيل وعتيبة ابن الحارث وبسطام هذا . أما قيس بن مسعود فقد كان والياً على الأبُلّة لكسرى ، كما جاء في الاشتقاق لابن دريد .

وبسطام بكسر الباء لكنه جاء بفتح الباء أيضاً ، ذكره الحنبلي الحلبي في بحر العوّام .

٢ ـ **قال المحقق :** الصواب هو العجاج، كما أثبت ذلك أيضاً ابن بري في تصحيحه . والرجز من الجمهرة لابن دريد (١/٣٢٢) .

ـ **أقول :** نسب الجواليقي الرجز الى رؤبة وهو لأبيه العجاج ، وأخطأ بالنقل . وفات المحقق أن ابن دريد الذي حكى الجواليقي عنه لم يخطىء فقد نسبه في الجمهرة الى العجاج كما هو واضح في (١/٣٢٢) .وقدأشار الى هذا محقق المعرب نفسه (٥٩) .

٣ ـ قال المحقق : المعرب (ص/٥٩)والرجز شاهد في (بقّم) وهو صبغ أحمر .

ـ **أقول :** جاء في الصحاح : (البقم ، بفتح الباء والقاف المشددة ، صبغ معروف وهو العندم .

قال العجاج :

بطعنة نجلاء فيها ألمه   يجيش ما بين تراقيه دمه

كمرجل الصبّاغ جاش بقمّه

وقلت لأبي علي الفسوي ، أعربي هو فقال : معرّب) . وقال ابنخالويه في(ليس): (لم يصرف الاسم اذا جاء على فعّل بفتح الفاء والعين المشددة ، **لأنه يشبه الفعل)يعني** اذا سُمي به .وأكثر ما جاء منه علَم .وجاءفي اللغة (مُبقّم) للمصبوغ بعشب البقّم كما في (السامي / ١٣١) للميداني النيسابوري . أما أصل (بقّم) فقال أدي شير أنه (بكَم) بفتح الباء والكاف ، ولم أجده في المعجمات الفارسية . وقال صاحب التقريب انه جاء على زنة أصله الفارسي .

وجاء في الكتاب (ص / ٤٥ و ٤٦)

قال أبو منصور : و (البَبر) بباءين ،جنس من السباع ، وأحسبه دخيلا وليس في كلام العرب . والفرس يسمونه (بفر)(١).

قال ابن بري : (البَبر)(٢) هو الفُرانقيُندر(٣) الأسد، ويقال له (الهَدبَّس)(٤) ويقال (الهَدبَّس) الذكر .

قال أبو منصور : و (البُهار)(٥) اسمواقع على شيء يوزن به نحو الوَسْق وما أشبهه ، بضم الباء ، وهو معرب ، وقدتكلمتبه العرب . قال الشاعر ، وهو البُريق الهُذَلي(٦) يصف سحابا : [من الوافر] :

بمُرتجِزٍ كأن على ذُراه   ركابَ الشأم يحملن البُهارا(٧)

قال ابن بري : قال ابن جني : البُهارعربي مأخوذ من بهرَني الشيء ، لأن الحمل الثقيل يبهرُ حامله .

وقال الأزهري : البُهار هو ما حُمل على البعير بلغة أهلالشأم، وهو عربيصحيح، وأنشد بيت البُريق .

١ ـ **قال المحقق : لا بد أن يكون الفاء في** (بفر) ليس فاء كالفاء العربية بل هي أقرب الى الواو الشفوية · كالحرف اللاتيني (v) وهو قريب من الباء ، ويتم بينهما الابدال ، وذلك لأن الابدال بين الباء والفاء على أنهما شفويتان ، قليل ·

ـ **أقول :** لم يعتد المحقق أن يبحث الابدال في التعريب فيما تقدم ، وهو لم يوفق في حكمه هنا · ذلك أن الفاء التي أشار اليها، وهي الفاء الفارسية التي تلفظ بين الفاء والباء ، قد هجر النطق بها ، كما ذكرنا في موضع آخر · وقد انتهت الى باء خالصة في بعض الألفاظ الفارسية نحو (استفره) بفاء فارسية آلت الى (استبره) ، أو الى فاء خالصة نحو (فزوني) بفاء فارسية ومعناه الكثرة والوفرة آلت الى (فزوني) بفاء خالصة · وعلى هذا جاء الحديث في كتب التعريب ، ومنها كتاب المعرب ، والمعجمات الفارسية ، عن الابدال في أربعة أحرف فارسية ليست في العربية ، وهي الباء الفارسية التي بين الباء والفاء ، والجيم الفارسية التي بين الجيم والشين ، والزاي الفارسية التي بين الزاي والجيم ، والكاف الفارسية التي بين الكاف والجيم · وقد طووا ذكر الفاء الفارسية ، اذ هجر النطق بها · قال صاحب التقريب(١٩) ، (والفاء الفارسية هي حرف بين الفاء والباء ·· وقد ذكره ابن سينا ،وكان موجوداً في عصره في بعض الكلمات الفارسية ، ثم هجر النطق به ، حتى صار نسياً منسياً) · وسكوت صاحب المعرب عن ذكر هذه الفاء دليل على هجر النطق بها في عهده (توفي ٥٤٠ هـ) خلافاً لعهد ابن سينا (توفي ٤٢٨ هـ) فالذي أراده أبو منصور بلفظ (بفر) الذي اعتده أصلا للفظ (ببر) هو (بفر) بفاء خالصة ، خلافاً لما ذهب اليه المحقق ·

٢ ـ **أقول :** (البَبر) بفتح فسكون هو الفرانق بضم الفاء وكسر النون كما في اللسان، وهو ضرب من السباع ، معرّب ، والجمع (ببور) كما في (السامي / ٢٨) للميداني النيسابوري ·

أما أصله فقد ذهب الجواليقي الى أنه (بفر) بباء ففاء ، وقال أدي شير انه (ببر) بباءين مكسورة فساكنة ، وهو في الفارسية جنس من السباع أو (ببر) بفتح فسكون وهو في الفارسية حيوان كالقط · وقد أنكر محقق المعرب الأستاذ أحمد محمد شاكر أن يكون الأصل بباء ففاء أي (بفر) وأكد أنه بباءين ، كما ذهب اليه الجواليقي · ولست أدري ما حجته والذي في المعاجم الفارسية (ببر) بباءين مفتوحة فساكنة · وكذلك جاء في المعرب المطبوع (١٨٦٧ م) ولكن بباءين مفتوحتين (ص/٢٧) ·

٣ ـ **قال المحقق :** في الأصل الكلمة مهملة (غير معجمة) وآثرت أن أثبتها كما وردت، ويقوّي هذا أنها في اللسان : الفرانق يعادي الأسد ·

ـ أقول : فات المحقق أن يتبين المعنى بالعودة الى المظان· فقد تراءى له أن العبارة (ينذر الأسد) والصواب أنها (ينذر بالأسد)·ولو عاد الى المعرب ، وهو أقرب المراجع اليه لتبين صحة ما قلناه· فقد جاء فيه (والفرانق قال ابن دريد هو فارسي معرب ، وهو سبع يصيح بين يدي الأسد كأنه ينذر الناس به/٢٣٨) · وهذا ما حكاه أدي شير عن البرهان

القاطع (هو الحيوان الذي ... يصيح بين يدي الأسد كأنه ينذر الحيوانات به ، فاذا سمعت صوته عرفت أن الأسد مقبل فاستخفت/١١٩) . وهو كذلك في حواشي مخطوط المعرب (٩٠١٢) ، فتأمل .

٤ ـ **أقول :** جاء في التاج (الهَدبَّس بفتحتين وباء مشددة كعملَّس أهمله الجوهري قال ابن الاعرابي : هو الببر الذكر أوولده) .

٥ ـ **أقول :** البهار بضم الباء لما يوزن به الشيء نحو الوسق بفتح فسكون ، وهو يزن ثلاثمائة رطل . أو هو الحمل عامة كما فسَّر به الأصمعي بيت الهذلي ، وعليه ابن قتيبة على ما جاء في المعرب واللسان ، ونحو من ذلك ما قاله الأزهري .

وذكر الجواليقي أنه معرب ، ولم يأت بأصل الكلمة ، وحكى عن أبي عبيد قولـه أراها قبطية . قلت ليس أصل البهار فارسياً على كل حال ، فقد ذكر الميداني النيسابوري البهار في (السامي/٣٠٣) وجعل فارسيته (سيصد رطل) أي ثلاثمائة رطل . وأشار أدي شير الى معنى (بهـار) بضم البـاء في الفارسية فقال هو الصنم ، وجعل المعجم الذهبي (الصنم) أحد معاني (بهار) بفتح الباء . فاذا كان أصل الحرف قبطياً فالقبطية شقيقة المصرية القديمة ، وهي في أغلب الظن لغـة سامية أو هي قريبة منها ، خلافاً للبربريـة الحامية ، كما جاء في فقه اللغة للدكتور علي عبدالواحد وافي . وذهب مجمع اللغة العربية بالقاهرة الى أن القبطية حامية سامية . فاذا صح هذا قرب أن يكون للبهار أصل عربي كما قال الأزهري وابن جني وحكاه ابن بري .

٦ ـ **قال المحقق :** كذا في (شرح أشعار الهذليين ـ ٢/٧٤٢) وهو البُريق الخناعي .
ـ **أقول :** جاء في الشرح أنه البُريق بن عياض بضم ففتح ، وهو يرثي أخاه .

٧ ـ **قال المحقق :** البيت في اللسان ورواية الشطر الثاني في (الجمهرة ـ ١/٢٧٩): كعير الشآم ...

ـ **أقول :** المرتجز الرعد الذي يرتجز أي يتردد أو يتتابع صوته تردد الرجز وتتابعه .

وجاء في الكتاب (ص / ٤٦) :

قال أبو منصور : (البِرَند) جوهر السيف وماؤه ، لغة في (الفرِند) قيل انه أعجمي معرَّب ، ويمكن أن يكون عربيـاً ، ويكون من (البرد) والنون زائدة لأن السيوف توصف بذلك ، والأول أجود .

وقال ابن بري : و (بِرَند) اسـم أعجمي عربته العرب ، وكذلك قال سيبويه ، وهو عندهم خارج عن كلام العرب ، وعليه اجماع النحاة وأهل اللغة(١) .

قال أبو منصور : و (البُرطُلَّة) كلمة نبطية ، وليست من كلام العرب(٢) .

قال ابن بري : يقال (بُرطُل) بغير هاء(٣)· قال أبو زيد : يقال (البُرطُلّة): الحارس(٤) : (السَّر قفانة) (٥) و (الشِرعامة) (٦) مظلة الناطور ، وأنشد [من الرجز] :

أفلح من كانت له ثر عامة يُدخل فيها كل يوم هامة

١ ـ أقول : ذهب الجواليقي الى امكانأن يكون (البرند) بكسرتين عربياً اشتق من البرد ، والنون زائدة · واحتج لذلك بأنالعرب تصف السيوف بذلك ، وهو بعيد · فاذا كان قد عني قول الشاعر (بالمرهفاتالبوارد) أي القواتل ، من برد الانسان اذا مات ، وبرَدَه : قتله فلا صلة لهذا بـ(البرند)من حيث المعنى · قال صاحب المفردات(ومنه السيوف البوارد) · ولذا آثر أبو منصور أنيكون أعجمي الأصل ، وهو الراجح وما أظن الذي حكي من قولهم (المبرندة من النساءالتي يكثر لحمها) كما جاء في اللسان ، ماأظن ذلك دليلاً على نفي كون (البرند) بما ذكرهالجواليقي من معناه ، أعجمياً · وأبى ابن بري كونه عربياً لاجماع النحاة وأهل اللغةعلى عجمته · وذهب سيبويه في الكتاب (٣٤٢/٢) الى أن العرب لم يغيروا بناء(برند) حين عربوه ، وانما أبدلوا من بائه الفارسيةهذه فاء فقالوا (فرند)بكسرتين· قال سيبويه (وربما غيروا الحرف الذيليس من حروفهم ولم يغيروه عن بنائه فيالفارسية نحو : فرند) والمعروف أن الأصل الفارسي هو (برند) بفتح الباء الفارسية والراءبعدها ، وأن معربه هو (فرند) أو (برند) بكسر الأول والثاني فيهما ، ويؤيد هذا ماجاء في الألفاظ الفارسية لأدي شير ،والمعجم الذهبي · وحكى القاموس فتح الراء في(البرند) وأورد الجواليقي أصله الفارسي (ص/٧) على هذا ·

قال المحقق : قولهم (البرطلة) نبطيةأرادوا بها سريانية ، وهي مركبة من(بر) بمعنى (ابن) و (طُلا) بمعنى الظل ،فكأنالمعنى كله (ابن الظل) · وقد أشار الىهذا اللغويون العرب أيضاً · وما زالت في شمالالعراق بليدة تعرف (برطُلة) يسكنها النصارى ·

ـ أقول : جاء في المعرب (٦٨و٣٣٥):(البرطُلّة) بفتح الباء وسكون الراء وضم الطاء وتشديد اللام المفتوحة ، وكذلك جاءفي الجمهرة (٣٧٥/٢ و ٣ / ٣٠٧) · على أنها أثبتت بضم الباء في اللسان والقاموسوالمعيار ، وخففت اللام في اللسان وشددتفي المعيار ، وجاء بها القاموس بالتشديدوالتخفيف ، وأورد ابن بري اللفظ بضم الباء وتشديد اللام (باب العين ـ العُرطبَّةوالبرطُلّة) ·

وقد ذهب ابن دريد الى أن (البرطلة)كلمة نبطية ، وحكي عن أبي حاتم عن الأصمعي أن (بر) بمعنى (ابن) وأنالنبطيجعلون الظاء طاء كأنهم أرادوا بالكلمة(ابن الظل) ، وقال (ألا تراهم يقولون الناطوروانما هو الناظور) · وحكى ذلك عنهصاحب المعرب (٦٨ و ٣٣٥) · والبُرطلّة :المظلة الصيفية ، والناظور : **الأمين** ·

وقد فات المحقق أن النبطية غير السريانية · فالنبطية كما يقول (نولدكه) في كتاب (اللغات السامية) هي الارامية الغربية القديمة ، وجاء نحو من ذلك في كتاب اللغات السامية للدكتور اسرائيل ولفنسون ، وفي كتاب فقه اللغة للدكتور علي عبدالواحد وافي· وكان النبط عرباً كما يقول نولدكه ، وهم عند بعض الباحثين أقرب الى قريش والى القبائل الحجازية التي أدركت الاسلام من العرب الجنوبيين أنفسهم · قلت هذا ما حمل بعض الأئمة على أن يقولوا بعربية البرطلة والناطور ·

أما السريانية فهي من اللهجات الآرامية الشرقية ، لا الغربية · قال ولفنسون : (وأما المنطقة الثالثة للهجات الكتلة الارامية الشرقية فتعرف باللهجة السريانية ، وكان مركزها مدينة أودسًا ·· واسمها بالسريانية أورهي··· وعرفت عند العرب باسم الرهاء ثم حرّف اسمها في القرن الخامس عشر الى أورفا ، وهو اسمها الى يومنا ١٤٥) · ونحو من ذلك ما جاء في فقه اللغة للدكتور وافي(٤٦) ، وفي الآداب السامية لمحمد عطية الأبراشي (٤٦) ، خلافاً لما زعمه المحقق ·

٣ ــ أقول : فات المحقق أن يتبين الأصل الصحيح لكلام ابن بري · فقد جاء ابن بري بـ (البرطلة) بضم الباء وتشديد اللام وزان (العرطبة) كما في باب العين من الكتاب · وجاء هنا ليقول أن التاء قد تحذف منها فاذا حذفت جاز التخفيف في اللام · فصواب كلامه (بُرطل وبُرطلّ) بضم الباء فيهما ، وتخفيف اللام في الأول وتشديدها في الثاني · قال الجوهري في الصحاح (والبرطل بالضم قلنسوة ، وربما شدد) وكذلك هو في حواشي مخطوط المعرب (٩٠١٢) ·

٤ ــ أقول : فات المحقق أن يصحح خطأ وقع في النص · فقد جاء فيه (قال أبو زيد: يقال البرطلّة الحارس : السرقفانة) والصواب (·· يقال برطلة الحارس : السرقفانة) ، وهو واضح ·

٥ ــ أقول : ثمة خلاف حول (السرقفانة) بقاف ففاء · فقد أشار ابن بري الى أنها (مظلة الحارس) · وصحح الدكتور الضامن فقال انها (سرففانه) بفاء ففين كما جاءت في كتاب العشرات لأبي عمر الزاهد (٨٦) · وفصّل فجعل (سر) بمعنى رأس بالفارسية و (ففانه) بمعنى الخيمة · وقد تبين لي بالبحث أنه ليس في معجماتنا العربية (سرقفانة) بقاف ففاء ، وكل ما جاء (سرفقان) بفاء فقاف ، وهو اسم لقرية بسرخس ، كما في معجم البلدان ، وهو غير ما عناه ابن بري على كل حال · ولم أعثر على (السرقفانه) بقاف ففاء في المعجمات الفارسية ، بل لم أعثر على (سرففانه) التي حكاها الضامن في معجم عربي أو فارسي أيضاً · وليس في الفارسية (ففانه) اسماً للخيمة ، بل قيل (فازه) كما في المعجم الذهبي اسم للخيمة · فاذا صح هذا كان رأس الخيمة (سرفازه) · أما (المظلة) فقد جاء في (السامي / ٤١٦ و ٤١٩) أنها بالفارسية (سايبان) · وجاء في المعجم الذهبي : (سايبان مظلة كبيرة تقي العظماء من أشعة الشمس وأنه عرب الى

(سيبانة) • فاذا صح هذا كان رأس المظلة(سرسيبانة) ، فهل قصد ابن بري هذا اللفظ أو لفظاً معرباً شبيهاً به ففدا بالتحريف الى(سرقفانه) أو (سرقبانه) كما جاء في الأصل •

٦ ـ **قال المحقق :** وقال ابن الأعرابي :الشرعامة ، وهو يشير الى الرجز ، انها المرأة، وهذا نظير الرجز المنسوب الى علي ــ رضيَ اللهُ عنه ــ وهو :

أفلح مـن كانت لـه قوصرّه يأكـل منهـا كـل يـوم مرّة

انظر اللسان (قصر) •

ــ **أقول :** فات المحقق أن يوضح ما الذييريد بقوله (وهذا نظير الرجز المنسوب الى علي رضي الله عنه) • وبيان ذلك أن ابن بريقد ذكر (الشرعامة) بكسر فسكون وقال انها مظلة الناطور واستشهـد بقول الراجز •(أفلح من كانت له ثر عامة ••) وذكر ابن الأعرابي (الشرعامة) وقال انها المرأةواستشهدبالرجز نفسه ، كما في اللسان • وتأويل ذلك أن الشرعامة هي المظلة ويكنى بها عن المرأةأو الزوجة لأنها مظلة الرجل ، وكذلك (القوصرة) بتشديد الراء وقد تخفف ، فهيوعاء من القصب يحفظ فيه التمر ويكنىبها عن المرأة أيضاً • قال ابن الاعرابي (العربتكنيعنالمرأةبالقارورة والقوصرة)وقال ابن بري(وهذا الرجزينسب الى علي عليهالسلام،وقالوا أرادبالقوصرة المرأة، وبالأكلالنكاح)، وكلامي هذا على القوصرة حكاه محققالمعرب(٢٧٧) عن الجمهرة واللسان •

وجاء في الكتاب (ص / ٤٧ و ٤٨) :

قال أبو منصور : و (بَبَّان) كلمة ليست بعربية محضة • وروى زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر ، رضي الله عنه ، أنه قال:ان عشت الى ما قابل لألحقنَّ آخر الناس بأولهم حتى يكونوا ببّاناً واحداً(١) •

قال ابن بري : قال أبو سعيد الضرير :ليس في كلام العرب (ببّـان) وانما هـو (تبّان) بالتاء المعجمة باثنتين أعلاها ، منقولهم (هبّان تبّان) الذي (لا) يُعرف(٢) والمعنى : لأسوّينّ بينهم في العطـاء حتـىيكونوا شيئاً واحداً ، لا فضل لأحد علىغيره•

وقال الأزهري : وليس هذا كما ظَنَّ ،فان هذا حديث مشهور رواه أهل الاتقان ، وكأنه لغة يمانية •(٣)

وقال أبو منصور :(٤) (ببّان) علىوزن (فَعلان) ويقال على وزن (فعّـال) والنون أصلية(٥) ولا يصرّف منه فعل ،وهو(البأج) في المعنى : واحد(٦) •

قال ابن بري : وبَبَّان عند أبي علي(فعلان) لا غير(٧) ، لأن تركيب الكلمة من حرفين أولى من تركيبها من حرف واحد • اذ إن ذاك نادر عزيز • وان باب (دّدن) و (لولب)(٨) أيسر من باب (ببّ) •

١ ـ **قال المحقق** : جاء في اللسان (ببن): قال أبو عبيد : قال ابن مهديّ : يعني شيئاً واحداً ، ولا أحسب الكلمة عربيـــة ، ولم أسمعها الا في هذا الحديث ٠

ـ **أقول** : ما نود بيانه أن الأزهري قدأكد في تهذيبه (بب) لفظ (ببان) فيحديث عمر لثبوته وشهرته ٠ وقد جاء الحديث في مظان كثيرة ، كما جاء في التهذيب والصحاح وكتاب (ليس) لابن خالويه ، والنهاية ، والمزهر ، واللسان ، وسواها ٠ وفيه (ببان) بباء مفتوحة بعدها باء مشددة ، ولو اختلف نص الحديث ٠ قال الجوهري في الصحاح (ويقال هم ببَّان واحد ، كما يقال : باجواحد) ٠ وأردف (قال عمر ، رضي الله عنه، ان شئت سأجعل الناس ببَّاناً واحداً٠٠وهذاالحرف هكذا سمع عنهم) ثم قال : (وأناس يجعلونه مـن هيَّان بن بيَّــان ، ومـا أراه محفوظاً عن العرب) ٠

وحكى الأزهري عن أبي عبيد قوله (لا أحسب هذه الكلمة ـ أي ببان ـ عربية) وقال : (وكأنها لغة يمانية ولم تفش في كلام معدّ ، وهـو والباج ، بمعنى واحـد) ٠ وهكذا يكاد يجمع الأئمة على أن (ببانا) في الحديث صحيح ، مسموع عن العرب ٠

وخالف أبوسعيد الضرير ، على ما جاء في النهاية واللسان وسواهما ، فقال (ليس في كلام العرب ـ ببان ـ والصحيح عندنـا بيَّاناًواحداً) بياء مشددة ٠ وفي شفاء الغليل (وانما هو بيَّان بياء مثناة تحتية من قولهم هيان بن بيان) حكاية عن الضرير ٠ ولكن ما أصل (ببان) هذه ٠ حكى الأزهري عن أبي عبيد : (لا أحسب هذه الكلمة عربيـة وكأنها لغة يمانية ٠٠) والذي يتجه لي أن جمود اللفظ وعدم تصرفه قرينة من قرائن عجمته ٠ أما نسبة اللفظ الى اليمانية واليمانية لهجات عربية جنوبيـــة كلهجة المعينيـــين والسبئيين والحميريين ، وقد اندثر بعضها قبل الاسلام ، وبقيت منها بقية بعده ، أقول ان نسبة اللفظ الى اليمانية لا يستلزم بالضرورة أن يكون يمانياً ، فقد غزت الحجازية الفاظ قيل انها يمانية فثبت أنها حبشية الأصل ، كما جاء بـــه الأستاذ عبدالمجيد عابدين في كتابه (بين الحبشـة والعرب) ، لاختلاط اليمانيين بالأحباش ٠ وقد تكون حيناً فارسية لأن اليمانيين خالطوا الفرس فتأشبت لغتهم ٠ ومن ثم استبعد الأئمة في (تقعيد) اللغـة الفصحى (اليمانية) عامـة ، كما تجنبـوا (أزد شنودة وأزد عمان) خاصة ، فهل تكون (ببان) فارسية الأصل ؟

أقول : لم أر من ذكر ذلك ، لكني بحثت اللفظ في المعجم الذهبي فالفيت (پاپا) بباءين فارسيتين مفتوحتين بينهما باء خالصة مكسورة ، ومعناه (قدم بقدم ، ومســاو ، ومطابق النعل للنعل) ، فذكرت مـا يقول العرب في المماثلة بين شيئين وهـو (حذوت النعل بالنعل) أي جعلتها مماثلة لها ٠ أفلا يوحي هذا بأن (ببانا) من (پاپا) الفارسي ٠

٢ ـ **قال المحقق** : كذا ورد قول الضرير في الأصل ، وأما في اللسان (ببن) فقد جاء وقال أبو سعيد الضرير ليس في كلام العرب ـ ببَّان ـ قال والصحيـح عندنـا ـ بيَّاناً واحداً ٠ قال والعرب اذا ذكرت من لا يُعرف قالوا: هذا هيَّان بن بيَّان ، ومعنى الحديث..

ـ أقول لولا ما جاء في الأصـل مـن ضبط (تبان) في قوله بالتاء المعجمة باثنتين أعلاها) لآثرت ما ورد في اللسان . وقدسقط(لا) من الأصل فأثبتها محصورة بينقوسين .

ـ **أقول** : فات المحقق أن يصحح الأصلالمشوه . فقد جاء فيه (وانما هو تبان بالتاء المعجمة باثنتين أعلاها من قولهم هيـان بنتبان الذي لا يعرف) وصوابه . (وانما هو بيان بياء تحتية من قولهم هيان بن بيان للذيلا يُعرف) . اذ لا سند البتة لقوله (تبان) بالتاء ، أو قوله (هيان بن تبان) . والذيجاء في حواشي المخطوط (٩٠١٢) : (وانما هو بيان بالياء من قولهم هيان بن بيان لمنلا يعرف) . وناسخ الأصل لم يحرف هـذا وحسب فقد جاء في الأصل (الذي يُعرف)وصوابه (للذي لا يُعرف) .

فانظر الى ما جاء في شفاء الغليل (...وانما هو بيان بمثناة تحتية من قولهم هيانبن بيان للذي لا يعرف) . وقد حرف الناسخما جاء بعد ذلك كما سنراه .

وقد جاء (هيان بن بيان) بياء مشددةفيهما و (هي بن بي) بياء مشددة فيهما ، في الصحاح ، وفي موضعين من الجمهرة (١/٣٨ و ١/١٢٤) ، وفي (السامـي/١١٤) للميداني النيسابوري ، وسواها من المظان ،ولم أر من أورد (هيان بن تبان) قط .

٣ ـ قال المحقق : ذكر الأزهري ذلك فيالتهذيب (بين) .

ـ قال الدكتور الضامن : لم يرجع الأستاذ المحقق الى التهذيب . اذ رأى لفظة(بيان) قد جاءت مع حديث عمر ، رضي الله عنه ،فياللسان (بين) ، فتوهم انها في تهذيباللغة للازهري في مادة (بين) أيضاً . والصوابأنها جاءت في مادة (بب) في أول باب اللفيف من حرف الباء (١٥/٥٨٢ ـ ٥٩٣) ،وهيفي مادة (بب) في كتاب العين أيضاً (٨/٤١٥)، والأزهري سار على طريقة الخليل .

والقول ما قال : ويؤكد ما جاء في التهذيب أن الصحيح فيما حكاه ابن بري من كلام أبي سعيد الضرير هو (ليس في كلام العرببيان وانما هو بيان) بالياء ، لا (تبـان) بالتاء ، وأن (هيان بن بيان) هو الصواب ،لا (هيان بن تبان) .

٤ ـ أقول : فات المحقق أن في نسختيالمعرب المطبوعتين :

(وقال الليث : بيّان) ، وكذلك فيمخطوط المعرب (٩٠١٢) وقد سقط مـن الأصل (وقال الليث :) ولا بد من اثباته .

٥ ـ أقول : اختلف الأئمة في بناء (بيان) فذهب الليث الى جـواز أن يكون علـى (فعلان) أو (فعّال) . فاذا كان الأول كانمن (بب) بباءين ثانيهما مشددة والنون زائدة . أو كان الثانـي كان مـن (بين)والنون أصلية ، وأوجب أبو علي أن يكون (فعالاً) . و (فعلان) ألصق بأصلهالفارسي اذا اعتد هـذا الأصـل وصح ما ذكرناه في الحاشية الأولى من أنه (بابيا) .

٦ ـ أقول : تابع المحقق المعرّب المطبوع (١٩٤٢) فاثبت ما جاء فيه وهو (وهو البأج في المعنى واحد) والصواب ما جاء فيالأصل (وهو والبأجفي المعنىواحد) .فحذف

(الواو) بين (هو) و (البأج) ، ولا بد من اثباتها · والذي في المعرب المطبوع (١٨٦٧) مطابق للأصل الصحيح ، وهو كذلك في مخطوط المعرب (٩٠١٢) ·

أما ما جاء حول (البأج) فقد قال المعرب (والبأج أيضاً أعجمي · تقول : اجعله باجاً واحداً ، أي شيئاً واحداً ، وأول من تكلم بهذه الكلمة عثمان بن عفان) ·

ـ **أقول :** جاء (الباج) معرباً بمعنيين: الأول الاتاوة أو المكس ، كما جاء في شفاء الغليل ، وفي الألفاظ الفارسية لأدي شير ، وأصله الفارسي (باز) بزاي فارسية ، وهو في المعجم الفارسي (باج) بجيم ·

والمعنى الثاني هو الضرب الواحد · قال الجوهري (قولهم اجعل الباجات باجاً وحداً أي ضرباً واحداً ولوناً واحداً ، يهمز ولا يهمز ، معرب · وأصله بالفارسية ـ باها ـ أي ألوان الأطعمة ، وأصله عند أدي شير ـ باها ـ أيضاً ·

وقد جاء في التاج (الباج ··· التبان بالتاء) وهو محرّف · فالباج هو البيان لا التبان · فالتبان من السراويلات ما يستر العورة المغلظة ، وهو بضم التاء وتشديد الباء ·

وجاء في التاج بعد ما ذكر (وحكى المطرزي عن الفراء أن العرب تقول : اجعل الأمر باجاً واحداً واجعله بياناً واحداً ·) · وقد عدت الى نسخة التاج الجديدة المطبوعة في امارة الكويت فالفيت فيها (الباج : البيان) ، وقال محقق التاج (ذكرت في اللسان محرفة : التبان بالتاء ، والصواب كالمثبت في الأصل) والقول ما قال ·

٧ ـ **أقول: فات المحقق أن يتدارك خطأ واضحاً وقع في الأصل ·** اذ جاء فيه (وبيان عند أبي علي فعلان لا غير ، لأن تركيب الكلمة من حرفين أولى من تركيبها من حرف واحد) والصواب (وبيان عند أبي علي فعّال) لا (فعلان) · ذلك أنه اذا اشتقت (بيان) من حرفين ، وهو الوجه المختار عند أبي علي ، كانت من (بين) والنون أصلية والوزن (فعّال) · والوجه غير المختار أن يشتق من حرف واحد أي من (بب) فتكون النون في (بيان) زائدة والوزن (فعلان) · وقد اعتل لذلك فقال : ان (بب) نادر عزيز وأن باب (بين) كـ (ددن) و (لولب) أيسر منه ·

٨ ـ **قال المحقق :** لعله (كوكب) فكثيراً ما أهمل الناسخ رسم عصا الكاف ·

ـ **أقول :** الذي جاء في حواشي مخطوط المعرب (٩٠١٢) هو (ددن وكوكب) وقد اعتاد الأئمة أن يمثلوا بهما على مجيء الفاء والعين في الكلمة حرفاً واحداً · ففي المزهر (ط ١٣٢٥ هـ ٢/٤٥) : (لا يجوز أن يكون فاء الفعل وعينه حرفاً واحداً في شيء من كلام العرب الا أن يفصل بينهما فاصل مثل :كوكب وقيقب · فأما ببة فلقب كأنها حكاية · وزعم الخليل أن ـ ددا ـ حكاية لصوت اللعب واللهو ، ذكر ذلك ابن درستويه في شرح الفصيح · وقال المرزوقي : لم يجيء من ذلك بلا فاصل الا قولهم : دَد ، ودَدَن) ·

ـ **للبحث صلة** ـ

من شعر
الشيخ السيّد عبد الحميد الزّهراوي

١٢٨٨ - ١٣٣٤هـ = ١٨٧١ - ١٩١٦م

جمعها وقدم لهـا :
عبد الإله نبهان

إن آثار الشيخ السيـد عبدالحميد الزهراوي تعد من تراثنا القومي الأصيل ، لا لبعدها الزمني ، ولكـن لمكانة صاحبهـا في تاريخنا القومي . وهذه الآثار على قرب الزمن بها ضاع معظمها ، وما لم يضع فهو في حكم النادر ، اذ نشر آنذاك في مجلات وكتب من الصعب الوصول اليها الآن أو الاهتداء الى ما فيها . وحبذا لو سنحت لنـا الأيام لننشر ما لم ينشر من تراث الشيخ في كتـاب يكمّل ويتمّم ما نشره المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بعنوان « الارث الفكري للمصلح الاجتماعـي عبدالحميـد الزهراوي » (١) وما ننشره اليوم في مجلة التراث هو اسهام متواضع في هذا السبيل .

كنا نشرنا في العدد المزدوج ١٥ ــ ١٦ من مجلة التراث العربي ما عثرنا عليه من شعر الشهيد السيد عبدالحميد الزهراوي ،وأشرنا في تقديمنا لتلك القصائد الى أننـا وجدنا حواراً شعرياً بين الشهيد وبين شيخه مصطفى الترك ــ رحمهما الله ــ وقلت آنذاك: « وأرجو أن أدفعه الى النشر عندما أتمكن من قراءته » وفعلا فقد تمكنت من قراءتـه ، ودفـع اليّ أخي الفاضـل الأستـاذ خالـد الزهراوي(٢) صورة عن نسخة أخرى لهـذا الحوار وجدها في أوراق المرحوم الدكتور مختار بن اسماعيل الزهراوي(٣) . وبمقارنة النسختين حصلنا على نص للمحاورة هو أقرب الى التمام ، ووجدت على ظهر المحاورة أبياتاً للشيخ الزهراوي قرظ بها كتاباً لشيخـه الترك وأبياتاً أخرى أجابه بها الترك . كما أنني تذكرت قصيدة للشيـخ قالهـا في رثاء الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده . فجمعت هذا الشعر بعضه الى بعض ليكـون امتداداً واتماماً لما نشرناه سابقاً . وقبل أن أقدم للمحاورة لا بد من التريث قليلا للتعريف بالشيخ مصطفى الترك لأن كتب التراجـم المطبوعة لم تذكر عنه شيئاً فيما أعلم .

الشيخ مصطفى الترك :

لم أجد له ترجمة وافية ، كما أنني لم أعثر على تاريخ ولادته ولا وفاته ، وقد ترجم له المرحوم عبدالهادي الوفائي(٤) في كتابه الموسوم ب « التاريخ الحمصي »(٥) وخلاصة ما ذكره أن الشيخ هو مصطفى بن أحمد الترك ، وأصلهم من ازميد الخشب بجوار الآستانة ، وكان والده قد حضر محارباً لابراهيم باشا(٦) مع عسكر السلطان عبدالمجيد(٧)، وبعد خروج ابراهيم باشا توطن أحمد الترك حمص وخلف بها ·

ويذكر الوفائي أن الشيخ كان نظاراً مجادلا ، تبحر في علم الأديان وأخذ يجادل أصحاب الأديان الأخرى ، وكان شاعراً وشعره على طريقة أهل الحقيقة ، وقد أخذ الطريقة على الشيخ علي اليشرطي(٨) · ويبدو أنه قضى حياته في التعليم اذ يفهم من مقدمة الحوار ومما كتبه الوفائي ومما كُتب في ترجمة السيد الزهراوي(٩) أن الرجل كان شيخ مكتب يعلم الأولاد مبادىء القراءة والحساب والخط واللغة التركية في (جامع المبلط) ·

وكنت منذ سنوات رأيت كناشة(١٠) قديمة عند الشيخ محمد خرسان(١١) ، طلبتها منه فأعارنيها ، فوجدت فيها مجموعة لا بأس بها من شعر الشيخ مصطفى الترك فنسختها ، وما عثرنا عليه من شعره يشير الى أن الشيخ كان من أصحاب الحقيقة والطريقة ، وانه كان يسير على نمط شعراء الصوفية في صياغة شعرهم ويستمد أفكاره من كتب الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي(١٢) ومن مؤلفات الشيخ عبدالغني النابلسي (١٣) ، وتراه يشطر أبياتاً لرابعة العدوية(١٤) أو للحلاج(١٥) ويخمس أبياتاً لآخرين ·· وتتجلى فكرتا وحدة الوجود(١٦) والحقيقة المحمدية(١٧) واضحتين في شعره على نحو سافر ومن ذلك قوله :

ان الوجود وان تعدد ظاهراً	صور تلوح وبعد ذلك تعدم
نادى بـه المعنى الذي هو واحد	وحياتكم ما فيـه الا أنتم
أنتم حقيقة كل موجود بدا	في نكتة المرآة سر معلم
قد أعربت ما ثم غير وجودكم	ووجود هـذي الكائنات توهم

وقوله مشطراً أبيات أحدهم :

وما مصدر الأشياء الا محمد	فكل مليح من سناه سطور
تطاول بالاعجاز مدح جنابـه	وناهيك ، طول المدح فيه قصور
بدائرة التكوين نور جماله	لأعياننا فيض الوجود يعير
وفي حضرة الامكان جمع مقامه	عليه جميع الكائنات تدير

يتحصل لدينا أن الشيخ مصطفى كان شيخاً متصوفاً يحصّل معيشته من تعليم الناشئة ، ويدل شعره الذي عثرنا على بعضه على أن له باعاً في النظم على طريقة أهل التصوف ، وفي هذا ما يلقي ضوءاً على المحاورة التي سيرد ذكرها ·

القصيدة رقم (١)

المحـاورة :

جرت المحاورة الشعرية (كتابة) بين الشيخ الزهراوي وعمره آنذاك خوالي عشرين عاماً(١٨) وبين شيخه الترك ، وتدور أفكارها حول قضايا فلسفية وتعالج من وجهة نظر صوفية : الوجود ، الحقيقة المطلقة ، الحقائق الكهفية ، المقارنة بين الوجود الزائل والخلود الدائم ، عالم الظواهر وعالم البواطن ... وعلى الرغم من روعة هذه الموضوعات فان أسلوب الشيخين في طرقها كان مقيداً بقيود العصر مصاباً بعلله ، ولا أحب أن أستفيض في حديث نقدي عن الركاكة وأسبابها وعللها اذ لكل مقام مقال ، ويكفي هنا أن أقدم المحاورة وقد ذيلت بشرح بعض ألفاظهـا الاصطلاحية بقلم ناظميها .

نسختا المحاورة :

أ ـ النسخة الأولى : وهي نسخة كتبت بالقلم الرصاص واهترأت مواضع متها ، وقد عثرت عليها بين أوراق الشيخ أحمد نبهان(١٩) ، وذكر ناسخها في آخرها أنهـا نقلت عن نسخة بقلم ناظميها كما أثبتنا ذلك في آخرها وقد كتب على ظهرها أبيات أخرى للشيخ الزهراوي قرظ بها كتاباً لشيخـه الترك مع جواب الترك على تقريظ تلميذه .

ب ـ النسخة الثانية :

كتبت في ٢٣ تموز سنة ١٩٢٨ ،كتبها عبدالرحمن ؟ ولم تشتمـل علـى شـرح الاصطلاحات التي اشتملت عليها النسخـة الأولى ، وخطها واضح مقروء اعتراها نقص في بعض جوانبها .

وقد تممت النسختان احداهما الأخرى وان كانت الأولى أجود وأكمل .

القصيدة رقم (٢) :

وهي مقطوعة شعرية قرظ بها الشيخ الزهراوي كتاباً لشيخه الترك ، وأسلـوب التقريظ كان متعارفاً عليه تلك الأيام وشائعاً في مجلات ذلك العصر وصحفه وكتبه . وقـد أعجب الشيخ الترك بتقريظ السيد الزهراوي لكتابه فاجابه مادحاً اياه على وزن أبياتـه ورويها .

القصيدة رقم (٣)

وهي القصيدة التي أرسلها الى صديقه العلامة محمد رشيد رضا (٢٠) للتعزية بالأستاذ الامام محمد عبده(٢١) ، وقدم لها برسالة عبر فيها عن بالغ حزنه ، وقد فصل السيد محمد رشيد رضا بين الرسالة والقصيدة في الجزء الثالث من تاريخ الأستاذ الامام(٢٢)، فنشر القصيدة في باب الشعر ، وجعل الرسالة المشفوعة بها القصيدة في باب النثر ،فجمعنا شملها لأن السيد الزهراوي كان كتبهما معاً . وتتجلى قيمة هذه القصيدة في كونها تفصح

عن توجهات السيد الزهراوي الاصلاحية ،وتظهر روابطه السياسية بمدرسة الاصلاح بمصر ، كما تعبر عن تذمره وشعوره بالمرارة من الاستبداد الضارب أطنابه آنذاك ، حتى أن كثيراً من الرسائل والقصائد التي أرسلها أصحابها من سورية للتعزية بالأستاذ الامام نشرت بتوقيع رمزي بالأحرف الأولى خوفاً من بطش العثمانيين ، وهذا هو السبب الذي جعل السيد الزهراوي في تقديمه للقصيدة يذكر قضية التوقيع ويحبذ أن تنشر بتوقيعه الصريح .

واليك النصوص كما وجدناها بمقدماتها التي كتبها ناسخوها :

القصيدة رقم (١) :

هذه محاورة شعرية جرت بين العالمين الفاضلين الشيخ مصطفى الترك والسيد عبدالحميد أفندي الزهراوي رحمهما الله وطيب ثراهما .

ان أسباب هذه المحاورة الشعرية وهو أن أخا الى السيد عبدالحميد أفندي اسمه « رضا » كان في المكتب عند الأستاذ الشيخ مصطفى الترك يدرس القراءة والكتابة وذلك سنة ١٣٠٩ هجرية وقد رأى في بعض الأيام ورقة بيده مكتوب فيها ثلاثة أبيات فقرأها وقال له : من أين لك هذه الأبيات ؟ أجاب : ان أخي عبدالحميد نظمها وكتبها لي وهذه هي :

١ ــ بالطيب دولة هذا الروض قائمة ... ما دام عسكرها للأرض منبسطا

٢ ــ للزهر ديباجة خضراء طرزها ... كف السما بلآلىء القطر مثل غطا

٣ ــ فامرح بمرج بساط الدوح في طرب ... واسمع غناء هزار الروض منبسطا

فأجابه الأستاذ الشيخ مصطفى محاوراً:

٤ ــ ذا نزهة النفس فيما الطين أنبته ... وما له الطير للأسماع قد بسطا ؟

٥ ــ ونزهة الروح قرب الحب يكشفه ... نور الوجود الذي في العقل ما انضبطا

فأجابه السيد عبدالحميد محاوراً :

٦ ــ أما العقول فثم الصنع ملمحها ... جل الذي صبغ الأزهار رب عطا

٧ ــ حققْ ترى غاية الموجود معرفة ... للذات بالذات في مثل التي ارتبطا

٨ ــ هل ثم غير السنا بانت مظاهره ... ما ثم الا الثنا للحق اذ شرطا

فأجابه الأستاذ الشيخ مصطفى محاوراً:

٩ ــ العقل شتى فمنه جوهر رفعت ... عنه الستور وعنه زال كشف غطا

١٠ــ فهو الذي فيه شمس الحق طالعة ... من برج مظهره فارتاح وانبسطا

١١ ـ وما أردنا شؤوناً بالوجود ولا | تلك الوجود بحق من يقل غلطا
١٢ـ ولا عنينا بهذا الكشف درك جحا | والكشف ليس بدرك فاحذر الغلطا
١٣ـ ومنه عقل بقيد النفس قد علقت | قواه حيث غداً بالكون مرتبطا
١٤ـ حتى راه دليلا للوجود فان | طاح الدليل نرى المدلول قد سقطا
١٥ـ « حقق ترى غاية الموجود معرفة | للذات بالذات في مثل التي ارتبطا
١٦ـ قد صح عندي ولكن قد أتى خبر | حتى أكون له سمعاً كذاك خطا
١٧ـ لا بد من غيبة في الحب آخذة | منه الوجود الذي للعقل قد ضبطا
١٨ـ ورجعة بعدها للصنع يعرفها | من سار عن عقله بالحب مرتبطا
١٩ـ جمع وفرق غدا في عين مشهده | والأمر حق وخلق كيفما اختلطا
٢٠ـ ذاك الذي قلبه عن سر باطنه | قد قال قولا سديداً لم يكن شططا
٢١ـ « هل ثم غير السنا بانت مظاهره | ما ثم الا الثنا للحق اذ شرطا »
٢٢ـ أعني بذا ليس الا الأمر تلمحه | كمثل برق وعنه الكل قد هبطا

فأجابه السيد عبد الحميد :

٢٣ـ نعم نمجده باسم البطون وهل | نعني السوى غيره ، تا لله ذاك حظا
٢٤ـ هذا الوجود شؤون في الورى بطنت | ومن رآها كيفما اشترطا
٢٥ـ أما المحبون فالأحوال واحدة | أما المقام فكل في البها اغتبطا(٢٣)
٢٦ـ وبالمقام غدت شتى مواقفهم | وقت اجتلاء تجلى الحق فيض عطا
٢٧ـ واننا لعلى معراج تلبية | اياك نقصد والأسرار ذات مطا
٢٨ـ وتلكم درجات طالما صعدت | وقد رقى من بنى من فوقها خططا
٢٩ـ بالقرب والقوم شتى في مشاربهم | لكن أحسنهم من قال اذ شرطا
٣٠ـ « لا بد من غيبة في الحب آخذة | منه الوجود الذي للعقل قد ضبطا
٣١ـ ورجعة بعدها للصنع يعرفها | من سار عن عقله بالحب مرتبطاً

فأجابه الشيخ مصطفى :

٣٢ـ يا حسن بهجة ما قد صغت من درر | تزري بخود تحلت للبها قرطا
٣٣ـ حمدته لبطون صح ذاك وهل | الا لكون خفاه الحق مغتبطا

٣٤ـ أضحى لساناً لروح في الورى نفحت عن أمر خالقها فضلا فنعم عطـا
٣٥ـ ان السوى كله دعوى الوجود لـه لما على شبكة الأشباح قد سقطـا
٣٦ـ وصار يرتع في المحسوس واحتجبت معاهد الروح واعتاض الصواب خطا
٣٧ـ فان زكى برجوع نحو موطنـه وحبة الحب من فخ الهوى التقطـا
٣٨ـ أضحى لنور جمال الحق مظهره مرآة حق توشت حسنـه نقطـا
٣٩ـ هذا لنا كان فتحاً عن أئمتنا أهل الهداية ما خلنا بهم شططا
٤٠ـ لوحت بالحق أبقـاك الاله فتى ترى المعالي أتت سعياً بغير خطـا
٤١ـ وبت تشرب أقداح الصفا جرعـاً ولا رأيت لسعي رمتـه فرطـا

فأجابه السيد عبدالحميد :

٤٢ـ بشرى ولا نفدت أوراد هديكـم وواردات مفاض الرشد اذ بسطـا
٤٣ـ حسب الحقير كنوز مـن رضا سند قد خط في صحف للصفح سطر غطا
٤٤ـ واذ علا نـوره مـرآة خاطـره فمثله قد تراءى وصف مـن هبطا
٤٥ـ أو أن زاوية الافضال قد فرجت ومثلها يسع التقصير ما ضبطا
٤٦ـ وتلـك زاويـة في بحر معدنـه ألم تر الدر من أعماقـه التقطـا
٤٧ـ قطر همى من سما تلك المعارف قل قد جمدتـه نسيم الروح فالتقطـا
٤٨ـ وأصله قبضة مـن سحب معرفـة منـه اليه بـه ذاك المفيض عطـا
٤٩ـ عبارة الكنـه قد جلت مداركهـا مسافر العقل في ادراكهـا خبطـا
٥٠ـ وجملة الفهم للحسنـى مفذلكـة ومـن رأى ترجمان العين قد لقطا
٥١ـ أولئـك الشهـدا عقبى مجاهـدة نعم البقا بحضور واذكر البسطـا
٥٢ـ أجلهـم عمدة الأشياخ عارفهـم المصطفى لمجـال تفرش البسطـا
٥٣ـ العارف الغارف العرفان مـن منن من كان في علم حق أمـة وسطـا

انتهت هذه المحاورة الشعرية أبيات (٥٣) نقلا عن نسخة بقلم ناظميها رحمهما الله وطيب ثراهما ٠

بشرى = دعاؤكم ٠ يسع التقصير = حال كونه ٠ قطر = هو الدر ٠ خبطا = ولم يصل ٠ للحسنى = الأسماء ٠ مفذلكة :بدون اكتناه بدو شؤونها ٠ ترجمان العين = اليقين

لقطا نقطة الصواب . البسطا = جمع بسيط أي المسماح متهلل الوجه . البسطا = جمع بساط المعروف والمراد مجالي التجليات وهي ارادة ذلك .

انتهى هذا الشرح نقلا عن قلم الناظم السيد عبدالحميد رحمه الله . واليك أيضاً ما كتبه نقلا عن قلمه الى الأستاذ مصطفى الترك يطلب منه بعض أبيات من هذه المحاورة الشعرية لينسخها عنده :

سيدي ، أحسنوا الي بارسال الأبيات التي قدمتهم أول امس حيث لانظيرها منسوخ عندي لأني كتبتها ابتداء ، وصرت ممنونا بالتقاط درركم ، فانا جدير بان أنظمها في عقد الجمع وبوجه التبعية والمناسبة أثبت ما كتبته أيضاً حرصاً على اكتناز لآلىء حقائقياتكم وأطال الله بقاكم .

القصيدة رقم (٢)

ان الأستاذ الشيخ مصطفى الترك قدألف رسالة وسماها « سيف الانتصار على مدعي الجبر بالأقدار » ولما اطلع عليها السيد الفاضل عبدالحميد أفندي الزهراوي قرظها له بخمسة أبيات وذلك في ٢٥ ذي القعدة سنة ١٣٠٩ هـ . وهذه هي الأبيات :

أ ـ اذا جاء نصر الله والفتح بالسيف ... وتبت يدا سمج رمى السمح بالحيف

فسبح بحمد الله ربك واسبحن ... بمدح ذكيّ المجد ذي السبق والنيف

أبو الرشد والارشاد في العصر مصطفى ... مبين صحيح النقش من علة الزيف

فدونك درّاً في النظام وجوهراً ... يؤلفه في رد أوهام ذي الطيف

لايلاف دين الحق ألفه واذ ... يفرّق شمل الجبر سمّاه بالسيف

ب ـ فأجابه الشيخ مصطفى رحمهما الله:

خبايا زوايا من قريحة ماجد ... أتتنا لتقريظ هي الورد بالقطف

أرتنا محيا الاقتباس مقنّعاً ... بتورية الآيات من شدة اللطف

معاليك يا عبدالحميد تطاولت ... ومن شاوها مسبقاً تقاصرها كفّي

قصارى ثنائي ان تعرضت مادحا ... مزاياكم والفضل بين الورى كفّي(١)

فسبحان من آواك كهفاً من التقى ... وما زلت بالرحمن ترقى مع الصف

انتهى نقلا عن قلم الناظم الشيخ مصطفى الترك طيب الله ثراه (كفي) هكذا وجدتها بخط الناظم رحمه الله (٣٤) .

القصيدة رقم (٣)

أ ـ الرسالة ـ

وكتب العالم الضليع والكاتب البليغ السيد الشيخ عبدالحميد الزهراوي من حمص الى جامع الكتاب(٢٥) ·

عن حمص في ٣ جمادى الثانية ١٣٢٣

الى الولي الحميم الرشيد الحكيم

انا والحزن يساورنا لفي دائرة ضيقة، اذا لمسنا الروح فيها لم نكد نحسه ، فكن لي عاذراً اذا رأيتني قطعت هذه الرسالة المرقومة لأن سبيلها من القلب والفكر والقلم ،وحالة البريد مقطوع ، وطم هذا السيل اذ فاجأتنا تلك الفاجعة العظمى ·

فاجعة لا أجد فيها قولا ، ولا أجد فيها من الهلع حولا ، فمن كلفني البيان فيها كلفني ما لا أطيق ، ولن يجد لدي لطاعته سبيلا · كنا والامام يفيض على الدنيا سواطع أنواره في فسحة من الأمل بانتشار الاصلاح الذي نعشقه ، وفي عزاء عن ضيق دائرتنا بسعة سلطانه ، فما حال رجائنا وقد طارت تلك الروح القدسية الى عالمها الأسنى ؟

نعم ان في قيام الولي الرشيد في هذا الأمر لعزاء لمن كان نظره شاخصاً الى الأرواح دون الأشباح · ولكن ذلك لا يدفع عن الولي ـ أطال الله بقاءه ـ ولا عن سائر الاخوان ألم هذا الفقيد العظيم ، وحسرة هذا الفراق الأليم ، وما حال محب كان يرجو أن يرى طلعة ذلك الحبيب الكريم عما قريب فحال بينهما برزخ المنون ؟ قد والله ملىء الحشا حزناً وان كنت من الصابرين · واني لألتفت يميناً وشمالا فلا أجد الا من هو الجدير أن نعزيه بهذه الخطب · ولكن كيف يعزي المصاب مصاباً · سامحني ـ حفظك الله ـ بابطائي عن تعزيتك فعندي مثل ما عندك في هذا الأمر ، وأنا أخوك في السراء والضراء ، وأخوان آخران هما لكم وارثان معنا هذا الأسف ، ومحافظان على آثار هذا السلف ، عنيت بهما الرفيق الكريم والصديق الحميم(٢٦) ، ولقد تشابه علي الأمر ، فان أدري أبدأ بتعزيتهما أم بمباركة هذا الاخاء ،وتحبيذ هذا اللقاء ، أم بتعزية نفسي لأخذي سهمين أليمين : العام بفقد الامام ،والخاص ببعدي عنكم أيها الأولياء وتعوق هذا الرجاء، أم بتعزية العموم أصابهم من ذلك السهم العام · لأتركن هذا كله الآن فالبيان لايواتيني اليوم ، وأبدأ بأمر واحد غير هذين ، ذلك استمرار الشوق ، ولكن العوائق تترى ونحن اليوم في حال حرج كما أسلفت بيانه ،ولكننا لم نزل في موقفنا من الصبر والأناة والثبات حتى يفل جيش هدانا جيش ضلالهم ، والله مع الصابرين ·

هذا وقد رأيت من الواجبات أن أعلن الأسف لفقد الامام ، لما لمثل ذلك من الفوائد العائدة للاحياء ، ولما أن ذلك بعض ما يجب في مكافأة الاحسان فعمدت الى موحيات الشعر،

وأخذت نصيبي من لدنها كلمات تدل على ما أحس به ، فان لم ترزق رونق الصبغة الشعرية كغيرها فقد أغناها الله بسلامة الضمير الذي أملاها وأعاذها من كلف تلك الزينة التي لا محل لها في هذا المقام • فان رأى الولي رأيي في اضافتها لغيرها (من المقبولات التي سينشرها في دفتر خاص) فذاك والافرأيه الأولى والأعلى ، ولك التفويض بما ترى الأصلح في أمر التوقيع رمزاً أوتصريحاً، ولا رأي لي معك في هذا ، ولكن لي أن أقول ان التصريح أقرب نفعاً في اباء الضيم الذي يسومنا اياه أناس لم يرعوا فينا معنى الانسانية ، ولا أخشى في اباء الضيم من مناقشات الحساب ، ولا أرجو في محادة الأثرة الا دار السلام • اللهم ارزقنا السلام وسلم وبارك على الاخوان الكرام(٢٧) •

ب ـ القصيدة :

وقال العالم الفاضل والكاتب الاجتماعي السيد الشيخ عبدالحميد الزهراوي من علماء حمص (سوريا)(٢٨) •

١ ـ نعى البرق شمس العصر فاستحونت ظلما	وأرعدت الألباب اذ أمطرت غمًا
٢ ـ تواری بحجب الغیب عنا محمد	امام الهدى السامي بحكمته العظمى
٣ ـ وآب يوافي الحق في القدس (عبده)	وغادر هذي الأرض مستخلفا رسما
٤ ـ وكان بهذي الأرض مفردها الذي	بأنواره الحسنى سما قدرها النجما
٥ ـ فياليت شعري كيف يهدأ روعها	وقد ارهق الأقطار هذا النبا صدما
٦ ـ لقد ذاد منه الروح عن فتن هنا	شهود جمال القدس في حضرة ثمًا
٧ ـ فما هو الا في معارج بهجة	وما الأرض الا ثاكل فردها الشهما
٨ ـ وما نحن واجدون لفقده	وان كان حياً عندنا هديه الأنمى
٩ ـ فنذكره فرحى لرفعة شانه	وحسرى لهذا الكلم ، أصعب به كلما
١٠ ـ ونذكره كي نستضيء بعلمه	وأعظم بما أبقى الامام لنا علما

* * *

١١ ـ محمد لا نأسى لفقد سناك بل	سناؤك باق بيننا يكشف الظلما
١٢ ـ ولكنها الآمال بتّ عرى لها	نواك ، وكنا نرتجي الزيد والانما
١٣ ـ ودولة جمع بعد فرق أقمتها	نظمت بها الأقوام في ذا الهدى نظما
١٤ ـ فكان بمصر والشآم وفارس	وفي الهند والأتراك راج لك الدوما
١٥ ـ ولكن لأنواع الظهور مراتب	لها أجل يثني الظهور اذا حمًا

١٦ـ محمد لا نقلى وان قومنا قلــوا … لنا بلظى الانكال واستسهلوا الاثما
١٧ـ لخلفت نور الشرق خير عصابــة … ترى نشر هذا النور مفروضها الحتما
١٨ـ فلبيك لا تاسف وهديــك بيننــا … لأنك لم تجــل الحنــادس للدهما
١٩ـ ورحماك أشرف من علاك عساك أن … ترى أثر النصح الذي ينهض العزما
٢٠ـ وتهنا اذ يبدو لــك الغرس مثمراً … ونورك ما يطفا ونهجك ما يعمــى

★ ★ ★

٢١ـ محمد روح أنت مــن أمر ربنــا … لتبرىء باسم الفاطر العمي والصمّا
٢٢ـ ليبصر من أعمته أوهام مــن خلوا … ويسمع مرء مــن تخبطهــم صمّا
٢٣ـ أتيــت فاديــت الأمانــة رافعــاً … منــار الهدى والحق في دامس عما
٢٤ـ ورحت الى القدس الذي قد نزلتمن … حماه لهــذي الدار تستنزل النعمى
٢٥ـ هنالك زد مجـــداً ، تبارك مسرة … تعاظم بهاء ، طب مجالي ، طب بسما

★ ★ ★

٢٦ـ امــام الهــدى هــذا وداع مفجّع … له مهجــة في حبكم تنكر اللومــا
٢٧ـ تذكــر فيــه النفس يوم مصابهــا … وأعظم به رزءاً وأكبر بــه خطما
٢٨ـ وترفــع فيــه عهدهــا بمحبــة … لحضرة قدس عندها قدرك الأسمى
٢٩ـ وقد تأتسي ذيالنفس والصحبكلهم … بذيالشمساما صادفتفيالضحى غيما
٣٠ـ فبارك وألــق الصبــر رب محمد … علينــا وهبنــا كلنــا رحمــى

★ ★ ★

□ التعليقات :

١ ـ نشر في دمشق عام ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م بجمع وتحقيق الدكتور جودة الركابي والدكتور جميل سلطان ٠
٢ ـ انظر مجلة التراث ، العدد ١٥ ـ ١٦ ص ١٨٤ ـ التعليق رقم ٣ ٠
٣ ـ الدكتور مختار بن اسماعيل الزهراوي ، طبيب نطاسي ولد وتوفي في حمص ١٩٢٧ ـ ١٩٨٣ ٠
٤ ـ عبدالهادي بن عمر الوفائي ١٨٤٣ ـ ١٩٠٩ له مسرحيات « روايات تمثيلية » نظمها بعد أن تتلمذ على المرحوم ابي خليل القباني ٠ له كتاب سماه (التاريخ الحمصي) لا يزال مخطوطا ، وننوي اخراجه بالتعاون مع الأستاذ رياض البدري ـ انظر أعلام الأدب والفن للمرحوم ادهم الجندي ١ : ٤٢ ٠
٥ ـ ارخ فيه لمعاصريه بأسلوب عامي واتسع في ترجمة ابرز رجال التصوف في عهده وذكر اهم المنجزات العمرانية التي قام بها عبدالحميد الدروبي ٠
٦ ـ ابراهيم باشا بن محمد علي باشا ١٧٩٠ ـ ١٨٤٨ قاد حملة على سورية سنة ١٢٤٧ هـ ـ ١٨٣٢ م فاستولى على عكة ودمشق وحمص وحلب ، وهزم جيشاً عثمانياً في الاسكندرونة ٠ وفي سنة ١٢٥٤ هـ ـ ١٨١٩ م تولى السلطان عبدالمجيد فاتفق مع الانكليز على اخراج ابراهيم من سورية ، فانتهى الامر بخروجه وعودته الى مصر ١٢٥٦ هـ ـ ١٨٤٠ م ٠ انظر الأعلام للزركلي ١ : ٦٦ ط ٣ ٠

٧ ـ عبدالمجيد الأول بن محمود ولد عام ١٢٣٧ هـ ـ ١٨٢١م وتولى السلطنة ولما يبلغ الثامنة عشرة عام ١٢٥٥ هـ ـ ١٨٣٩ م وتوفي سنة ١٢٧٧ هـ ـ ١٨٦١ م انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد بك المحامي : ٢٣٧ـ٢٨٧

٨ ـ علي نور الدين اليشرطي ، الحسني نسبا واصلا ، الشاذلي طريقة ومشربا ، ولد عام ١٢٠٨ هـ ـ ١٧٩٣ م في مدينة بنزرت في تونس وتوفي في عكا ١٣١٦ هـ ـ ١٨٩٨ م ودفن في زاويته هناك • انظر كتاب « رحلة الى الحق » تاليف فاطمة اليشرطية الحسنية ـ مطبعة دار الكتب ـ بيروت بلا تاريخ • وفي هذا الكتاب ذكر اسم الشيخ مصطفى الترك ص ٣٥١ بوصفه من اتباع الشيخ علي •

٩ ـ في ترجمته التي نشرها الشيخ احمد نبهان في المنار المجلد ٢١ ذكر ان الزهراوي « لما اتم السادسة من عمره وضعه والده في المكتب فتعلم القراءة والكتابة والحساب واللغة التركية على يد شيخه الشيخ مصطفى الترك » م ٢١ ص ١٥٠ •

١٠ ـ الكناش : قال الزبيدي في التاج « كنش » : ••ومنه الكناشة لاوراق تجعل كالدفتر يقيد فيها الفوائد والشوارد للضبط ، هكذا يستعمله المغاربة ••

١١ ـ محمد خرسان : متفقه على مذهب أبي حنيفة وقارىء ، لا يزال حيا •

١٢ ـ محيي الدين بن عربي ، محمد بن علي بن محمد ، ابو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي ٥٦٠ ـ ٦٣٨ هـ = ١١٦٥ ـ ١٢٤٠ م • انظر الأعلام ٧ : ١٧ ط ٣ •

١٣ ـ عبدالغني بن اسماعيل النابلسي ١٠٥٠ ـ ١١٤٣ هـ = ١٦٤١ ـ ١٧٣١ م • انظر الاعلام ٤ : ١٥٨ ط ٣ •

١٤ ـ رابعة العدوية ت ١٣٥ هـ ـ ٧٥٢ م انظر الاعلام ٣: ٣١ ط ٣ •

١٥ ـ الحسين بن منصور الحلاج قتل سنة ٣٠٩ هـ ـ ٩٢٢م• انظر الاعلام ٢ : ٢٨٥ ط ٣ •

١٦ ـ انظر في وحدة الوجود ما كتبه الدكتور ابو العلاعفيفي في مقدمته لكتاب فصوص الحكم لابن عربي ط مصر ١٩٤٦ وما كتبه الدكتور زكي مبارك في كتابه التصوف الاسلامي ١ : ١٥٨ وما بعدها ط مصر ١٩٥٤ وما كتبه الشيخ عبدالغني النابلسي في ايضاح المقصود من وحدة الوجود ـ مطبعة العلم ـ دمشق ١٣٨٩ ـ ١٩٦٩ عرض وتحقيق عزة حصرية •

١٧ ـ انظر بشان الحقيقة المحمدية ما كتبه الدكتور زكي مبارك في كتابه التصوف الاسلامي ١ : ٣٦٦ وما بعدها وانظر شرح فصوص الحكم لعبد الرزاق القاشاني ص ٣٢٦ بعنوان « فص حكمة فردية في كلمة محمدية » ط مصر ١٩٦٦ •

١٨ ـ لأن ولادته كانت عام ١٢٨٨ هـ والمحاورة جرت عام ١٣٠٩ هـ •

١٩ ـ انظر العدد المزدوج من مجلة التراث ١٥ ـ ١٦ ص ١٨٤ •

٢٠ ـ محمد رشيد رضا بن علي ، تلميذ الأستاذ الامام ومؤسس المنار انظر معجم المؤلفين ٩ : ٣١٠ والأعلام ٦ : ٣٦١ ط ٣ ولد السيد محمد رشيد رضا في القلمون ١٢٨٢هـ ـ ١٨٦٥ م وتوفي في مصر ١٣٥٤ هـ ـ ١٩٣٥ م •

٢١ ـ محمد عبده بن حسن خير الله ١٢٦٦ هـ ـ ١٨٤٩ م انظر الاعلام ٧ : ١٣١ ط ٣ ، ١٨٤٩ هـ ١٩٠٥ م • وانظر الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الامام تاليف محمد رشيد رضا •

٢٢ ـ صنف السيد محمد رشيد رضا كتابه تاريخ الاستاذ الامام في ثلاثة مجلدات ، الأول يشتمل على سيرة الأستاذ الامام تامة ويقع في ١١٠٠ صفحة طبع في مطابع المنار بمصر ١٣٥٠ هـ ـ ١٩٣١ م والثاني يشتمل على مقالات الأستاذ الامام وبعض رسائله وطبع عام ١٣٢٤ هـ ـ والثالث يشتمل على ما قيل في الأستاذ الامام من المراثي وطبع عام ١٣٢٤ هـ

٢٣ ـ في نسخة المرحوم مختار الزهراوي : ارتبطا

٢٤ ـ يبدو ان الناسخ (عبدالرحمن) لم تتجه لـه قراءة البيت ، وتوجيه القراءة على النحو التالي : قصارى ثنائي كفي على المبتدأ والخبر •

٢٥ ـ المقصود به الشيخ السيد محمد رشيد رضا جامع الجزء الثالث من تاريخ الأستاذ الامام وهو المقصود ايضا بقوله : الولي الحميم الرشيد الحكيم •

٢٦ ـ اظن انه يريد بهما صديقيه الشيخ احمد نبهان وخالد الحكيم •

٢٧ ـ تاريخ الأستاذ الامام ٣ : ٢٨٨ •

٢٨ ـ تاريخ الأستاذ الامام ٣ : ٣٩١ •

أحمد أبو خليل القباني الموسيقي

جبرائيل سعادة

يستعمل الباحثون الأجانب عادة ، في عناوين مؤلفاتهم ، عبارة « المدخل الى دراسة » أو « مواد للدراسة »موضوع معين عندما يعتبرون أن مؤلفهم لا يشكل بحثا نهائيا . ومقالنا هذا ليس الا مجرد تقديم مواد للدراسة الشاملة التي يجب أن تتناول يوما أحمد أبا خليل القباني من الناحية الموسيقية .

لقد كتب ونشر الكثير عن حياته وانتاجه الأدبي والمسرحي(١) وكلها أبحاث لا تقدم الا عرضاً ، بعض المعلومات عن انتاجه الموسيقي . فما هي المصادر التي يمكن أن نعتمد عليها عندما نحاول معرفة هذا الانتاج ؟ .. هناك كتاب يتضمن أكثر من ألف عنوان لمؤلفات ومقالات عن موسيقانا وضع بمناسبة المؤتمر الدولي للموسيقى العربية المنعقد في بغداد عام ١٩٦٤(٢) ، فاذا عدنا اليه نجده يذكر أبحاثا عن كبار الملحنين والمطربين أمثال محمد عثمان وعبده الحمولي وسلامة حجازي وسيد درويش وداود حسني ولا نرى عنواناً واحداً يحمل اسم أحمد أبي خليل القباني . نستطيع أن نقول انه لا يوجد حتى الآن مؤلف أو بحث خاص بالقباني كموسيقي . فعلينا اذاً أن نستقي معلوماتنا من مؤلفات عامة تتناوله في أحد فصولها . ان الموسيقار المصري محمد كامل الخلعي هو أول من أشار الى القباني كملحن وذلك في كتاب(٣) نجد فيه تحليلا لشخصيته الفنية وكلمات عدد من موشحاته(٤) . أما أدهم الجندي الذي يعطينا معلومات وافية ودقيقة عن حياته ونشاطه المسرحي فيقدم معلومات سريعة عن مؤلفاته الموسيقية(٥) كما يشير الى نشاطه الموسيقي كل من عدنان بن ذريل(٦) وأحمد الجندي(٧) . ومن بين المصادر التي لجأنا اليها نذكر تلك المجموعات التي تتضمن تنويطاً أي تدوينا موسيقياً لعدد من الموشحات العائدة لتراثنا العربي(٨) .

نستهل بحثنا بلمحة موجزة جداً عن حياة القباني لأنها رويت مفصلا أكثر من مرة كما أن التناقضات الموجودة حولها في المراجع المختلفة لا تهم مباشرة الموضوع الذي نعالجه في هذا المقال ٠

☐ نبذة عن حياته :

ولد أحمد أبو خليل القباني في دمشق، في حي باب سريجة سنة ١٨٣٣(٩) وهو ينحدر من أسرة كانت في الأصل تسكن مدينة قونية في وسط تركيا وهاجرت منذ أكثر من قرنين ونصف الى دمشق واستوطنت فيها ٠ تعلم القراءة في أحد الكتاتيب ومنه انتقل الى مدرسة ابتدائية ثم صار يحضر حلقات الدروس في المساجد والبيوت ٠ ولما شب احترف مهنة القبان مثل والده وأهله وهذه المهنة هي سبب الكنية التي اشتهرت بها الأسرة ٠

ظهر ميله للموسيقى منذ صغره وفيما بعد انصرف الى تلحين الموشحات والمعروف أنه تعلم فنها وأصول رقص السماح على يد الموسيقي الحلبي أحمد عقيل(١٠) كما أحب ونظم الشعر وبنوع خاص الأزجال للاغاني الشعبية التي أخذ يقوم بتلحينها ، ثم أولع بالتمثيل ٠ فألف مع بعض أصدقائه فرقة تمثيلية وكان يدربهم في منزل جده ويقدم فيه الروايات أو في بيوت أخرى ٠ وفي عام ١٨٧٨ أصبح مدحت باشا والياً على دمشق فلما سمع بما يقوم به القباني في مجال التمثيل استدعاه ونتج عن هذا اللقاء انه أوعز للبلدية لاعطائه مبلغ تسعماية ليرة عثمانية كي يتسنى له انشاء مسرح ٠

عندما أصبح لدى القباني ما يكفيه من المال استأجر مكاناً فسيحاً في حي باب توما وأقام مسرحه في وسطه ٠ فأصبحت الجماهير تقبل اليه لمشاهدة الروايات ٠ وصار القباني يكتب المسرحيات ثم أخذ يدخل فيها ألحاناً تنشد أثناء التمثيل وهي محاولة لم يسبق لأحد قبله في البلاد العربية أن قام بها فهو حقاً مؤسس المسرح الغنائي العربي ٠ وبعد النجاح الذي ناله تحركت بعض العناصر المحافظة في دمشق لمحاربة « بدعة التمثيل » وسافر الى الاستانة أحد زعماء هذه الحملة وتمكن من اقناع السلطان عبدالحميد أن الفسق والفجور قد تفشيا في دمشق بسبب روايات القباني فأمر السلطان بمنع التمثيل في سورية وأغلق مسرح أبي خليل ٠ واغتنم خصومه هذه الفرصة لاثارة الشارع فهجم بعض المتحمسين على مسرحه وكسروا الأخشاب ونهبوا كل ما فيه ٠ وأرادوا أيضاً النيل منه فعلّموا أولاد الأزقة الأغنيات العدائية ليشتموه بها كلما صادفوه ومنها هذه الأغنية :

أبـو خليـــل النشواتـــي ... يـا مزيـف البنـــات
ارجـع لكارك أحسـن لـك ... ارجـع لكـارك نشواتـي
أبـو خليـل مـن قال لـك ... على الكوميـدا مـن دلـك
ارجـع لكارك أحسـن لـك ... ارجـع لكـارك قبانـي

قرر القباني ، على أثر هذه الحملة ، أن يغادر سورية وأن يتابع نشاطه في مصر

فسافر اليها في سنة ١٨٨٤ واصطحب معه بعض أفراد فرقته ومجموعة من العازفين والمنشدين • عمل أولاً ولفترة قصيرة في الاسكندرية ثم استقر في القاهرة كما كان يتجول أحياناً مع فرقته في بعض المدن كالمنصورة وطنطا والمنيا والفيوم وبني سويف • وكان يقدم الروايات الواحدة تلو الأخرى وقد أمكن احصاء ماية وخمسين حفلة مسرحية قدمها القباني في القطر المصري(١١) •ونالت رواياته شهرة واسعة حتى انه يقال أن عبده الحامولي ومحمد عثمان قدما شيئاً من ألحانهما بين الفصول • وأثناء اقامته في مصر زار دمشق أكثر من مرة كما قام مع بعض أفراد فرقته برحلة الى أمريكا الشمالية سنة ١٨٩٢ ليشترك في معرض شيكاغو حيث قدم عدداً من المسرحيات القصيرة • وفي أواخر مدة وجوده في القاهرة أقدم جماعة من الرعاع بتحريض من منافسيه على حرق مسرحه وبعد ذلك قرر الانقطاع عن العمل المسرحي وعاد الى دمشق سنة ١٩٠٠ •

يقال أنه بعد عودته الى مسقط رأسه اعتزل الناس وانه اضطر الى بيع منزله ليعيش من ثمنه • ولما ضاقت به سبل العيش قام جماعة من محبيه بجمع مبلغ كاف من المال وأعادوه الى وضعه وسعوا لدى الدولة حتى خصصت له راتباً مدى الحياة يتقاضاه شهرياً(١٢) وربما تم ذلك على أثر الرحلة التي قام بها القباني في آخر أيامه الى الاستانة وقدم خلالها للسلطان عبدالحميد شيئاً من فنه الغنائي والتمثيلي •

توفي أحمد أبو خليل القباني في دمشق عام ١٩٠٣ (١٣) على أثر اصابته بعدوى الطاعون ودفن بمقبرة عائلته ، في باب الصغير في الميدان •

ان الموسيقار محمد كامل الخلعي ، الذي كان تلميذ القباني وتربطه به صلة وثيقة، وصفه بالعبارات التالية : « كان رحمه الله أنيساً وديعاً ذا خلق وسيم وطباع أرق من النسيم ، أديباً ذرب اللسان ، لبيباً لم يختلف في فصاحة ألفاظه اثنان ••• انه كان خصيصاً بطريق من طرق الغناء وتفرد بها تفرد القمر في السماء • فكان بعد انتهاء كل رواية يلقي من القطع الموسيقية شذوراً تنزو لها الأكباد ويتحرك لحسن وقعها الفؤاد ، حتى أحرزت مصرنا من اقامته فيها فنوناً جزيلة وفضائل جليلة ••• ترك خلفه فنوناً تبكيه وتلامذة ترثيه ومسرحاً كان بوجوده مجمع الأنس ونادى الهنا والسرور فاذا ما صعد عليه صفق الناس طرباً وانشرحت الصدور »(١٤) •

☐ مؤلفاته الموسيقية :

ان احصاء الألحان التي وضعها أحمد أبو خليل القباني ليس أمراً سهلا وهو يتطلب جهداً ودقة • أما دراستنا هذه فليست سوى محاولة للوصول الى معلومات ان لم تكن كلها ثابتة فهي على الأقل واضحة ، قد سعينا على قدر المستطاع الى أن نبدد شيئاً من الغموض الذي يسيطر على الموضوع بسبب التناقض الذي يوجد أحياناً بين المصادر المختلفة والذي يوجد بين المصادر والتقليد الشفوي • كان علينا أن نتريث عند الرجوع الى معطيات التقليد الشفوي فقد مر على وفاة القباني أكثر من ثلاثة أرباع قرن ولم يبق أحد من

معاصريه الذين استمعوا الى أنغامه مباشرة ،الأمر الذي يجعل التقليد الشفوي مصدراً لم يكن دائماً موثوقاً به فهو ينسب اليه الكثيرمن الألحان منها ما ليس له علاقة به ·

يتألف التراث الموسيقي الذي تركه القباني من موشحات ومن أغان شعبية ومن ألحان مسرحية وسنتناولها هنا على التوالي مبتدئين بالموشحات التي هي أهم ما خلفه والمعروف أن الموشح يشكل مثل « الدور » قالباً أساسياً في تراثنا الغنائي ·

لقد وضعنا بعد التدقيق والبحث الطويل جدولا بأربعة وخمسين موشحاً وهو منشور مع مقالنا هذا(١٥) وصنفنا هذه الموشحات فقسمناها الى ثلاثة أقسام · نعدد في القسم الأول الموشحات التي ثبت تلحينها من قبل القباني · وترد في القسم الثاني بعض الموشحات المنسوبة اليه والتي يرجح أنها من انتاجه · ونذكر في القسم الثالث الموشحات التي يخيم بعض الشكوك على نسبها اليه كما نذكر موشحات لم تنسب اليه حتى الآن انما يستحسن التساؤل حول امكانية اعتبارها من وضعه · وقد اتبعنا في وضع الجدول وتصنيفه طريقة ترتكز على النقاط التالية:

لقد انطلقنا من كتاب محمد كامل الخلعي الذي يشكل بنظرنا المصدر الرئيسي في الموضوع فمؤلفه هو كما ذكرنا أحد تلاميذ القباني وكان يلازمه طيلة اقامته في مصر فهو بالتالي أكثر من عرف ألحانه · زد على ذلك أن الكتاب طبع بعد وفاة القباني بسنتين أو ثلاث أي عندما كان تراثه لا يزال معروفاً في الأوساط المهتمة بالغناء والموسيقى · في هذا الكتاب عدد من الموشحات يقول الخلعي صراحة انها للقباني أو من **تلحينه** كما نراه يعدد موشحات أخرى يقول انه **تلقاها أو استمع اليها** من القباني وهذا التعبير غير الواضح لا يسمح لنا بأن نجزم بشيء بالنسبة لتلحينها ، فهو يقصد انها موشحات عرفها اما عن طريق القباني وهي **ليست من وضعه** أو يقصد ضمناً أنه **لا يعرف من قام بتلحينها** · لذلك لم نأخذ بها الا عندما وجدنا براهين أخرى تدل على أنها فعلا من وضع القباني ·

هناك مصدر آخر كان لا بد من أخذه بعين الاعتبار وهو كتاب سفينة الملك لشهاب الدين(١٦) · انه يتضمن تدويناً لكلمات ماية وثلاثة وستين موشحاً من موشحات تراثنا الموسيقي مع الاشارة الى المقام وايقاع كل موشح ونعتقد انها أقدم محاولة من هذا النوع · ورغم أن الكتاب طبع سنة ١٣١١ هـ (أي ١٨٩٣/١٨٩٤ م) ، يخبرنا المؤلف انه انتهى من كتابته سنة ١٨٤٣ أي عندما كان القباني طفلا وهذا يعني أن الموشحات المدونة فيه قد سبقت انتاج القباني · **لذلك يمكن القول** ان كل موشح منسوب الى القباني يرد ذكره في مجموعة شهاب الدين بنفس المقام ونفس الايقاع هو ليس من تلحينه ، أما اذا كان له مقام وايقاع آخران فيجوز لنا أن نتصور أن القباني وضع لحناً جديداً لأبيات موشح قديم لحنه غيره قبله · مع العلم أن لدينا أمثلة عديدة وحتى في يومنا الحاضر لأبيات قصيدة أو موشح أو أي نوع آخر من الغناء تم تلحينها أكثر من مرة ·

ويجب أن نتساءل ما اذا كانت مسرحيات القباني نفسها تشكل هي أيضاً مصدراً يمكن الرجوع اليه في الموضوع الذي نحن بصدده ٠ اننا نجد فعلا في أنص هذه المسرحيات عدداً من الموشحات ، مع اشارة الى مقابها وايقاعها ، كانت تنشد أثناء التمثيل ٠ لا شك أن وجودها ضمن روايات كتبها القباني يجعلنا نميل الى اعتبارها من تلحينه غير أن من بينها ما هو معروف انه من تلحين غيره وليس من الغريب أن يكون القباني قد أدخل في رواياته ألحاناً كانت شائعة في زمنه ، لذلك عندما نستشهد هنا بهذا المصدر نشير الى البراهين المعاكسة التي تخفف من قيمته ٠

أما المجموعات التي ذكرناها والتي تتضمن تنويطاً موسيقياً لعدد من موشحات التراث ، فالى أي حد تتمتع بقيمة وثائقية بالنسبة لموضوعنا ؟ ٠٠٠ لا شك أن الذين وضعوها هم أناس يعرفون أمور موسيقانا خير معرفة ٠ لذلك كان علينا أن نأخذ بعين الاعتبار ما جاء في مجموعاتهم عن ملحني القطع المدونة غير أننا نراهم في كثير من الأحيان يغفلون اسم الملحن ٠ ولا نعتبر هذا الاغفال برهاناً قاطعاً على أن اسم الملحن غير معروف فربما نتج عن عدم القيام بالتدقيق الكافي لاسيما بالنسبة لأبي خليل القباني الذي يحيط بمؤلفاته ، كما نرى ، جو من الغموض والتناقضات ٠ وقد اتخذنا الموقف ذاته تجاه فرقة الموسيقى العربية التي يقودها عبدالحليم نويرة والتي تذكر تارة وتغفل أخرى اسم الملحن في برامج حفلاتها أو في تسجيلاتها ٠

وهذه الطريقة التي سلكناها في البحث أوصلتنا الى النتائج التي نعرضها فيما يلي : نبدأ بالموشحات التي لايوجد في نظرنا أي شك بأنها من تلحين القباني وعددها اثنان وعشرون (انظر الجدول المرفق : من الرقم ١ حتى الرقم ٢٢) وهي الموشحات التي يقول عنها الخلعي صراحة انها من تلحين القباني ٠ زيادة في الايضاح نشير الى أن هذا القول تثبته مجموعة سليم الحلو بالنسبة للرقم ١ ومجموعة تراثنا بالنسبة للرقمين ٥ و ٦ وفرقة نويرة بالنسبة للرقمين ٢ و ٣ ومجدي العقيلي بالنسبة للرقمين ٧ و ٨ ٠ ان وجود كلمات الموشحين رقم ٢٠ و ٢١ في مجموعة شهاب الدين لايشكل برهاناً معاكساً فهما يظهران فيها بغير المقام وغير الايقاع الذي يذكرهما الخلعي ٠ أما الموشح رقم ٢٢ فيجب الاشارة الى بعض الملابسات المتعلقة به ٠ لقد أحصيناه مع موشحات القسم الأول لأن الخلعي ينسبه للقباني صراحة ٠ انما نراه بنفس المقام ونفس الايقاع في مجموعة شهاب الدين ٠ الا أن الخلعي يذكر أن للموشح « لحناً آخر مصرياً » غير الذي وضعه القباني وهو الموشح الذي تنشده فرقة نويرة والتي نراها تغفل اسم الملحن ٠ وأخيراً نذكر أن الموشح رقم ٩ يرد في نص رواية « الأمير محمود نجل شاه العجم » والموشح رقم ١٠ في رواية « عفيفة » ٠

يتضمن القسم الثاني بعض الموشحات المنسوبة الى القباني والتي يرجح بنظرنا أنها له وعددها اثنا عشر (انظر الجدول : من الرقم ٢٣ حتى الرقم ٣٤) ٠ لم نتردد بادراج الموشحين رقم ٢٣ و ٢٤ في هذه الفئة بالرغم من أنه لا يوجد لهما أثر في كتاب الخلعي ومن أن اسم ملحن أولهما غير مذكور في مجموعة زيدان ومجموعة سليم الحلو ومن أن اسم ملحن ثانيهما لم يرد في مجموعة رجائي ومجموعة سليم الحلو ٠ وما ذلك الا لأن معظم

الأوساط المهتمة بالغناء والموسيقى (١٧)وكذلك فرقة عبدالحليم نويرة تنسبهما لأبي خليل وهما من أكثر الموشحات انتشاراً في القطر السوري · ومن جهة أخرى يرد الموشح رقم ٢٤ في رواية هارون الرشيد مع الأميرغانم بن أيوب · أما الموشحان رقم ٢٥و٢٦ فتنسبهما فرقة نويرة الى القباني وهما غيرمذكورين في كتاب الخلعي ونستغرب كيف أن مجموعة رجائي تنسب الرقم ٢٦ الى سيددرويش فموشحات سيد درويش تم تصنيفها بدقة وأصبحت اليوم معروفة جيداً · أماالموشح رقم ٢٧ فتعتبر مجموعة تراثنا أنه من وضع القباني بينما يغفل الخلعي اسم ملحنه وهو يرد في مجموعة شهاب الدين بمقام وايقاع آخرين · لم يذكر الموشح رقم ٢٨ الافي مجموعة سليم الحلو التي تنسبه صراحة الى القباني · وهناك ثلاثة موشحات (رقم ٢٩ و٣٠ و ٣١) ينسبها أدهم الجندي (١٨) الى القباني ويثبت ذلك أحمد الجندي(١٩) ،وموشحان (رقم ٣٢ و ٣٣) ينسبهما اليه عدنان بن ذريل (٢٠) ويثبت ذلك بالنسبةللأخير مجدي العقيلي · أما الموشح رقم ٣٤ فينسبه للقباني مجدي العقيلي ويصرح أحمدالجندي(٢١) انه من أشهر ألحانه مع العلم أن الخلعي لايقول انه للقباني بل انه تلقاه منه·

أحمد أبو خليل القباني : الموشحات

الرقم	الموشح	المقام	تدوين الكلمات	التنويط الموسيقي	التسجيل
	موشحات ثابت انها من تلحينه				
١	بزغت شمس الكمال	حجاز	الخلعي ١١٦	الحلو ١١٢	فرقة علي الدرويش
٢	وجنات الغيد	حجاز	الخلعي ١١٦		فرقة نويرة
٣	آه من جور الغوالي	عجم عشيران	الخلعي ١٣٠		فرقة نويرة
٤	بدر حسن لاح	بسته نكار	الخلعي ١٣٤	الحلو ١٤٨	سلامة حجازي
٥	صاح هات الراح	سيكاه	الخلعي ١٢٢	الحلو ١٦١ تراثنا٢ ١٦٨	
٦	يا من رمى القلب وسار	عجم	الخلعي ١٣٠	تراثنا٢ ١٩٤	
٧	قم ولازم يا معنى	عجم عشيران	الخلعي ١٣٠	العقيلي ٨٢	
٨	راق انسي بالندامى	محيَّر	الخلعي ١١١	العقيلي ٨٤	
٩	تثنى كغصن رشيق القوام	سيكاه	الخلعي ١٢٢		
١٠	هات يا باهي السنا	حجاز	الخلعي ١١٦		
١١	أفرغ الروض علينا	أوج	الخلعي ١٣٢		
١٢	اليوم يا بدري نزيل الهموم	صبا	الخلعي ١٠٨		
١٣	اشطح وهم يا ابن عمي	نهاوند	الخلعي ١٠١		
١٤	أي ظبي لو أعني بعدا	نهاوند	الخلعي ١٠١		

الرقم	الموشح	المقام	تدوين الكلمات	التنويط الموسيقي	التسجيل
١٥	بالنهاوند الكبير	نهاوند	الخلعي ١٠١		
١٦	بالله يا باهي الشيم	عجم بوسك	الخلعي ١٣١		
١٧	كيف لا أصبو لمرآها الجميل	شوق افزا	الخلعي ١٣٠		
١٨	بروق مربع النجد	سيكاه	الخلعي ١٢٢		
١٩	سباني منذ بدا باهي المحيا	سيكاه	الخلعي ١٢٣		
٢٠	قم لنحو الحان	أوج	الخلعي ١٣٥		
٢١	شادن صاد قلوب الأمم	عجم عشيران	شهاب الدين ٢٦٧ الخلعي ١٣٠		
٢٢	شجني يفوق على الشجون	أوج	شهاب الدين ٧٣ الخلعي ١٣٤ شهاب الدين ١٧٨ زيدان ١٥٢	تراثنا٢ ١٩٦ تراثنا٢ ٢٠٢	فرقة نويرة

موشحات يرجح انها من تلحينه

الرقم	الموشح	المقام	تدوين الكلمات	التنويط الموسيقي	التسجيل
٢٣	ياغصن نقا مكلل بالذهب	سيكاه	زيدان ٤٠٦	الحلو ١٧٦	فرقة نويرة مختلف
٢٤	ما احتيالي يارفاقي	حجاز		رجائي ١٨٧ الحلو ١٠٨	فرقة نويرة مختلف
٢٥	رصع اللجين	راست			فرقة نويرة
٢٦	نم دمعي عن عيوني	حجاز		رجائي ١٩٣ الحلو ١٢٨	فرقة نويرة
٢٧	ادر راحاتي	أوج	الخلعي ١٣٣ شهاب الدين ١٧٩	تراثنا٢ ١٩٦	
٢٨	طال ليلي	عراق		الحلو ١٣	
٢٩	لاح الثغر فسبى المفتونا		ادهم الجندي ٢٥٦		
٣٠	شمس كأس الراح تجلى	عجم			
٣١	رقص البان وغنى	حسيني			
٣٢	صفت أوقاتي				
٣٣	يا من جفا وما رحم	بسته نكار		العقيلي ٨٥	
٣٤	عيد المواسم	راست	الخلعي ٩٧	العقيلي ٨٢	

الرقم	الموشح	المقام	تدوين الكلمات	التنويط الموسيقي	التسجيل
	موشحات يحتمل أنها مـــن تلحينه				
٣٥	اسمح وجد يا منيتي	حسيني عشيران	الخلعي ١٢٨		
٣٦	يا ورق بنات اللهو	جهاركاه	الخلعي ١٢٥		
٣٧	العيون النرجسية	حسيني عشيران	الخلعي ١٢٨		
٣٨	حلو الشمايل يا قوام البان	صبا	الخلعي ١٠٨		
٣٩	ظبي انس ذو محيا	كردان	الخلعي ٩٧		
٤٠	حب سلمى قد دعاني	بيات	الخلعي ١٠٥		
٤١	آه واشوقي لأوقات الوصال	حجازكار	الخلعي ٩٩		
٤٢	طاب وقتي طاب	صبا	الخلعي ١٠٧	الحلو ٩٠	فرقة نويرة
٤٣	يا روحي وجسماني	حجاز	الخلعي ١١٧		
٤٤	انما أنت قمر	حسيني عشيران	شهاب الدين ٩٧ الخلعي ١٢٦		
٤٥	محبوبي اقتصد نكدي	حسيني عشيران	شهاب الدين ٢٤٩ الخلعي ١٢٩	تراثنا٢ ٨٠	
٤٦	غصن بان قد تبدى	حجاز	الخلعي ١١٤ شهاب الدين ٢٣ زيدان ١٩٨	تراثنا٢ ١٢٤	
٤٧	املالي يا دري	حجاز	الخلعي ١١٥	رجائي ١٨٣ الحلو ١٢٦	
٤٨	بالذي أسكر من عرف اللمى	بيات	الخلعي ١٠٤ شهاب الدين ٢٩٧ زيدان ٥٢	رجائي ١٦٩ الحلو ٨٣ تراثنا٤ ١٧٦	فرقة نويرة
٤٩	ان هذا اليوم يبدى	أوج	نجم ١٨٤		سلامة حجازي
٥٠	هل يرى في الناس مثلي	حجاز	الخلعي ١١٥		
٥١	هجرني فدعني بالبعاد	حجاز	شهاب الدين ٢٣٩ الخلعي ١١٤ شهاب الدين ٢٢٦ زيدان ٣١		
٥٢	يا نسيمات الصبا	أوج	الخلعي ١٣٢ شهاب الدين ١٧٨ زيدان ٤٠٠	رجائي ٣٩ تراثنا٢ ١٢٨	سلامة حجازي سيد الصفتي

الرقم الموشح	المقام	تدوين الكلمات	التنويط الموسيقي	التسجيل
٥٣ ياغزالا قد أعار الظبي تكحيل	حجاز	الخلعي ١١٤ شهاب الدين ٢٢٨ زيدان ٤٠٠	الحلو ١١٧	
٥٤ بدري أدر كأس الطلى	حجاز	الخلعي ١١٣ شهاب الدين ٢١٨ زيدان ٥٩	الحلو ١١٥	

يتألف القسم الثالث من تصنيفنا من الموشحات التي يحتمل أن تكون من وضع القباني وعددها عشرون (انظر الجدول :من الرقم ٣٥ حتى الرقم ٥٤) ونعتقد أنه لا يمكن البت بأمرها بشكل قاطع ونهائي الا اذا ظهرت وثائق وبراهين جديدة في الموضوع واذ نذكرها هنا فلتسهيل مهمة الذين سيحاولون من بعدنا متابعة دراسة الموشحات المنسوبة الى القباني لمعرفة التي لحنها فعلا . هناك أولا ستة موشحات (من الرقم ٣٥ حتى الرقم ٤٠) لا نعرف شيئاً عنها سوى أن الخلعي « سمعها » أو « تلقاها » من القباني وكذلك الموشح رقم ٤١ غير أن هذا الأخير يرد في رواية « عفيفة » . أما الموشح رقم ٤٢ الذي « تلقاه » الخلعي من أبي خليل فهو بمقام يختلف عن الذي دونه سليم الحلو وتنشده فرقة نويرة ويقول الخلعي بخصوص الموشح رقم ٤٣ انه سمعه من القباني ويضيف أن له تلحيناً مصرياً آخر ويستنتج من ذلك أن الموشح المذكور سوري المنشأ وهو يختلف من حيث المقام والايقاع عن الذي نراه في مجموعة شهاب الدين ويبدو أنه الموشح المصري المشار اليه . كذلك ان الموشح رقم ٤٤ الذي سمعه الخلعي من القباني هو غير الذي يرد بمقام مختلف في مجموعة شهاب الدين . والموشح رقم ٤٥ الذي سمعه الخلعي من القباني موجود في رواية « عفيفة » ومدون دون ذكر اسم الملحن في مجموعة تراثنا . الموشح رقم ٤٦ الذي نراه هو أيضاً في رواية « عفيفة » يرد دون ذكر اسم الملحن في الخلعي والمصادر الأخرى وله مقام آخر في مجموعة شهاب الدين . والموشح رقم ٤٧ موجود في الرواية نفسها واسم ملحنه غير مذكور في كتاب الخلعي وفي مجموعة رجائي . أما الموشح رقم ٤٨ فهو يظهر في رواية « الأمير محمود نجل شاه العجم » ولا تذكر كل المصادر اسم ملحنه . يرد الموشح رقم ٤٩ في رواية « عفيفة » وليس له أثر في كل المراجع . ان الموشحات رقم ٥٠ و ٥١ و ٥٢ و ٥٣ ترد في رواية « عفيفة » ويرد الموشح رقم ٥٤ في رواية « هارون الرشيد مع الأمير غانم بن أيوب » ولا تذكر كل المصادر بما فيه كتاب الخلعي ، اسم ملحنها بينما نراه بنفس المقام ونفس الايقاع في مجموعة شهاب الدين ، لذلك يصبح الاحتمال بأن تكون هذه الموشحات الخمسة للقباني ضعيفاً جداً .

وإذا انتقلنا من الموشحات الى الأغاني الشعبية نرى انها تحتاج هي أيضاً الى بحث دقيق • من المعروف أن القباني قد اهتم بهذا النوع من الغناء غير أنه ليس لدينا معلومات واضحة الا عن أغنيتين فقط • الأولى هي أغنية « يا مسعدك صبحية » من مقام الصبا وهي كثيرة الذيوع في مدينة حلب ويذكر حبيب زيدان في مجموعته ٢٢ انها من ألحان القباني • أما الأغنية الثانية فهي « يا طيرة طيري » المشهورة في سائر المدن السورية وطابعها الدمشقي واضح • وفؤاد محفوظ الذي دونها موسيقياً (٢٣) يقول انها للقباني • ونعتقد أنه لا يوجد أي اثبات بالنسبة لأغنيات شعبية أخرى تنسب عادة اليه مثل : « يا مال الشام» و « بلبل عالشجر غنى » •

أما بالنسبة الى موضوع ألحان القباني المسرحية • فلا شك أن اهتمامه بالموسيقى والغناء كان لا يقل عن اهتمامه بالمسرح وعلى ذلك أكثر من برهان : فرواياته مليئة بالقطع الغنائية وقد رأينا أنه لما هاجر الى مصر اصطحب معه ، علاوة على الممثلين مجموعة من العازفين الماهرين (٢٤) وان الموسيقار محمد كامل الخلعي انضم اليها والمعروف أيضاً أن عبده الحامولي غنى في بعض مسرحياته (٢٥)، الأمر الذي يبين الأهمية التي كان القباني يعلقها على الغناء عند عرض رواياته •

وإذا ألقينا نظرة على القطع المعدة للغناء في مسرحيات القباني علاوة على الموشحات ، نلاحظ أولا وجود عدد من القصائد، منها قصائد معروفة من الأدب العربي (بنوع خاص لبهاء الدين زهير) ومنها قصائد تتعلق مباشرة بموضوع الرواية ويبدو انها من نظم القباني كما نرى أناشيد ومقاطع شعرية يطلق المؤلف عليها اسم « لحن » ويشير الى أن على « المجموعة » أي على « الكورس » انشادها ،كما أن بعض حوارات الرواية كانت هي أيضاً ملحنة (٢٦) • كل هذا يضفي على مسرحيات القباني طابع « الأبريت » أي الرواية الغنائية •

ما هي أنغام هذه المقطوعات المهيأة للغناء في مسرحياته ؟ • من الطبيعي اننا لا نستطيع معرفتها وهي لم تسجل على الاسطوانات ولم تدون موسيقياً ولم يبق أحد من الذين استمعوا اليها • ان محمد كامل الخلعي ،الذي يقول انها وضعت بمناسبة مناظر ومواقع في التمثيل ، يعلق عليها بالعبارات التالية :« شهد من قبل أكابر الموسيقيين وفطاحل الملحنين بما له من بديع التلاحين الرقيقة لأناشيد الطرب الأنيقة ما يزري برنة الدينار ويذهب بصوت الناي والأوتار ويطوح بالهموم والأتراح ويغني بلذته عن الراح • فكم له من قطعة رافعة للقدر ومدحة شارحة للصدر ومرثية مبكية للعيون ومقطعات مختلفة الفنون »(٢٧) • هذه شهادة من كان يعتبر نفسه تلميذاً للقباني وحضر معظم مسرحياته •

مهما يكن من أمر فأحمد أبو خليل القباني هو الذي أوجد المسرحية الغنائية في الوطن العربي وله يعود الفضل في تدعيمها ونشرها وقد فتح الطريق التي سار عليها من بعده سلامة حجازي وسيد درويش وفي يومنا الحاضر الأخوان رحباني •

□ **احياء تراثه :**

الى أي حد لا يزال تراث أحمد أبي‌خليل‌القباني حياً ؟ ٠٠ هل مؤلفاته الموسيقية ، باستثناء عدد ضئيل منها ينشد من حين الى‌آخر ، أصبحت عبارة عن وثائق تحفظ في « أرشيف » تاريخ موسيقانا كالقطع الأثرية‌في المتاحف ؟٠٠

هنا يطرح سؤال أساسي : الى أي حد‌باستطاعتنا معرفة هذا التراث ؟ ٠٠ لا شك أن احصاء المؤلفات التي يتألف منها أمر‌ضروري لكن الأهم هو أن نعرف فعلا ألحان هذه المؤلفات وهذا لا يتم الا اذا كانت‌القطعة‌اما مدونة موسيقياً أو مسجلة ٠ لذلك لا بد من القاء نظرة عامة على مؤلفاته لنرى‌وضعها من هذه الناحية ٠

اذا تأملنا تلك الموشحات التي اعتبرنا‌أن تلحينها من قبل القباني ثابت ، نلاحظ أن ثمانية منها فقط (الموشحات رقم ١ و ٤ و ٥ و ٦ و ٧ و ٨ و ٢١ و ٢٢) تم تنويطها موسيقياً ٠ أما بالنسبة للتسجيل فنعرف أن‌فرقة علي الدرويش سجلت الموشح رقم ١ (والتسجيل محفوظ في اذاعة دمشق)وفرقة‌عبدالحليم نويرة الموشحات رقم ٢ و ٣ و ٢٢ كما سجل‌ الموشح رقم ٤ على اسطوانة بصوت‌سلامة حجازي ٠ فمن أصل اثنين وعشرين موشحاً يبقى اثنا عشر‌بدون‌تدوين أو تسجيل ٠ أما الموشحات التي يرجح انها له فيوجد‌تنويط موسيقي لسبعة منها (الموشحات رقم ٢٣ و٢٤ و ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ و ٣٣ و ٣٤) وقد سجل الموشح ٢٣ كل من فرقة نويرة وفرقة‌سليم سحاب وعدد كبير من المطربين وسجل الموشح رقم ٢٤ مطربون كبار أمثال أبو العلاء‌محمد ونادرة وماري جبران وكذلك فرقة نويرة وعدد كبير جداً من المطربين المعاصرين‌ويوجد تسجيل للموشحات رقم ٢٥ و ٢٦ من قبل فرقة نويرة ٠ يبقى من هذه الفئة أربعة‌موشحات (من رقم ٢٩ حتى ٣٢) من أصل اثني عشر بدون تنويط أو تسجيل ٠ أما‌الموشحات المشكوك بأمر تلحينها فمن أصل عشرين موشحاً يبقى اثنا عشر بدون تنويط‌أو تسجيل ٠ وبهذه المناسبة نذكر أن عدنان بن ذريل يروي أن في حوزة نديم الدرويش« نوطات » لما يقارب أربعة عشر موشحاً لأبي خليل القباني دونها موسيقياً والده الموسيقار‌الكبير علي الدرويش وهي غير معروفة وغير متداولة (٢٨) ولا شك أن نشرها ضروري‌جداً عساها تلقي بعض النور على الأمور‌التي لا تزال غامضة بالنسبة لتراث القباني(٢٩)٠

أما من ناحية الأغاني الشعبية فان‌أغنية« يا مسعدك صبحية » سجلت‌على الاسطوانات بصوت عدد من المطربين القدماء أمثال عبد الحي حلمي وداود حسني وأحمد ادريس وعلي عبدالباري ٠ كما لأغنية « يا طيرة طيري »عدد كبير من التسجيلات الحديثة وهي كما ذكرنا مدونة موسيقياً ٠ أما الألحان المسرحية‌فنعتقد أن ستار النسيان قد أسدل عليها والأمل ضعيف في أن يتم يوماً أي اكتشاف‌بخصوصها(٣٠) ٠

ان أحمد أبا خليل القباني هو عميد الموسيقى في سورية وهو كما ذكرنا مؤسس المسرح الغنائي في الوطن العربي (٣١) فهو‌علم من أعلام الحضارة العربية الحديثة غير أن تراثه يحتاج الى عناية كبيرة ، ويتطلب‌اقامة مؤسسة خاصة لهذا الموضوع كالمؤسسات

التي تحدث في أوروبا لكبار الفنانين والأدباء والعلماء أو على غرار « جمعية أصدقاء سيد درويش » الموجودة في مصر · ونلخص فيمايلي مهمة هذه المؤسسة ·

يجب تجميع كل ما يمكن تجميعه من مخطوطات ووثائق ومعلومات مختلفة تتعلق بانتاج القباني الأدبي والموسيقي واقامةمكتبة تضم المؤلفات والمقالات المتعقة به لتصبح مرجعاً لكل من يريد دراسته · كمايجب السعي لاحصاء مؤلفاته الموسيقية بطريقة علمية ثم القيام بتنويط أي بتدوين ألحانهموسيقياً ونشرها والقيام بطبع مسرحياته التي لا تزال مخطوطة · ومن الضروري خلقجو من الاهتمام بالقباني بشتى الوسائل اما بالتأليف الأدبي(٣٢) أو بالسعي مع الاذاعاتالعربية والنوادي والمعاهد الموسيقية الى نشر ألحانه وتنظيم الاحتفالات والمهرجانات التذكارية المختلفة (٣٣) ·

لقد ذكرنا أن بعض العناصر الدمشقيةتمكنت في عام ١٨٨٤ من اقناع السلطان عبدالحميد باغلاق مسرح القباني ومنعه منالتمثيل وعلى أثر الحملة التي تعرض اليها في مسقط رأسه غادر سورية · فهل نطردالقباني مرة ثانية باهمالنا لتراثه العظيم ؟ نحن اذن مدعوون لمحو الغلطة الكبيرة التيارتكبناها عام ١٨٨٤ عندما جعلنا فناناً كبيراً من قطرنا يغادرنا ليبرز مواهبه بعيداً عنا ،وبذلك نبرهن أن سورية العربية تعرف اليوم كيف تكرم عباقرتها ·

جبرائيل سعادة

☐ الهوامش :

١ ـ راجع شاكر مصطفى : « القصة في سورية » ١٩٥٨ ص١٨٩ ـ ٢٠٢ ، ابراهيم ترزي ، مجلة « المجلة » العدد ٦٣ نيسان ١٩٦٢ ، محمد يوسف نجم : « الشيخ احمدابو خليل القباني » بيروت ١٩٦٣ ، عدنان بن ذريل : « المسرح السوري منذ ابي خليل القباني الى اليوم »دمشق ١٩٧١ ص ١٩ ـ ٣٧ ·

٢ ـ عبد الحميد العلوجي : « رائد الموسيقى العربية » بغداد١٩٦٤ ·

٣ ـ محمد كامل الخلعي : « كتاب الموسيقى الشرقي » القاهرة ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ ·

٤ ـ نرى أيضا كلمات بعض موشحات وأغاني القباني في حبيب زيدان : « مجموعة الأغاني الشرقية القديمة والحديثة نيويورك ·

٥ ـ أدهم الجندي : « أعلام الأدب والفن » الجزء الأول دمشق ١٩٥٤ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٦ ·

٦ ـ عدنان بن ذريل : « الموسيقى في سورية » دمشق ١٩٦٩

٧ ـ احمد الجندي : « رواد النغم العربي » · دمشق ١٩٨٤ ص ١٩ ـ ٣٥ ·

٨ ـ فؤاد رجائي ونديم الدرويش : « من كنوزنا : في الموشحات الأندلسية » حلب ، سليم الحلو : « الموشحات الأندلسية » بيروت ١٩٦٥ ، اللجنة الموسيقية العليا :« تراثنا الموسيقي : من الأدوار والموشحات » (٤ اجزاء) القاهرة · يوجد ايضا تدوين موسيقي لعدد من الموشحات في مجدي العقيلي : « السماح عند العرب » الجزء الثاني ص ٦١ ـ ٩٤ ·

٩ ـ أدهم الجندي ص ٢٤٩ ، شاكر مصطفى ص ١٨٩ ، عدنان بن ذريل ١٩٧١ ص ١٩ ويقول محمد كامل الخلعي ص ١٣٧ انه ولد عام ١٨٤٢ ·

١٠ ـ محمد كرد علي : « خطط الشام » مكتبة النوري دمشق ١٩٨٣ الجزء الثالث ص ١٠٠ ، راجع أيضاً أدهم الجندي ص ٣١٩ ، ممدوح الجابري : « الموسيقى فيحلب » ، مجلة العمران العدد ٢٠/٢١/٢٢ ص ٢٨٥ ·

١١ ـ نجد قائمة بهذه الحفلات مع تاريخ ومكان كل منهافي كتاب محمد يوسف نجم ص ٤٠٣ ـ ٤١٠ ·

١٢ ـ احمد الجندي ص ٣١ ٠

١٣ ـ هناك بعض التناقض بالنسبة لتاريخ وفاته ناتج عن القصيدتين المؤرختين المكتوبتين على شاهدة قبره ٠ وقد كتب على اسفل الشاهدة انه توفي في غرة شهر شوال سنة ١٣٢١ هـ أي في ٢١ كانون الأول ١٩٠٣ (راجع احمد الجندي ص ٣٤٠) بينما يقول محمد كامل الخلعي (ص ١٤٠) انه مات ليلة ٢٧ رمضان ١٣٢٠ هـ أي في ٢٨ كانون الأول ١٩٠٢ ٠ ونقرأ في مقال راتب حداد :« أبو خليل القباني في الذكرى الـ ١٥٠ لميلاده » (مجلة هنا دمشق العدد ١٧٧ ، ٨٣/١٢/١ ص ٢٩) انه توفي في كانون الثاني ١٩٠٢ ٠

١٤ ـ محمد كامل الخلعي ، ص ١٣٩ ـ ١٤٠ ٠

١٥ ـ ان المراجع ترد في هذا الجدول بشكل مختصر ويمكن معرفتها بشكلها الكامل بالرجوع الى الهوامش التي ترافق المقال (فعلى سبيل المثال نقول ان كلمة « الخلعي » تشير الى كتاب محمد كامل الخلعي المذكور اعلاه وكذلك تدل عبارة « تراثنا ٢ » على الجزء الثاني من مجموعة « تراثنا الموسيقي من الأدوار والموشحات » التي اتينا ايضا على ذكرها) اما عبارة « فرقة نويرة » فالمقصود بها فرقة الموسيقى العربية التي يشرف عليها عبدالحليم نويرة ٠ وكلمة « مختلف » تعني ان الموشح سجل من قبل عدد من المطربين ومن جهة أخرى قد رقمنا الموشحات لتسهيل عرض البحث واختصاره ٠

١٦ ـ محمد بن اسماعيل شهاب الدين : « سفينة الملك ونفيسة الفلك » ١٨٩٣ ـ ٩٤ ٠

١٧ ـ راجع مثلا بالنسبة الى الموشح رقم ٢٣ ، ادهم الجندي ص ٢٥٥ ٠

١٨ ـ ادهم الجندي ص ٢٥٠ و ٢٥٥ ، ٢٥٦ ٠

١٩ ـ احمد الجندي ص ٣٢ ٠

٢٠ ـ عدنان بن ذريل ١٩٦٩ ص ١٣٩ ٠

٢١ ـ احمد الجندي ص ٣٤ ـ ٣٥ ٠

٢٢ ـ حبيب زيدان ص ٣٩٨ ٠

٢٣ ـ فؤاد محفوظ : « الأغاني الشعبية العربية عبر التاريخ » ص ٢٤ ٠

٢٤ ـ نرى اسماءهم في ادهم الجندي ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ وعدنان بن ذريل ١٩٧١ ص ٣٢ ٠

٢٥ ـ محمد يوسف نجم ص ٤٠٥ و ٤٠٧ ٠

٢٦ ـ صميم الشريف : « الأغنية العربية » دمشق ١٩٨١ ص ١٧٣ ٠

٢٧ ـ محمد كامل الخلعي ص ١٣٨ ٠

٢٨ ـ عدنان بن ذريل ١٩٦٩ ص ١٣٩ ٠

٢٩ ـ لا نستبعد ان تكون هنالك بعض الموشحات غير المدونة او المسجلة معروفة من مطربين لا سيما القدماء منهم ٠ فيبدو مثلا ان الموشح رقم ٢٩ معروف من قبل المطرب نجيب السراج (راجع ادهم الجندي ص ٢٥٥) ٠

٣٠ ـ ولكن ليس هذا الأمل مفقودا نهائيا ٠ نذكر بهذه المناسبة ان متحف التقاليد الشعبية (قصر العظم) في دمشق قد حصل على مجموعة من الاسطوانات التي من النوع القديم (المصنوعة من المعدن وذات شكل اسطواني) كانت ملك هاني بن نوري الكيلاني من حماه ومسجل عليها عدد من الأغنيات بصوت مطربين قدماء لم يوجد لها اي تسجيل على اسطوانات عادية ومن بينهم الموسيقار الكبير محمد عثمان ٠ فهل ياتي يوم تظهر فيه تسجيلات من هذا النوع لألحان غير معروفة للقباني ٠

٣١ ـ في كتابه « رواد المسرح المصري » يذكره محمد كمال الدين بين الرواد الذين طوروا المسرح في وادي النيل ٠

٣٢ ـ لا شك ان مسرحية سعدالله ونوس : « سهرة مع ابي خليل القباني » ، دمشق ١٩٧٣ قد اسهمت في احياء ذكره ٠

٣٣ ـ من الغريب أن يكون غاب عن ذهن سورية أن تحتفل في العام الماضي ، بالذكرى المائة والخمسين لميلاد القباني (راجع بهذا الخصوص راتب حداد ، ص ٢٨ ـ ٢٩)٠

الأسطول الفاطمي

التواني بوبكر

تمتع البحر المتوسط منذ أقدم العصور الى الوقت الحاضر بموقع جغرافي فريد من نوعه ، جعله مطمع كل قوة تبغي لنفسها الازدهار والسلطان في هذا المجال البحري ، وعلى الرغم من هذا لم تستطع أية قوة أجنبية أن تنال الخلود الذي تمتع به العرب باستقرارهم على شواطىء هذا البحر .

فكم من حضارة قامت على جوانب هذا الحوض المائي الهام ، وازدهرت ، وبلغت ذروتها .. ثم أتى عليها الزمن ، فاندرست واندثرت ، وأصبحت أثراً بعد عين ! وكانت الحضارة العربية نغماً فريداً خالداً بين أترابها، وما زالت أقدام بني يعرب راسخة ممتدة الجذور الى يومنا هذا في رقعة شاسعة تضم شواطىء الشام ومصر وافريقية ، بما يعادل نصف شواطىء المتوسط[1] . ويعزى سر هذا الخلود الى أن العرب اتخذوا أهبتهم لامتطاء ثبج أمواجه وفق خطوات منظمة مدروسة بعيدة عن الارتجال والفوضى ، وذلك منذ أن لامست أقدامهم مياهه في القرن السابع الميلادي حاملين راية الاسلام[2] .

وسرعان ما اشتد عود الأسطول العربي الفتي ، فهزم بحرية الروم ، وانتزع منها سيادة البحر المتوسط الذي زالت عنه صفة (بحر الروم) ، وغدا بحيرة عربية اسلامية بالنسبة لهذا البحر مثل سلطان الفاطميين في شمال افريقية ، ثم في مصر والشام فيما بعد ، قمة المجد العربي البحري ، حيث بدأ عصر سيادة الأساطيل العربية في المتوسط بلا منازع ، واستطاعت الدولة الفاطمية الناشئة أن تتبوأ تلك المنزلة السامية في تاريخ البحرية العربية

بسبب نشأتها وترعرعها في بيئة بحرية خالصة ،شاهدت منذ أقدم العصور أقوى الأساطيل وأشهر أمراء البحار الذين عرفهم التاريخ[٣] .

ومن المعلوم أن الفاطميين قضوا على الأغالبة، وورثوا ملكهم في (رقادة)[٤] وصراعهم في الحوض الغربي للبحر المتوسط . كان هذا الصراع قد ازداد حدة وعنفاً بعد فتح المسلمين لصقلية سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ،فأمست منذ ذلك الحين احدى القواعد الهامة لانطلاق الجيوش الاسلامية[٥] . ولما جاء الفاطميون ضاعفوا من ذلك النشاط ، ولم يكتفوا بموقف الدفاع وصد الهجمات ، بل وقفوا موقف الهجوم ، وحاولوا كسب مراكز جديدة لأنهم كانوا يهدفون الى تكوين امبراطورية قوية ذات قواعد عسكرية برية وبحرية ، كي يتمكنوا من أخذ زمام المبادرة وحماية دولتهم من أي خطر مهما كان مصدره ، ومن الطبيعي أن تجعلهم هذه السياسة مهتمين بالأسطول البحري وانشاء الموانىء الهامة كالمهدية[٦] وغيرها ، واقامة دور صناعة السفن على اختلاف أحجامها ، والبحث عن المواد الأولية كالأخشاب . وبرزت عنايتهم بالجيش البحري من حيث التدريب والعدد والعدة ، وأغدقوا الأموال والهبات على رجاله ، ومنحوهم الاقطاعات الواسعة بقصد تشجيعهم وبعث روح الحماسة في نفوسهم ، وبذلك يكونون طوع ارادة الخليفة ، ومتفانين في مهامهم العسكرية .

وفي الوقت نفسه اهتم عبدالله المهدي بجزيرة (صقلية) ، ودعم سلطانه فيها ، ورأى في الاحتفاظ بها سبيلاً لتحقيق أهدافه في انشاء امبراطورية عظيمة في المتوسط ، ففيها كنوز طبيعية مثل الذهب والفضة والنحاس والرصاص ، وهي منطقة زراعية خصبة معطاء، تنتج التفاح والبندق والجوز والقسطل .وتصدر ذلك كله صلاحيتها قاعدة لأسطول كبير . وكل أولئك يدعو الى الاستقرار والاستفادة مما تتمتع به هذه الجزيرة حيث وجد الفاطميون في حيازتهم شمال افريقية وصقلية موارد ساعدتهم على بناء أسطول قوي يحقق لهم تنفيذ مشاريعهم البحرية[٧] .

واستهل الأسطول الفاطمي الوليد نشاطه المبكر في حوض البحر المتوسط الغربي بتدعيم ملك الفاطميين بشمال افريقية وبسط سيطرتهم على ما جاورهم من الجهات الساحلية التي دأب أهلها على الشغب والثورات . وقد واجه الأسطول الفاطمي أثناء تحقيق هذه المهمة أسطول الأندلس ومحاولاته المتكررة للاغارة على ممتلكات الفاطميين[٨] ، فامارة الأمويين بالأندلس أزعجها قيام سلطان الفاطميين على مقربة من ديارهم ، وارتابت من أهداف

الفاطميين التوسعية • وبلغت شدة خوف الأمويين مبلغاً جعلهم يتحالفون مع الروم والفرنجة ضد الأسطول الفاطمي • فهناك من ذكر أن عبدالرحمن الناصر حسن علاقته مع صاحب بروفانس الذي كان حاقداً على الفاطميين بسبب غزوهم لموانيه كجنوة ، كما تحالف مع امبراطور بيزنطة قسطنطين الثامن (٣٤٩-٤١٩ هـ / ٩٦١-١٠٢٨ م) الذي كان يأمل في استرجاع صقلية وغيرها من المراكز البحرية التي كانت في أيدي خصومه الفاطميين[٩] • وإمعاناً في محاربة الفاطميين عمل الناصر على تحسين علاقاته بالإخشيديين في مصر ، حتى انه أرسل بعض مراكبه الى الاسكندرية بقصد محاربة أسطول الفاطميين • ولما أيقن الاخفاق في ذلك أمر بلعن الخليفة الفاطمي على منابر الأندلس ، وكتب بهذا الى جميع العمال بقصد الحط من قيمة الفاطميين[١٠] •

أما مع الروم فقد جرد الفاطميون حملاتهم العسكرية ضد أولئك الأعداء[١١] في كل فرصة سانحة طيلة عهدهم في المرحلة المغربية ، فهذا عبدالله المهدي يتابع هجماته عليهم سنين عديدة من المهدية أو صقلية ، حيث توجهت حملة بحرية من الميناء الأول بقيادة صابر الفتى ، وذلك في سنة ٣١٥هـ / ٩٢٩م ، وعدتها أربعة وأربعون مركباً، مخرت عباب اليم حتى وصلت صقلية[١٢] ، ومنها شنت غاراتها على سواحل الروم ومدنهم ، فقتلت الكثير ، وغنمت ، وعادت الى قواعدها سالمة[١٣] ، ثم أعاد صابر الكرة في السنة التالية من صقلية أيضاً ، فافتتح عدة مواطن رومية ، واستولى على ما فيها ،وأجبر أصقاعاً أخرى على مصالحته بأموال وديباج وثياب ، وعاد بجيشه الى صقلية مركز انطلاقه[١٤] ، ثم أعاد الكرة سنة ٣١٧ هـ/٩٣١ م ، فالتقى في البحر بسبعة مراكب للروم ، وهو في أربعة ، فهزم خصومه، وفتح وسبى سبياً كثيراً، ورجع الى المهدية[١٥] •وبذلك سن المهدي لمن جاء بعده سنة توجيه الحملات البحرية من المهدية[١٦] وصقلية ضد الموانىء الرومية • وكان ولاة صقلية يساهمون مساهمة فعالة في هذا المجال نظراً لمركز ولايتهم الاستراتيجي وامكانات أسطولها البحري• وخير مثال على ذلك الحملة التي قادها يعقوب بن اسحق في آخر حياة عبدالله المهدي ، ففتحت جنوة وسردانية[١٧] • وقد قال آدم متز عن اتصال الأسطول الفاطمي بالحوض الغربي للبحر المتوسط منذ عهد عبدالله المهدي وسيطرته على مياهه ما نصه[١٨] : « ولم يكن لأوروبة سلطان على البحر الأبيض المتوسط خلال القرن العاشر الميلادي ، فقد كان بحراً عربياً • وكان لا بد لمن يريد أن يقضي لنفسه أمراً أن يخطب ودالعرب كما فعلت نابولي وغيته وأمالقي » •

ويظهر أن الملاحة الأوربية نفسها كانت - في ذلك العصر - على حال يرثى لها من الضعف، ففي سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٥ م استطاعت مراكب عبدالله المهدي الفاطمي أن تغزو جنوب فرنسة ومدينة جنوة وأن تنهبهما، وأن تفعل مثل هذا بمدينة بيزا في عامي ٣٥١-٣٥٤ هـ فهذا النص يبين لنا مدى ثقل وطأة الأسطول الفاطمي على أساطيل أوروبة وتحكمه في لجج البحر المتوسط، وأن سلطة الفاطميين في المغرب تمثل قمة المجد البحري الاسلامي في البحر المتوسط وعصر سيادة الأساطيل الاسلامية لهذا البحر[١٩].

وظل الاهتمام بالأسطول متواصلاً وكبيراً في عهد أبي القاسم محمد القائم، بل بلغت قوته شأواً بعيداً، وتفاقم خطره على الأساطيل البيزنطية، حيث ضاعف من غاراته عليها من موانىء المغرب وثغوره، ومن صقلية أيضاً. ولعل قلة الثورات الداخلية في بداية عهده تركت له مجالاً للاهتمام بحرب الروم والعناية بالأسطول أكثر من أبيه. ويقول ابن خلدون بهذا الصدد[٢٠]: « وكان أبوالقاسم الشيعي وأبناؤه يغزون بأساطيلهم من المهدية جزيرة جنوة فتنقلب بالظفر والغنيمة كما وقع في أيام بني الحسن ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين، وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم الى الجانب الشمالي الشرقي، وأساطيل المسلمين قد ضربت ضراء الأسد على فريسته، وقد ملأت الكثير من بسيط هذا البحر عدة وعدداً، واختلفت في طرقه سلماً وحرباً، فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح. حتى اذا أدرك الدولة العبيدية والأموية الفشل والوهن مد النصارى أيديهم الى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية وقريطش ومالطة، فملكوها، ثم ألحوا على سواحل الشام ». فهذا النص يبين لنا مدى الدور الخطير الذي شغله الفاطميون في الدفاع عن المغرب الاسلامي والمتمثل في رد غزوات الروم.

أما في عهد المعز لدين الله فقد كان للبحرية الفاطمية شأن يذكر في بلاد المغرب ومصر، حيث اتخذ هذا الخليفة من المهدية مرفأ رئيساً ومن سوسة وغيرها من الموانىء أماكن تأوي اليها سفنه، ولا نغلو اذا قلنا: ان المعز لدين الله، بفضل أسطوله القوي، جعل غربي البحر المتوسط بحيرة فاطمية[٢١]، وذلك نظراً لقلة الاضطرابات الداخلية في عهده، وبفعل سياسة اللين والتفتح التي اتنهجها - أحياناً - مع الثائرين. ولذا وجد المجال متسعاً للاهتمام بالأسطول حيث اتخذ من المراسي المختلفة مأوى لقطع هذا الأسطول. وعمل المعز جاهداً على تحصين موانئه، حتى انه قال[٢٢]: « لئن امتد المقام هنا - أي في المنصورية - لنجرين

البحر بحول الله وقوته الينا في خليج حتى تكون مراكبنا تحط وتقلع بحضرتنا » . ولا شك أن هذا يدل على مدى عنايته أكثر من أسلافه بالجيش البحري حيث أراد أن يجعل من المنصورية ميناء ثالثاً من حيث الأهمية بعد المهدية وسوسة[٢٣] . وقد كثرت في عهده المحارس والثغور مثل سبته ومليلة ووهران وجزائر بني مرغنة وبجاية وجيجل وسكيكدة وبونة ومرسى الخزر وبنزرت وتونس وسوسة والمهدية وصفاقس وقابس وطرابلس وبنغازي، حتى بلغ عددها على ما روي أكثر من عشرة آلاف حصن مبنية بالحجارة والكلس وأبواب الحديد[٢٤] .

ولا عجب ان وجدنا هذا الأسطول يمثل العامل الأكبر في انتصارات الفاطميين البحرية، ويعود اليه الفضل في تزويد جوهر بالامدادات أثناء فتحه مصر[٢٥] . ونلاحظ تقدماً ملموساً في قوة الأسطول الفاطمي في عهد المعز بما في ذلك القطع البحرية العاملة بالمغرب الأوسط[٢٦] . ويمكننا أن نوجز أهم العوامل التي ساعدت على نمو الأسطول وقوته فيما يلي :

١ – صلاحية الموقع الجغرافي لبلاد المغرب وكثرة موانيه ، ووجود أحواض لبناء السفن مثل المهدية وسوسة وبونة (عنابة) ومرسى الخزر ، والقالة وبجاية وغيرها ، وتوفر المواد اللازمة لبناء السفن كالأخشاب التي تصنع منها ألواح السفن ، والحديد الذي يوجد في صقلية وبونة وبجاية والإربس . بالاضافة الى القطرن والحبال[٢٧] .

٢ – وراثة الفاطميين لأسطول قوي عن الأغالبة ، يعود تاريخ نشأته الى عهد حسان بن النعمان (٧٥–٧٨ هـ/٩٦٥–٩٦٨ م) ، حيث عملوا على تنميته وتطويره ، ولم يبدؤوا من الصفر في هذا المجال[٢٨] .

٣ – وجد الفاطميون بين أهل المغرب اطارات ذات كفاية عالية، عارفة بالملاحة والأمور البحرية ، ولها خبرة ودراية في هذا المجال منذ عهد الفينيقيين ، فكان هذا أحد العوامل في قوة بحريتهم ونجاحها[٢٩] .

٤ – يعتبر مركز صقلية البحري الهام من العوامل التي ساعدت على قوة الأسطول وتحكمه في مياه الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وقد أصبحت محطة بحرية هامة للمسلمين منذ ان فتحت سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م على يد أسد بن الفرات[٣٠] .

٥ – هذا ويمكن أن نعتبره تأصل فكرة الجهاد عند الفاطميين وتطلعهم الى التوسع شرقاً وغرباً ، وخوفهم من الخطر الخارجي المتمثل في الروم بصفة خاصة من أهم الحوافز

التي جعلتهم يعنون أشد العناية بأمور الأسطول حتى تكون لهم قوة بحرية قادرة على تحقيق آمالهم في توسيع رقعة دولتهم ورد الخطر الخارجي المسيحي كما ذكرنا .

٦ – عني المعز بالأسطول أكثر من أسلافه لأنه كان يهدف الى تكوين قوة بحرية كبيرة يسيطر بها على حوضي البحر المتوسط الغربي والشرقي على السواء ، ويقارع بها كلاً من الأمويين والروم في الحوض الأول ، والعباسيين في الحوض الثاني . كما كان ينوي أن يتخذ من سواحل مصر والشام جسراً يعبر منه الى بغداد(٣١) .

٧ – ومما زاد من قوة الأسطول في عهد المعز وراثته لأسطول الإخشيديين . فبعد فتحه مصر وجد بين المصريين جنداً أكفاء في ميدان الملاحة النهرية والبحرية معاً . وبعد فتح مصر والشام حقق ما كان يطمح اليه في هذا المجال حيث امتد نفوذه البحري من سبته غرباً الى أنطاكية شرقاً ، بالاضافة الى الموانىء المطلة على المحيط الأطلسي . وبذلك بلغ الأسطول في عهده ذروة مجده(٣٢) .

والى هذا الأسطول الفاطمي يرجع فتح مصر في أسرع وقت ، فقد كان همزة الوصل بين جيوش جوهر الغازية وبين المعز في المغرب. وفي حراسة هذا الأسطول كانت الامدادات تصل الى جوهر في سهولة ويسر . وقد اتخذ المعز في بعض المدن المصرية دوراً لصناعة السفن، فأنشأ في المقس دار صناعة ضخمة ، وصفها المسبحي المؤرخ المصري المتوفى سنة ٤٢٠ هـ بقوله(٣٣) : « انه لم يُرَ مثلها فيما تقدم كبراً ووثاقة وحسناً » . وقال ابن أبي طي (٣٤) : « لم يُرَ مثلها في البحر على ميناء » . ويظهر أن المعز لم يهمل دار صناعة الفسطاط التي كانت تسمى « دار صناعة مصر » ، كما عني باقامة دور صناعة السفن في مواني مصر الهامة كالاسكندرية ودمياط(٣٥) .

ولم يكن بناء السفن في مصر راجعاً الى خوف المعز من غارات الروم والقرامطة على مصر والشام فحسب ، بل كان ذلك راجعاً الى رغبته في بسط نفوذه على البلاد التي قد يتخذها الأعداء طريقاً يغيرون منه على مصر . بالاضافة الى ما كان يهدف اليه المعز لدين الله من اتخاذ مصر والشام قنطرة يعبر منها الى بغداد حاضرة العباسيين في ذلك الحين(٣٦) . أضف الى ذلك أنه حرص على أن تكون لأسطوله السيادة والتفوق على سائر أساطيل البحر المتوسط . ولا غرو فقد دخلت في حوزة المعز لدين الله – بعد أن تم له فتح مصر والشام –

البلاد الواقعة على البحر المتوسط من أنطاكية الى سبته ، ووقعت في يده موانىء المغرب الأقصى المطلة على المحيط الأطلسي[٣٧] .

ومن ثم ملأ المعز كثيراً من موانىء الشام الهامة ، مثل صور وعكا وعسقلان ، بالسفن الكثيرة المختلفة الأنواع وأهمها الشلنديات[٣٨] والشواني[٣٩] الحربية والمسطحات[٤٠] والطرادات[٤١] والعشاريات[٤٢] والحراقات[٤٣] . وقد رأينا موقف أسطول المعز من صور وسواها في حروبه مع الروم ، كما رأينا كيف اتخذ جوهر من عكا وعسقلان مستودعات للامدادات التي كانت تتدفق على جيوش الفاطميين في بلاد الشام ، حتى ان قواد المعز اتخذوا منها أماكن يفرون اليها مع جندهم من وجه أعدائهم ، ولا سيما القرامطة[٤٤] .

ولأهمية السواحل الشامية في نظر المعز كان يعين عليها قواداً وولاة ، ليكون الاتصال محكماً بين مصر وبلاد الشام ، وقد قدرت سفن الأسطول الفاطمي التي بنيت في دور الصناعة المصرية بأكثر من ستمائة قطعة مختلفة الأشكال والأحجام ، على حين بلغ عدد السفن في أواخر عهد الدولة الفاطمية مائة قطعة فقط[٤٥] .

وهكذا استغل المعز لدين الله موقع مصر والشام الاستراتيجي ، فكون أسطوله الشرقي الضخم ، ولو قدر له البقاء طويلاً لكان هذا الأسطول أكثر ضخامة وأبعد أثراً . وقد وصف المقريزي عناية المعز بالأسطول بهذه العبارة[٤٦] : « لما سار الروم الى البلاد الشامية بعد سنة خمسين وثلاثمائة اشتد أمرهم بأخذهم البلاد ، وقويت العناية بالأسطول في مصر منذ قدم المعز لدين الله ، وأنشأ المراكب الحربية ، واقتدى به بنوه وكان لهم اهتمام بأمور الجهاد ، واعتناء بالأسطول ، وواصلوا انشاء المراكب بمدينة مصر واسكندرية ودمياط ، من الشواني الحربية والشلنديات والمسطحات وتسييرها الى بلاد الساحل مثل صور وعكا وعسقلان ، وكانت في أيام المعز تزيد على ستمائة قطعة » .

وكان للأسطول أمير يدعى « قائد القواد » ، وقد سمي بذلك لأنه يرأس عشرة قواد ، كما كان يطلق عليه « أمير الجيش » و « المستوفي »[٤٧] . وقد بلغ من عناية المعز ومن جاء بعده من الخلفاء بالأسطول أن الخليفة كان ينفق عليه في غزواته بنفسه ، ويساعده وزيره أو يقوم مقامه . ولم يكن بحارة الأسطول في مرتبة واحدة ، فهناك جماعة كانت تتقاضى راتباً قدره ديناران ، وأخرى تتقاضى ثمانية ، وثالثة عشرة دنانير ، ورابعة خمسة عشر ديناراً ، وخامسة عشرين ديناراً ، وسادسة خمسة وعشرين ديناراً . أما أمير الأسطول أو

«مُقَدَّمُه» فكان من كبار الأمراء والأعيان،وهو أمر لا بـد منه على حد قول المقريزي ، ان يقوم على الأسطول كبير من الأعيان مـن أمراء الدولة وأقواهم[٤٨] • كما كان الخليفة يقطع رجـال الأسطول اقطاعات عرفت باسم« أبواب الغزاة » • وكـان قائـد الأسطول يشرف عليه، ويتناوب القواد العشرة الاشراف العملي ، فيأتمر الجميـع بأمر القائـد الذي تؤول الرياسة اليـه[٤٩] •

ولكي يشجع الخليفة رجال الأسطول أوالغزاة – كما كانوا يسمونهم – كان يترك لهم من الغنائم المال والثياب والمتاع ، ولا يستبقي سوى الأسـرى والسلاح • وكانت الفسطاط مـن أهم مراكز الأسطول ، وكان الخليفـة يشاهد بنفسه حفلة النفقة على الأسطول عند خروجه ، ويبارك رجاله ، ويدعو لهم بالتوفيق،كما كان يحضر حفلة استقباله عنـد عودته • وقـد بلغ اهتمام الخلفاء الفاطميين بالأسطول أنهـم اتخذوا لهـم « منظرة »[٥٠] بالمقس ، يحتفلون فيهـا بتوديع الأسطول واستقباله ،ويتضح ذلك من هـذا الوصف الشيق الذي أورده المقريزي[٥١] : « ويتولى الخليفة بنفسه بحضور الوزير • فاذا أراد النفقة فيما تعين من عدة المراكب السائرة •• فيتقدم الى النقباء باحضار الرجال ، وفيهم من كان يتعيش بمصر والقاهرة ، وفيهم مـن هـو خارج عنهـا ،فيجتمعون ، وكانت لهم المشاهرة والجرايات في مدة أيام سفرهم ، وهم معروفون عند عشرين عريفاً يقـال لهم النقباء ، واحدهم نقيب » •

وكان رجـال الأسطول يشغلون مكانة سامية بين موظفي ديوان الجيش ، ولا غرو ، فان صاحب ديوان الجيش ، وهو المستوفي ،كان أمير الأسطول• وبذلك وضع المعز لدين الله أساس نظام البحرية في مصر[٥٢] ، ونهج نهجه من جاء بعده مـن الخلفاء ، الا أنهم لم يصلوا بالجيش والأسطول الى ما وصل اليه المعـز •

وليس أدل على اهتمـام المعز بالأسطول من اعتماده على « ديوان الجهاد » أو « ديوان العمائر » كمـا كانوا يسمونه في تنظيم شؤون الأساطيل ، ووقف الأموال الضخمـة للانفاق على الأسطول ورجاله • وكثيراً ما كـان المعز يمد هـذا الديوان بالعطـايا والهبات مـن بيت المـال •

وكذلك عني المعز بالأسطول التجـاري لينقـل السلع المصرية الى البلـدان الأخرى ، ويعود محملاً بالسلع من هذه البلدان[٥٣] • وقـد أصبح للفاطميين أسطولان تجـاريان ، أحدهما في البحر المتوسط ، والآخر في البحر الأحمر ، فكانت الاسكندرية ودمياط في مصر،

وعسقلان وعكا وصور وصيدا في الشام ، من أهم الموانىء الفاطمية(٥٤) في البحر المتوسط ، كما كانت عيذاب من أهم مواني البحر الأحمر، وكانت مزودة بأسطول حربي يقوم على حماية الأسطول التجاري والقضاء على اللصوصية في هذا البحر(٥٥) .

وقد عني الخليفة المعز «بديوان الاقطاع» الذي كان تابعاً « لديوان الجيش » ، وكان عمل صاحبه مقصوراً على النظر في الاقطاعات التي اقتطعها رجال الجيش وخاصة الممتلكات الكثيرة التي كانت تابعة للاخشيديين من قبل(٥٦) .

وصفوة القول : إن المعز لدين الله نهض بالجيش والبحرية نهضة مباركة مشهودة ، كان لها أثر بعيد المدى فيما قام به الفاطميون من فتوح وما نالوه من انتصار وظفر . وما كان هذا ليتم الا باستخدام المقاتلين الطرق العلمية في المجال البحري ، وبما تهيأ لهم من عدة وأسلحة ، في مقدمتها النفط الخاص باحراق مراكب العدو . كما استخدموا الكلاليب الحديدية التي ترمى على سفن العدو بقصد اغراقها أو العبور اليها بواسطة الألواح الخشبية والسلالم ، كما استخدموا السيوف ومختلف الأسلحة الخفيفة(٥٧) ، وقد بلغت قطع الأسطول الفاطمي بالمغرب ما يزيد على ثلاثمئة ، كما بلغت في عهد المعز بمصر أكثر من ستمائة قطعة(٥٨) . لكن شأن الأسطول أخذ بالضعف والتدهور في آخر عهدهم حيث وصل الى مائة وعشرين سفينة فقط .

ومما تقدم يتجلى لنا أن الفاطميين عنوا عناية كبرى بالأسطول ورجاله في المغرب وبعد رحيلهم الى مصر ، واحتل رجاله مكانة بارزة في ديوان الجيش وبذلك سطر الفاطميون صفحة زاهية مشرقة في التاريخ العربي ، وبنوا لنا مجداً تليداً انبعث منه عبق البطولة وأريج الجهاد .

★ ★ ★

هوامش :

١ ـ ماجد عبد المنعم : الأطلس التاريخي للعالم الاسلامي ص ٢ Atlas geologique d'Algerie, P. 35 .

٢ ـ البكري : المغرب ص ٣٧ حسن حسني عبد الوهاب . بساط العقيق ص ٤٩ .

٣ ـ ماجد عبد المنعم : ص ٢ ـ ٣ Gautier : le passé de l'Afrique, p. 52 .

٤ ـ القاضي النعمان : افتتاح الدعوة ص ٢٢٢ ، ٢٣١ . ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٤٠ ـ ٤٧ . المقريزي : اتعاظ ١ ص ٨٦ ـ ٨٨ .

٥ ـ الادريسي : المكتبة العربية الصقلية ص ٢٨ ـ ٣١ . ابن الأثير : ج ٧ ص ٥ ـ ٧ . موربينو : المسلمون في صقلية ص ١١ ـ ١٢ . Gorges M. : l'Architecture musulmane, p. 324 .

٦ ـ أحمد توفيق المدني : المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا ص ٧٢ ـ ٧٣ .

٧ ـ البكري : المغرب ص ٢٩ الحميري المعطار ص ١٧٢ . ياقوت الحموي : المعجم ج ٥ ص ٢٣ .
Encyclopédie de l'islam, p. 329.

٨ ـ حسن ابراهيم حسن وآخر : المعز لدين الله ص ١٧٨ .

٩ ـ أرشبالد لويس : القوى البحرية في البحر المتوسط ص ٢٣٤ ـ ٢٣٦ ـ ٢٣٧ .

١٠ـ ابن حوقل : صورة الأرض ص ١١٧ وما بعدها . حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٠ .

١١ـ ميخائيل أماري : المكتبة العربية الصقلية ص ٦١ Histoire de l'Afrique du nord, p. 412 .

١٢ـ ابن عذاري : البيان ج ١ ص ١٩٢ Grand l'Arousse, p. 512 .

١٣ـ نفسه ج ١ ص ١٩٢ Le passe de l'Afrique du nord, p. 427 .

١٤ـ نفسه ج ١ ص ١٩٤ .

١٥ـ ياقوت الحموي معجم ج ٣ ص ٢٠٩ . حسن ابراهيم حسن: عبدالله المهدي ص ٢٠٢ .

١٦ـ آدم متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٤٢٦ أرشبالد لويس المرجع نفسه ص ٢٣٥ .

١٧ـ صابر محمد دياب : سياسة الدول الاسلامية في حوض المتوسط ص ٩٩ ـ ١٠٠ ـ ١٠١ .

١٨ـ نفسه .

١٩ـ المقدمة ص ١٥٠ ـ ١٥٢ .

٢٠ـ ابن خلدون : المقدمة ص ١٥٠ ـ ١٥١ Golvin : Le Magreb centrale à l'epoque, p. 249 .

٢١ـ مختار العبادي : تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام ص ٧٧ .

٢٢ـ النعمان : المجالس ص ٥٩٢ . العبادي : ص ٧٠ l'Architecture musulmane, p. 412 .

٢٣ـ حسن ابراهيم حسن : المعز لدين الله ص ١٨٥ Histoire de l'Afrique, p. 329 .

٢٤ـ البكري : المغرب ص ٣٧ ـ ٥٥ ـ ٦٤ ـ ٦٥ ـ ٨٢ ـ ٨٣ـ ٨٥ . حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق ص ٥٢ .

٢٥ـ حسن ابراهيم حسن وآخر ص ١٨٥ ـ ١٨٦ .

٢٦ـ البحرية الجزائرية : نشر المكتبة الوطنية الجزائرية ص ٢٧ .

٢٧ـ مختار العبادي وآخر : تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام ص ٧١ ـ ٧٢ الى ٧٦
Le passe de l'Afrique du nord, p. 412.

ابن عذاري : البيان ج ١ ص ١٠٢ . حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق ص ٤٩ ـ ٥٠ .
عبدالله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .

٢٨ـ العبادي : البحور الاسلامية ص ٧٧ ـ ٧٨ .

٢٩ـ ابن الأثير الكامل ج ٦ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ . المالكي : رياض النفوس .

٣٠ـ مختار العبادي : البحرية الاسلامية ص ٦٨ ـ ٧٠ . Grand L'arousse, p. 521 .

٣١ـ ابن عذاري : البيان ج ١ ص ١٨٠ . عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٦١٤ ـ ٦١٥ .
أرشبالد لويس : ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .
سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٢١ .
محمد صابر دياب : سياسة الدول الاسلامية ص ١١٧ .

٣٢ـ ابن الأثير الكامل ج ٧ : ٣١ • ابن حماد : تاريخ بني‌عبيد ص ٤٠ ، البداية والنهاية ج ١ ص ٢٦٦ • حسن ابراهيم حسن وآخر : المعز لدين الله ص ٨٣ ـ ٨٤ • صابر ديـاب ص ١٠٢ •

٣٣ـ حسن ابراهيم حسن وآخر : المعز لدين الله ص ٨٣ ـ ٨٤• صابر دياب : النظم الاسلامية ص ٥٢١ •

٣٤ـ المقريزي : خطط ج ٢ ص ١٩٥ •

٣٥ـ ابن كثير ج ١ ص ٢٦٦ • المقريزي خطط ج ١ ص ٣٢٩ـ٣٣٠ •

٣٦ـ الطبري ج ٦ ص ٢٥٧ • النعمان : افتتاح الدعوة ص٣٢ ـ ٥٤ ـ ٧١ • ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ١٤٧ ـ ١٦١ • ابن عذاري : البيان ج ١ ص ١٧١ ـ ١٨١ • **Encyclopédie de l'Islam, pp. 13-19** .

٣٧ـ مختار العبادي وآخر : المرجع نفسه ص ٧٦ ـ ٧٧ •

٣٨ـ مفردها شلندي ، من المراكب المسطحة ، وتغنص بحمل‌العتاد والرجال • مختار العبادي وآخر : تاريـخ البحريـة الاسلامية في مصر والشام ص ٣٥ ـ ٣٦ • ماجد : نظم‌الفاطميين ج ١ ص ٢٢٢ • ابراهيم حسـن : المعـز لدين الله ص ١٨٦ •

٣٩ـ مفردها شونه • وهي سفن كبـيرة بها أبراج كبـيرة ،تشبه البوارج الحربيـة في يومنـا هذا ، وبها آلات الهجـوم والدفاع • ماجد المرجع نفسه • مختار العبادي وآخـرالمرجع نفسه ص ١٣٦ • محمد صابر دياب : سياسة الـدول الاسلامية ص ١٠٧ **Dozy T.I. 717** .

٤٠ـ نوع من السفن •

٤١ـ واحدها طراد : وهي من السفن الصغيرة القوية السـريعة ، تحمل الواحدة منها نحو مئة فارس • العبادي وآخر ص ١٣٥ • حسن ابراهيم حسن وآخر المرجع نفسه ص ١٨٦ •

٤٢ـ من القوارب النهرية التي استخدمها الفاطميون في غزواتهم البحرية واحدها عشيري •

٤٣ـ تلي الشواني في الضخامة ، وتحمل المنجنيقات وغـيرهـا من معدات الهجوم • مختار العبادي : المرجع نفسه ص ١٣٤ • حسن ابراهيم حسن وآخر المرجع نفسه ص ١٨٧ • محمدصابر دياب : نفسه ص ١٠٨ ـ ١٠٩ •

٤٤ـ المقريزي : خطط ج ١ ص ١٩٣ • سهيل زكار : القرامطة‌ص ٣٩٢ وما بعدها •

٤٥ـ خطط المقريزي ج ٢ ص ٩١٣ • حسن ابراهيم حسن :المعز لدين الله ص ١٨٦ ـ ١٨٧ •

٤٦ـ خطط ج ٢ ، ص ١٩٣ •

٤٧ـ المقريزي خطط ج ٢ ص ١٩٣ •

٤٨ـ نفسـه •

٤٩ـ نفسـه •

٥٠ـ حسن ابراهيم حسن ووآخر : المعز لدين الله ص ١٨٨ •ماجد : الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ص ٧٩ •

٥١ـ حسن : نظم الفاطميين ص ٢٧١ •

٥٢ـ خطط ج ٢ ص ١٩٣ •

٥٣ـ تاريخ الدعوة الاسماعيلية ص ١٨٤ • رابح بونار : المغرب العربي ص ١٨٧ •

٥٤ـ مختار العبادي وآخر : المرجع نفسه ص ١٤١ • ماجد المرجع نفسه ج ١ ص ٢٢٧ •

٥٥ـ صابر محمد دياب : سياسة الدول الاسلامية في حـوض‌البحر المتوسط ص ١٠٧ ـ ١٠٨ •

٥٦ـ انظر م ـ أ ـ م مقال الأخشيد ص ٥١٢ **Gobrin : Le Magreb, p. 570** .
Gautier. Le passé, p. 412. Dozy suplement aux dixtionnaires Arabes, p. 67, leir l'espague, p. 332

٥٧ـ مختار العبادي وآخر : المرجع نفسه ص ١٤١ • ماجـد :نظم الفاطميين ج ١ ص ٢٢٧ •

٥٨ـ المقريزي : خطط ج ٢ ص ١٩٣ • حسن ابراهيم حسن‌وآخر : المعز لدين الله ص ٨٦ ـ ٨٧ •

☐ تثبيت المصـادر والمراجع :

١ ـ آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري(جزآن) ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده ، طبع لجنة التاليف والترجمة ط ٣ القاهرة ١٣٧٧ هـ .

٢ ـ الادريسي : الشريف الادريسي المتوفي (٥٤٨ هـ/١١٥٤ م) وصف افريقية الشمالية والصحراوية تصحيح ، هنري بيرس ، الجزائر ١٣٧٦ هـ/١٩٥٧ م .

٣ ـ ارشبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠ ـ ١١٠٠ م) ترجمة أحمد عيسى ، نشر مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٠ م .

٤ ـ ابن الأثير : أبو الحسن علي بن الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت ٦٣٠ هـ) .

٥ ـ الكامل في التاريخ (٨ أجزاء) نشر دار الكتاب العربي ، بيروت ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م / .

٦ ـ ابن حوقل : أبو القاسم بن حوقل النصيبي (ت ٣٦٧ هـ) كتاب صورة الأرض ، بيروت مكتبة الحياة .

٧ ـ ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ) المقدمة والكتاب ، نشر دار الكتب اللبناني ـ بيروت ١٩٦٧ م .

٨ ـ ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين بن محمد بن أبي بكر (٦٨١ هـ/١١٨١ م وفيات الأعيان ج ٢ ، ٣ ، ٤ ، دار الثقافة ـ بيروت .

٩ ـ ابن سعد : عريب بن سعد القرطبي المتوفي سنة ٣٨٠ ـ صلة التاريخ الطبري القاهرة ، دار الاستقامة ١٣٥٨ هـ/ ١٩٣٩/ م .

١٠ـ ابن سعد المغربي : أبو الحسن علي بن موسى المتوفي(٦٨٥ هـ/١٢٨٦ م) كتاب الجغرافيا ، تحقيق اسماعيل العربي ، بيروت ط ١ ، نشر المكتب التجاري المغرب في حلي المغرب (جزآن) تحقيق شوقي ضيف (ط ٢ ، نشر دار المعارف ط ٢ القاهرة ١٩٦٤ .

١١ـ أبو الفداء : الحافظ بن كثير (ت ٧٧٤ هـ) .

١٢ـ البكري : أبو عبدالله بن عبد العزيز بن محمد مصعب الحافظ (ت ٤٨٧ هـ) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، تحقيق دوسلان ـ بغداد نشر مكتبة المثنى ـ جغرافية الأندلس وأوروبة ، تحقيق عبد الرحمن الحجي ـ بيروت ـ طبعة سنة ١٣٨ هـ/١٩٦٨ م / .

١٣ـ بونار : رابح : المغرب العربي تاريخه وثقافته ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٦٨ م .

١٤ـ ثابت بن سنان وابن العديم : تاريخ أخبار القرامطة وترجمة الحسن الأعصم ، تحقيق سهيل زكار ـ دار الأمانة ، بيروت سنة ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م/ .

١٥ـ الجوذري : أبو علي منصور العزيزي « أواخر القرن ٤٨٥هـ » سيرة الأستاذ جوذر تحقيق محمد كامل حسن ، ومحمد عبد الهادي شعيرة ، طبعة الاعتماد ، مصر ١٩٤٥ م .

١٦ـ جوليان : شارل أندريه : تاريخ افريقية الشمالية ، تعريب محمد مزالي ، البشير بو سلامة طبع السداد ١٩٦٩ م .

١٧ـ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ط ٢ مكتبة تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي (٣ أجزاء)ط ٦ مكتبة ، النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٢ م . عبيد الله المهدي امام الشيعة الاسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب (بالاشتراك مع الدكتور طه أحمد شرف) مكتبة النهضة القاهرة ١٣٦٦هـ/١٩٤٧ م .

١٨ـ حسن علي ابراهيم : تاريخ جوهر الصقلي ، قائد المعزلدين الله الفاطمي ، مكتبة النهضة المصرية ط ٢ ، القاهرة عام ١٩٦٣ م .

١٩ـ الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد اللهالحموي الروي البغدادي المتوفي (٦٢٦ هـ/١٢٢٨ م) معجم البلدان (٥ أجزاء) بيروت ١٩٥٥.م ٠

٢٠ـ الدباغ : عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله الأنصاري(ت ؟) كتاب معالم الايمان في معرفة أهل القيروان (٤ اجزاء) المطبعة العربية بتونس ١٣٢١ ٠

٢١ـ دياب : صابر محمد : سياسة الدول الاسلامية في حوضالبحر المتوسط في أوائل القرن الثاني الهجري ، حتى نهاية العصر الفاطمي ، نشر عالم الكتب ط ١ القاهرة ١٩٧٣م ٠

٢٢ـ سرور : محمد جمال الدين : سياسة الفاطميين الخارجية، دار انفكر العربي ، القاهرة ١٣٨٦ هـ/١٩٦٧ م ٠

٢٣ـ سالم : السيد عبد العزيز : المغرب الكبير (العصـرالاسلامي) طبع الدار القومية القاهرة ١٩٦٦ م ٠

٢٤ـ ماجد : عبد المنعم : تاريخ الحضارة الاسلامية في العصورالوسطى ـ القاهرة ، نشر مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٣ م٠

٢٥ـ ماجد : عبد المنعم : علي البنا : الأطلس التاريخي للعالم الاسلامي في العصور الوسطى ـ القاهرة ط ٢ ـ دار الفكر عام ١٩٦٧ م٠

★ ★ ★

Dozy, R.

1 — Supplement aux dixtionnaires Arabes Paris 1967.

2 — Gaulhier E. F.
Le passé de l'Afrique du nord petite Bibliothèque, Paris 1952.

3 — Golvin L.
Le Maghreb central à l'eppoque des Zirides Mitiers graphiques, Paris 1957.

4 — Julien ch. André
Histoire de l'Afrique du nord. payot, Paris 1931.

5 — Marcais Gorges
L'architecture Musulmane d'occident : Tunis - Algerie Maroc Espagne et sicile, Paris 1954.

6 — Provençal levi.
L'espagne musulmane aux X^eme sicile institution et vie social larosse, Paris 1932.

7 — Atlas géologique de l'algerie Redigé Par Stephon - Gazelle Adolph jourdon imprimeur librairie Educateur Alger 1911.

8 — Grand larousse Paris 1960 - 1961 - 1962 - 1963.

9 — Encyclopédie de l'Islam, Paris 1913 - 1934 - 1954.

السوط والحب !!

نذير الحسامي

أيها السوط يا أخي في يد الجلاّد بل يا أخيَّ مهلاً .. رويدا
سامني الخسفَ فانتفضتُ فعربدتَ فكانت لظاك ناراً وقيدا
لستَ في كفه وترمقني شزْراً وتبدو عليَّ أكثر حقدا !
ذقتُ عدوانه وذقتك لكن كنتَ منه على رفيقك أعدى
أإذا نلتُ منه ألفاً غلاظاً نلتُ من قبضتيك ألفين عدّاً ؟!
واذا ضامني به العسف واشتدّ على جانحيَّ كنت أشدا ؟
أنتما سيّدان ؟ أم سيد شاءك عبداً لتمسخ الحر عبدا ؟
أصْغِ للكبرياء تتلو الأناشيد على كل لسعةٍ منك جَلْدا
أنت مني .. من دمع جِلدي أساقيك وتمسي ليَ العدو الألدا ؟
في جراحي سرحتَ ماذا بها لحتَ أأنكرتَ بي على الموت جَلْدا ؟
أتشمّمت غير رائحة الود لمن خانني على القرب ودّاً ؟
السطورُ الحُمر التي منك في ظهري سلاماً كانت عليك وبردا ؟

والنـدوب التي اكتويت' بها منـك أباتـت عـلى حنايـاك تَنـدى ؟
صـدىءَ الحب في فـؤادك هل كـان بغير الخنـوع والـذل يصـدا ؟
أإذا لـم أبـلّ حـدك مـن دمعـي رماك الطاغـوت جمـراً وحـدا ؟!
يا أخيَّ الصغـير نْسجك من لحمي فمـن ذا يكـون بعـديَ بُـردا ؟
كَفَّ لؤمُ الزمـان في غمـرة الليل ائتـلاقـي فغـاب نجمـي وأكدى
وعـلاني عبـد النذالة بالسـوط جـريحـاً فثـار جـرحـيَ وقْدا ؟
يا رداء الباغـي وراء الدياجـي   سوف يَردَى الباغي وما يتردّى
كيف عاديتني وصـافيت من لـم   تكُ سيفاً لـه ولم تـك غمـدا ؟
أصغـير مع الصغـير الذي عـربد كفـراً وزاد بالسـوط جُنـدا ؟
لا تمـرّغ بحمْأة العـار جفنيـك ولا تنقلب مـع الوغـد وغـدا
عُـدْ بلحمي وعُـد إليَّ بمـا مزّقتَ منـه إن كنت تملـك عَـودا
ردَّ لي مـا أخـذتَ من دمي الحر امتهـانـاً إن كنـت تسْطيـع ردا
ادْنُ منـي إنـي وهبتـك غفـراني عطـاءً إليـك لـن يُستـردا
كن بجنبي أخاً وذق طعم عهـدي   وتَطهّـر يـداً وروحـاً وكبْدا
كن زنادي في الليل يُقـدح للسـاري وأشتـد فيـك جنحـاً وزَندا
كـن ضمـادي إذا تَفجّر عِرق   من شـفاه الصـباح يطلب وعدا
ستراني غـداً أزحـزح ليـلاً   كـان بي يوم كنت بي مستبدا !

بريده في ١٩٨٣/٨/١٤   **نذير الحسامي**

ماني الموسوس من أشعر الناس.. ولكن!

عادل العامل

تصادف الباحث المتقصي لأشعار الأقدمين صعوبات جمة ناجمة عن الدمار الذي أصاب تراثنا الفكري، لأسباب مختلفة، وضياع دواوين عدد كبير من الشعراء الذين لم يبق من شعرهم غير أبيات متناثرة في كتب المؤلفين القدماء. هذا اضافة الى ضياع أغلب هذه الكتب المخطوطة أو تشتتها في أماكن متباعدة من العالم، في المتاحف والمكتبات العامة والشخصية، وافتقار العديد من الكتب التراثية المطبوعة الى الفهرسة الفنية الجيدة التي تسهل على الباحث مهمته الصعبة. وتزداد هذه المهمة صعوبة وتعقداً عندما يتعلق الأمر بواحد من أولئك الشعراء المقلين أو المغمورين لأسباب لا تتعلق بالقدرة الفنية، في الغالب.

ولم ينل شاعرنا الموسوس هذا ما نالهأولئك من عاديات الزمن والظروف المعقدة المحيطة بمهمة استقصاء حياتهم ونتاجهمالشعري فحسب، بل وكانت لمسيرة حياته وحالته النفسية المضطربة آثار سلبية أخرىجعلت شعره يتعرض لا للضياع فقط، بل وللمسخ والنحل والتبعثر، أيضاً.

فكل ما نعرفه من شعر ماني الموسوسوأخباره مستمد من الفترة التي عاشها في بغداد بعد قدومه من مصر، وطنه الأصلي،وهي فترة قصيرة قد لا تتجاوز عشر سنوات الا قليلا. وقد قضى هذه الفترة مضطربالحال، وهو يعاني من السوداء وعبث الصبيان به، ومن الجوع والغربة والاهمال.

ولم يكن يعني الرواة والمحدثين منأمر هذا الشاعر وغيره ممن وصفوا بالوسوسة والجنون والحمق من الشعراء الخارجين علىمألوف الناس، سوى الشعر المقترن بالنادرة

والموقف المضحك ، يتحدثون به أو ينقلونه الى خليفة أو أمير أو وزير ليزدادوا بـه حظوة لديه وينالوا جائزة أكبـر .

وهكـذا اختلطت أخبـار مثـل هـؤلاء الشعراء وأشعارهم بعضها ببعض ، وتعددت رواياتها واختلفت بتعدد الراوين واختلاف الأزمنة والأمكنة ، فنسب لبعضهم ما لم يقله أصـلا أو ما قاله غـيره ، وحرّفت الأشعار بحيث تتفق والرواية التي أحسـن الراوي صياغتها وأعدها وفقـاً للغرض المقصود .

وكان بعض الرواة يجد حرجاً ، كما يبـدو ، في ذكر اسم قائـل الشعر فيغفله في مؤلفه ، أو أنه يتحدث عنـه للآخرين ولكنه يتحاشى ذكره في مؤلفاته . وهـذا ما لاحظته لـدى أبي العباس محمد بن يزيـد المعروف بالمبرد ، الذي تروى عنه أحاديث كثيرة عن ماني الموسوس وأشعاره ، وكان معاصراً له، في كتب كالأغاني والعقد الفريـد ، ولكنـه لا ينبس ببنت شفة عنـه في مؤلفه الجامـع (الكامل في اللغة والأدب) ، على سبيل المثال !

وهناك الكثير مـن الأشعار والحكايات المنسوبة لمجانين صادفهم المبرد وغيره ، مـن غـير أن يذكر اسم قائلهـا أو نسبت الـى « آخر » أو « بعضهـم » وما شـاكل ذلك ، يجد المرء فيها مزاج ماني وطابعه الشعري ، ولكن لا يمكن الجزم في أمر قائلهـا للتشابه الكبير بـين أمزجة هـذه الفئة مـن الناس والسمات الفنية لأشعارهم .

☐ اسـمه وشـهرتـه :

هو محمد بن القـاسم ، وكنيتـه أبو الحسن ، المصري(١) . وهذا ما أجمعت عليه الروايات في المصـادر المتوفرة ، التي تقفجميعـاً عنـد اسم أبيـه ، لا تتجـاوزه الى ما يلقي ضـوءاً على نسبه وأسرته والمدينـة التي قدم منها في مصر .

أما (ماني) فلقب غلب عليه، كما يقول صاحب الأغاني(٢) ، وبعضهم يقيده بتشديد النون ، على حـد قول ابن حجر العسقلاني(٣) ، ويرد في بعض الروايات (مان) ، من غير ياء ، (الماني) أحيانا ، كمـا في (محاضرات الأدباء)(٤) للراغب الأصفهاني .

ولكننـا لم نعثر على ما يفسـر سبب تلقيبه بهـذا اللقب . ومن المرجح أنه أطلق عليه في بغداد ، حيث استقر بقية عمره . اذان أحداً لم يكن مطلعـاً على الفترة الماضية من حياته قبل قدومه بغداد ، والمنتقل الى بلد آخر لا يشيع عـن نفسه ، في العـادة ، ألقاباً ليس فيها ما يعزز مكانته الاجتماعية، مهما كانت طبيعة هذا الشخص .

و (ماني) ، في اللغة ، اسم فاعل مـن (مني) أي قـدّر(٥) . وجاء في (التهذيب) : « حتى تبين ما يمني لك الماني . أي ما يقدرلك القادر »(٦) . فالماني هـو القادر(٧) . و (ماني) ، في السـيَر ، هو ماني بن فاتك الحكيم « الذي ظهر في زمان سابور بن أردشير وزعم أن العالم مصنوع مركب مـن أصلين قديمين: أحدهما نور، والآخر ظلمة... »(٨) ولا ندري، على كل حال ، ان كانت لشاعرنا علاقة بهذا المذهب فأطلق عليه اسم صاحبه

من قبيل التشبه • ولكنني أعتقد أن الأمر لا يتعدى كونه قد بدأ بمزحة أريد فيها مداعبة الشاعر أو التقليل من شأنه استهزاءبه ، ثم التصق به اللقب بقية عمره •

كما يكتنف الغموض الظروف التي أدت الى اصابته بالوسوسة ، التي هي « مرض يحدث من غلبة السوداء ويختلط معه الذهن »(٩) • وهي « أدنى حالة وأهونها من الجنون »(١٠) • وعلى كل حال ، فانها حالة تتسم بشدة حساسية المرء لأخطائه الخاصة وصرامته الأخلاقية ، كما يصفها علماء النفس ، ويشترك في ذلك جميع المصابين بالوساوس(١١) • وهذا ما كان عليه ماني الموسوس، كما يبدو من موقفه الذوقي والأخلاقي ازاء موجودات الحياة وعلاقاتها الاجتماعية والعاطفية •

وترد هذه اللفظة ، الموسوس ، بكسر الواو الثانية ، كما في (الأغاني) وأغلب المصادر ، وتعني الذي تعتريه الوساوس ،أو الذي « أصيب في عقله وتكلم بغير نظام واختلط كلامه ودهش »(١٢) • ويوردها بعضهم بفتح الواو الثانية ، كما في (الأعلام) للزركلي •

ويبدو أن هذه الحالة النفسية المضطربة كانت تعاود الشاعر بين حين وآخر ، وعدا ذلك فهو انسان اعتيادي وظريف ، بل من أظرف الناس وألطفهم ، كما يؤكد الرواة • وقد ورد في شعره ذكر لهذه الحالة ، اذ يقول مخاطباً محبوبته :

فان لم يقولوا ماتَ ، أو هو ميتٌ فزيدي اذا قلبي جنونا ووسواسا(١٣)

وهو اقرار واضح بمعاناته هذه ، فكل مايطلبه من محبوبته هو أن لا تزيده معاناة ، الا اذا لم يقولوا عنه أنه قد مات ، أو هو ميت ، أصلا !

□ حياته :

قدم الشاعر بغداد أيام المتوكل العباسي، كما تجمع على ذلك المصادر القليلة التي تترجم له ، والتي لا تضيف شيئاً سوى أنه كان من أهل مصر ، وتوفي عام ٢٤٥ هـ •

واذا ما اعتبرنا أن المقصود بقدومه أيام المتوكل لا يعني أنه جاء في بداية عهد هذا الخليفة الذي كانت فترة خلافته: (٢٣٢ هـ ــ ٢٤٧ هـ) ، فان الشاعر ، كما نرى ، عاش في بغداد عشر سنوات أو أكثر أو أقل بقليل قبل أن يتوفى فيها ، على الأكثر • اذ ليست هناك اشارة صريحة الى مكان وفاته ، باستثناء ما جاء في هامش من كتاب (الفاضل في صفة الأدب الكامل) ، حيث ذكر محققه يوسف يعقوب مسكوني أنه توفي في بغداد ، ولا أدري من أين استقى معلومته هذه • ولكن هكذا يفهم من سياق الأخبار التي تتحدث عنه • كما أنه ليس هناك ما يشير الى تلك الفترة من حياته في مصر وسبب خروجه منها الى مدينة السلام ، ولكن ربما كان قد غادر مصر في الجيوش الذاهبة للغزو والجهاد ثم استقر في بغداد لسبب ما ، كما هو مفهوم من تذكير أحدهم للشاعر بالغزو والجهاد • فقد

ذكر حبيب بن أوس(١٤) أنه كان في غرفة لهعلى شاطىء دجلة عندما شاهد غلاماً يلقي بنفسه في دجلة يسبح فيها « واذا مان الموسوس يرمقه ببصره ، فلما خرج من الماء ، قال :

خمش الماء جلده الرطب حتى   خلته لابساً غلالة خمر

قلت له : لعنك الله يا ماني ! أبَعدَ الجهاد والغزو تخمش غلاماً قد بات مؤاجراً في الحمامات ؟ » !

ونحن نجهل أيضاً الوضع العائلي للشاعر ، والمورد الذي اعتمد عليه في معيشته قبل أن يعين له محمد عبدالله بن طاهر ، بعدتوليه شرطة بغداد سنة ٢٣٧ هـ ، معاشاً مدى حياته • فالمعروف أنه لم يتكسب بشعره ولاعُرفت له صنعة يعيش منها أو كان لديه مال حمله معه من مصر • ولكنه كان ، كما يبدو من أخباره ، يكتفي بالقليل من مقومات الحياة ، فلا يكلفه ذلك شيئاً • وكانت الهباتالتي يحصل عليها أحياناً كافية لسد متطلبات معيشته المتواضعة المقترنة بقناعة وإباء فيه •فقد « وقف يوماً على أبي دلف ، القائد العباسي المعروف ، فأنشده :

كـرَّات عينك في العدا   تغنيك عن سلِّ السيوف

فقال أبو دلف : والله ما مدحت قط بمثل هذاالبيت ! وأمر له بعشرة آلاف درهم ، فأبى أن يقبضها وقال : نقنع من هذا بنصف درهموهريسة »(١٥) •

وعدا تلك الحالات التي كان يراه فيهابعضهم عرياناً بيده قصبة ، أو عرضة لعبث الصبيان به ، ابان اشتداد السوداء عليه ، فانه كان من أظرف الناس وألطفهم • وكان الأمراء والأصدقاء وأصحاب الظرف يجدونمتعة في مجالسته لهم فيستدعونه بين حين وآخر ويطلبون منه معاودتهم ، ويستلطفونحضوره في أوقات سمرهم ويمازحونه ويتلطفون اليه اذا ما بدر منهم ما يزعجهأثناء المزاح(١٦) !

فكان على رقة في السلوك ورفعة فيالخلق ، تتضحان من طريقته في التصرف أثناء مجالسته لداعيه من هؤلاء الأمراءوالأصحاب وعدم اطالته المكوث ، لأنه كان على يقين من أن :

مدمن التخفيف موصولٌ   ومطيل اللبْثِ مملولُ

كما كان على رفعة في الذوق تبلغ أحياناًدرجة العنف والتطرف • فعندما سمع ذات مرة مؤذناً يؤذن بصوت أو بطريقة لم ترق له ،ذهب اليه في صومعته وصفعه بشدة لأنه كان « يمطمط » ، أي يتوانى في الكلام ، ولا« يعطمط » ، أي لا يتابع الأصوات ، كما كان ماني يود أن يكون عليه الأذان(١٧) !

هذا اضافة الى الفطنة والذكاء اللذيناتسم بهما ، وهما من السمات التي كان يتميز بها الظرفاء آنذاك ، واستحق بهماالوصف بأنه من أظرف الناس •

□ علاقاتـه العـاطفيـة :

عاش ماني الموسوس في فترة من العهدالعباسي بلغت فيها العلاقات الاجتماعيةدرجة من الانفتاح كان لكل طالب لذة معها فرصتهفي ارضاء رغباته بالقـدر الذي يستطيع والطريقة التي يشاء • فقد كان عهد الظرف والمجون ما يزال يسحب زقه عند أبواب الخمارات والديارات ومجالس اللهو في بغدادالزاهرة والمدن الكبيرة الأخرى ، بل وفي القرى القريبة منها • فلم يعدم شاعرنا منماجنة تراسله وتبثه الحب ، ومن غلام يتعشقه ، ولكن مـن غـير اسفاف وتبـذلواستهتار في سلوكه وفي شعره • الا أننا لا نعرف له معشوقة معينة يجاهر باسمها ،ولا غلاماً معيناً يشتهر به ويطيل التشوق اليه ، كما كانت الحال مع الكثير من شعراءذلك العصر • ويبدو ذلك طبيعياً بالنسبة لمن كان في ذلك الوضع النفسي المضطرب والحالةالمعيشية والاجتماعية المتدنية التي كان عليها ماني • وبالرغم من هـذا ، فان من السهلعلى قارىء شعره أن يجد صدقاً في عاطفته لا يمكن الا أن يكون برهاناً على نفس رقيقةمتفانية في آية علاقة عاطفية تنغمس فيها ، أو على حب راسخ تمكن منه طويلا وأضناهحتى أسقمه وتركه كما يقول(١٨) :

معـذب القلـب بالفـراق	قـد بلغت نفسـه التـراقي
وذاب شـوقـا الـى غـزال	أوضـع للبـين بانطـلاق
لـم يبـق منـه السقـام الا	جلـداً على أعظـم رقـاق
لـولا تعـلـله بالتبـكي	آذنـت النفس بالفـراق

وهو وصف نجده يتكرر في شعره بأشكالمتفاوتة تجعلنا ننظر اليـه أحياناً فنرى رجلا نحيـلا شاحب الوجـه لا نكاد نبصـر لجسدهالنـاحـل ظـلا(١٩) •

□ شـعره :

وصف ماني الموسوس بأنه « من أشعرالناس » ، في فترة عاصر خلالها شعراء كباراً مثل البحتري ، الحسين بن الضحاك ، دعبل الخزاعي ، ديك الجـن الحمصي وغـيرهم • والمقصود بهـذا الوصف ، بالطبع ، الجانبالنوعي من شعره وليس جانبه الكمي • فقد كان شاعراً مطبوعاً يقولما يخطر على ذهنه،من غير تدبر ولا تكلف، وهما أمرانيقتضيان قصداً محدداً وطـول آناة وميلا الى استنفادالمعنى واستخدام المحسنات المتوارثة والمستجدة في فن الشعر • وتلك خصائص أكثر ما تكونفي الشاعر المحترف • ولم يكن لدى شاعرنـا من الاستعداد النفسي والطموح أو الرغبـةما يدفعه لأن يكون شيئاً مـن ذلك ، رغم أنه كان يدرك تماماً القيمـة الفنية العالية التييتميز بهـا شعره(٢٠) • وقد انعكست حالته النفسيـة تلك على شـعره شكلا ومضموناً • فلم يشتهر أو يقـل شيئاً ، كمـا يذكـر الأصفهاني(٢١) مثلا ، الا في الغزل • وكـانشعره ، في الغالب ، بشكل مقطعات مستملحة قد لا يتجاوز فيها ، أحياناً، البيت أو البيتين،مـن الغزل اللين الرقيق ، أو الثنـاء المتفرد

العابر ، على نعمة سلفت أو مجالسة سنحت على غير قصد أو تدبير • وقد بلغ شعره من رقة التصوير درجة تبدو معها مرثيات الشاعر وكأنها تكاد تذوب وتتلاشى في خيال القارىء، مثل قوله :

ها أنا ذا يسقطني للبلى ... عن فرشتي أنفاس عوادي

لو يحسد السلك على دقة ... حياً لأمسى بعض حسادي

بل وأكثر من ذلك :

غابوا فاضحى بدني بعدهم ... لا تبصر العين له فيّا

وشعره يزخر بمثل هذه الاشارات، التي يقول عنها ابن رشيق انها « من غرائب الشعر وملحه ، وبلاغته عجيبة ، تدل على بعد المرمى وفرط المقدرة ، وليس يأتي بها الا الشاعر المبرز ، والحاذق الماهر ••• »(٢٢) •

من ذلك ما جاء كناية عن الشجاعة ، كقوله :

كرات عينك في العدا ... تغنيك عن سلّ السيوفِ

وقوله ، كناية عن رقة أنامل الحبيب :

لو صافح الماء القراحَ بكفه ... لجرت أنامله كجري الماءِ

ومن تلك التشبيهات ، الرمز ، كقوله :

ترى ما أخفتا شفتاهُ نحوي ... كأنَّ لثاته علتّ بدبقِ

فرمز للفم بما أخفت شفتاه •

وكذلك قوله :

خمشَ الماءُ جلده الرطبَ حتى ... خلتَهُ لابساً غلالةَ خمرِ

وهذا بيت عجيب باشاراته الرائعة الكثيرة ، وتشبيهه من أبدع ما جاء في هذا الباب من محاسن الشعر • ولولا خشية الاطالة لانتقينا من ذلك شيئاً كثيراً •

ولم يجر ماني الموسوس ، على الدوام، جري غيره من الشعراء في تشبيهاته ، بل كانت له ابتكاراته الخاصة • من ذلك ما أورده أبو هلال العسكري ، في (ديوان المعاني)(٢٣) ، وهو يقول :

بكت عيني غداة البين دمعاً ... وأخرى بالبكا بخلت علينا

فعاقبت التي بخلت علينا ... بأن غمضتها يوم التقينا

وهو ما أخذه ابن الرومي ، كما يقول العسكري ، وزاد فيه ، في أبيات أولها :

ولقد يؤلفنا اللقاء بليلة جعلت لنا حتى الصباح نظاما

وليس أدل على مكانة هذا الشاعر الذي جار عليه الزمن وعبثت بشعره الروايات المتضاربة وغير الأمينة أحياناً ، من تلك الآراء الصريحة التي صدرت بحقه عن كبار مثقفي ذلك العصر والعصور التالية ٠

فقد وصفه الأصفهاني في كتابه (الأغاني)(٢٤) بأنه : « شاعر لين الشعر رقيقه ، لم يقل شيئاً الا في الغزل ٠٠٠ » ، كما وصف شعره بالرقة آخرون مثل الأمير الحافظ ابن ماكولا(٢٥) ، المرزباني(٢٦) ، الذهبي(٢٧) ، وغيرهم ٠

وجاء في (تاج العروس)(٢٨) لمحب الدين الحسيني ، أنه « شاعر مصري مرق أي له شعر رقيق رائق ٠٠٠ » ، وقال عنه الحسن بن محمد بن طالوت(٢٩) : « ما رأيت أحداً أحضر ذهناً منه ، اذ تقول له الجارية : عطف عليك إلفك ، فينفيها بقوله :

ليس لي إلفٌ فيعطفني فارقت نفسي الأباطيل

وقد أعرب أبو دلف العجلي ، الأمير والشاعر المعروف ، عن دهشته عندما مدحه ماني ببيته(٣٠) :

كرات عينك في العدا تغنيك عن سلّ السيوف

وقال انه لم يمدح قط بمثل ذلك البيت!

ووصفه أبو شجرة ، في طبقات ابن المعتز(٣١) ، بقوله : « كان ماني المجنون من أشعر الناس وهو القائل :

نجلُ العيون قواصد النبلِ قتّلننا بعيونها النجلِ
كحلَ الجمالُ جفونَ أعينها تفترُ عن كحل بلا كحلِ
وكأنهنّ اذا أردن خطاً يقلعنَ أرجلهنّ من وحلِ

وأخيراً ، من حق من كان « من أشعر الناس » علينا أن نحاول جهدنا استعادة ما أمكننا ذلك من سماته الشخصية والفنية ووضع ما تيسر لنا جمعه من شعره(٣٢) في مكانه اللائق به من تراثنا الأدبي الأصيل ونهضتنا الثقافية المتصاعدة ٠

الاشــارات :

١ ـ الأغاني ١٨١/٢٣ ، معجم الشعراء ٣٨٧ ، المشتبه في الرجال، فوات الوفيات ٥١٨/٢، تاريخ بغداد ١٦٩/٣ ...

٢ ـ الأغاني ١٨١/٢٣ .

٣ ـ نزهة الألباب في الألقاب (مخطوط) ، ٤٠ ظ .

٤ ـ محاضرات الأدباء ٦٩/٣ .

٥ ـ لسان العرب ٥٣٨/٣ .

٦ ـ المصدر نفسه .

٧ ـ تاج العروس ٣٤٧/٢ .

٨ ـ الملل والنحل ٤٩/٢ .

٩ ـ المنجد ٣٦٢ .

١٠ـ فقه اللغة ١٣٩ .

١١ـ سيكولوجية الشذوذ النفسي لدى الجنسين ١٠٢ .

١٢ـ المنجد ٨٩٩ .

١٣ـ مصارع العشاق ٩٨/١ .

١٤ـ العقد الفريد ١٦٩/٦ .

١٥ـ مصارع العشاق ٩٥/٢ .

١٦ـ الأغاني ١٨٦/٢٣ .

١٧ـ الأغاني ١٨٣/٢٣ .

١٨ـ مصارع العشاق ٩٩/١ .

١٩ـ الزهرة ٣٠٤/١ .

٢٠ـ الأغاني ١٨٥/٢٣ ، وفيه أن ماني الموسوس قال للأمير محمد بن عبد الله بعد أن غنته الجارية منوسة : « لولا رهبة الأمير لأضفت الى هذين البيتين بيتين لا يردان على سمع سامع ذي لب فيصدران الا عن استحسان لهما » .

٢١ـ الأغاني ١٨١/٢٣ .

٢٢ـ العمدة ٣٠٢/١ .

٢٣ـ ديوان المعاني ٢٨٣/١ .

٢٤ـ الأغاني ١٨١/٢٣ .

٢٥ـ الاكمال في رفع الارتياب ١٩٩/٧ .

٢٦ـ معجم الشعراء ٣٨٧ .

٢٧ـ المشتبه في الرجال ٥٦٣/٢ .

٢٨ـ تاج العروس ٣٤٧/٢ .

٢٩ـ بدائع البداءة ١٤٧ .

٣٠ـ العقد الفريد ١٦١/٧ .

٣١ـ طبقات الشعراء ٣٨٣ .

٣٢ـ المقالة ، في الأصل ، دراسة مرفقة مع اشعار ماني الموسوس واخباره ، ستظهر جميعا في كتاب واحد .

★ ★ ★

وهج البردة

هند هارون

وجدي يمر على الأحزان كالنسم ... دمعي يؤلقه الاشراق في الألم
وفي فؤاديَ جرح ساكب أبداً ... يدمي الشغاف بجرح غير ملتئم
ما دام يطعنه ثكل يمزقني ... ما دمت أمّاً تعيش العمر بالوصم
أعتى العذاب فراقٌ راح يسكنني ... بين الصواب .. وفي اغفاءة اللمم
وفي الحنايا .. بذرّاتي .. بأوردتي ... وحيث دفقٌ حنون واجف بدمي
يدور بين عروقي غازياً كبدي ... والنار لفحهما في حرب محتدم
ان رحت أخمدها بالدمع يغدُ لظى ... أو رمت أطفئها بالآه تضطرم
والصدر في عمقه سر يلازمه ... والسر يبقى بصدري وعدَ ملتزم
لو بحت ضيعت من مكنونه وسرى ... في كل نابضة مشتاقة وفم
وزغردت في شفاه الحب أغنية ... ايقاعها من حنين الناي والنغم
بين المثاني .. على الأوتار عازفةٌ ... رنينها والصدى.. في الأرض.. في الجرم
لكن أُمرت ... وأمر الله مؤتمن ... وفي الضلوع حصين غير مخترم
الله يعلم ما عانيت من وصب ... وما بقلبي من ندب الكلوم دُمي

* * *

غفيرك الرحمة الخضراء معشبةٌ ... مفازتي .. وحيا ما جف من أُكُمي

غفـنيرك النـور في ليـلي اذا سلبتْ ... هنـاءتي •• وطغـى سـهدي على حِلمي
ومـزّق الهلـع المجتـاح أشـرعتـي ... إن أبحـر القلب في يـم مـن النـدمِ
وطـاف حـول كيـاني وازعـاً •• غضبـاً ... صـوت الضميـر وضعفي •• والونى حزْمي
غفـرانك الفـرح المرتـاح في بصـري ... بـين السـجود وهمـس الآي والكـلمِ
ونقلـةٍ مثـل ومـض الطـرف واصلـة ... بينـي وبينـك عهـداً غيـر منفصـمِ
يـرقـى الزمـان بهـا لا عـدّ يحسبهـا ... كـأنهـا تـوأم والـدهـر في القـدمِ
أنسـى بهـا مولـدي •• شـأني ومسألتي ... أنسـى الـدّنا والأنا •• معبـودة النهـمِ
وأسـتقل سـفينـاً راح يـرفعهـا ... وقدُ المحبـة •• خوفي •• وحدتي •• أرْمي
أُصـعـد الوجـد في ركبـي •• يواكبنـي ... مـن نفحـه عبـق •• إن أستكِنْ يَهـمِ
أخشى السُّرى •• وطريق الشـوق يجـذبني ... أخشـى أحـدث •• صمتي غالب" سُـهُمي
سـبيلـك الوردُ يـا رحمـن في ظمئـي ... إن غيـض المـاء صيـف" غائـبُ السـدمِ
وصـرت حـرّى على قيـظ يحـرّقنـي ... ودمعتـي جمـدت •• ان تحتـرق تسـمِ
وغلـغـل القهـر في جنبـيّ يصلبنـي ... وغلـف الظـلـم ما يغشى مـن الظُّـلمِ
وأصبـح الحق جمـراً في يـد حسـرتْ ... وجـرّد الخيـر مـن قـُربى بـلا رَحـمِ
وبـات كـل قريـب مـن أبـاعـدهـا ... وسلَّط البغي سـيفـاً غيـر منثـلـمِ
غفـرانك الوهـج الشعشاع منتشـراً ... في كـل لمح عـلى الأقـدار مـرتسـمِ
في نظـرة الطفـل •• في ايـراق وارفـة ... في رفـة الهـدب •• في لألاء مبتسـمِ
في زرقـة البحـر •• في تسبيـح موجتـه ... على جنـاح الفضـاء الرحـب والأكـمِ
علـى نصـال الثكـالى •• لـونهـا شـفق ... على دمـوع اليتـامى •• غصـة اليتـمِ
وبـين أضـلاع عبـد شـاكـر أبـداً ... وعبـر أسـرار صبٍ عاشـق •• سـقـمِ
وفي مـدى شـاعـر رؤيـاك مـوئلـه ... وذكـرك الحـق إن يقعـد وان يقـمِ
والصـالحـات علـى ايمـانـه عمـل ... حـروفـه محـرمـات ان تطـف تحـمِ

★ ★ ★

يا رب !• أنت الهـدى ان ضـل مغتـرب ... وسـاورتـه همـوم الأرض والقِسَـمِ
يـا رب دلّ مسـاري في متـاهتـه ... مـن لي سـواك بدرب الشـوك والقتـمِ
ورحلتـي يحتـويهـا الغيب • يسـلكهـا ... عمري •• ويغمرهـا فيـض مـن الركـمِ
يا رب عفـوك •• ذاك الفيـض مكـرمـة ... هـل يغفـل القلب معنـى المن والكرمِ

غشاوة كشفت والنفس وادعة ... منك الدليل لأهل الأرض .. للأمم
هذا كتابكَ يا رحمن مغفرة ... ان رحت أسأل حيرى .. والسؤال عم
آياتك الفصل ان قولاً وان عملاً ... تفصل الدين والدنيا لمعتصم
قرآنك المعجز التشريع لا زمن ... يُحَدّدُ فيه ولا كون .. اليه نمي
نسمو اليه .. معانيه الأُلى ذخرت ... بالمدهشات طريق واضح الرسم
الحمد لله رب العالمين .. وفي ... أم الكتاب .. المثاني السبع والرحم
موارد من عيون النبع دافقة ... ومن يرد كوثر القرآن يغتنم
ويستق القلب من ريّا مناهله ... عذباً فراتاً بصدر لافح الحمم
يا رب .. أوهى من التعبير ملحمتي ... هيهات يدرك قلبي غاية الفهم
لكن أحس خشوعاً ران في بصري ... في مهجتي .. يحتويني رافعاً دعمي
لكن هجودي أتلو حكمه سوراً ... يهفو بروحي الى العلياء .. للحكم
للخالق البارئ القهار قافيتي ... وكل حرف سوى ذكراه .. لم يدم
له الصلاة صلات .. في حبائلها ... طوق النجاة لعانٍ .. في ونى الرغم
له المدامع في نعماه ساطعة ... لآلئاً برقت في عقد منتظم
له الوجيب بقلب عابد أرق ... بكل نبض على نجواه مكتتم
هذا كتابك هدي للأُلى ذهبوا ... للماكثين يرون المجد في الرمم
فيبطرون على دنياهم أشراً ... ينسون صلصالهم من أسمر الأدم
يساومون على الدينار أرضهم ... يبايعون على أبواب منهزم
يقاتلون على الدنيا أخاً لهم ... في الدين .. شرعتهم أهواء منتقم
وحَدَّتهم .. وتمادوا في تفرقهم ... كيف الخلاص لهم من ضعف منقسم
هل يطمح الألم المنساب في كبدي ... كرمى لمن جاهدوا وعشاء مقتحم
وهم عبادك .. ما ضلوا .. وما نكثوا ... عهد السماء .. وما دانوا لمصطدم
أن ترفع الغل عنا .. ان بغت فئة ... أو زاغ مستكبر في مزلق حطم ...

★ ★ ★

هذا كتابك آلاء منعمة ... مواسم من جناها خير مقتسم
وبينات لمن جابوا الفضاء وما ... ظنوه أوج انتصار بالغ الشمم
ومعجزات لمن بالذرة اعتقدوا ... تدمير عامرة ... اعمارَ منهدم

أنت الذي مرج البحرين ذا نهل ... وذاك ملح أجاج .. ماء منسجم
وبرزخ حاجز للمزج بينهما ... اليوم تكشفه أنظار مختصم
مثقال ذرة خير لست تهملها ... لو أدركوها لما انساقوا الى الوضم
نجيت فرعون جسماً عبرة لهم ... عبر السنين .. ومن يشوي الى الهرم
المومياء على الأبدان باقية ... والروح عندك لم يبرح .. ولم يهم
الظل مدك يا رحمن راسمة ... أفياءه الشمس بين البيد والأجم
وفي السماء بروج شدتها نزلا ... والنيرات عيون من سنا النجم

★ ★ ★

يا رب .. عفوك .. لا عدٌ لنافلة ... من نعمياتك للأرضين .. للنسم
كم يدّعون غروراً علم خارقة ... فلتشرقِ الشمس من غرب لذي قُصم
وليُمنِع الموت من دنيا مغلفة ... بباطل حافل بالبغي .. ملتطم
ولتوقفِ الأرض والأجرام في فلك ... عن مسلك في مدار الكون منتظم
ولتَمنع الريح والأنواء ثورتها ... وليُصنع الطفل من طين ومن سجم ..
معاذك الله أن نجتاز قدرتنا ... أنت القدير .. ونحن – الخلقَ – في غرم
ندين بالحب والايمان سابغة ... أرسلت رسلك – منذ البدء .. للعصم
الضر حاق بهم من قومهم صَلَفاً ... كأنهم عن سماع الحق في صمم
بغوا .. وعاثوا .. وزادوا ضلة وهوى ... جعلتهم كالهباء الزائل الغسم
النار برد .. سلام اذ تؤججها ... أحقادهم لجماد منه منهشم
سفين نوح على الأمواج مبحرة ... والمغرقون أضاعوا موقع الإرم
حصون عاد يدك الله صخرتها ... ثمود تهلك .. والخذلان للطغم
يا رب .. كم مرسل للأرض معتمد ... حملته العبء .. لم يقنط وان يُسم
ذو النون سبح في ليل بلا قمر ... في بطن حوت مع الأسماك والبلم
أيوب بلواه شكران لخالقه ... لم يثنه وصب في حلكة الجهم
ومريم انتبذت من أهلها حجباً ... وواكبت حملها في خوف متهم
تمنت الموت نسياً .. وهي طاهرة ... لكنها برئت من شائن الأثم
إني الصغيرة يا رحمن مغفرة ... إن رحت أكتب .. جلّ الآي عن كلمي
لكنني في حماك الطفلة اعتصمت ... تراك موئلها في المشكل القصم

طـرقـت بـابـك ان تـأذن لخـاشـعـة   سـماؤك الرحب لـم يغلـق لـذي سـجـمٍ
بعثت فينـا رسـولاً كـانَ جـامعـةً   لـلأنبيـاء ٠٠ ويـبـقى سـرٌ مختتـمٍ
محمـد" رحمـة للعـالمين ومـا   تهفـو اليـه عيـونُ الكـون ٠٠ لم تنـمِ
هـو المحبـة ان ضـاقت بنـا سبل"   وهـو الأمـين على تنزيـل محتـكـمِ
شـعري يثـوب الى محـرابـه خجـلاً   وينظـم الـدر مـن مكنـونـة النظـمِ
أتـوق للبـردة الـزهـراء لستُ لهـا   أهـلاً ٠٠ ولكـن هيـامي موقـد" همـي
ومهجتـي تسـكب التريـاق في كبـدي   وفي حروفيَ ٠٠ وجـدي ٠٠ غفوتي ٠٠ رنمي
طيـف يهـوّم في ليـلي يهدهـدنـي   مـن لـي بلحمتهـا في صـدر ملتحـمِ
أو هـل سـدى يـبرق الأنـوار في بصري   يلفنـي بشـعـاع يجتـلي ظُلَمـي
أو هـل خيـوط علـى الأخيـال عالقـة"   أو شـعرة فـوق رُدْنِ الطهـر والشيـمِ
أو قطـرة مـن نمير كـان يغمـرهـا   مبـارك الطيبِ منهـا ٠٠ طيّـب الرَّشـمِ
أو نفحـة مـن نسيـم قبلـت نسـجـاً   أو لفحـة مـن حـرور فـوق ملتثـمِ
أو ذرة مـن تـراب لامسـته تقـى   عنـد الصـلاة بغـارِ للنبـي ٠٠ حـمِ

★ ★ ★

ما لـي أعـارض أقطـابـاً بمعـارضـة   لا ٠٠ لستُ الا غمـامـاً عابـر الديـمِ

قـد يسـتظـل بـه قلـب وجـارحـة   مـن والـهٍ ثاكـلٍ ٠٠ أو مـدنف هـرمِ
يكفـي قصيـدي أنـي صـوت شـاعـرة   رجاؤهـا المصطفى في الحـلِّ والحُـرُمِ
أم" أنـا ٠٠ يـا رسـول الله حـائـرة   مهيضـة الجانحـين الثـكـل والحَـزَمِ
بحـّت بصـدريَ آهـات مقطعـة   أنت الشفيـع لضعفـي إن طغـت حُمَمـي
أنت النجـي لرحمـن بشـائـرة   وحـي السـماء ٠٠ وتنزيـل لمحتشـمِ
مزّمِـل ٠٠ وجـل" مـن خـوف هيبتـه   مـدّثـر بـبـردة الايمـان والقسـمِ
أنت الصفي على الأكـوان ٠٠ أحمـدهـا   مبلّـغ ٠٠ قيّـم ٠٠ هاد لمغتنـمِ
منـك السـراج بليـل مـدلـج حجبت   فيـه النجـوم على سُدْفٍ مـن الدَّجـمِ
منـك الغيـاث لأرض أجـدبـت وغـدا   فيهـا القتـاد حصـاداً غـير منهشـمِ
الحسـن روحـك في أسمـى منـازلـه   يضفي المهـابـة ٠٠ يهـدي روعـة السّيمِ
أغـض طـرفي إن تلمـح بخـاطـرتـي   وتعمـر النفـس أضـواء مـن النعـمِ
خـلاصـة الأنبيـاء الغـرّ مـاثلـة   في الخُلْـق كـرسـته للنـاس ٠٠ للقيـمِ

الدرُّ بين عيون الصخر يتّمه ... ألا يراك .. وأنت الفرد في اليتم
والجاهلية في أقسى تمردها ... أيقظت غفلتها من قسمة الزَلم
والمسلمون لأمر الله قدتهمُ ... ليحطموا الصنم المعبود في الصَّنم
عفو النبوة .. أرجو أن تؤازرني ... تمد ساقيتي من فائض عرم
كيما أحدث عن أنوارها وأنا ... أطامن النفس.. أخشى زلّة القدم

★ ★ ★

أراك طفلاً على البيداء ملعبه ... عزّت به الأرض .. أزهت شائك السَّلم
والوالدان رحاب الله لحدُهما ... يتمان لونهما من صفوة الألم
ويكبر الألم المجروح منتصراً ... مباركاً .. يحمل السقيا لمزدحم
أراك .. والقوم في عشواء غاشية ... والجاهلية بين الغلّ والعشم
مؤمّناً في ضمير الحق مؤتمناً ... تسلسل الخير غيث العارض الرّهم
وترفع الحجر القدسي اذ لمست ... قريش فيك النّهى والرشد في الحرم !
أحس أني على الرمضاء شاخصة ... أرنو اليك .. رسول اللوح والقلم
يذوّب الدمع وجدي .. يستبي خلدي ... كلاهما غيّبا في مهجتي وفمي
الروح نشوتها ذكرٌ يهدهدها ... وللدعاء رنين الصمت في رنمي
وللنبوة أنوار طوالعها ... في كل عين وصدر الإله ظمي

★ ★ ★

يا رافعاً راية التوحيد سامقة ... كم عذبوك .. وكم عانيت من إزم
جهرت بالدعوة العليا وقد شمروا ... يقارعونك بالبهتان والسحم
وفي ثقيف تمادوا في ضلالتهم ... ردت حجارتهم مدحورة الرجم
في بسرة التمر حزن قائم أبداً ... اذ مانعوك .. فنبءُ النخل بالعقم
وكايدوك على الايمان وائتمروا ... وركتك الغار مهد باليمام حُمي
ارادة الله في أوهى خلائقه ... ونسجها السدُّ في إدلاج مقتحم
وللصحابي .. للصدّيق لاهبة ... فوق الصحارى على الأقدام كالوشم
على فراشك .. في ليل النوى .. نبهت ... عين الإمام وشوك المشركين رُمي
يفديك بالنفس والأسياف مشرعة ... عز الفداء عليٌّ .. خير معتزم

وللمدينة أبواب مهللة   « الله أكبر » والإسلام في قدمِ
أسريت .. ضاءت سماء واستوى رسل   ونور المسجد الأقصى على اللممِ
شهدت ما جلّ من إعجاز مقتدر   بين السماك وسرّ فيها منكتمِ
يا للبراق ركوباً عزّ فارسها   باللمح يبلغ أكواناً على أممِ
يعود للأرض من إسرائه قدماً   وتبهج الناقة القصواء بالقدمِ ..
ورحلتي يا رسول الله شائكة   كيف الوصول الى نعماك في سَدمي
سننتَ للناس ما يهدي بصيرتهم   رفعت عنهم عناء الجهل والولمِ
أراك تحت ظلال النخل متكئاً   في حجرك الشكل .. ما أقساه من قسمِ
العين تدمع والأضلاع جازعة   والحزن يخشع في أحداق منسجمِ
أنت العزاء لصدري إذ نأى ولدي   ودمعتي لم تعد ناراً على ضرمي
إنسانك الراحة الكبرى لوجدتي   وللنبوة ريّا الوابل الجممِ
أطياف شعري على أعتابك اعتمرت   مثل الشريد يروم الأمن إن يُضمِ
أراك في الفتح سيفاً صارماً وأباً   يعلّم العدل والرحمى لكل كمي
وللأسير قرار بات ينشده   في راحتيك .. خلاف العلْج من عجمِ
وللجوار حقوق صنتها وغدت   صنو الإخاء .. تغيث المرء من شكمِ

★ ★ ★

أيا محمدُ آلُ البيتِ في كبدي   جرحٌ يسيلُ وينزى بالجراحِ دمي
وللحسين نزيف ليس يوقفه   كربُ الغداة بصدري .. في لها نسمي
وكربلاء على حزن الشموس أست   شهيدها غدر أقوام بلا ذممِ
دم النبوّة فيها مهدر نزقاً   وا خجلتاه من التاريخ والأممِ
يا ليت كنت ضريحاً ضمه ولهاً   بل بذرة نبتت في دوحة العِظَمِ
وبنت فاطم تسبى .. كيف موقفهم   عند الحبيب .. اذا ذكر النبيّ سُمي
يفرّجون أخاها . ثم توهمهم   أضغانهم نفيها خفض من النقمِ
مقام زينب يبقى في جوارحنا   وكلهم للفناء الرخص والعدمِ

★ ★ ★

يا صاحب البردة الزهراء كم علم   للمسلمين تهادى في ذرى علم
أوفى الأوائلُ .. خاضوا اليمَّ يصحبهم   إيمانهم .. لم يبيعوا النفس بالسَّلم
القلّة انتصرت . لا تاج يهزمها   والفرس والروم لم يزهوا على الندم
أفيالهم جزعت .. أقيالهم سقطت   دالت ممالكهم .. صارت الى رمم !!

★ ★ ★

واليوم فرقتنا ألف تمزقنا   الوخز في النحر .. والأشلاء للخصم
لكنْ عزائيَ قرآن تكرسه   كل اللغات لإسلام ومستلم
« مليار » يعتنق الإسلام متخذاً   من حكمة الله .. ما يغني عن الحكم
مساجد الشكر في المعمورة انتشرت   وللصلاة بها حمد على النعم
يجدد الآي أفكاراً لمعتبر   دين التطور قاد الكون للقمم
يخاطب العقل .. يجلو كل غامضة   أحكامه اليوم تشريع لمحتكم
أم اللغات بها التنزيل هل حفظت   عروبة الدين ما يقضي على الغتم

★ ★ ★

يا غافر الذنب .. يا رحمن .. يا مدداً   هل للغريق نجاة .. والعُباب طمي
يا قابل التوب .. تهنا في ضلالتنا   وجلى أناديك .. مهما شدّة الجرم
وجدي سلاحي في حلٍّ ومرتحل   وغربتي .. أمتها يا رب .. في ندمي
يارب .. أنت ملاذ للألى عرفوا   هدي الطريق .. وحفظ اللوح والقلم

★ ★ ★

تراثنا مطبوعاً

١٩٨٠ ـ ....

مروان عطية

أخذت العناية بنشر التراث العربي، تتزايد سنة بعد أخرى . فقد أقبل علماء الأمة العربية وأدباؤها في مختلف أقطارهم، على تحقيق المصنفات القديمة واخراجها للناس في كتب ورسائل . وما ينبغي التنويه به، هو أن بعض الباحثين العرب، قد استوت أمامهم سبل التحقيق العلمي القويم واستقامت لديهم وسائله . فاوفى ما نشروه على الغاية من حيث التحري عن مختلف مخطوطات الكتاب، واختيار ما يصح الاعتماد عليه منها، وضبط النص وتمحيصه بالرجوع الى أمات المراجع، والتعريف بالكتاب ذاته، وبمؤلفه، ووضع الفهارس الهجائية المتقنة التي تفصح عما يكنه الكتاب .

والى جانب هؤلاء، نجد طائفة من «الناشرين»، قد سلكوا سبيلا آخر في نشر كتب التراث، وذلك باخراجها بطريقة «الأوفست» وفقاً لطبعاتها الأصلية القديمة التي نفدت وأضحت نادرة الوجود .

وهنالك، الى هذا وذاك، كثير من كتب التراث، يصدر في طبعات «تجارية» تكاد تكون خلواً من التحقيق . وأغلبها مما تصدره بعض دور النشر التي لا هم لها الا الربح .

ومن المؤسف ما نلاحظه في البلاد العربية من اهمال تسجيل النتاج الفكري المطبوع، سواء أكان مما ألفه المعاصرون أم خلّفه القدامى . حتى أصبح الباحث لا يدري ما تخرجه دور الطباعة في البلاد العربية كلها على الدقة والاستقصاء . ولولا الجهود الذاتية التي يبذلها الباحثون لعرفان هذا النتاج، والمحاولات الضعيفة التي تقوم بها بعض الحكومات لتسجيله، أو القوائم الناقصة التي تقدمها المجلات العلمية الرصينة، للتنويه به، لكان عسيراً علينا معرفة ما يطبع من تراثنا الماضي وآثارنا المعاصرة . ولقد أصدر مجلس جامعة الدول العربية قراراً بانشاء مركز لتسجيل المطبوعات في البلاد العربية منذ سنين طويلة، فلم يقف هذا المركز حتى يومنا

على قدميه ، ولا سجل كتاباً ، ولا تولى أمره عالم يوثق به ·

ولسنا نود الكلام هنا على المحاولات التي تجري لتسجيل المطبوع من انتاجنا الفكري المعاصر ، بل يهمنا ما جرى لتسجيل المطبوع من انتاج القدامى ·

فبعد العمل الجليل الذي قام به سركيس ـ وأعانه عليه أحمد تيمور باشا ـ باخراج معجم المطبوعات ، لم يتابع أحد تلك الجهود التي بذلت قبل ربع قرن ، ولم يخرج أحد الذيل بعد الذيل على ذلك المعجم ، بشكل علمي منظم ·

ان تراثنا المخطوط القديم يبلغ على أقل تقدير ثلاثة ملايين، ولقد أبدت مؤسسات مختلفة في المشرق والمغرب العناية في اظهار فهارس هذه المخطوطات ، لمعرفة ما تشتمل عليه تلك الخزائن ، ولا بد أن تبذل العناية أيضاً في الوقت نفسه لمعرفة ما يطبع ويحقق من تلك المخطوطات ، فالعملان ينبغي أن يسيرا معاً لخدمة تراثنا ، وتيسيراً للعلماء والباحثين في الرجوع الى ما بقي منه مخطوطاً أو ما ظهر مطبوعاً ، لأن الرجوع الى هذا التراث هو السبيل الوحيد لمعرفة أنفسنا وماضينا ، وهو السبيل الأوحد لانتاج دراسات أصيلة فيها جدة وعمق · ولقد آن لنا أن نبتعد في دراساتنا ، حول ماضينا وتاريخنا ، عن السطحية والنقل وأن نعتمد على المصادر الأولى · وينبغي أن نقرر قبل كل شيء أن هناك اهتماماً بنشر التراث واقبالاً عليه · على أننا نلاحظ أن الفوضى تسود النشر ، فمن مظاهر الفوضى ، فقدان برنامج مجمع عليه يتبع في ذلك ، يقدم فيه ما يحتاج اليه كل بلد عربي على ما لا فائدة عامة فيه ·

فالتراث العربي الذي نستطيع، بنشره ، أن نسهم في تغذية نهضتنا ، ويشتمل على حقائق وأفكار حضارية انسانية نفخر بها ، لا بد من نشره واظهاره · لكن اظهار هذا التراث لايمكن أن يتم خلال سنة ولا سنتين ، بل قد يحتاج اظهاره الى قرن أو قرنين · فهذا العدد الضخم من التراث يضطرنا الى الاختيار حسب برنامج يضعه أهل الخبرة في هذا الشأن ، يقدم فيه الأصيل على العادي ، والأكثر شأناً على ما ليس له شأن ، وما نحتاج اليه لأنه يمدنا بما نجلو به حضارتنا وماضينا ، وما يمدنا بطاقات من التفكير والعمل على ما هو ميت لا يفيد· فلا بد اذن من وضع برنامج لهذا الأمر · ومنها اشتغال عالمين أو مؤسستين علميتين في نشر كتاب سواء أعرف كل منهما بجهود الآخر أم لم يعرف · فلماذا التنازع والتراث العربي وافر واسع ؟ ولقد ظهرت كتب كثيرة حققت مرتين في آن معاً ، فلا بد من أن تسود الروح العلمية بين العلماء وأن يتعاونوا ولا يتنازعوا · ومنها اقبال بعض الناشرين على نشر كل مخطوط يقع تحت أيديهم لا يراعون في ذلك طاقتهم ولا اختصاصهم فمنهم من يكون في المشرق ، مثلا فينشر كتاباً عن المغرب، فيقع في أخطاء ويعجز عن تقديم النص صحيحاً فلا بد اذن من أن يختص علماء كل بلد بما يتعلق ببلدهم من تراث الماضي لأنهم أدرى به·

ومن الفوضى اقدام المبتدئين ومن لا يحسنون النشر على اخراج المخطوطات وهذا من البلاء الذي يصاب به تراثنا ·وقد رأينا من نتاج هؤلاء عجائب · وهم يحسبون أن تحقيق المخطوطات عمل سهل لا جهد فيه ولا مشقة ، ولا يتطلب السعة والعلم أو الاحاطة بالمصادر · ولا سبيل الى درء هذا

البـلاء الا باحجام دور النشر عـن اخراج المخطوطات التي يحققها هؤلاء الا اذا كانت جيدة ، أو بايجاد مجلات نقدية تقوم وتسدد.

ونلاحظ أن القاهرة ودمشق هما أكثر البلاد العربية نشراً للمخطوطات في هـــذه الفترة التي نسجل ما ظهر فيها من تراث .

ففي القاهرة يعنى بهـذا الأمر - الى جانب دور النشر الكثـيرة العـدد - وزارة التربية ثم وزارة الثقافة ، والمعهد الفرنسي للاثار الشرقية ، ودار الكتب المصرية ، وهي أول من بدأ بذلك من المؤسسات ، والجمعية التاريخية المصرية ، ومعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، والمعهد الألماني للآثار ، على تفاوت فيما ينشرون .

أما في دمشق فاول من عني بهذا الأمر هو المجمع العلمي العربي .

وكان للاستاذ الجليل محمد كرد علي ، سيد النهضة العلمية بالشام ، الفضل الأوفى في ذلك . وقد نشر المجمع آثاراً جيدة مفيدة، تعد مصادر ذات شـأن . ثم جـاءت وزارة الثقافة السوريـة أخيراً تسهم في النشـر . وهي في أول الطريـق ، وقد أسهم المعهـد الفرنسي بدمشق في نشر النصوص ، فأخرج نصوصاً تفيد في تاريخ الشام ودمشق .

ويلي القاهرة ودمشق بغداد ، فقد بدأ المجمع العلمي فيها بنشر النصوص وساعد على نشرها . وما نشره جيد لكنـه قليـل بالنسبة لما يؤمل منه . وقد أخذت جامعـة الحكمة في السنوات الأخـيرة باخراج بعض النصوص أيضاً. وفي بيروت نذكر من المراكز التي تخرج المخطوطات بنهج علمـي المطبعـة الكاثوليكية . فقد أخرجت في السنوات الأخيرة طائفة من الكتب المتقنة الطبع ، على تفاوت بينهـا في جودة التحقيـق . وكذلك أخذت جامعة بيروت اللبنانية بنشر نصوص مفيدة تتعلق بتاريخ لبنان . في حين ضعفت جهود الجامعة الأميركية في هذا الباب .

وظهر نور جديد في السنوات الأخيرة ، في الكويت . اذ أخـذت دائـرة المطبوعـات والنشر تقدم سلسلة من المخطوطات باسم « التراث العربي » ، فكانت بادرة خير يظهرها الكويتيون نحو التراث العربي والعناية به . فاذا انتقلنا مـن المشرق العربي الى المغرب العربي ، لم نجد نشاطاً ملموساً أو انتاجاً فخماً في هذا المضمار . ولولا مانشرته وزارة التربية القوميـة والشباب والمعهـد القومـي للآثار بتونس ، وكلية الآداب وكليـة الصيدلة في جامعـة الجزائر ، ومعهد الدراسات العليـا بالرباط ، ومعهـد مولاي الحسـن بتطوان - وكله قليل لـمـا ذكرنا شيئاً . فالمغـرب مقصر عن البلاد العربية الأخرى في نشر التراث العربي ، حتى ما يتعلق به وحده .

وفي الآونة الأخيرة نشطت حركة نشـر التراث العربي في السعودية ، وبشكل خاص في جامعاتها ، وفي المؤسسات التي أنشأتهـا لاحياء التراث العربي ، وظهرت كتب كثيرة كانت طي النسيان كما ساهم المجمع الأردني في احياء كتب تراثية . ونشرها نشرة علمية، سواء بما طبع منها أم فيما نشر في مجلتـه الزاهرة .

ونذكر بالفضل كذلك معهد التراث العلمي في حلب الذي نشط منذ تأسيسه لاحياء التراث العربي العلمي ، وقد نشر كثيراً من النصوص التراثيـة . وساهم في ذلك أيما مساهمة ، كذلك كان للمجمع العلمي الهندي شأن يذكر في مجال احياء التراث العربي كما

كان لرئيسه الموقر « عبدالمعين خان » فضل يذكر في هذا الأمر .

أما المجلات العلمية التي عنيت خلال هذه الفترة التي نتحدث عنها ، بنشر النصوص أو الرسائل المخطوطة بين دفتيها ، فهي :

في دمشق : مجلة مجمع اللغة العربية ، ومجلة التراث العربي ، وصحيفة المعهد الفرنسي .

وفي القاهرة: مجلة مجمع اللغة العربية، ومجلة الآباء الدومينيكان .

وفي بغداد : مجلة المجمع العراقي ، ومجلة المورد الزاهرة ، وثمة مجلات أخر تصدر في الجامعة كمجلة كلية الآداب وكلية الشريعة وغيرها .

وفي بيروت : مجلة المشرق

وفي عمان والاردن : مجلة المجمع الأردني ، ومجلة أبحاث اليرموك « والتي تصدر عن جامعة اليرموك » .

وفي السعودية : مجلة العرب الغراء ، ومجلة عالم الكتب ، وثمة مجلات أخر تصدر عن جامعاتها .

وفي المغرب : مجلة تطوان .

أما المجلات التي تصدر في بلاد ليست عربية فنذكر منها : مجلة المعهد المصري بمدريد ، ومجلة الأندلس بمدريد وغرناطة، ومجلة أرابيكا بباريس ، ومجلة أوريانس ، وشرقيات مجموعة سي التركية ، ومجلة معهد الدراسات الشرقية ببلغراد ، وذي اسلاميك كوراتلي ، ومجلة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بلندن .

وقد يكون ثمة مجلات أخرى نشرت بعض النصوص لم نطلع عليها .

ولننتقل الآن الى قيمة هذا النتاج من حيث المادة والنهج العلمي في النشر .

أما من حيث المادة فلا شك أن الكثير من النصوص التي طبعت يحتاج اليها العالم العربي ، وتفيد في استجلاء وجوه الحضارة الاسلامية العربية ، على أن في ما نشر أيضاً ما لا فائدة منه قط ، أو أن فائدته ضئيلة ، وكان من الممكن تقديم غيره عليه .

ونلاحظ فيما نشر وفرة النصوص الأدبية واللغوية ، ويلي ذلك النصوص التاريخية والتراجم . وقد زادت العناية بالنصوص الفلسفية في هذه الفترة . وقد ظهرت طبعات كثيرة لنصوص في الحديث والفقه ، والعلمي منها قليل . على أن أقل النصوص ظهوراً هي العلمية البحت المتعلقة بالرياضيات والطبيعيات والفلك وما الى ذلك . ولعل ذلك راجع الى صعوبتها وقلة ذوي الاختصاص بها ، وأنه لا رغبة فيها . وازدادت العناية بأخرة في نشر الكتب التراثية العلمية نشراً علمياً صحيحاً يتفق مع روح العصر وكان لمعهد التراث العلمي في حلب اليد الطولى في هذا المضمار حيث ساهم منذ انشائه في نشر كثير من النصوص التراثية العلمية وفي كافة الاختصاصات . وبذلك أغنى المكتبة العربية التراثية بهذا الجانب العلمي النادر .

أما من حيث اتباع المنهج العلمي في النشر فيجب أن نقرر أن الميل الى ذلك أخذ في الازدياد لكنه لم يبلغ المأمول . والمهم أنه وضعت قواعد للنشر .

على أنه الى جانب هذا الميل الى اتباع المنهج العلمي وتحديده نجد خروجاً عن المنهج بعض الأحايين. وخاصة عند المبتدئين بالنشر، الذين وجدوا في نشر التراث العربي مجالا للكسب السريع.

حتى لقد رأيت منهم من فتح لنفسه باب الاجتهاد وهو في أول الطريق. ولا يجرؤ على هذه الدعوى الا من قضى عمره بين المخطوطات، وأفنى بصره في تقليبها وقراءتها ودراستها وقدم للناس عشرات منها محققة منشورة.

ودفعت شهوة النشر عند بعضهم الى نشر ما سبق نشره، لكن بأسوأ ما يكون حالا. وأصيب التراث العربي أيضاً بتسلط بعض التجار والناشرين عليه. فقد أخذوا يعيدون نشر الكتب دون التقيد بمنهج علمي أو الاعتماد على مخطوطات جديدة، بل قنعوا بسرقة الطبعات الماضية وتحليتها بالأخطاء التي لا تعد ولا تحصى، وأغاروا على أعمال المستشرقين فأعادوا نشرها حرفياً. مغفلين أسماءهم، مضيفين اليها التحريف والخطأ. واذا تكرموا بذكر الأسماء لأولئك المستشرقين نسبوا اليهم الجهل والى عملهم النقص. وقد ظهر من هذه الطبعات، على نوعيها، كثير في بيروت أولا ثم القاهرة. وما ظهر في بيروت في سبيل ابتزاز المال، سيكون وصمة في تاريخ الجهود التي بذلها لبنان للتراث العربي. ولو كان ثمة أقلام كثيرة تنقد هذا المطبوع وتبين الخطأ فيه لما أقدم الناشرون على الارتجال، ولا تجار الكتب على السرقة. ولكن النقد الذي نراه، على الأغلب، مدح أو تقريظ. ونقد المخطوطات لا يستقيم الا اذا عارض الناقد المطبوع بالمخطوط. ورأى بنفسه مدى جودة عمل الناشر. أما النقد على الظن وعلى الترجيح، دون الرجوع الى النصوص، فلا يقام له وزن. ونعتقد أن النقد البناء – لا الهدام – هو الذي يقوّم الانتاج ويساعد الناشرين، ويزجر دور النشر.

وقد عقدت النية على نشر ثبت يعرف بالمخطوطات المطبوعة وذلك في مجلة التراث العربي فصنعت هذا الثبت الذي نوهت فيه بطائفة حسنة من الكتب والرسائل التراثية المطبوعة التي نشرت من سنة ١٩٨٠ م وحتى الآن وذكرت فيه ما اتبع النهج العلمي أو ما نشر أول مرة، عن مخطوطات قديمة وان لم تستوف شروط التحقيق أو ما اعيد نشره واعتمد على مخطوطات جديدة.

واتبعت النهج التالي:

١ – ذكرت اسم الكتاب، وناشره، واتخذت هذا اللفظ بدلا من «محقق» لأن كل ناشر ليس بمحقق.

٢ – ذكرت اسم المؤلف، وسنة وفاته بالسنة الهجرية والميلادية.

٣ – ذكرت عدد صفحات الكتاب في مقدمته ونصه وفهارسه مما سجلناه بأنفسنا أو نقلناه عن مصادرنا. وأهملنا ذكر ذلك بالتفصيل أحياناً عندما يعسر علينا رؤية الكتاب أو معرفة عدد صفحاته حيث لا يتهيأ لنا الوقوف على الكتاب بالذات.

٤ – ذكرت سنة طبع الكتاب ومكان طبعه ورقم المجلد ان كان يتألف من مجلدين فأكثر واسم الدار التي نشرت الكتاب.

٥ – حاولت قدر الامكان أن أتحدث عن محتوى الكتاب وأهميته وقيمته.

٦ – اتخذت في هذا الثبت الرموز التالية مراعاة للاختصار:

ت = توفّي ، المتوفى ٠

ج = الجزء ، المجلد ٠

د = الدكتور ، الدكتورة ٠

ص = صفحة ٠

مط ، المط = مطبعة ، المطبعة ٠

م = سنة ميلادية ٠

هـ = سنة هجرية ٠

ولست أدعي أنني قد أحطت بذكر كل ما صدر ، فذلك أمر بعيد المنال يدرك صعوبته كل من حاول أن يصنع ثبتاً « ببليوغرافياً » لموضوع من الموضوعات ولا سيما اذا كان من قبيل ما نحن فيه ٠

والله أسأل أن يجعل في هذا العمل عوناً لكل باحث ، ويعرف بتراثنا العربي الحبيب ويلقي الضوء على كثير من جوانبه ،ويمدنا بالقوة لمتابعة العمل في تسجيل وتعريف ما يصدر وما سيصدر من مخطوطات تراثية مطبوعة ، ان شاء الله ٠

« والله من وراء القصد »

مروان العطية
دير الزور ــ سوريا

* * *

١ ــ أسماء خيل العرب وفرسانها

لأبي عبدالله محمد بن زياد الأعرابي ت ٢٣١ هـ = ٨٤٥ م

الأعلام ٦/١٣١ ٠

نشره : الدكتور محمد عبدالقادر أحمد

٧٧ ص المقدمة + منص ٧٧ــ١٧٤ص النص + ص ١٧٥ ــ ٢٥٤ ص فهارس ٠

ملتزم الطبع والنشر مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤ م ٠

★ ووصلنا الكتاب برواية أبي منصور الجواليقي ت ٥٤٠ هـ ٠

ــ وطبع الكتاب أيضاً في بغداد بتحقيق الدكتور نوري حموديالقيسيوالدكتور حاتم صالح الضامن مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م ص ١٣٠ ٠

ــ وللعلم فقد قام المستشرق جرجس لوي دلاّويدا بنشر كتاب أسماء خيل العرب وفرسانها لابن الاعرابي مع كتاب نسبالخيل في الجاهلية والاسلام وأخبارها لابن الكلبي في مجلد واحد في ليدن سنة ١٩٢٨ بعنوان =

٢ ــ نسب الخيل في الجاهلية والاسلام لابن الكلبي ، هشام بن محمد بن السائب ت ٢٠٤ هـ = ٨١٩ ٠

الأعلام ٨/٨٧ ٠

وهو برواية أبي منصور الجواليقي ت ٥٤٠ هـ

نشره : الدكتور نوري حمودي القيسي والدكتور حاتم صالح الضامن ٠

ص ١١٠ منها ص ٢٠ المقدمة + من ٢١ــ٧٣ص النص المحقق + ص ٣٦الفهارس مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٦ = ١٩٨٥ م ٠

ــ وقد قام المستشرق جرجس لوي دلاّويدا بنشر هذا الكتاب مع كتاب ابن الاعرابي في مجلد واحد في ليدن سنة ١٩٢٨م

وقام المرحوم أحمد زكي بنشر هذا الكتاب وطبعه في دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٦ م

وقامت الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة بتصوير هذه الطبعة سنة ١٣٨٤هـ = ١٩٦٥ م

٣ ـ أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها .

لأبي محمد الأعرابي الملقب بالأسود الغندجاني ت نحو ٤٣٠ هـ = ١٠٣٨ م

الأعلام ٢/ ١٨٠

نشره الدكتور محمد علي سلطاني .

ص ٢٥ المقدمة + من ٢٧ ـ ٢٧٣ ص النص المحقق مع المستدركات + من ٢٧٥ ـ ٢٦٣ ص الفهارس .

طبع في مؤسسة الرسالة في بيروت ١٤٠٢ هـ = ١٩٨١ م .

★ أضاف الدكتور سلطاني الى النص المحقق ما أسعفته المصادر باستدراكه علىأبي محمد الأعرابي وقد بلغ المستدركاثنينوستين ومئتي فرس (٢٦٢) وبلغ مجموعماضمه هذا الكتاب من الخيل العربية المنسوبة سبعة وثلاثين وثمانمائة فرس (٨٣٧) .

وهذه سمة حسنة وظاهرة هامة مفيدةفي نشر تراثنا الحبيب .

٤ ـ معاني أبيات الحماسة .

لأبي عبدالله الحسين بن علي النمري ت ٣٨٥ هـ = ٩٩٥ م .

الأعلام ٢/ ٢٤٥ .

نشره : الدكتور عبدالله عبدالرحيم عسيلان .

ص ٢٦ المقدمة + ٧ لوحات من المخطوطة + ص ٢٧٢ النص المحقق + من ص ٢٧٣ ـ ٣٢٧ الفهارس مطبعة المدني (المؤسسة السعودية بمصر) ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م الطبعة الأولى .

★ أضاف الناشر ملحقاً فيه : « مواضع من معاني أبيات الحماسة ، منقولة من كتاب :

« اصلاح ما غلط فيه أبوعبداللهالنمري لأبي محمد الأعرابي الغندجاني » .

وذلك من ص ٢٥٥ ـ ٢٧٢ .

٥ ـ اصلاح ما غلط فيه أبو عبدالله النمري في معاني أبيات الحماسة .

لأبي محمد الأعرابي الملقب بالأسود الغندجاني ت نحو ٤٣٠ هـ = ١٠٣٨ م .

نشره : الدكتور محمد علي سلطاني .

ص ١٧ المقدمة والدراسة + ص٢١٥ النص المحقق مع الفهارس .

منشورات معهد المخطوطات العربية في الكويت ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٥ م

٦ ـ عيار الشعر :

لأبي الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي ت ٣٢٢ هـ = ٩٣٤ م

الأعلام ٥/ ٣٠٨

نشره : الدكتور عبدالعزيز بن ناصر المانع .

ص ٣٤ المقدمة والدراسة + ص ٤ نماذج من الخطوط + ص ٢٢٠ النص المحقق + من ٢٢١ـ٢٦٨ الفهارس .

دار العلوم للطباعة والنشر بالرياض ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م .

ـ وقد صدرت النشرة الأولى للكتاب عام ١٩٥٦ م في القاهرة بتحقيق الأستاذ الدكتور طه الحاجري والدكتور محمدزغلول سلام في ١٥٦ ص (المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة) .

ـ ثم نشرها الدكتور محمد زغلول سلام في عام ١٩٨٠ م (منشاة المعارف بالاسكندرية) في ١٨٠ ص ـ منفرداً دون شريكه في العمل عند ظهور النشرة الأولى عام ١٩٥٦ م وهو الدكتور طه الحاجري ؟ ! .

٧ ـ المنتخب من كتاب الشعراء .

لأبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني ت ٤٣٠ هـ = ١٠٣٨ م .

الأعلام ١٥٧/١ .

نشره الدكتورعبدالعزيز بن ناصرالمانع ١٨ ص الدراسة والمقدمة + من ١٩ ـ ٣٥ ص النص المحقق + من ٣٧ـ٨٣ص الفهارس دار العلوم للطباعة والنشر بالرياض ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢ م

ـ وطبع الكتاب سنة ١٩٤١ م في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد ١٦ ، الصفحات ٣٥٩ ـ ٣٦٣ باعتناء الدكتور يوسف العش .

٨ ـ من غاب عنه المطرب

لأبي منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي ت ٤٢٩ هـ = ١٣٠٨ م الأعلام ١٦٣/٤ .

نشره : الدكتور النبوي عبدالواحد شعلان .

٥٧ ص المقدمة والدراسة + ٦ ص. نماذج من الخطيات + ٢١٠ ص النص المحقق + ٤٦ ص الفهارس .

مطبعة المدني (المؤسسة السعودية بمصر) ، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٤ م ـ الطبعة الأولى .

★ وطبع الكتاب في (التحفة البهية والطرفة الشهية) القسطنطينية ، مطبعة الجوائب ١٣٠٢ هـ ، ثم نشره محمد اللبابيدي في بيروت ، المطبعة الأدبية سنة ١٣٠٩ هـ .

٩ ـ الايناس في علم الأنساب :

للحسين بن علي بن الحسين الوزير المغربي ت ٤١٨ هـ = ١٠٢٧ م

الأعلام ٢٤٥/٢ .

٥٢ ص المقدمة والدراسة + من ص ٥٣ ـ ٢٨٠ ص النص المحقق .

ونشر معه أيضاً كتاب آخر هو = ١٠ ـ مختلف القبائل ومؤتلفها :

لأبي جعفر محمد بن حبيب البغدادي ت ٢٤٥ هـ = ٨٦٠ م .

الأعلام ٧٨/٦ .

من ص ٢٨١ ـ ص ٢٩٠ المقدمة + من ص ٣٧٢ النص المحقق + ٢٨ ص الفهارس للكتابين وأعد الكتابين للنشر الشيخ العلامة حمد الجاسر .

منشورات النادي الأدبي في الرياض ، باشراف دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر الرياض ـ المملكة العربية السعودية ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠ م .

★ وأشار الشيخ العلامة حمد الجاسر في مقدمة الايناس ص ٤٩ :

« الى أن أحد الناشرين عمد الى نشر هذا الكتاب في احدى المجلات المصرية على نسختي المتحف ودار الكتب ...» .

ولم يذكر الناشر ولا المجلة المصرية ولا سنة الطبع ؟ ! .

وذكر في مقدمة أدب الخواص ص ٣٣ بأنه نشر في مجلة « الكتاب العربي » بمصر ح ١٧ في سنة ١٩٦٥ بدون تحقيق .

★ وأما كتاب (مختلف القبائل ومؤتلفها لابن حبيب) فقد كان الفضل الأول في ابرازه للمستشرق الألماني فردوناندو ستنفلد ونشره في سنة ١٨٥٠ في غوتنجن في ألمانيا .

١١ ـ أدب الخواص (في المختار من بلاغات قبائل العرب وأخبارها وأنسابها وأيامها) .

للحسين بن علي بن الحسين الوزير المغربي ت ٤١٨ هـ = ١٠٢٧ م .

الأعلام ٢/٢٤٥ .

٥٨ ص المقدمة والدراسة + ٩٤ ص النص المحقق + ٥٣ ص الفهارس

منشورات النادي الأدبي في الرياض . باشراف دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر الرياض ـ المملكة العربية السعودية ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠ م

وهو الجزء الأول من الكتاب .

★ وقد نشر الكتاب في مجلة « العرب » اعتباراً من السنة الثامنة ص ١٦١ وما بعدها في رمضان ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م .

١٢ ـ المسائل العسكريات :

لأبي علي الفارسي ، الحسن بن أحمد بن عبدالغفار ت ٣٧٧ هـ = ٩٨٧ م .

الأعلام ٢/١٧٩ .

٦٨ ص المقدمة والدراسة + ١٠٥ ص النص المحقق + ٢٧ الفهارس .

الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ (مطبعة الجامعة ـ بغداد) .

نشره = الدكتور علي جابر المنصوري .

★ وطبع الكتاب أيضاً في الأردن (منشورات الجامعة الأردنية) سنة ١٩٨١ م .

ونشره اسماعيل أحمد عمايرة وراجعه الدكتور نهاد الموسى .

١٣ ـ حروف المعاني :

لأبي القاسم عبدالرحمن بن اسحاق الزجاجي ت ٣٤٠ هـ = ٩٥٢ م

الأعلام ٣/٢٩٩ .

نشره = الدكتور علي توفيق الحمد .

٦٢ ص المقدمة والدراسة + ٨٧ ص النص المحقق + ٤٤ ص الفهارس .

طبع مؤسسة الرسالة في بيروت ودار الأمل في الأردن ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤ م

الطبعة الأولى .

١٤ ـ نثر الدر

للوزير الكاتب أبي سعد منصور بن الحسين الآبي ت ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م

نشره : محمد علي قرنه وراجعه علي محمد البجاوي ، في ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول = ٢٢ ص المقدمة + ٤٣٧ ص النص المحقق + ٦٣ص الفهارس

الجزء الثاني = ٦ ص المقدمة + ٢٦٠ النص المحقق + ٤٥ ص الفهارس .

الجزء الثالث = ٦ ص مقدمة المحقق + ٣١٠ النص المحقق + ٥٠ ص الفهارس مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة وطبعت الأجزاء الثلاثة ما بين سنة ١٩٨٠ ــ ١٩٨٤ م .

★ وينتظر أن يتم الكتاب في سبعة أجزاء من القطع الكبير (تراثية) .

١٥ ــ تاريخ الملك الظاهر :

لابن شداد ، عزالدين محمد بن علي ابن ابراهيم الأنصاري الحلبي ت ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م .
الأعلام ٦/٢٨٣ .

٢٩ ص المقدمة والدراسة + ٣٣٢ ص النص المحقق + ٨٤ ص الفهارس .
نشره = أحمد حطيط .

منشورات دار النشر فرانز شتاينر بفيسبادن ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م باشراف المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت .

١٦ ــ الحجة في علل القراءات السبع :

لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي ت ٣٧٧ هـ = ٩٨٧ م .
الأعلام ٢/ ١٧٩ .

الجزء الأول =

نشره = علي النجدي ناصف وعبد الحليم النجار وعبدالفتاح شلبي .

٤٠ ص المقدمة والدراسة + ٣١٨ النص المحقق + ١٣ ص الفهارس .

منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م الطبعة الثانية مصورة عن الطبعة الأولى التي ظهرت سنة ١٩٦٥ .

الجزء الثاني = نشره = علي النجدي ناصف وعبدالفتاح شلبي .

٤١١ ص النص المحقق + ٤٠ ص الفهارس .
منشورات الهيئة العامة المصرية للكتاب بالقاهرة ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م .

★ وصدر الكتاب في دمشق منشوراً باعتناء بدرالدين قهوجي وبشير جويجاتي ، وذلك ضمن مطبوعات دار المأمون للتراث بدمشق ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤ م ، الجزء الأول والثاني منه .

١٧ ــ مطمع الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس .
لأبي نصر الفتح بن محمد عبيد الله بن خاقان الاشبيلي ت ٥٢٩ هـ = ١١٣٥ م
الأعلام ٥/١٣٤ .

نشره = محمد علي شوابكة
١٤٣ ص المقدمة والدراسة + ٢٦٤ النص المحقق + ٥٦ الفهارس .
مطبوعات مؤسسة الرسالة في بيروت ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م .

★ وأول طبعة ظهرت من هذا الكتاب هي الطبعة التي نشرتها مطبعة الجوائب سنة ١٣٠٢هـ باستنبول، وتقع هذه النسخة في احدى ومئة صفحة (١٠١) منها صفحتان فهرست لأسماء التراجم .

ثم طبع في القاهرة ، نشرته مطبعة السعادة سنة ١٣٢٥ هـ وهي لا تختلف عن سابقتها . وعدد صفحاتها (١١٢)صفحة.

١٨ ــ زاد المسافر وغرة محيًا الأدب السافر .
لأبي بحر صفوان بن ادريس التجيبي المرسي ت ٥٩٨ هـ = ١٢٠٢ م

الأعلام ٣/٢٠٥

نشره = عبدالقادر محداد ٠

٤١ ص المقدمة والدراسة + ١١٧ النص المحقق + ٢٩ الفهارس

دار الرائد العربي في بيروت ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠ م ٠

★ وظهر الكتاب مطبوعاً لأول مرة في بيروت سنة ١٩٣٩ باعتناء عبدالقادر محداد ٠

١٩ ـ سيرة ابن اسحاق (المسماة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي) ٠

لمحمد بن اسحاق بن يسار ت ١٥١ هـ = ٧٦٨ م ٠

الأعلام ٦/٢٨ ٠

نشره = محمد حميد الله ٠

٥٠ ص المقدمة والدراسة + ٣١٦ ص النص المحقق + ٧٩ الفهارس

طبع ادارة النشر والتوزيع قونيه ـ تركيا ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م ٠

★ وظهر الكتاب مطبوعاً في دمشق ضمن مطبوعات دار الفكر ١٣٩٨ هـ = ١٩٧٨م باعتناء الدكتور سهيل زكار في ٣٨٤ ص ٠

٢٠ ـ الجمل في النحو

لأبي القاسم عبدالرحمن بن اسحاق الزجاجي ت ٣٤٠ هـ = ٩٥٢ م ٠

الأعلام ٣/٢٩٩ ٠

نشره = الدكتور علي توفيق الحمد ٠

٤٧ ص المقدمة والدراسة + ٧ ص نماذج الخطيات + ٤١٩ النص + ٤٦ص الفهارس

مطبوعات مؤسسة الرسالة في بيروت ودار الأمل في الاردن ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤ م ٠

★ وقدطبع هذا الكتاب أول مرة في الجزائر سنة ١٩٢٦ م ، وأعيد طبعه مرة ثانية في باريس سنة ١٩٥٧ م باعتناء الشيخ ابن أبي شنب في الطبعتين ٠

٢١ ـ معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ٠

للامام الذهبي ، محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨ هـ = ١٣٤٨ م ٠

الأعلام ٥/٣٢٦ ٠

نشره = بشار عواد معروف + شعيب الأرناؤوط وصالح مهدي عباس ٠

الجزء الأول = ٢٠ ص المقدمة مع الدراسة + ٥٠٩ النص ٠

الجزء الثاني = ٢٤٠ ص تتمة النص + ١٥٧ الفهارس ٠

مطبوعات مؤسسة الرسالة في بيروت ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤ م

★ وسبق أن طبع هذا الكتاب بالقاهرة سنة ١٩٦٧ م وتولى نشره محمد سيد جاد الحق في جزأين، ٦٩٨ ص (دار الكتب الحديثة)٠

٢٢ ـ تاريخ الثقات :

لأبي الحسن العجلي ، أحمد بن عبدالله ابن صالح ت ٢٦١ هـ = ٨٧٥ م ٠

الأعلام ١/١٥٦ ٠

وبترتيب = الحافظ نور الدين علي ابن أبي بكر الهيثمي ت ٨٠٧ هـ وتضميمات = الحافظ ابن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ٠

نشره = الدكتور عبدالمعطي قلعجي ٠

٤٢ ص المقدمة والدراسة + ٤٨٤ النص + ٢٦ ص الفهارس ٠

دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٤ م ـ ط ١ ٠

٢٣ ـ المنمق في أخبار قريش :
لمحمد بن حبيب البغدادي، ت ٢٤٥ هـ = ٨٦٠ م .
الأعلام ٦/٧٨ .

نشره = خورشيد أحمد فاروق

١٧ ص المقدمة والدراسة + ٤١٥ النص + ٤٤ ص الفهارس .

عالم الكتب في بيروت ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م .

★ ونشر الكتاب لأول مرة في الهند(دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ،سنة ١٩٦٤ م) .

الطبعة الأولى ٦٠٩ ص باعتناءخورشيد أحمد فاروق .

٢٤ ـ المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع .

لأبي محمد السجلماسي القاسم بن محمد ابن عبدالعزيز ت بعد ٧٠٤ هـ = ١٣٠٥ م
الأعلام ٥/١٨١ .

نشره = علال الغازي

١٧٤ ص المقدمة والدراسة + ٣٤٩ص النص + ١٢١ ص الفهارس

مكتبة المعارف بالرباط ـ المغرب١٤٠١هـ = ١٩٨٠ م ـ ط ١ .

٢٥ ـ فُرحة الأديب (في الرد على ابن السيرافي في شرح أبيات سيبويه) لأبي محمد الأعرابي الملقب بالأسود الغُندجاني ت نحو ٤٣٠ هـ = ١٠٣٨ م

الأعلام ٢/١٨٠

نشره = الدكتور محمد علي سلطاني

٢٧ ص المقدمة والدراسة + ١٧٨ ص النص + ٦٥ الفهارس .

دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع في دمشق ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م

٢٦ ـ شرح هاشميات الكميت بن زيد الأسدي .
بتفسير أبي رياش أحمد بن ابراهيم القيسي ت ٣٣٩ هـ = ٩٥١ م .
الأعلام ١/٨٥ .
نشره = الدكتور داود سلوم والدكتور نوري حمودي القيسي .

١٠ ص المقدمة والدراسة + ١٩٥ ص النص + ١١٨ ص المستدركات .

★ وطبع الكتاب لأول مرة باعتناء جوزيف هورفتز في ليدن (بريل) سنة ١٩٠٤ م(مع ترجمة النص الى الألمانية) .

٢٧ ـ شرح أبيات سيبويه .
لأبي جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل النحاس ت ٣٣٨ هـ = ٩٥٠ م .
الأعلام ١/٢٠٨ .
نشره = الدكتور وهبة متولي عمر سالمة .

٣٨ ص المقدمة والدراسة + ٣٢٢٠ص النص + ٥٦ ص الفهارس .
الناشر « مكتبة الشباب » بالقاهرة ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م
★ ونشر الكتاب أيضاً = أحمد خطاب
الطبعة الأولى ،٤٣٢٠ ص
مطابع المكتبة العربية ، حلب ، ١٩٧٤م
ـ ونشره أيضاً = زهير غازي زاهد.
في ٣٠٤ ص
النجف ، مطبعة الغري الحديثة ، ١٩٧٤ م

٢٨ ــ تدبير الحبالى والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم .
لأحمد بن محمد بن يحيى البلدي ت نحو ٣٦٨ هـ = ٩٧١ م .
معجم المؤلفين ٢/ ٨٦ .
نشره = الدكتور محمود الحاج قاسم محمــــد .

٥٨ ص المقدمة والدراسة + ٢٧١ ص النص + ٦ ص فهرس المراجع والمصادر دار الحرية للطباعة في بغداد ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م . منشورات وزارة الثقافة والاعلام (سلسلة كتب التراث رقم ٩٦) .

٢٩ ــ الفرق بين الحروف الخمسة :
(الظاء والضاد والذال والسين والصاد)
لأبي محمــــد عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسي ت ٥٢١ هـ = ١١٢٧ م .
الأعلام ٤/ ١٢٣ .
نشره = عبدالله الناصر
١٣٠ ص المقدمة والدراسة + ٤٧٥ ص النص + ١٣٨ ص الفهارس .
الناشر دار المأمــون للتراث ــ دمشـق
★ ونشر الكتاب أيضاً في القاهرة ــ مكتبة المتنبــي ١٩٨٢ م باعتنــاء الدكتور حمزة عبدالله النشرتي في ٤٤٨ ص .
١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤ م

٣٠ ــ معاني القرآن
لأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط ت ٢١٥ هـ = ٨٣٠ م
الأعلام ٣/ ١٠١
نشــره = الدكتور فائز فارس ، في جزأين .

١٣٨ ص المقدمة والدراسة + ٥٥٦ ص النص + ١١١ ص الفهارس

المطبعة العصرية ، الكويت ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م الطبعة الثانية وأما الطبعة الأولى فقد نشرت في الكويت ١٤٠٠ هـ = ١٩٧٩م

٣١ ــ الفهرست
لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي ت ٤٦٠ هـ = ١٠٦٧ م الأعلام ٦/ ٨٤

٢٥ ص المقدمة والفهارس + ٢٠٥ ص النص + ٢٣ ص الفهارس

نشر مؤسسة الوفاء في بيروت ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م

٣٢ ــ المبدع في التصريف
لأبي حيان النحوي الأندلسي ، محمدبن يوسف بن علــي ت ٧٤٥ هـ = ١٣٤٤ م الأعلام ٧/ ١٥٢ .
نشره = الدكتور عبدالحميد السيدطلب
٤٢ ص المقدمة والدراسة + ٢٥٧ النص + ٢٨ ص الفهارس .
الناشر مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع في الكويت ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م . الطبعة الأولى
★ وطبع أيضاً في القاهرة (مكتبة الأزهر) باسم : « المبدع الملخص من الممتع » وذلك سنة ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م باعتناء الدكتور مصطفى أحمد النماس في ١٢٤ ص .

٣٣ ــ بيان خطأ من أخطأ على الشافعي
لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ت ٤٥٨هـ = ١٠٦٦ م .
الأعلام ١/ ١١٦ .
نشره = الدكتورالشريف نايف الدعيس

٩٠ ص المقدمة والدراسة + ٢٤٥ ص النص + ٤٠ ص الفهارس ·
منشورات مؤسسة الرسالة في بيروت ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م الطبعة الأولى ·

٣٤ ــ دلائل الاعجاز

لأبي بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني ت ٤٧١ هـ = ١٠٧٨ م
الأعلام ٤/٤٨ ·

قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ·

٢٦ ص المقدمة والدراسة ونماذج المخطوطات + ٦٣٩ ص النص + ٥٦ ص الفهارس

مطبعة المدني ومكتبة الخانجي في القاهرة ١٤٠٤ = ١٩٨٤ م

★ وأول مطبوعة صدرت من كتاب « دلائل الاعجاز » هي طبعة الشيخ محمد رشيد رضا في مصر ١٣١٩ هـ ــ ١٣٢٠ هـ (مطبعة الترقي) ·
ثم طبع ثانية باعتناء الشيخ محمد عبده والشيخ محمد الشنقيطي في مصر سنة ١٣٢١هـ (مطبعة المنار) ·
ثم نشره محمد بن تاويت الطنجي في تطوان (المطبعة المهدية) بعد سنة ١٩٥٠

٣٥ ــ اشتقاق الأسماء :

لأبي سعيد عبدالملك بن قريب الأصمعي

ت ٢١٦ هـ = ٨٣١ م
الأعلام ٤/١٦٢ ·

نشره = الدكتور رمضان عبدالتواب والدكتور صلاح الدين الهادي ٧٠ ص المقدمة والدراسة + ٥٩ ص النص + ٣٠ ص الفهارس

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠ م

★ وقد نشر هذا الكتاب من قبل ثلاث مرات :

ــ الأولى في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، العدد ٢٨ (١٩٥٣) والعدد ٢٩ (١٩٥٤) بعناية الأستاذ سليمان ظاهر ·

ــ والثانية في مجلة المجمع العلمي العراقي (المجلد ١٦/ بغداد ١٩٦٨) بعناية الشيخ محمد حسن آل ياسين ·

ــ والثالثة أخرجها الدكتور سليم النعيمي في بغداد سنة ١٩٦٨ م كذلك ·

٣٦ ــ المقنع في رسم مصاحف الأمصار مع كتاب النقط

لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني ت ٤٤٤ هـ = ١٠٥٣ م

الأعلام ٤/٢٠٦

نشره = محمد الصادق قمحاوي

٩ ص المقدمة + ١٣٨ ص النص + ٤ ص الفهرس ·

الناشر مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م

★ وقد طبع هذا الكتاب باعتناء أوتو برتزل، استنبول ، سلسلة النشريات الاسلامية /٣ الطبعة الأولى سنة ١٣٥١ هـ /١٩٣٢ م ·

ــ وطبع ثانية باعتناء محمد أحمد دهمان، ليبيا ، مكتبة النجاح سنة ١٣٥٩ هـ = ١٩٤٠ م

ــ وطبع ثالثة باعتناء محمد أحمد دهمان ، دمشق ، دار الفكر سنة

٣٧ ـ المكتفى في الوقف والابتدا في كتاب الله عز وجل

لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني ت ٤٤٤ هـ = ١٠٥٣ م ٠
الأعلام ٤/٢٠٦ ٠
نشره = الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي ٠

١٢٦ ص المقدمة والدراسة + ٥١٥ ص النص + ٦٢ ص الفهارس ٠
منشورات مؤسسة الرسالة في بيروت ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤ م ٠

★ وطبع أيضاً في بغداد باعتناء جابر زيدان خلف ، لجنة احياء التراث ، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م

٣٨ ـ العفو والاعتذار

لأبي الحسن محمد بن عمران العبدي المعروف بالرقام البصري ت نحو ٣٧٠ هـ = ٩٨١ م ٠
مقدمة الكتاب ١/٣ـ٥ ٠
نشره = الدكتور عبدالقدوس أبو صالح في جزأين ٠
الأول = ٢٤ ص المقدمة والدراسة مع نماذج المخطوطات + ٢٨٩ ص النص ٠
الثاني = ٢٨٨ ص النص + ٩٩ ص الفهارس ٠

مطابع جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ـ الرياض ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م

٣٩ ـ اصطلاحات الصوفية

للقاشاني ، عبدالرزاق بن أحمد بن محمد ت ٧٣٠ هـ = ١٣٣٠ م
الأعلام ٣/٣٥٠ ٠

نشره = الدكتور محمد كمال ابراهيم جعفر ٠

١٨ ص المقدمة والدراسة + ١٥٠ ص النص + ٣٦ ص الفهارس ٠

الهيئة المصرية العامة للكتاب (مركز تحقيق التراث) ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م

٤٠ ـ مشكل الحديث وبيانه

لأبي بكر محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني ت ٤٠٦ هـ = ١٠١٥ م
الأعلام ٦ / ٨٣ ٠

نشره = موسى محمد علي

٣٠ ص المقدمة + ٤٧٠ ص النص + ١٦ ص الفهارس

الناشر عالم الكتب ـ بيروت ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م

٤١ ـ الافادات والانشادات

لأبي اسحاق ابراهيم بن موسى الشاطبي الأندلسي ت ٧٩٠ هـ = ١٣٨٨ م ٠
الأعلام ١/٧٥ ٠

نشره = الدكتور محمد أبو الأجفان ٠

٧٨ ص المقدمة والدراسة + ١١٧ ص النص المحقق + ٤٣ ص الفهارس ٠

منشورات مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م الطبعة الأولى ٠

٤٢ ـ سحر البلاغة وسر البراعة

لأبي منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي ت ٤٢٩ هـ = ١٠٣٨ م ٠
الأعلام ٤/١٦٣ ٠

نشره = عبدالسلام الحوفي

٢٠٣ النص + ٩ ص فهرس

(الكتاب بلا مقدمة للناشر وليس له فهارس فنية تخدمه)

دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٤ م

★ وطبع الكتاب في القسطنطينية (مطبعة الجوائب) سنة ١٣٠١ هـ

ـ وطبع أيضاً في دمشق (المكتبة العربية) سنة ١٣٥٠ هـ

٤٣ ـ الوفيات

لأبي المعالي محمد بن رافع السلامي ت ٧٧٤ هـ = ١٣٧٢ م ٠

الأعلام ١٢٤/٦ ٠

نشره = صالح مهدي عباس وبشار عواد معروف ، في جزأين

الأول = ١٢١ ص المقدمة والدراسة + ٣٨٣ ص النص

الثاني = ٣٩٨ ص النص + ٢٣٤ ص المصادر والمراجع والفهارس

منشورات مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م

٤٤ ـ التيسير في المداواة والتدبير

لأبي مروان عبدالملك بن زهر الأندلسي ت ٥٥٧ هـ = ١١٦٢ م ٠

الأعلام ١٥٨/٤ ٠

نشره = الدكتور ميشيل الخوري

٣٠ ص المقدمة والدراسة ونماذج خطية + ٤٨٧ النص + ٦٨ الفهارس

دار الفكر في دمشق ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م (الطبعة الأولى) ٠

٤٥ ـ التوفيق للتلفيق

لأبي منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي ت ٤٢٩ هـ = ١٠٣٨ م الأعلام ١٦٣/٤ ٠

نشره = ابراهيم صالح

٢٤ ص المقدمة والدراسة ونماذج خطية + ١٨٧ ص النص + ٦٠ الفهارس مطبوعات مجمع اللغة العربية في دمشق ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م

٤٦ ـ المغازي النبوية

لابن شهاب الزهري ، محمد بن مسلم بن عبيدالله ت ١٢٤ هـ = ٧٤٢ م ٠ الأعلام ٩٧/٧ ٠

نشره = الدكتور سهيل زكار

٣٥ ص المقدمة والدراسة + ١٤٥ص النص + ١٨ ص الفهارس

دار الفكر في دمشق ١٤٠١هـ = ١٩٨١م

٤٧ ـ مشيخة ابن طهمان

لأبي سعيد الخراساني ، ابراهيم بن طهمان ت ١٦٨ هـ = ٧٨٤ م ٠

الأعلام ٤٤/١ ٠

نشره = الدكتور محمد طاهر مالك ٠

٥٦ ص المقدمة والدراسة + ١٨٨ص النص + ١ ص المحتوى مطبوعات مجمع اللغة العربية في دمشق ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣م

★ ونشرت المخطوطة لأول مرة في مجلة معهد المخطوطات العربية (مج ٢٢ ج ٢/١٩٧٦م)، مع مقدمة للناشر تعرّف بالمخطوطة ومؤلفها ابراهيم بن طهمان (المقدمة ص ٢٤١ ـ ٢٥٨ ، نص المخطوطة ص ٢٥٩ ـ ٣٠٠) .

٤٨ ـ السنة

لأبي عبدالرحمن ، عبدالله بن أحمد بن حنبل ت ٢٩٠ هـ = ٩٠٣ م
الأعلام ٤/ ٦٥ .
نشره = محمد السعيد بن بسيوني زغلول

٨ ص المقدمة + ٢٧٧ ص النص + ٢ ص فهرس المحتويات .

دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م

★ نشر لأول مرة في القاهرة في المطبعة السلفية ومكتبتها سنة ١٣٤٩ هـ = ١٩٣٠م

٤٩ ـ اختلاف العلماء

لأبي عبدالله بن نصر المروزي ت ٢٩٤هـ = ٩٠٦ م .
الأعلام ٧/ ١٢٥ .
نشره = السيد صبحي السامرائي

٢١ ص المقدمة + ٢٦٨ ص النص + ١٨ ص الفهارس العامة .
عالم الكتب ـ بيروت ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م الطبعة الأولى

٥٠ ـ صحيح ابن حبّان

لأبي حاتم محمد بن حبّان البستي ت ٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م .
الأعلام ٦/ ٧٨ .
بترتيب :

الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي ت ٧٣٩ هـ = ١٣٣٩ م .
الأعلام ٤/ ٢٦٧ .

المجلد الأول

نشره = شعيب الأرنؤوط وحسين أسد
٧٦ ص المقدمة والدراسة + ٣٨٨ ص النص + ٢٢ ص الفهارس .
منشورات مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤ م

★ ونشره الشيخ العلامة أحمد محمد شاكر (المجلد الأول) في القاهرة سنة ١٩٥٣م

٥١ ـ أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار

لأبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي ت نحو ٢٥٠ هـ = ٨٦٥ م .
الأعلام ٦/ ٢٢٢ .
نشره = رشدي بن صالح ملحس .. في جزأين

الجزء الأول =

٢٩ ص المقدمة والدراسة + ٣٢١ ص النص + ٤١ ص الملحقات + ٤٤ ص الفهارس .

الجزء الثاني = ٣٠٢ ص النص + ٣٧ ص الملحقات + ٥٣ ص الفهارس .
منشورات دار الاندلس ـ بيروت ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م (الطبعة الثالثة)

★ ونشر هذا الكتاب ـ لأول مرة ـ المستشرق الألماني فردينان وستنفيلد في ليبسك بألمانيا سنة ١٢٧٥ هـ = ١٨٥٨م .
وجاءت الطبعة في ٥١٨ ص منها ١٤ ص للتصحيحات ، وصدّرها الناشر بمقدمة تاريخية عن المؤلف بلغ عدد صفحاتها ٢٥ ص .

ـ وطبع ثانية في مكة سنة ١٣٥٢هـ = ١٩٣٣ م باعتناء رشدي صالح ملحس ..

٥٢ ـ أمثال العرب

لأبي العباس المفضل بن محمد الضبيّ ت ١٦٨ هـ = ٧٨٤ م .
الأعلام ٧/٢٨٠ .

نشره = الدكتور احسان عباس
٤٤ ص المقدمة والدراسة + ١٣٥ ص النص + ٧ ص ملحق + ٣٨ ص الفهارس .

منشورات دار الرائد العربي بيروت ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م

★ ونشر الكتاب لأول مرة في استانبول في مطبعة الجوائب سنة ١٣٠٠ هـ . ثم طبع مرة أخرى في مصر (القاهرة) سنة ١٣٢٧ هـ = ١٩٠٩ م .

٥٣ ـ تمثال الأمثال

لأبي المحاسن محمد بن علي العبدري الشيبي ت ٨٣٧ هـ = ١٤٣٣م
الأعلام ٦/٢٨٧ .

نشره = الدكتور أسعد ذبيان ، في مجلدين

الأول = ٩٨ ص المقدمة والدراسة + ٣٠٥ ص النص

الثاني = ١٩٤ ص النص + ١٩٠ص الفهارس العامة .

منشورات دار المسيرة ـ بيروت ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢ م الطبعة الأولى

٥٤ ـ الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها .

لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي الأندلسي ت ٤٣٧ هـ = ١٠٤٥م
الأعلام ٧/٢٨٦ .

نشره = الدكتور محيي الدين رمضان، في مجلدين .

المجلد الأول = ٥٩ ص المقدمة والدراسة ونماذج الخطيات + ٥٤٠ ص النص .

المجلد الثاني = ٣٩٤ ص النص + ١١٥ ص الفهارس

منشورات مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م الطبعة الثانية .

★ وطبع الكتاب لأول مرة في دمشق (ضمن منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق)

ونشره الدكتور محيي الدين رمضان (ط ١ جزءآن) ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م

٥٥ ـ سنن الدار قطني

لأبي الحسن علي بن عمر بن أحمد الدار قطني ت ٣٨٥ هـ = ٩٩٥ م
الأعلام ٤/٣١٤ .

ـ بذيله = التعليق المغني على الدارقطني لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي الهندي .
معجم المؤلفين ١٠/٧٢

الجزء الأول =

٦ ص المقدمة + ٤١٤ ص النص + ٥ ص فهرس الجزء الأول .

الجزء الثاني = ٣٠٢ ص النص + ٢ ص فهرس الجزء الثاني .

الجزء الثالث = ٣٢٤ ص النص + ١ ص فهرس الجزء الثالث .

الجزء الرابع = ٣٠٧ ص النص + ١ ص فهرس الجزء الرابع .

منشورات عالم الكتب ـ بيروت ١٤٠٣هـ
= ١٩٨٣ م .

الطبعة الثانية

★ نشر لأول مرة منفرداً في دلهي سنة ١٣٠٦هـ

ـ ونشر أيضاً (مع شرح تعليق المغني) في دلهي سنة ١٣١٠ هـ .

ـ ثم أعيد نشره فطبع بالقاهرة باعتناء السيد عبدالله بن هاشم المدني .

٥٦ ـ الكافي في البيزرة

لعبد الرحمن بن محمد البلدي ت ق ٧هـ
نشره = احسان عباس وعبدالحفيظ منصور .

٤٤ ص المقدمة والدراسة + ٣٦٨ص النص + ٢ص تتمة وشواذ + ٨ص مصطلحات البيزرة + ٣٧ ص الفهارس .
منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م
الطبعة الأولى .

٥٧ ـ المراسيل

لأبي محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن ادريس الرازي ت ٣٢٧ هـ = ٩٣٨ م
الأعلام ٣/٣٢٤ .

نشره = أحمد عصام الكاتب .
٩ ص المقدمة + ١٩٠ ص النص + ٢١ ص الفهارس .

دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٠٣ هـ
= ١٩٨٣ م

★ ونشر هذا الكتاب لأول مرة في الهند في حيدر آباد الدكن سنة ١٣٤١ هـ .

★ وطبع ثانية في بغداد (وما هي في الحقيقة الا اعادة طبع للنشرة السابقة) وقد قام بها السيد صبحي البدري السامرائي سنة ١٩٦٧م

★ ونشر ثالثة في بيروت (مؤسسة الرسالة) بعناية شكرالله بن نعمة الله قوجاني الايراني ١٣٩٧ هـ = ١٩٧٧ م

ـ وهي أجود وأفضل النشرات جميعاً .

٥٨ ـ الأحاديث المشكلة في الرتبة أو (أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب)

لأبي عبدالله محمد بن درويش الحوت البيروتي ت ١٢٧٧ هـ = ١٨٦٠ م
الأعلام ٧/٧٤ .

نشره = كمال يوسف الحوت .

٢١ ص المقدمة والدراسة + ٢٧٠ ص النص + ٤٧ ص نصوص أخر ملحقة بالكتاب + ١٧ ص المصادر والآيات والفهرس العام
منشورات عالم الكتب ـ بيروت ١٤٠٣هـ
١٩٨٣ م

٥٩ ـ الانصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم .

لابن السيد البطليوسي ، محمد بن عبدالله بن محمد ت ٥٢١ هـ = ١١٢٧ م
الأعلام ٤/١٢٣ .
نشره = الدكتور محمد رضوان الداية

٢٢ ص المقدمة والدراسة + ١٧٩ ص النص + ٦٠ ص الفهارس .
منشورات دار الفكر بدمشق ١٤٠٣ هـ
= ١٩٨٣ م الطبعة الثانية .

★ ونشر هذا الكتاب لأول مرة في مصر (مطبعة الموسوعات) سنة ١٣١٩ هـ باشراف واعتناء أحمد عمر المحمصاني .
ـ ونشر ثانية في دمشق (دار الفكر) سنة ١٩٧٢ م باعتناء الدكتور محمد رضوان الداية .

ـ ونشر ثالثة في القاهرة (دار الاعتصام) سنة ١٩٧٨ م ، ط ١ ، ٢٤٧ ص باعتناء الدكتور أحمد حسن كحيل والدكتور حمزة عبدالله النشرتي .

٦٠ ـ القول المسدد في الذب عن مسند الامام أحمد .

لابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي بن محمد الكناني ت ٨٥٢ هـ = ١٤٤٩م الأعلام ١/١٧٨ .

نشره = عبدالله محمد الدرويش

٢٨ ص المقدمة والدراسة + ٧٤ النص + ٤٧ ص فهرست الكتب من مرويات الحافظ ابن حجر (تأليف مجهول) + ٨ ص الفهارس .

منشورات اليمامة ـ دمشق ، بيروت ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م .

★ ونشر لأول مرة في الهند (مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن) سنة ١٣١٩ هـ .

ـ ثم طبعت في القاهرة (بعناية وتصحيح ونشر مكتبة ابن تيمية) سنة ١٤٠١ هـ .

٦١ ـ عقد الدرر في أخبار المنتظر

ليوسف بن يحيى بن علي الشافعي المقدسي السلمي ت ٦٨٥ هـ = ١٢٨٧ م الأعلام ٨/٢٥٧ ومعجم المؤلفين ١٣/٣٤٣ .

نشره = لجنة من العلماء باشراف الناشر ؟ !

٥ ص المقدمة + ٣٥٠ ص النص + ١٠٨ ص الفهارس .

منشورات دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م .

★ وهذه الطبعة صورة طبق الأصل (مسروقة مشوهة) عن الطبعة المصرية التي نشرها عبدالفتاح محمد الحلو (مكتبة عالم الفكر ـ القاهرة ١٩٧٩ م) ط ١ ، ٤٦٨ص وهذه الدار مشهورة بالسرق والاغارة على التراث العربي بكل وقاحة وصفاقة ؟ !

٦٢ ـ تعريف الخلف برجال السلف

لأبي القاسم محمد الحفناوي ابن الشيخ ابن أبي القاسم الديسي كان حيا ١٣٢٦ هـ معجم المؤلفين ١١/١٣٥ .

نشره = ؟ ! الطبعة الأولى ، في قسمين

القسم الأول = ٢٠٣ ص النص

القسم الثاني = ٦٠٣ ص النص + ٢٠ ص فهرس الأعلام للقسمين .

منشورات مؤسسة الرسالة في بيروت والمكتبة العتيقة في تونس ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م

٦٣ ـ الانصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به

لأبي بكر محمد بن الطيب بن محمد القاضي الباقلاني ت ٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م الأعلام ٦/١٧٦ .

نشره = محمد زاهد بن الحسن الكوثري وأشرف عليه عبدالوهاب عبد اللطيف ١٢ص المقدمة والدراسة + ١٨١ ص النص + ١٤ ص الفهارس

منشورات مؤسسة الخانجي ـ القاهرة ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م

★ طبع هذا الكتاب لأول مرة في القاهرة باعتناء محمد زاهد الكوثري سنة ١٣٦٩ هـ

ـ وطبع ثانية في القاهرة أيضاً باعتناء محمد زاهد الكوثري واشراف عبدالوهاب عبداللطيف سنة ١٣٨٢ هـ = ١٩٦٣ م .

٦٤ ـ العلل المتناهية في الأحاديث الواهية
لأبي الفرج عبدالرحمـــن بن علي بن محمد الجوزي ت ٥٩٧ هـ = ١٢٠١ م ٠
الأعلام ٣/٣١٦ ٠

نشره = الشيخ خليل الميس، في جزأين

الجزء الأول = ١٣ ص المقدمة والدراسة + ٤٥٩ ص النص + ١٤ ص فهرس الجزء الأول ٠

الجزء الثاني = ٤٥٧ ص النص + ٢٠ ص فهرس الجزء الثاني ٠

دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م ٠

★ ونشر هذا الكتاب في الهند باعتناء ارشاد الحق الأثري سنة ١٣٩٩ هـ

٦٥ ـ وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى
لأبي الحسن السمهودي علي بن عبدالله ابن أحمد ت ٩١١ هـ = ١٥٠٦ م
الأعلام ٤/٣٠٧ ٠

نشره = محمد محيي الدين عبدالحميد، في أربعة أجزاء ٠

الجزء الأول = ٧ ص المقدمة وفهرس الجزء الأول + ٣٨٤ ص النص ٠

الجزء الثاني = ٣٨٤ ص النص + ٥ ص فهرس الجزء الثاني ٠
الجزء الثالث = ٣٢٧ ص النص + ٦ ص فهرس الجزء الثالث ٠

الجزء الرابع = ٣٠٩ ص النص + ٩ ص ملحق + ٣ ص فهرس الجزء الرابع ٠

منشورات دار احياء التراث العربي ـ بيروت ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤ م الطبعة الرابعة والطبعة الأولى سنة ١٣٧٤ هـ = ١٩٥٥ م

ـ للبحث صلة ـ

★ ★ ★

آداب التربية الإسلامية العربية

محمد صالح بربندي

١ ـ تمهيد :

مجال تقدم الأمم في الحضارة والرقي وبناء صرح المجتمع يعود الى التربية القديمة التي تنتهجها وترسمها الأمة لحياتها وحياة الجيل الذي تقوم بتنشئته واعداده على أساس تلك التربية التي تضعها له لأن أهداف التربية ومقاصدها وغاياتها في حياة الأمم ، تختلف على ما تعلقه من الغايات المنشودة من وراء نظرتها للتربية ، فعملية التربية والتعليم لها أثر بارز فعال في حياة الأفراد والشعوب ، فكل تقدم يلقاه المرء في حياته ونجاح يظفر به في مجتمعه يكون مرده الى ما ظفر به من التربية الجليلة والتعليم النافع المثمر الذي تزود به منذ صغره • ولهذا كان مجد الأمة وحضارتها يقاسان بالتربية المثلى التي تسود مجتمعاتها ، وبالأهداف المنبعثة من وراء تلك التربية ، وبالقيم المعنوية والروحية التي تنشدها في حياتها ، وبالمبادىء التي تنادي بها ، وتلقنها أفراد مجتمعها وتأخذ بها الروح الجماعية المسيطرة على تلك الأمة •

٢ ـ أثر التربية في حياة الأمة :

اننا نجد الفلسفة والمثل العليا قد طغت على فلاسفة أثينا القدماء ، وكان سقراط ينادي بالمبدأ الآتي : (الفضيلة هي المعرفة) واعتقد بثبات القيم والمثل وانها جوهر الأشياء وراسخة في عقول الناس حيث يولدون وتولد معهم وقال ان المعلم (يستخلص النتائج عن طريق الحوار مع التلاميذ) ويعتقد البعض أن جمهورية تلميذه أفلاطون عن طبيعة العدل الأسمى لها صبغة تربوية في الحياة وقد لقب فريق آخر أريسطو بالمعلم

الأول، وكانت فلسفته تتلخص في المبدأ الآتي:(الفضيلة هي الوصول الى السعادة والخير ويقولون ان تلك النظرية لم تكن مجرد تأمل في الحياة بل هي اتجاه وارادة تشتمل على الخير كله وعمله ، والواقع أن كتاب أرسطو(السياسة) كان له أثر بارز في التربية في العصور الوسطى ٠ واسبارطة القديمة غزت بلاد اليونان واستقرت بها ، ولكن الاسبارطيين لم يندمجوا مع أهلها ، وهكذا تمثلت نظرتهم الى التربية الى أن كان هدفها المباشر اعداد طبقة الجند حتى ان المواليد من الأطفال كانوا يجتازون امتحاناً خطيراً هو امتحان الحياة أو الموت ، اذ يُلقون في ناحية من الجبل فمن قاوم منح حق الحياة ومن مات استراحت اسبارطة من ضعفه وهكذا نجد النظرة الى التربية تختلف بمفهوم الجماعة والروح المسيطرة عليها ، ونلمح ذلك بارزاً في التربية الاغريقية أو الرومانية أو غيرها٠

٣ ـ نظرة التربية الاسلامية :

ان التربية الاسلامية منبعثة من روح الاسلام المتمثلة في أسس ومقاصد القرآن الكريم التي تتلخص في المبادىء الاتية :الدعوة الى الحياة ـ الدعوة الى الخير ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاحتكام في كل ذلك الى العلم والعقل ونجد أيضاً أن مفهوم تلك التربية يتجلى في السنة النبوية الشريفة وهي كما يقول الامام الشاطبي في كتابه (الموافقات) راجعة الى الكتاب الكريم وبيان له ٠ ان الاسلام الذي ثار على الظلم والطغيان وزلزل عروش البغي والجور ٠ وأحل العدل والحكم الشورى وجعل الناس سواسية كأسنان المشط ، جعل نظرته الى التربية (الفردية والجماعية) مستقاة من هذه المبادىء الانسانية العالية ، وروح المجتمع التي بشر بها هي الخير والسعادة للجميع وهدى الناس وارشادهم الى ما فيه خيرهم وصلاحهم في دينهم ودنياهم ، واذا كانت هذه المثل العالية هي أهداف التربية الاسلامية فمن الطبيعي أن تأخذ بذلك المفهوم الخلقي الذي حلم به فلاسفة أثينا قبل ألوف السنين وبالتالي فان المبادىء التي أخذت بها التربية الاسلامية ونادت بها هي مثالية تأثرت بها التربية الحديثة (بصورة مباشرة) قروناً طويلة ، وأهمها مبدأ الاخاء والمساواة بين جميع المؤمنين بغض النظر عن اختلافات الجنس واللون والعنصر ، وقد ظهر التجانس والائتلاف والاخاء والمساواة في أوضح صوره بنظم التربية والحضارة الاسلامية التي تشيد بعظمتها ونقر بفنونها ومبادئها وأبطالها وأخلاقها ٠

ويعود الفضل بذلك الى التربية الاسلامية القائمة عليها ، والى الروح العلمية التي نادت بها ، فقد قال رسول الله ﷺ : (طلب العلم فريضة على كل مسلم) وان ما أوجده المسلمون من منشآت ومعاهد لنشر العلم ، وما أغدقوا عليها من خيرات وأوقاف لا نجد له نظيراً في تاريخ الأمم القديمة أو المعاصرة للاسلام ٠ وهذا ما يدل على اهتمام المبادىء والتعاليم الاسلامية بالتعلم ، وبالتربية التي يستند اليها٠ والواقع أن جميع مناهج التربية الاسلامية وتوجيهاتها وطرقها وأنظمتها قد توخت تربية الأخلاق المثالية في نفوس النشء وهذا يدل على اهتمامها العظيم وعنايتها الكبيرة بالتربية الخلقية حتى يكاد يقترن

مشمول معاني الأخلاق والتهذيب في مفهوم تلك التربية السامي في غاياته وأهدافه حتى ان تعاليم الدين الحنيف وآراء المربين والفلاسفة في الاسلام قد أجمعت كلها على المناداة بالخلق القويم وتنميته والتبشير به، واحلاله موضعاً يليق به في جميع نواحي الحياة ويكفي أن نستدل بقول الرسول ﷺ (بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق) فهذا دليل على أن الدعوة الاسلامية في أصولها وفروعها وحضارتها وعلومها سعت كلها الى بعث الأخلاق السامية في الانسانية ٠

ولا شك فهذا الحديث النبوي الشريف يعد قاعدة كلية في بناء صرح الأخلاق العالية لا في تعاليم الدين فحسب ، بل في التربية والتهذيب ونواحي الاجتماع وميول الحياة ونوازعها وفلسفة أسسها ووجودها ولم تستطع شريعة من الشرائع أن تبز الاسلام في هذا المضمار بعمق المعنى ووضوح الهدف وسمو الرسالة ٠ فلا غرو اذن أن نرى التربية الاسلامية قد أولت التربية الخلقية عناية عظيمة وفي هذا المجال كان التوفيق حليفها فتركت أثراً من أجلّ الآثار التربوية لأنها تميزت بالفهم الكبير للاسس النفسية في تهذيب الأخلاق والوقوف على بعض ميول الأطفال الفطرية الغريزية لتلك الغاية الخلقية ٠

٤ ـ طرق التربية الاسلامية في التهذيب :

ان طرق التربية الاسلامية في تهذيب وتنمية الأخلاق تتضمن ما يلي :

١ ـ **ان الطفل في المرحلة الأولى** من التعليم لديه استعداد للتأثر والتلقي على يد مربيه فالتربية الاسلامية قد استفادت من هذه الناحية وعملت على استغلالها في التهذيب فأوصت بالايحاء للطفل في الأخلاق التي يراد غرسها في نفسه ، وذلك على طريق الأشعار والأمثال والحكم والمواعظ ، فعندما يعمد المربي الى حث الطفل على التحلي بالأمانة يأتي له بآيات من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والأشعار والأمثال والحكم ويصوغ له قصصاً في أثر الأمانة بالحياة وعاقبة الخيانة وهذا ما يؤثر تأثيراً مباشراً في تهذيب الطفل من الناحية الوجدانية ٠

٢ ـ **وكذلك عملت التربية الاسلامية** على الاستفادة من ميل الطفل لتلقي المدح من قبل مربيه أو والديه اشباعاً لغريزة السيطرة في نفسه وخوفه من اللوم والندم فأوصت أن يمدح الطفل اذا ظهر منه فعل جميل ، ويجب الاعتماد على المدح والتشجيع أكثر من الايحاء بالندم فقد نصح المسلمون المربي ألا يكثر من تأنيب الأطفال حتى لا يميت قلوبهم ، ويخمد شجاعتهم ويبلد أذهانهم ٠

٣ ـ ولقد انتبهت التربية الاسلامية الى محاكاة الطفل وتشبهه برفاقه الذين يعاشرهم في المدرسة أو المحيط وترى أن الطفل يقلد بشدة الأشخاص الذين يعيش معهم لأنه يأنس بعاداتهم وطبائعهم فيرى ابن سينا : « أن يكون مع الصبي في مكتبه صبية حسنة آدابهم مرضية عاداتهم ، لأن الصبي عن الصبي ألقن وهو عنه آخذ وبه آنس » ٠

وهكذا ترى التربية الاسلامية أن اختلاط الطفل بغيره يكسبه معرفة وخلقاً ويجعله يتحدث مع غيره بحرية وطلاقة وهذا ما يحدثلديه انشراحاً في الصدر وانطلاقاً في اللفظ ويتيح له الفرص للعمل المثمر واظهارالمواهب والنشاط مع غيره من الأطفال في كثير من العادات والأخلاق والأنس بهم .

كما أن اجتماع الطفل بغيره يثير لديهمجال المنافسة والمباراة وينمي شعوره، ووجود الأطفال مع غيرهم يهيىء لهم هذه الفرص ،ويجعلهم يستفيدون من تقليد بعضهم بصورة جماعية ، ومن الأخذ بعاداتهم وصفاتهم الأمرالذي يعود الطفل على السلوك الاجتماعي مع الآخرين ليتدرب على مشاكل الحياة منذنشأته الأولى ، ولا شك فان شخصية الطفل لا تنمو الا في الوسط الاجتماعي الصالح لاظهار ميوله وتهذيب غرائزه وتعويده على المسؤولية المشتركة ، وتكييف نفسه لانسجامهمع الغير ، وهذه هي الغاية الكبرى للتربية في قديمها وحديثها .

يتضح من ذلك أن التربية الاسلامية قداستغلت ميل الطفل للتقليد منذ صغره وذلك في سبيل تنمية أخلاقه وتربيته تربية فاضلة،واستفادت من محبة الأشخاص الذين يجتمع بهم الطفل كمعلمه ورفاقه وكذلك من معاشرته لمن يألفهم أو يصاحبهم في المدرسة والمحيط للمنافسة والمباراة وما ينتج عنذلكمن الفوائد التربوية التي يراها المسلمون طرقاً فعالة في التهذيب الخلقي وفي ذلك يقولابن سينا في كتابه (السياسة) : « ان الصبي يحادث الصبيان والمحادثة تفيد انشراح العقلوتحل منعقد الفهم ، لأن كل واحد من أولئك انما يتحدث بأعذب ما رأى وأغرب ما سمعفتكون غرابة الحديث سبباً للتعجب منه ، والتعجب منه سبباً لحفظه وداعياً الى التحدثبه ثم انهم يترافقون ويتعارضون الحقوق وكلذلكمن أسباب المباراة والمباهاة والمساجلة والمحاكاة وفي ذلك تهذيب لأخلاقهم ، وتحريك لهممهم وتمرين لعاداتهم » .

٥ ـ النتائج المترتبة على نظرة التربيةالاسلامية للتهذيب الخلقي :

يستنتج من ذلك ان التربية الاسلامية تنظر الى أهمية تكوين الشخصية في الوسط الاجتماعي ، وترى أن الطفل يقلد غيرهويتحسس من تشجيع الآخرين واثارتهموكان ابن سينا يعني بقوله المار الذكر بضرورةاعداد الطفل منذ صغره لبيئة اجتماعيةتؤهله لأن يعيش ويصبح رجلا في المستقبل يقوم بواجبه لأمته ووطنه .

والواقع أن التربية الحديثة توجه عنايةكبرى الى هذه الناحية ، وتنظر الى المدرسة كمركز اجتماعي وتهتم بتنظيم ميول الطفلونشاطه مع غيره وتمتعه بأوقات فراغه . وتجعل الوسيلة في ذلك هدفاً طبيعياً لنشأتهوتكوين شخصيته ليشعر أن له مركزاً ممتازاً في الجماعة أو على الأقل له مكانة معترف بهابين أفرادها ، وان له فيها كياناً مستقلا وشخصية قائمة بذاتها تهيء لها الجماعة كلفرصة ممكنة للظهور والنمو والانتاج بواسطة الاحتكاك بغيره وتقليدهم ومنافستهم ومباراتهم ، وتعمل التربية بدورها على تقويمميول

الطفل وغرائزه وتوجيهها الى الفائدة المطلوبة، وهذا العمل متمم لرسالة التربية وللجهود التربوية التي تقوم بها في المدرسة أو في المنزل.

ومما يجدر ذكره في هذا المجال أن التربية الاسلامية قد استعانت بتكوين عادات وميول نافعة لدى الأطفال منذ الصغر، وهذه العادات لها أثر بارز في التربية الخلقية، لأنها تعود الطفل التزام النظام في حياته واحترام الآخرين والتقيد بآداب الجماعة وهذا هو روح الأخلاق في المجتمع والحافز الكبير على انمائها، فقد أوصى المسلمون بتعويد الأطفال الاستيقاظ المبكر والمشي والحركة والرياضة، فنصح ابن مسكويه في كتابه (تهذيب الأخلاق وتطهير الاعراق) أن يعود الطفل ما يلي: « ألا يكشف أطرافه ولا يرخي يديه ولا يسرع في المشي ولا يربي شعره ولا يزين بملابس النساء و لايبصق في مجلس ولا يمخط أو يتثاءب بحضرة غيره ولا يضع رجلا على رجل والا يكذب ولا يحلف البتة صادقاً ولا كاذباً.. وأن يتعود طاعة أبويه ومعلميه».

ويلاحظ أن هذه النصائح قد جاءت جميعها من صميم التربية الاسلامية العريقة، وهي من الآداب الاجتماعية التي يجدر الأخذ بها في تربية الأطفال، والواقع انها ترمي الى تكوين خلق مهذب رفيع واعداد رجولة كاملة في نفس الطفل، والى ابعاده عن الميوعة الناجمة عن سوء التربية وضعف الرقابة على الأبناء والتقليد الأعمى في كل شيء وضعف النفسية والشخصية التي انتشرت بين فتيان هذا العصر الحديث، ويزيد ذلك التقليد الماجن وتنميها الكتب المستهترة والآداب الخليعة في زمننا الحالي.

واذا كانت ألفاظ التهذيب الاجتماعي قد اختلفت في عصرنا الحاضر وتباينت طرق تهذيب الأطفال وتوجيه سلوكهم وآدابهم، فهي لا تعدو هذا المفهوم الخلقي القوي في التربية الاسلامية، ولذلك فان نتائج نظرة التربية الاسلامية الى التهذيب الخلقي هي الارتكاز على بناء الأخلاق العالية لدى الأفراد وفي المجتمعات بجميع تعاليمها وتوجيهاتها وطرائقها واهتمت أيضاً بتكوين السلوك الاجتماعي لاعداد الطفل لبيئته ومحيطه منذ صغره وشعارها « من شب على شيء شاب عليه ».

٦ ـ الفوائد التربوية المستقاة من الطرق الاسلامية للتربية :

من ذلك يتضح أن للتربية الاسلامية أهمية كبرى وتأثيراً عظيماً في حياتنا الاجتماعية، لما تتمتع به من الفوائد السامية العالية في حياة الفرد والمجموع، ولا بد للمربي الموجه من العناية التامة بهذه التربية العالية لتنشئة الطلاب على أساس ديني قويم تعضده الصفات الخلقية الأخرى، ولانستطيع أن نفصل التربية الدينية عن التربية الخلقية لأن الأولى أساس الفضائل وأم المحاسن.

ونحن العرب المسلمين لدينا والحمد لله تراث كامل من التربية الاسلامية التي لها آثار واضحة في تقدم العلوم والمعارف، فقد وضع الفقه الاسلامي آثاراً كبرى في تنظيم العلاقات الانسانية والروحية والاجتماعية، وكان لتلك التربية أسس قويمة في تطبيق

مبدأ المساواة واتاحة الفرص في التعليم بطريقة جعلت تحصيل العلوم بمراحله المختلفة في متناول جميع الطبقات والأفراد حتى توفرت لديهم الرغبة والقدرة على التحصيل ، وقد مكنت تلك الروح الديموقراطية كثيراً من الطلاب المعدمين من الظهور والتفوق على أقرانهم كالجاحظ والغزالي ، واذا كنا نأخذ بهذا النظام حالياً ونسير بهديه فانما نرجع بذلك الى ماضينا وتقاليدنا الاسلامية العربية العريقة ، وهناك مثالية قوية خالدة في التربية الاسلامية يظهر في وضوح روحها فيوجد مثل أعلى تتفق الآراء كلها في عده الهدف الأول للتربية الاسلامية ، وتتضافر الجهود في الوصول اليه ونجد أيضاً في هذه التربية المثالية تقديماً للمعرفة والأخلاق الفاضلة يتجلى في الحديث المار ذكره « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » و « اطلبوا العلم ولو في الصين » ·

وعلى هذا فالتربية الاسلامية تضع العلم أسمى شيء في الوجود والعلماء في المكانة التالية للأنبياء وهم لا يصلحون لحمل رسالة العلم المقدسة الا بعد تطهير أنفسهم من الرذائل والتحلي بالأخلاق والفضائل الحميدة السامية · وقد أدت هذه الروح المثالية الى سمو في الخلق اعتبر أول شرط للتحصيل التعليمي ، فنصح الفارابي مثلا الطالب الذي يعتزم دراسة الفلسفة أن يبدأ بتهذيب ميوله الغريزية حتى يوجه عنايته لاحراز الفضيلة ·

ان القوة المعنوية التي تحاول التربية جعلها في التلاميذ وتنمية شخصياتهم بها ، تؤثر تأثيراً كبيراً في تعلمهم ، لأنها تجعلهم يثقون بأنفسهم والأمة بحاجة قصوى الى تلك القوة لتوحيد جهودها وتقوية عزائم أبنائها لتجعلهم متفقين على مثل أعلى مشترك يوحد الجهود والغايات ، ويملأ النفوس بالايمان والعزم والاقدام · والواقع أن ما نلمسه من ضعف الهمم بين الطلاب والتراخي المعنوي وتغليب روح الأثرة والأنانية على فضيلة الايثار والغيرية يعود قبل كل شيء الى ضعف تلك الروح المثالية في التربية ·

ان المربي الموجه يجب أن يفخر بما قام به وما حققه من التكوين الصحيح للنشء في النواحي الخلقية والدينية في التربية واعداد شخصيات الغد الذين تهدف التربية الى جعلهم رجالا في المستقبل للامة والمجتمع ، بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، لا الاكتفاء بالنجاح في الامتحانات وابراز النتائج المادية ·

والواقع اننا قطعنا أشواطاً بعيدة في التقدم المادي والعلمي والأدبي وتفوقنا على الأقدمين في ذلك ، ولكننا لا نزال بعيدين عن الوصول الى مستواهم المعنوي والروحي الذي أوجدته تلك التربية العظيمة ·

ومن ميزات التربية الاسلامية أيضاً وفضائلها الحميدة اهتمامها بتوطيد العلاقات الشخصية بين المدرس والطالب ، لأن التعليم بها كان فردياً في معظم حالاته والاستاذ على اتصال دائم بالطالب الذي يستفيد منه خلقياً وعلمياً ، وكان المسلمون يفضلون أن يدرس الكتاب على مؤلفه ، لأنهم يؤمنون بضرورة ارتشاف العلوم من مناهلها الأصلية والاتصال الشخصي بالمؤلف نفسه ، وقد دعاهم ذلك الاعتقاد الى تحمل مشاق السفر والقدوم من أقصى الجهات للاتصال بالأستاذ المطلوب ، ولو كان موجوداً في منطقة نائية ، وهذا ما نلمسه

في مؤلفاتهم وكتبهم العديدة • وصفوة القول ان التربية الاسلامية لها ميزات كبيرة في حياة النشيء العامة والخاصة ويبدو ذلك في تكوينها عقيدة ثابتة في نفوسهم وايماناً صادقاً في قلوبهم وهذا ما نحتاجه في اعداد شخصيات الجيل اعداداً قوياً •

٧ ـ نظرة التربيـة الاسلاميـة للتعليم في الصغر :

ان عملية التربية بمجملها ترتكز أهميتها على التعليم في الصغر ، وقد اعتبرت التربية الاسلامية تلك المرحلة هامة في دور تطور الطفل وأولت التعليم في ذلك الدور عناية كبرى في سبيل تعليمه وتهذيبه ، ولاسيما في مجال التربية الخلقية لتقويم نشأته واكتسابه العادات والصفات الحسنة اللازمة لرقيه وسعادته ليغدو مواطناً صالحاً لنفسه ولمجتمعه •

فالامام ابن الجوزي يقول : « أقوم التعليم ما كان في الصغر ، فاذا ترك الولد وطبعه ونشأ عليه ومرن ، كان رده صعباً كما قيل في القديم العلم في الصغر كالنقش في الحجر » •

ويرى ابن مسكويه : « أن ظهور الحياء في الطفل هو أول خطوة يخطوها نحو السير في طريق الكمال والعقل ، فان نفسه بهذه الحالة مستعدة للتأديب صالحة للعناية لا يجب أن تهمل وتترك » •

وعلى هذا فالتربية الاسلامية تنظر باهتمام الى المرحلة الأولية من التعليم ، وتراها صالحة لتلقي الطفل العلوم والمعارف وتهذيبه خلقياً وتنمية بعض الصفات الطيبة والخلال الحميدة في نفسه ، واكسابه بعض العلوم والخبرات النافعة ، والواقع كما يقول ابن الجوزي أن الطفل اذا تعود على عادات سيئة يصعب تقويمها في نفسه ، ورده الى جادة الصواب بعد ذلك فمن الخير البدء بهذه المرحلة قبل أن يترك لمؤثرات المحيط ،وتغرس في ملكاته وشعوره بعض العادات القبيحة ،وهناك يصعب على المربي تهذيبه على الوجه الأكمل المطلوب • ورده الى جادة الصواب •

والتربية الحديثة متفقة مع التربية الاسلامية في هذه النظرة لأهمية التعليم في الصغر وترى أن عملية التربية هي توجيه سلوك التلاميذ نحو الأوضاع المرغوب فيها منذ صغرهم •

والواقع أن الطفل يأتي عادة الى المدرسة الابتدائية في سن السادسة من العمر وفي المنزل خلال هذه المدة يكون قد تعرف على البيئة المحدودة التي تكون خبراته البسيطة الأولى ، وبذلك تتكون شخصيته •

وهنا يأتي دور المدرسة في تعليمه بالمرحلة الأولى ويبدو دور المربي الموجه في عملية التربية التي تهدف الى خبرات البيئة بما في ذلك العلوم والمعارف والعادات والمهارات والأخلاق للاهتمام بالتلميذ الذي يساعده مربيه على النمو بواسطة اكسابه هذه الخبرات في هذه المرحلة الأولية من التعليم • فهناك خصائص جسمية للطفل نتيجة لنموه السريع ،

فهو يأخذ جسمه بالطول ووزنه بزيادة قليلة فيجب العناية بصحة التلميذ في هذه المرحلة الهامة وعدم ارهاقه واتعابه وهناك خصائص عقلية للطفل اذ أن علاقاته بالأشياء التي تحيط بـه تزداد كماً وكيفاً نتيجة لسمو مداركـه العقلية ، كما ينمو حبـه للاطـلاع ويزداد انتباهه .

فالمربي الموجه يراقب نتائج تعليمه على هذا التطور، ويعمل على معرفة هذه الخصائص وكيفية استغلالها ، وهناك خصائص اجتماعية ومزاجية للطفل في هذه المرحلة الأولية التي يستفيد منها كثيراً من تقاليد مجتمعـه وقيمه وأفكاره التي تجعل منه شخصاً اجتماعياً في بيئته .

ولا ريب فالطفل في هذه المرحلة مـن التعليم يتلقى مبادىء التربية الدينية تلقيـاً محسوساً فيجب استغلال هذه الناحية في عدم ارهاقه بالأمور المجردة ، بل يلجأ المربي الى نواح محسوسة كأداء الصلاة وتقديم الاحسان للآخرين وتنمية الشعور بالعدل والحق ، وكل ذلك يصوره المعلم للاطفال في قالب عملي معقول .

ان التربية الاسلامية ترى في هذه المرحلة الأولية من التعليم فرصة ذهبية للمعلم لتهذيب الأطفال وتعويدهم الأمور الحسنة منذ صغرهم واكسابهم العادات الحميدة ، وهذا هو هدف التربية الحديثة في تربية الأطفال ، فيقول أحد المربين : « ان الطفل يأخذ الطابع الذي يلازمه طوال حياته خلال السنوات الأولى من عمره » .

٨ ـ أهداف وغايات التعليم بنظر التربية الاسلامية :

نظرت التربية الاسلامية الى أهداف وغايات التعليم بصورة دقيقة عملية واعتبرتـه عملا أشمل وأوسع من مجرد تحصيل العلوم والمعارف ، لأنه يتضمـن الامتزاج العقلـي والنفسي بين الأفراد وتعمل على تقوية الصلة بين الأساتذة والطلاب بصورة عملية ، وهذا ضروري لتكوين العقل والخلق والتربية الحديثة تحث على هذه الناحية وتهيء الاجتماعات العديدة بـين المعلمـين والطـلاب ومجالس المجتمعات المدرسية والرحلات وأنواع النشاط المدرسي الأخرى لتلك الغايـة ، فقـد ترك المربون المسلمون آراء قيمة في التربية يمكن أن يستفيد منها التعليم في كل العصور فنصحوا بتبسيط المادة لتناسب العقول التي لم يتـم نضجها والبدء بالقريب الملموس قبل الانتقال الى البعيد المجهول ، ومن أبرز مميزات التربية الاسلامية عنايتها بالنص على الرفق في معاملة الأطفال وعلاج زلاتهم بروح العطف والرأفة ، ومن مفكري المسلمين من حمل على أساليب العنف في التربية وعدها قاتلة للهمم مولدة للخبث والجبن فيقول الامام ابن تيمية اذا كانت العقوبة شديدة كان تركها أحب الى الله ورسوله .

وبالاضافة الى ذلك فقد ابتكرت التربية الاسلامية أساليب أخرى تأثرت بها التربية قروناً طويلة كالمناظرة والمباراة والمناقشة التي ساعدت على تحرير الفكر ولو في ميدان معين وأوجدت النشاط الذاتي ولشحذ الذهن ولاتزال المناظرة في وقتنا هذا ناحية من نواحي

النشاط العقلي والاجتماعي في جميع مراحل التعليم وفي التربية الاسلامية نجد تلقي العلم وتهذيب الأطفال واجباً دينياً وفريضة على المسلمين وبتأثير تلك العقيدة امتلأت النفوس حماسة لاقامة الكتاتيب والمدارس دون تدخل من جانب الدولة بمؤازرة أولي الأمر ، وفي عصرنا الحاضر نحن بحاجة شديدة الى ناحية المسؤولية الفردية والنشاط التلقائي من جانب الأفراد في نشر العلم وتحصيله دون الاعتماد الكلي على جهود الحكومات ، كما يجري الان في بعض الدول حيث تنهال تبرعات الأفراد والمؤسسات من كل جانب للمساهمة في احداث الجامعة الخاصة والادارة التعليمية عندما يطرح ذلك المشروع لحيز العمل . والمدارس الاسلامية كانت شديدة الاتصال بالحياة والناس فلم تغلق الأبواب دونهم ، فهي مفتوحة دوماً للاغنياء والفقراء يدخلونها على قدم المساواة بينما يجد الفقراء بها كل وسائل المعونة المتوفرة لمتابعة التحصيل والدروس . ومناهج التربية الاسلامية القديمة تتفق والعادات العربية الاسلامية وتلائم بيئتها الأصلية فيقول المفضل بن يزيد انه رأى ابن أعرابية فأعجبه منظره فسألها عنه فقالت :

« اذا أتم خمس سنوات أسلمته الى المؤدب فحفظ القرآن فتلاه وعرف الشعر فرواه ورغب في مفاخر قومه وطلب مآثر آبائه وأجداده ، فلما بلغ الحمل حملته على أعناق الخيل فمرس وتفرس ولبس السلاح ومشى بين بيوت الحي وأصغى الى صوت الصارخ » .

ومن آراء ابن سينا المشهورة في تربية الأولاد (البدء بتعليم القرآن الكريم بمجرد تهيؤ الطفل للتلقين جسمياً وعقلياً وفي الوقت نفسه يتعلم حروف الهجاء ويلقن معالم الدين ويروي الشعر ، فاذا فرغ من ذلك ينظر في توجيهه لما يلائم طبيعته واستعداده) .

يقول ابن التوأم : (علم ابنك الحساب قبل الكتابة فان الحساب أكسب من الكتابة . ويروى عن الخليفة هارون الرشيد انه طلب من مؤدب ولده الأمين أن يقرئه القرآن ويعرفه الأخبار ويعلمه الأشعار ويبصره بمواقع الكلام ويمنعه من الضحك الا في أوقاته) .

ولهذا كانت وسائل التربية الاسلامية في التربية الأولية ومفهوم التعليم وبناء الأخلاق بصورة عامة هي :

١ ـ الوعظ والتلقين بطريق بيان الصالح والطالح من الأمور وحفظ محاسن الأشعار والأخبار والنصائح والحكم والأمثال .

٢ ـ الاستعانة بميول الطفل الغريزية واستعداداته الفطرية بواسطة المدح والتشجيع في تربية الطفل وميله لتقليد أستاذه والاستفادة من صفاته الصالحة فيقول عقبة ابن أبي سفيان لمؤدب ولده (ليكن اصلاحك بنيَّ اصلاحك نفسك فان عيوبهم معقودة بعيبك فالحسن عندهم ما استحسنت والقبح ما استقبحت) .

٣ ـ بواسطة ميل الطفل الفطري الى الاجتماع بغيره من الأطفال لتكوين عادات وميول سامية لديه منذ صغره وحداثة نشاته .

٩ ـ مناهج التربية الاسلامية :

يتضح لنا من ذلك أثر التربية الاسلامية في علومنا وأخلاقنا وعاداتنا ومميزاتها التربوية السامية والواقع اننا اذا اعتبرنا الحضارة الاسلامية نقطة تطور هامة في تاريخ البشرية لما ترتب عليها من تغيرات عقلية واجتماعية وسياسية باقية ، فينبغي أن ننظر الى التربية الاسلامية التي هي أساس تلك الحضارة والتي لها من الآثار والخصائص ما يميزها عن سائر أنواع التربية الأخرى بنظرياتها القديمة والحديثة ٠

واذا تأملنا في مناهج التربية الاسلامية في المرحلة الابتدائية نجده يتضمن :

أولا : ان كل تعليم يبدأ بالقران الكريم ومبادىء الاسلام وليس الغرض من ذلك مسايرة مدارك الأطفال وتفهيمهم ما يحفظون من الايات الكريمة فحسب ٠ فقد اعترف المسلمون بعجز الأطفال في تلك السن المبكرة عن ادراك ذلك، وانما كان الهدف منه اشعار الطفل بأنه يحمل في صدره أعظم كنوز التقوى والهدى والقداسة ، فيرى في نفسه الخير والسمو وقد يربأ بها عن مواضع النقد لهذا السبب، ثم ان الطفل وان لم يفقه للقرآن معنى الا أنه يهتز بأوزانه القوية وعباراته الرنانة ، فالمربون المسلمون كانوا يرون في حفظ القرآن الكريم ضرورة دينية وتعليمية وخلقية ويجعلونه أساساً للدراسات المقبلة ٠

ثانيا : وجود عناية عظيمة موجهة للتربية الخلقية ، وفي هذا المجال كان التوفيق حليف التربية الاسلامية التي فهمت الأسس العلمية لتربية الأخلاق العالية فقد استغلت استعداد الطفل للتأثر بواسطة الأشعار والوعظ والذم والتقليد والمنافسة ،واستعانت بالشعر والقصص في تهذيب الطفل من الناحية الوجدانية وكذلك في انماء مخيلته ولم تهمل تلك التربية أثر الزي والمظهر الخارجي كطول الشعر واعتدال المشية والنشاط والرياضة البدنية في التأثير على تكوين النشىء من الناحية الخلقية في المراحل الأولى من التعليم، كما اهتمت بأثر الاقتداء بالأشخاص في تربية الأطفال ٠

ثالثا : اهتمت التربية الاسلامية بالناحية النفعية للفرد الى جانب تربيته الدينية والخلقية ، فاعتنت بالشعر الذي كان سجلا للحوادث الهامة في الحياة الاسلامية ، كما اهتمت بطرق التعبير البليغ بالفصاحة والبلاغة للظهور في المجتمع والتفوق فيه وكان العرب يحبون الأطفال الموسومين بطلاقة اللسان فيقول الشاعر :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

رابعاً ـ عنيت التربية الاسلامية بالسباحة والرماية والحساب لقيمتها العملية ، ولم تخف الفائدة المتوخاة من الرياضة البدنية من الناحية الجسمية ، وراعت الاختلاف بين طرق تدريس الأطفال وطرق تدريس الكبار ولم تكن هناك سن معينة يبدأ عندها تعلم الطفل، ونجد العبدري ينتقد الاباء الذين يرسلون أبناءهم الى الكتاتيب في سن مبكرة ـ أي قبل السابعة من العمر ـ وهي السن التي يحددها الشرع الحنيف لتعليم الطفل الصلاة والفضائل الخلقية حيث يقول : (يرسل الاباء أطفالهم للكتاتيب مبكرين بقصد التخلص من متاعبهم

بابعادهم عن الدار وليس لغرض تعليمهم القراءة ، والأطفال لا تنتفع بالتعليم قبل سن السابعة ، وهذا الرأي تؤيده البحوث التربوية الحديثة فقد وجد المربي(رودلس) أن الأطفال الذين بدأوا تعليمهم في سن الرابعة بدلا من الخامسة أو السادسة أو السابعة كانوا لضعف في الرياضة والمعلومات العامة عندما اختبروا في سن الثانية عشرة من الأطفال الذين ذهبوا الى المدرسة بعد الرابعة، الا انه وجد فيما يختص بالحفظ الآلي مساواة بين الأطفال جميعاً ، ولم يتميز الأطفال الذين بكروا في الذهاب الى المدرسة الا في مادة الأشغال اليدوية ·

خامساً ـ تعتمد التربية الاسلامية على الحفظ وقوة الذاكرة ، ويقول ابن سينا بضرورة البدء بتهذيب الطفل وتعويده ممدوح الخصال منذ الفطام قبل أن ترسخ فيه العادات المذمومة التي يصعب ازالتها اذا ما تمكنت من نفسه ، والامام الغزالي يشاركه في هذا الرأي ويقول : « ان الصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة » ·

١٠ ـ الآثار والمبادىء الناتجة من مناهج التربية الاسلامية ولا سيما الخلقية منها:

ان مناهج التربية الاسلامية الدينية قد هدفت الى تربية الأخلاق الفاضلة ـ كما مر معنا ـ وتوخت تنمية المواهب الخلقية في نفسية الطفل منذ صغره ، فقد اعتنى المسلمون بالصدق والأخلاق وحرصوا على تعويد الأطفال عليها منذ المرحلة الأولية من التعليم ·

ان المؤلفات الاسلامية العديدة تفيض بالحكم والمواعظ والوصايا ، وكثيراً ما تستخدم الشعر لهذا الغرض لقوة تأثيره في النفوس ووقعه في الأسماع بسبب اللفظ والوزن والقافية وقد درج العرب منذ القديم على حب الشعر وعلى ضرورة تعليمه لأولادهم وهم يختارون لهم الشعر الذي يحث على مكارم الأخلاق والكرم والشجاعة والعفو عند المقدرة فيقول الشاعر العربي : مكارم الأخلاق في ثلاثة :

لين الكلام والسخا والعفو عند المقدرة

ويرى المسلمون أن الأدب هو خير زاد للطفل وان الحياء من الايمان ولا شيء أثمن من الرفيق الصالح · ويروى عن اعرابية انها أوصت ابنها وقد أراد سفراً بقولها :

(اي بني اياك والنميمة فانها تزرع الضغينة بين المحبين واياك والعيوب فتتخذ غرضاً ، وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام، واياك والجود بدينك والبخل بمالك، واذا هززت فاهزز كريماً يلين لهزتك ، ولا تهزز اللئيم فانه صخرة لا ينفجر ماؤها ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به،وما استقبحت من غيرك فاجتنبه فان المرء لا يرى عيب نفسه والغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم ومن جمع العلم والسخاء ، فقد أجاد ملاءتهما وسربالهما ·

ويحث المسلمون أبناءهم على الصدق في القول والأمانة في المعاملة بنفس الطريقة التي يحثونهم بها على تعلم القرآن الكريم ،وهذا كله مستقى من التعاليم الاسلامية التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية والتي ما زالت من الطباع والسجايا الاسلامية العربية العريقة في عاداتنا وبيئتنا .

ويعلق المسلمون أهمية كبرى على اختيار الصديق والرفيق فيوصون أولادهم بمجالسة الكرام والابتعاد عن مصادقة اللئام ، فيقول ابن المقفع في كتابه الأدب الصغير : (مودة الكرام بطيء انقطاعها سريع اتصالها ومثال ذلك كوب الذهب لا ينكسر أبداً وان انكسر فسرعان ما يلتئم ،ومودة اللئام سريع انقطاعها بطيء اتصالها وهي ككوب الفخار سرعان ما ينكسر واذا انكسر فلن يلتئم أبداً) .

يتضح من ذلك أن التربية الاسلامية قد وجهت عناية كبرى الى التربية الخلقية وكرست لها المواعظ والنصح والحكم والارشاد والمربين الصالحين وحرصت على تعلي الأطفال بالعادات العربية الأصيلة وعلى تربية الطفل واعداده لنشأة صالحة ملؤها المكارم والرجولة والأخلاق العالية ، وعملت على تلاؤم تلك الأخلاق الاسلامية العربية الانسانية مع البيئة والمحيط الذي تعيش فيه ، والتربية الحديثة مهما تعددت طرقها في سبيل التربية الخلقية فهي تتفق مع هذا الهدف في التربية الاسلامية وهو تحلي الطفل بالعادات الحسنة والأخلاق الفاضلة التي تجعل منه فرداً ذا عقيدة واخلاص في حياته ليكون رجل الغد في المستقبل، ويقوم بدوره وبواجبه في الحياة ويعتز بدينه وأمته ووطنه وتراثه الخالد .

وهنا يتضح وظيفة المربي ودوره البارز في تهذيب الطفل من الناحية الخلقية ، فيجب أن يرتكز على العلم ويستند الى الأخلاق المثالية التي يكتسبها التلميذ ، حتى ان النظرية المثالية في التربية ترى أن كمال الذات هو هدف التربية في جميع أعمالها ومراميها وتشبه المدرسة بروضة أزهارها الأطفال وبستانها المربي الحريص على انمائها وازدهارها ، ودور المربي في هذه الطريقة هو أن يساعد الطفل الذي ينمو حتى يصل الى درجة من الكمال لا يستطيع الوصول اليها دون مساعدته . وصفوة القول : لقد اهتم المسلمون كثيراً بالتربية الخلقية بالطرق المباشرة وغير المباشرة ورأوا أن شخصية الطفل لا تنمو الا في جو اجتماعي فبواسطة الاختلاط بالغير يكتسب الطفل معرفة وخلقاً حميداً .

١١ ـ الطموح والعصامية في التربية الاسلامية :

للطموح والعصامية وعلو الهمة أثر كبير في التربية الاسلامية التي عملت على تنمية تلك الصفات العالية في نفسية الفرد وتقويتها لجعل التلميذ يعتمد على نفسه في الحياة بنجاحه وبلوغه ما يريد وليستطيع الاستمرار في العمل ومكافحة الصعاب بكل جد واخلاص ودون ملل أو ضجر ، فيقول الرسول ﷺ (علو الهمة من الايمان) وهكذا فالرجل المؤمن يتصف بعلو الهمة التي ترافق الايمان في قلبه ومعتقداته مدى حياته ونستدل من ذلك أن الرسول العربي الكريم قد ألح على وجوب الاتصاف بعلو الهمة والطموح في كل الأمور

كبيرها وصغيرها بجميع مراحل الحياة ، وفي كل أعمال الانسان وأهدافه وقديماً قالت العرب من الأبيات المشهورة :

بقدر الكد تكتسب المعالي ... ومن طلب العلا سهر الليالي

كما أن العصامية تحث عليها التربية الاسلامية وتقدرها حق تقديرها فمعظم رجال الاسلام وعلمائهم وأدبائهم ومفكريهم هم عصاميون ، وقد كدحوا في هذه الحياة وقارعوا صروف الدهر وبلوا مضاءه واكتسبوا خبرته وتجاربه العديدة الواسعة . وهذا ما يظهر في مؤلفاتهم وأعمالهم وقصص حياتهم وتقول العرب :

نفس عصام سودت عصاما ... وجعلته سيداً هماما

وعلمته الكر والاقداما

كما تقول :

ان الفتى من يقول ها أنذا ... ليس الفتى من يقول كان أبي

والحقيقة أن التربية الاسلامية تعتمد في خلقها الراسخ المتين البنيان على الايمان وقوة الشخصية لدى الانسان ، وعلى تجاربه في الحياة ، وهذه تتوفر في العصامية التي أنشأت نفسها بيدها وتحلت بالصبر والدأب المستمر في الحياة الذي وجدت فيه لذة ومتعة .

وترى التربية الاسلامية أن الرجل العظيم الكبير تعلو به شأناً قبيلته وبلده ومجتمعه وقد يعلو الآباء والأجداد شأناً بالأبناء فيقول الشاعر :

وكم من أب قد علا بابن له شرفاً ... كما علت برسول الله عدنان

والتربية الحديثة تلح على ضرورة تعويد الطفل على الاعتداد بنفسه والاعتماد على ارادته في الحياة لتكوين مستقبله ونشاته ،ليستطيع القيام بدوره في خدمة المجتمع الكبير بعد أن تدرب في خدمة مجتمعه الصغير وهو (المدرسة) .

والواقع أن التربية ترى المدارس جميعها مجتمعات تنمو فيها ذاتية الأفراد ، ويشجعها الاتصال الاجتماعي وما تقدمه الفرص من الخدمة الاجتماعية ، وهكذا قد تتاح العصامية على نطاق واسع وعملي في الحياة تتجلى فيه قوة الارادة والصبر وسعة الجهد وتركيز الهدف لبلوغ الغاية المنشودة .

والشخصية كلمة لا تؤدي معنى بمعزل عن البيئة الاجتماعية التي فيها تنمو ويشتد ساعدها ولا يتسنى تحقيق قوة الشخصية للفرد وابرازها وصقلها واظهارها الا بواسطة الجهاد في الحياة والأمل والصبر والسعي، كما أن المثل الاجتماعية الجديرة بالعناية لايمكن أن تتحقق الا بواسطة الأفراد ذوي النفوس العالية وأهل الواجب المضحين في سبيل مبادئهم وعقائدهم ، فقد جاء في الآية الكريمة بوصف هؤلاء « من

المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا » .

ان النظرية المثالية في التربية تؤكد عظمة الروح الانسانية ، وتهتم بالشخصية وتجعلها في أعلى مراتب الوجود لأنها أفضل خلق الله ، وترى من تمجيد الله أن نحترم الطبيعة الانسانية لأنها من صنع يده ومن ذلك استطاع كل انسان أن يصل الى غايته ، وهدف التربية هو مساعدة كل فرد لأن يفصح عن أحسن ما لديه ، ويظهر مواهبه في الحياة وتحقيق الذاتية هو الغرض الأسمى .

ان التربية الاسلامية ترى علو الهمة وطموح الفرد مقترناً بايمانه العميق الذي يحمله بقلبه مدى حياته والذي يسيطر على جميع تصرفاته ، وهو نبراسه ومشعله وهاديه في طريقة اللاحب الواضح ، ولهذا كان رائده في كل الأمور فنظرتها هذه هي أعمق مدى وأدق تصويراً من نظريات التربية الحديثة الأخرى ، لأنها جعلت تلك الشخصية تنمو في جو من العقيدة الصادقة وحسن القيام بالواجب والصبر والدأب والتضحية .

١٢ ـ الاستفادة من العلم للعمل به في الحياة :

لا تقف المعلومات التي يتلقاها الطفل عند مدى تلقينها له في التدريس ، وتلك هي النظرة التربوية الى اكساب التلاميذ العلم والمعرفة ، لأنها لا تقتصر على حملها والتحلي بها في هذه الحياة ، بل يجب أن يعدو ذلك الى العمل بتلك المعارف للاستفادة من العلم في جميع مرافق الحياة والمجتمع ، وهذا ما أخذت به التربية الاسلامية فترى أن العلم لا تأثير له في الحياة دون العمل به في سبيل الخير والاستفادة منه في اعداد شخصية الانسان ونفع المجتمع .

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال (وانما يزهد الرجل في علم يعلم قلة انتفاعه بما علم) والامام الغزالي لا يكتفي بالعلم وتقديسه في آرائه التربوية ، بل يؤكد أهمية العمل الى جانب العلم فقد ورد في كتابه (فاتحة العلوم) :(الناس كلهم هلكى الا العاملون ،والعاملون كلهم هلكى الا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم) .

ويقول النمري القرطبي في كتابه (جامع بيان العلم وفضله) : (أول العلم النية ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر) وهكذا ترى التربية الاسلامية أن العمل بالعلم هو أساس النجاح به والاستفادة من تحصيله فالمدنية والحضارة وجميع مرافق الحياة يعود الفضل في تقدمها وازدهارها الى الانسان، وما يكتسبه من تجارب وخبرات بفضل ما تعلمه .

والواقع أن هذه العلوم والفنون قد أخذت تتداول وتنتقل من جيل الى جيل حتى وصلت الينا بحالتها الراهنة وتمتعت بخيرها الأمم والأفراد، فالانسان بطريق العلم يستطيع أن يستفيد من فوائده ويعمل بها ويطبقها على نفسه ويأخذ بتجاربها وآثارها في الحياة

بعزم وتصميم حتى يصل الى ما يريد وتلك هي الغاية الرئيسية المتوخاة من العلم ، فقد سئل المهلب بن قيس بم سدت قومك ؟ قال بالعلم ، قيل له ان غيرك قد علم أكثر مما علمت ولم يبلغ ما بلغت قال : ذلك علم حُمل وهذا علم استعمل ·

وعلى هذا يجب أن يستفيد العالم من علمه بتنمية شخصيته وتوجيه سلوكه وادراكه نحو طريق علمي صحيح مستفيداً من تجارب العلم ومن خبرات المجتمع التي يوجهها ذلك العلم ، فالفنون هي التطبيق العملي للعلم وقد رأينا كثيراً من العلماء والمتعلمين قد حصلوا على درجات علمية عالية ولكنهم لم يستطيعوا النجاح في الحياة وكانت شخصياتهم ضعيفة خاملة ، وما ذلك الا لأنهم لم يحسنوا الاستفادة من علمهم وربما زهدوا فيه ، وأدى بهم الأمر الى فقدان الثقة بأنفسهم وضعف نفوسهم وخور هممهم ، فهم بذلك قد ضربوا مثلا سيئاً في عدم انطباع نفوسهم بما تعلموه وهذا الوضع من أشد الأمور الخطيرة والمشاكل الحادثة التي تعترض العلماء والمتعلمين وتزري بهم في المجتمع فما أجدرنا بدراستها والعناية بها لنحذر من الوقوع بها والتردي في مساوئها ·

وقد عبر بعض المفكرين المسلمين عن رأيهم في وظيفة العلم وأثره في تحقيق السعادة الأبدية بجوار الخالق سواء أكان ذلك العلم الديني أم العلوم الدنيوية ، فصرحوا وأكدوا أن كل علم لا يساعد على تحقيق هذا الفرض ولا يحث صاحبه على العمل للدار الآخرة يؤاخذ عليه يوم القيامة ·

فالأهداف المترتبة الناجمة عن التحصيل العلمي لا تؤتي ثمارها يانعة كاملة مثمرة ما لم يصحب تلك العلوم والمعارف عمل كامل ينتفع به المتعلم من مبادئها ، ويستفيد من تجاربها وآفاقها ، وفي ذلك يقول الامام الغزالي : (لو قرأ رجل مئة ألف مسألة علمية وتعلمها ، ولم يعمل بها لا تفيده هذه الا بالعمل ولو قرأت العلم مئة ألف سنة وجمعت ألف كتاب لا تكون مستعداً لرحمته تعالى الا بالعمل) ·

ويقصد حجة الاسلام الامام الغزالي العمل بالعلم هو تهذيب النفس وجعلها مثالية تتصف بالأخلاق العالية والشخصية القوية لتجابه الحياة بايمان وقوة عزم ، وذلك ما تقصده التربية من وراء نظرياتها وأساليبها الجديدة ·

وصفوة القول ان التربية ترى العلوم والمعارف تكسب صاحبها قوة في العقل والادراك تؤدي الى قوة الارادة والشخصية ، وهذه النتائج نحصل عليها من العمل بتلك العلوم وتطبيقها عملياً والاستفادة من تجاربها وخبراتها العظيمة في الحياة ، وهذا الهدف هو غاية التربية الحديثة في ماضيها وحاضرها على اختلاف نظرياتها وتنوع مناهجها وتباين طرقها وتعدد وسائلها ·

١٣ ـ أهمية العلم بنظر التربية الاسلامية :

يرى الامام الغزالي وابن مسكويه أن العلم غذاء للروح والعقل ، وبه يزداد فهم الانسان وقدرته على الادراك وهذا الرأي يطلق على العلوم والمعارف جميعها وعلى هذا

كانت نظرة الفقهاء ورجال التربية المسلمين الى العلم والتربية أمثالية في دقتها وسموها ، كما كانت اجتماعية في غاياتها وأهدافها ، ويمكن القول ان علماء المسلمين قد أحاطوا العلم بصورة عامة والعلوم الدينية بصورة خاصة بثوب قشيب من الاحترام والقداسة والسعي والدأب والعمل ، ويرى ابن خلدون في مقدمته (ان الانسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانيته بالحس والحركة والغذاء وغير ذلك وانما تميز عنها بالفكر وعن هذا الفكر تنشأ العلوم والصنائع » ٠ وفي هذا الرأي ما يفيد الاهتمام بالخبرة والتجربة الاجتماعية ، لأن العلوم والصنائع التي تنشأ عن الفكر كما يقول هذا العالم الجليل لا تنمو الا في حقل العلم الواسع ٠

والتربية الحديثة تعلق أهمية كبرى على تنمية الملكات العقلية والفكرية لدى الطفل ، وتعمل على الاستفادة من تجاربه بطريق اللعب ، والاستفادة من محاكمته ومن تأثير العوامل الاجتماعية في عملية التربية ويقول أحد المربين في هذا الصدد :

« ان عملية التربية لا تشمل فقط كلما نعمله لأنفسنا أو ما يعمله الآخرون لنا ، بقصد تنشئتنا وتقريبنا من درجة الكمال بقدر المستطاع ، ولكنها وفق ذلك تشمل الاثار غير المباشرة التي تؤثر في أخلاقنا وطباعنا ومواهبنا الانسانية كالقوانين والنظم الاجتماعية » ٠

والمثالية الأفلاطونية في التربية ترى المثل الروحية خالدة لا تتغير ، وانها مثل حقيقية وحقائق لها صفة العلوم ، كما انها تشتمل على الخير وغرض الحياة هو الاتصاف بذلك فغاية التربية أن تساعدنا اذن على فهم هذا الغرض الأسمى ، فالتربية المثالية التي ترمي الى تحقيق الذات تنصف الغرض الاجتماعي ، وتعترف بدوره البارز في التربية ، وهذا الرأي قد انتبه اليه ابن خلدون فقد اعتبر (العلم والتعلم أمرين طبيعيين في العمران البشري) فالعلماء المسلمون لم تقتصر نظرتهم للعلم بمجرد تقديسه واحترامه والعمل به ، بل اعتبروه طبيعة اجتماعية في التقدم والحضارة الانسانية ، وبهذا أخذوا بدوره البارز في الحياة وبوظيفته في المجتمع وبالتالي قد اهتموا بعلاقة العلم بالمجتمع ٠

والنظرية التربوية الى الجو الاجتماعي للعلم والمدارس بصورة خاصة قد استمدت كيانها من علم الاجتماع وأبحاث علم النفس الاجتماعي وتطبيقاتهما التربوية ، وهذه العلوم قد دخلت ميدان التربية حديثاً اذ وجهت هذه الأبحاث أنظار المشتغلين بالتربية الى ضرورة الاهتمام بالجو الاجتماعي في المدرسة باعتباره عاملا هاماً في صحة المدرسين النفسية ، وفي تكوين شخصيات التلاميذ واتجاهاتهم وميولهم وفي اكسابهم الخبرات النافعة المحببة في المدرسة والمفيدة في الحياة ليؤدي الى نجاح عملية التعليم نجاحاً مثمراً مفيداً ، فيجب أن يتوافر في المدارس جو اجتماعي سليم يساعد على تحقيق أهداف التربية ومناهجها الموضوعة للوصول بالتعليم الى ما ينشده المجتمع من اصلاح وخير ٠

ويجمل لنا الامام الغزالي في كتابه (احياء علوم الدين) وظيفة العلم بما يلي : (عندما يمتص العقل العلوم يكتسب بذلك عقلا أو قوة تمكنه من التغلب على رغباته الغريزية) ٠

على أن رجال التربية الاسلامية لم يكن غرضهم الحقيقي من وراء التحصيل العلمي مجرد اكتساب العقل وتنمية ملكاته فقط ، بل هدفوا الى تحقيق الغرض الأسمى من التربية، وهو مرضاة الله والاستمتاع بالسعادة الأبدية التي تتجلى في اكتمال الأخلاق العالية، فنظرتهم الى عملية التربية انسانية سامية ٠ فالمثالية في التربية ترى أن غايتها هي اعداد الشخصية والخلق أولا ، ثم المعرفة ثانيا ، ويعتبرون هذه وسيلتهم الى ذلك، و (هربارت) يرى أن التربية يجب أن توجه نحو الأخلاق والفضيلة ومهمة التربية في نظره هي غرس الأفكار ، وسقراط يرى أن الفضيلة هي المجتمع وان الرجل لا يكون فاضلا الا اذا كان على معرفة حقيقية بالأشياء ٠

فالتربية الاسلامية اذن مثالية في نظرتها للآثار المكتسبة من وراء العلم من أخلاق وفضائل انسانية سامية ٠

١٤ ـ صفات وأخلاق العالم والمتعلم في التربية الاسلامية :

وقد تضمنت هذه الآداب المتبادلة والصفات التي يجب أن يتحلى بها كل من التلميذ والأستاذ والعالم والمتعلم في التربية الاسلامية (مبدأ التواضع) في التعليم والتهذيب مثل كل شيء وهو مبدأ جليل في كيان هذه التربية بل يكاد يكون طابعاً مميزاً لها وصفة أساسية لوجودها يضفي عليها بهاء وكمالا وجلالا يقدسها كل من الأستاذ والتلميذ معاً في حياتهما العامة والخاصة ، فما أروع تعبير عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا الشأن حيث يقول :

(تواضعوا لمن تتعلمون منه العلم وتواضعوا لمن تعلمونه العلم) وعلى هذا فالتواضع ضروري للاستاذ والتلميذ معاً اذا تبادله كلاهما ، عظيم اذا انتهجه كل واحد منهما في حياته العامة والخاصة ٠

هذا هو الهدف الذي ترمي اليه التربية الاسلامية وهو تحلي النفوس بهذه الصفة المثلى لا في التعليم فحسب بل في المجتمع الكبير الذي تقدم له التربية رجالا مؤمنين بالله وبدينهم ووطنهم وانسانيتهم وتواضعهم الجم وتهذيبهم الكبير ، فالتواضع صفة حميدة يحث عليها ديننا الحنيف في تعاليمه السامية وقد قال الله تعالى (ولا تمش في الأرض مرحاً انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا) وجاء في الحديث الشريف (من تواضع لله رفعه الله والكبر رداء الله ما تجلبب به عبد الا وقصمه الله) ٠

ومن جهة أخرى فالنفوس العربية قد طبعت على البساطة في كل شيء ، ولهذا فقد نشأت على التواضع ودرجت على التحابب ، فالناس سواسية كأسنان المشط وان أكرمكم

عند الله أتقاكم، ولعل التواضع صنو الصحراء في وهادها وسمائها الصافية وقفارها المترامية الشاسعة ربيبها في انجادها وفيافيها ٠

فلا غرو أن أخذت التربية الاسلامية بذلك المبدأ السامي في التعليم ، وحثت عليه العالم والمتعلم والأستاذ والتلميذ معاً ، فالتعاليم الاسلامية قد أوصت به والطبيعة العربية قد نهلت من منهله ٠

ان التواضع في التربية وتلقي التعليم يوجد احتراماً عميقاً بين الأستاذ والطالب ، ويكون مثالية كاملة وديموقراطية سامية في التعليم والتهذيب ، وهو ما تهدف اليه التربية الحديثة بجميع نظرياتها وتجاربها ومحاولاتها، لا بل هو حلم الفلاسفة والمصلحين وأملهم في اصلاح المجتمع بواسطة التربية ٠

ولهذا فقد اعتنى العلماء المسلمون بهذه الصفة الفاضلة وأولوها ماتستحق من الرعاية والبحث في كتب الأدب والدين والتربية ٠

١٥ ـ نتائج تلك الآداب المتبادلة :

ان التواضع في التعليم صفة سامية لاغنى عنها للطالب والأستاذ في حياته ،فالنتائج والآثار المترتبة على الخلق الرصين المتواضع عظيمة النفع كبيرة الفائدة في حياة الطالب الخاصة والعامة وأهمها :

أولا ـ ان تعويد التلميذ منذ صغره على التواضع أمر حميد تتوخاه التربية في جميع مراحلها وهو أن تنمي في نفسية الطالب احترام الغير دوماً صغيراً أم كبيراً، والسير على هذه الصفة في حياته جميعها فلا تبطره النعمة اذا ارتفع ولا تحط به الفاقة اذا اتضع ، وهذا مايجعل شخصيته ثابتة مستقلة قد نشأت في جو من الاحترام والوقار لاتلعب بها المناصب والأهواء والظروف والأحوال في جميع أدوار الحياة كما يقول الشاعر لممدوحه :

وحالات الزمان عليك شتى   وحالك واحد في كل حال

والتربية الحديثة ترى أن ثبات شخصية الطفل بالحياة عامل أساسي في نجاحه ،وتعمل على ملاءمة تلك الشخصية مع المجتمع لجعله فرداً صالحاً يقوم بواجبه في الحياة على الوجه الأكمل ، بل ان المثالية في التربية تبني نظرياتها على أساس تكوين شخصية الطفل وجعلها متناسقة متزنة ، كما أن التربية الحديثة أيضاً ترى أن الفرد ينمو ويتطور في اطار اجتماعي يشمل القوانين والأنظمة والعادات والحضارة الخاصة بهذا المجتمع ، وهذه العوامل تلعب دوراً هاماً في تكوين ميول الطفل واتجاهاته وعاداته ، والتواضع وسيلة تربوية هامة لاحترام الاخرين والتأثير عليهم والاندماج معهم في البيئة والوسط الذي يعيش فيه الفرد ، بل هو أحد وسائل الحضارة للتكيف مع المحيط والمجتمع في خلق مهذب رفيع ،لأن الحضارة بمعناها العام تشمل مجموع العادات والتقاليد والأنظمة التي تقبلها مجموعة أفراد من الناس تعيش في بيئة متجانسة تحترم أصحابها ويحترمون غيرهم ويتعاونون معهم٠

ثانياً ـ ان التواضع يحدث احتراماً متبادلا بين كل من المعلم والتلميذ ، وهذا مايجعل الطالب يقدر شخصية أستاذه ويحترمها كل الاحترام ما دام يرى أنه موضع احترام من قبله ، وبالاضافة الى ذلك فالأستاذ بتواضعه يعطي خير مثال عملي للتلاميذ الذين يتحلون بهذه الصفة ويقدرونها في معلمهم ، والتربية الحديثة تهتم بصورة قصوى بعملية احترام شخصية الطفل في التعليم وتراها ضرورية لكل عمل يقوم به المربي .

١٦ ـ نظرة التربية الاسلامية الى التحصيل العلمي بصورة عامة :

ان التربية الاسلامية المستقاة من مبادىء القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وآراء الفقهاء والمربين المسلمين قد نظرت الى التحصيل العلمي نظرة سامية ، وأوجبت الأخذ به وطلبه والسعي في مجالاته الخصبة الواسعة دوماً دون التقاعس أو التخلف عن اللحاق بركبه التقدمي والحضاري المزهر .

ولذلك فقد ازدهرت المدارس الاسلامية في جميع أدوار عصورها ، وأغدق المسلمون عليها الأموال الكثيرة وأوقفوا لها المنشآت الضخمة والخيرات العميمة وكان طلاب العلم من البقاع غير الاسلامية يقصدون المعاهد العلمية الزاهية لارتشاف العلوم والفنون من مناهلها العذبة المنيرة . لقد قضى الفقهاء والعلماء المسلمون حياتهم في تحصيل العلم وفي التدريس والتأليف والكتابة وصرفوا معظم أوقاتهم ، وكرسوا جهودهم لميادين العلم الواسعة ، فتركوا لنا تراثاً علمياً خالداً ينوء بحمله الزمان ورغم المصائب الكبيرة التي ابتليت بها الأمة الاسلامية العربية بسبب غزو المغول لها ، والتي زحفت على البلاد الاسلامية كالوباء الجارف فدمرت الحرث والنسل وقضت على الكثير من أماكن العلم وأحرقت الكتب العلمية والمجلدات الضخمة والمؤلفات الاسلامية ذات التراث العلمي الزاخر منذ بضعة قرون، فان أهمية التحصيل العلمي وسمو النظرة اليه في التربية الاسلامية ما زالت متصفة بطابعها الاسلامي العريق وهي تتغذى من تلك التعاليم المستمدة من الفقه الاسلامي ، ومن آراء وأعمال رجال التربية في الاسلام ، وقد ورد في الآية القرآنية الكريمة (ويرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أتوا العلم درجات) . فالتربية الاسلامية تعتبر العلم أفضل الأشياء في الوجود وأسماها (وقل رب زدني علماً) ، حتى قال فقهاء الاسلام وعلماؤه (ان العلم أشرف المقامات بعد النبوة وان العلماء ليشفعون للناس يوم القيامة بعد الأنبياء) وقديماً قالت العرب من الأبيات المشهورة :

العلم يرفع بيتاً لا عماد لـه ... والجهل يهدم بيت العز والشرف

كما قيل :

حياة القلب علم فاغتنمه ... وموت القلب جهل فاجتنبه

ويرى حجة الاسلام أبو حامد الغزالي ما رآه أفلاطون (من أن المعرفة شرط لازم لاتباع طرق الخير والفضيلة وتقدير المضار والفوائد والتغلب على المغريات الغريزية ،

فالعلم اذن برأيه ضروري لنمو الادراك والارادة في وقت واحد ، لأن الادراك يتجلى في تربية النفس وتهذيبها وجعلها تعرف طريق الفضيلة الذي هو غايتها المنشودة وتعمل على اتباعه ، كما أن العلم والمعرفة أيضاً يعملان على تقوية الارادة لدى الانسان ليستطيع السيطرة على نفسه والتغلب على غرائزه • ان الانسان يحتل بقواه العقلية مكاناً ممتازاً في نظام الكون ، والعقل وحده لا يكفي فلا بد من الأخلاق والتربية والتعليم وتهذيب النفس وسموها لتصبح مثالية تتوخى العمل الانساني والنفع العام لتقوم بدورها الاجتماعي المترتب عليها في مسرح الحياة •

والنظرية المثالية في التربية تنادي دوماً بأن كمال الذات هو هدفها المباشر ، وتعمل على وضع المثل العالية وقيم الأشياء موضعاً سامياً في شخصية الانسان واكتمالها الديني والعلمي والخلقي، فالبيئة الثقافية والروحية كما يقول أحد المربين هي من وضع الانسان نفسه ، وقد حدثت نتيجة نشاطه الابداعي وقواه المبتكرة فهي بالتالي قيم انسانية تزداد كلما انتشرت وتوفر لها العلماء العاملون في البحث والتعليم والتربية لأنها تراث الانسانية المشترك الذي يميز الانسان عن سائر الموجودات ، فالتربية الاسلامية قد جنحت الى هذه الغاية السامية في نظرتها للتحصيل العلمي فيقول (دريبر) : (ان المسلمين عدوا علم الرجل في نظر المجتمع أكثر أهمية من آرائه الدينية) •

وصفوة القول أن فقهاء المسلمين ينظرون الى العلم والتربية نظرة مثالية انسانية رفيعة ، وهذا ما توخاه المصلحون ونادى به العلماء فعلى التربية أن تمكن كل فرد وكل جيل من الوصول الى تلك الغاية المتوخاة من التحصيل العلمي •

١٧ ـ خاتمـــة :

وأخيراً يتضح لنا من ذلك أن أسس التربية الاسلامية وآدابها في تهذيب النشء وأثر ذلك في المناهج التعليمية هي قوية كاملة ، فيجدر بنا أن نكيف تلك التربية في مناهجنا وأن نأخذ بتلك الآداب ونوفق بينها وبين المناهج العصرية الكثيفة المعقدة نظراً لتطور العلوم وتقدم أساليب التربية الحديثة المبنية على علم النفس وعلم الاجتماع والبيئة •

وقبل كل شيء يجب أن يكون المربي الموجه الناجح الذي يقوم بتدريس التربية الدينية مؤمناً بأهمية هذه المادة في تعليم الأطفال متحمساً لتدريس الدين ملماً بالخبرة والدراية بمحتويات الكتاب المقرر والطرق المناسبة لعرضه وتدريسه •

لا شك أن المعلم المؤمن بدينه يعطي أحسن مثال عملي لطلابه من الناحية الدينية والخلقية ، فأفضل المربين هو الذي يتبع في ميله للموضوع ورغبته في تدريسه اعتقاداً راسخاً وايماناً عميقاً حسب القاعدة (فاقد الشيء لا يعطيه) وميول الطفل ونزعاته تتحدد حسب رأي (مكروجل) نتيجة للمشاركة الوجدانية والايمان الصادق من الأشخاص الذين يحبهم واني أقول : ان أقوى المربين شخصية وعلماً وخبرة هو الذي يجب أن يقوم بتدريس الدين ، والذين لا يتحمسون لتدريسه، أو لا يولونه عناية فائقة يجب ألا يضيفوا

الى قائمتهم أسماء أخرى من طلابهم اذا ماسلمت لهم هذه المهمة التي يرونها ثقيلة على نفوسهم ، فالمربي كما يقول أحدهم : (لايعلم ما جمع في صدره من العلم ، بل يعلم ما اشتملت عليه نفسه من الصفات) .

والواقع أن التربية الدينية لا تصبح أساساً للحياة والعمل في مدارسنا التي تقوم بدور اعداد رجال الغد وتهذيبهم خلقيا بواسطة هذه التربية الا اذا تولى تلك المهمة النبيلة مربون ومربيات متوقدين حمية واخلاصاً ، يراعي المربي الموجه في التربية الدينية ما يلي :

١ ـ شرح نصوص من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة الدالة على الأخلاق والتعاون والعقائد ويقوم بتحفيظها للأطفال بصورة تدريجية مبتدئاً من السهل الى الصعب، ومن الجمل القصيرة الى المركبة الطويلة .

٢ ـ يجب تعويد الأطفال على أداء العبادات كالصلاة والصوم بطريقة محببة الى نفوسهم ، وأن يشرح لهم المربي معانيها السامية وفوائدها وآثارها في المجتمع ، ويعلمهم أنه ليس المقصود منها القيام والقعود والجوع والعطش ويوضح لهم حديث الرسول (ربَّ تال للقرآن والقرآن يلعنه ، وربَّ مصل لا يستفيد من صلاته الا القيام والقعود، ورب صائم لا يستفيد من صيامه الا الجوع والعطش) .

يجب تعليم الأطفال الصدق في القول والمعاملة وجميع نواحي الحياة ، وان عماد الدين هو الصدق وان الايمان والكذب والنفاق لا يجتمعان .

٣ ـ من الضروري الاستعانة بالمواد التعليمية الأخرى في سبيل التربية الدينية والخلقية ، ففي التاريخ نذكر للاطفال بأسلوب قصصي وحديث شيق عن حزم الرسول ﷺ وصبره وجهاده في سبيل هذا الدين وعدم تراجعه عن الدعوة رغم ايذاء المشركين له وتفننهم في صنوف الاساءة والأذى ، ونذكرلهم حياة الصحابة وجهادهم والمسلمين الذين نشروا هذا الدين الحنيف في جميع أنحاء العالم وزلزلوا بايمانهم وعقيدتهم عرش كسرى وقيصر ، وفي الجغرافية نشرح لهم المواقع الاسلامية والمناطق التي أمها المسلمون وآثارهم بها ، ثم نتوصل بعد ذلك الى استنتاج آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة في الحث على الجهاد والعمل والسعي وطلب الرزق وبذل الخير والاحسان والمعروف وبر الوالدين وايتاء الزكاة والحج والعطف على الفقراء وغير ذلك .

وفي تعليم اللغة العربية نستعين بنصوص القرآن الكريم وبقصص وأشعار وخطب من الأدب العربي تساعد على تعليم الدين فالقرآن الكريم هو دستور الفصاحة ونبع البلاغة للغة الضاد .

٤ ـ يجب تبسيط دروس الدين بالقدر الذي يفهمه الطلاب واستعمال الطريقة الاستقرائية وأسلوب المحادثة وأجوبة الطلاب التحريرية والشفهية في تدريس هذه المادة ،

ويجدر بالمربي الموجه الاستعانة بقصص التربية الدينية المعدة لكل مرحلة من مراحل التعليم وبقصص حياة رجال الاسلام الموضوعة بقالب شيق وأسلوب واضح مصور وخط مشكول ، فهي تنمي مدارك الأطفال الحية وتقوي خيالهم وتساعد على ربط المواد الأخرى وفهمها وحفظها ·

هذه بعض شذرات وأبحاث من مواضيع التربية الاسلامية وأقوال الفقهاء والعلماء المسلمين وبنائهم الصرح المتين للأخلاق من قواعد تلك التربية العظيمة بغاياتها السامية بأهدافها · أجل تلك آراء أولئك المؤمنين الذين هدفوا الى اعداد جيل مؤمن بالله وبدينه ووطنه وأمته وقيمه وأخلاقه وشعارها :(هكذا أدبنا ربنا فأحسن تأديبنا) فيجدر بنا أن ندرس تلك المواضيع ونتعمق بها ونطبقها في مجال التعلم والتعليم والتربية والتهذيب وميدان الحياة بأفقها الواسع الشاسع ·· هذه الآراء نادى بها رجال كرسوا حياتهم للدين والعلم والتربية والخلق القويم واستقوها من منابعها الأصيلة وهي : القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ونحن نفخر بأقوالهم وأعمالهم وتراثهم الخالد الذي تركوه وبماضيهم ومآثرهم في اعداد ما يفخر به العلم الحديث بحضارته الراهنة قائلين مع الشاعر العربي :

أولئك أبائي فجئني بمثلهم اذا جمعتنا يا جرير المجامع

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ·

★ ★ ★

منافع الأغذية ودفع مضارها

لأبي بكر الرازي

تحقيق: حسين حموي عرض: حسان الكاتب

من الكتب القيمة التي صنفها الرازي في أهمية الغذاء كتابه «منافع الأغذية ودفع مضارها» .. اذ أنه بحث فيه مايناسب الأجسام في أيام المرض، وما يناسبها في حالة الصحة، وما يوافق اجتماعه في وجبة واحدة، وما لا يوافق، وقد سماه كل من ابن القفطي .. وابن النديم (كتاب دفع مضار الأغذية) وهو مقالتان، يذكر في الأولى منهماما يدفع به ضرر الأطعمة في كل وقت ومزاج وحال ويذكر في الثانية قولين :

الأول : عن طريقة استعمال الأغذية .

الثاني : في طرائق دفع التخم ومضارها .

ويذكر أن الرازي قام بتأليف هذا الكتاب للأمير أبي العباس أحمد بن علي، ومما قاله علامتنا الرازي في مقدمة الكتاب : « رأيت أن أؤلف كتاباً في دفع مضار الأغذية تاماً مستقصى أبلغ وأشرح مما عمل الفاضل (جالينوس) فانه سها وغلط في كثير من كتابه ... الخ » ونستوحي من هذه المقدمة أن أبا بكر الرازي صحح لجالينوس الذي يعتبر مع أبقراط (أبوي الطب اليوناني) ونستدل على مدى ثقته بمعارفه وثقافته والعلوم التي اكتنهها ليصحح وينقض بعض آراء جالينوس . لقد طبع كتاب الرازي هذا في المطبعة الخيرية بمصر سنة (١٣٠٥) هـ في (٦٨) صفحة بالقطع الكبير ودوّن بهامشه دفع المضار الكلية للشيخ الرئيس ابن سينا ويوجد منه نسخة مخطوطة في مكتبتي ميونيخ برقم (٨٤٠) وباريس برقم (٢٨٦٨) وفي مكتبة اسكوريال برقم (٨٢٨ و ٨٦٦) ترجم الى اللاتينية تحت عنوان :

(De Alement oriem Correctione neenon-devielus).

ثم أخيراً جمعت المقالتان في كتاب صدر تحت عنوان : (منافع الأغذية ودفع مضارها) بدون أية شروح، وقد صدرت الطبعة الأخيرة

بتحقيق الأستاذ حسين الحموي واصدار دار الكتاب العربي في سورية عام ١٩٨٤ م وقد بذل الأستاذ الحموي في تحقيق الكتاب وشرحه جهوداً مشكورة بحيث أصبح الكتاب مع الشروح التي أضافها ٠٠ يقع في ٣٦٥صفحة من القطع الكبير ٠

●● وقفة مع مؤلف الكتاب :

يعتبر أبو بكر الرازي من أشهرالأعلام في العلم والطب والفلسفة عند العرب ٠٠٠ لا بل في العالم أجمع اذ كان يسميه كتّاب اللاتينية (رازيس Rhazes.) ٠ ولقب بالرازي نسبة الى مسقط رأسه ٠

ولد في الري وعاش فيما بين (٢٥٠ـ ٣٢٠) هجرية (٨٦٤ ـ ٩٣٢) ميلادية وقضى حياته في بغداد ، وتوفي فيها ، وكان موسوعة في العلوم ، وهناك رواية متواترة بين مؤرخي العلوم أن الرازي كان في بداية حياته يتعامل بالصرافة ٠ وقد نال شهرة مرموقة في الطب والمنطق والهندسة وقدم انتاجاً يستحق التقدير في هذا المجال ٠

أولع الرازي بالموسيقا والغناء ونظم الشعر فيصغره واشتغل بالسيمياء والكيمياء، ثم عكف على الطب والفلسفة في كبره فنبغ واشتهر ، وتولى تدبير مارستان الري أي (مشفى الري) ثم رئاسة أطباء بيمارستان المقتدري في بغداد ٠

وصفه أحد أصحابه قائلا : كان شيخاً كبير الرأس ، مسفطه ، وكان يملي في مجلسه ودونه تلاميذه ، ودونهم تلاميذهم ، ودونهم تلاميذ أخر ، فيجيء المريض فيذكر مرضه لأول من يلقاهم ، فان كان عندهمعلم أفادوه والا تعداهم الى غيرهم ، فان أصابوا في تشخيص المرض ووصف العلاج أصابوا والا تكلم الرازي في ذلك ٠

كان أبو بكر الرازي طبيب الدولة العربية الأول ، وكان عارفاً بطب الاغريق ، وطب فارس ، وطب الهند ٠

لقد دفع ملك فرنسا لويس الحاديعشر المبالغ الباهظة لشراء مؤلف واحد منمؤلفات الرازي هو كتاب (الحاوي) الذي يضم معارف في الطب منذ اليونان حتى تلكالفترة التي كان يعيشها ، وبقيت أوربا تعتمده مرجعاً أساسياً في الطب مدة تزيد على٤٠٠ سنة ٠

ولقد أقامت فرنسا لصاحب كتاب الحاوي (الرازي) نصباً تذكارياً في كلية الطب في باريس وما أحوجنا نحن العرب أن نقيم له تمثالا فيكلجامعة وفي كل كلية طب٠

وتذكر المصادر أن عدد الكتب التيألفها الرازي في الطب (٥٦) كتاباً وفي العلوم الطبيعية ٣٣ كتاباً وفي المنطق ٨ كتب وفي الرياضيات ١٠ كتب وفي الفلسفة ١٧ كتاباً وفي علوم ما وراء الطبيعة ٦ كتب وفيالكيمياء ١٣ كتاباً وله ١٠ كتب في مواضيع أخرى مختلفة ويأتي في زمرة كتبه الكبيرة « الجامع» و « الكافي » و « المدخل » و « الملكي » و « الفاخر » على أن كتابي (الحاوي والمنصوري) يعتبران على رأس مؤلفاته واليهما يعود الفضل في شهرته وذيوع صيته في جميع البلدان ٠ كما يعد كتابه فيالجدري والحصبة على رأي نيوبرجر سفراً من أثمن الكتب حيث ترجم الى اللاتينية سنة ١٤٩٨ وسنة ١٥٤٨ ، وترجم الى الانكليزية وطبع في لندن سنة ١٨٤٧ ، وترجم الى الفرنسية وطبع في باريس سنة (١٧٦٣) وسنة (١٨٦٩) وترجم الى الالمانية

وطبع في لايبزيغ سنة ١٩١١ وتدل هذه الآثار التي خلفها لنا الرازي على ما له من قدرة على الصبر والتحمل وحب العمل وعلى أنه لم يجد لذة في دنياه الا في رحاب العلم والعمل والتأليف ٠

تروي لنا شقيقة الرازي (خديجة) عن حياة الرازي فتقول :

كان طلاب العلم يزحفون اليـه مـن جميع البلدان لتلقي المعرفة على يديه ،فكان حجة عصره ، ومرجعاً لكل الحالات المرضية المستعصية ٠ أذكر أن صبياً يافعاً جاء يشكو اضطراباً وخوفاً من حالته التي ساءت خلال سفره حتى بدأ يبصق دماً ٠ وقد عجز أطباء بغداد عن كشف مرضه ، فعاينه الرازي بهدوء كبير ، فلم يعثر على السبب ، فطلب مـن الفتى أن يتريث ويصبر فحالته لا تشير الى خطر ، اذ ليس لديه التهاب رئوي أو سرطان وهنا تعالى صراخ المريض وانهمرت دموعـه قائـلا :

اذا كان أمهر الأطباء عاجزاً عن معرفة ما بي فسلام علي واستمر أخي يقلّب السبب فسأله : أي ماء شربت في رحلتك ؟ أجـاب الفتى : لقد شربت هنا وهناك من ماء الآبار والمستنقعـات ٠ قال الرازي : لا شك أنك ابتلعت علقة دموية تثبتت في أمعائك ، ارجع غداً لأجري لك العلاج المناسب ٠

وفي اليوم التالي حضر الفتى ومعدتـه فارغة بحسب توصية الطبيب ، الذي طلب منه تناول (نبتة الطحلب) حتى ضاق ذرعاً بها ٠ ثم أجرى له عملية القيء ٠ لا عملية جراحية ٠ فأخرج من أمعائه علقة دمويـة مفزعة ٠ وتتابع خديجة (أخت الـرازي) الحديث فتقول :

كثرت الشعوذة في معالجة الأطفال من مرض كان يودي بحيـاة الكثيريـن ، فعكف شقيقي على دراسة هذا المرض وحدد أوصافه بدقة وشخص مظاهره ، وأشـار الى ضرورة الفحـص الدقيـق للقلب والنبض والتنفس والبراز ، والى ارتفاع الحرارة المساعد على انتشار الطفح في الجسم بعد انتشاره خلف الأذن والفم فعالج هذا الداء المسمى (الحصبة) وألف كتاباً حوله ، فأنقذ بذلك حياة الأطفال من السحرة والكاذبين ، وكان أول المتحدثين عن (الجدري) في معالجة دقيقة بعيدة عن الأوهام ٠

ثم تتابع خديجة الحديث ٠ كان شقيقي يكدّس وريقات في صندوق خاص ، حكمت عليه بالتفاهة ، لكنني بعد وفاته ، أخرجت ما في الصندوق ، فاذا محتواه يقع في ثلاثين جزءاً ، أطلق عليه الأطباء (كتاب الحاوي) لأنه جمع فيه الأمراض ، كما جمع في شخصه اختصاص الأطباء في كل مجال ٠

●● خطة الرازي في تأليف الكتاب :

يقول أبو بكر الرازي في تحديد نهجـه في كتابه :

« واني لما أجلت الفكر في أن يكون هذا الكتاب تاماً مستقصىً في غرضـه المقصود ، رأيت أنه ينبغي أن الحق بذكر الأمور الجزئية التي تخص عدداً في دفـع مضـاره ذكـر قوانـين وأمور كليـة في تدبـير المطعـم والمشرب جملة ، ورأيت أنه ينبغي أن أجعله مقالتين، أذكر في الأولى منهما الأمور الخاصة الجزئية، وفي الثانية القوانين العامة الكلية ٠ وأنا فاعل ذلك بمشيئة الله عز وجل ٠ واياه أسأل التوفيق لصواب القول والفعل والعون على ما يرضيه ويقرب اليه ويدني منه ٠

وهذا حين نبتدىء فنقول انه لـما كان معوّل الناس في أغذيتهم على الخبز والمـاء

والشراب واللحم،وكانوا لهذه أكثر استعمالا منهم لغيرها ، رايت ان أبدا بالقول فيها .

●● في منافع الحنطة والخبز المتخذ منهـا ومضارها ، وما يدفع به تلك المضار وصنوف الخبز والأوفق منها في حال دون حال .

● **الخبز السميذ والحواري :**

فأقول ان الخبز مع اعتياد الطبيعة لـه وورودها عليه دائبا وجري العادة بالاغتذاء منه ، له مضار ينبغي أن تميز وتفصل .

فمن الخبز السميـذ(١) والحوارى(٢) والخشكار(٣) على مرتبته في ذلك مـن قله النخالة وكثرتها، والفطير والمختمر(٤)والكثير الملح والبورق(٥) ، والعديم لذلك ، وخبـز التنور ، وخبز الفرن ، وخبز الملة(٦) وخبز الطابق(٧) .

فمن مضار الخبز السميذ والحوارى أنه أعسر خروجاً من البطيء من الخشكار ، وانه أكثر نضجاً وتوليداً للرياح ، ويولد السدد في الكبد والحصى في الكلى في المستعدين لذلك . ولذلك ينبغي أن يميل عنه الى الخشكار من تعتريه الرياح الغليظة ويبس البطن والسدد في الكبد والغلظ في الطحال والحصى في المثانة المستعدة لذلك ويسرع اليه الامتلاءوتصيبه أوجاع المفاصل ويعتريه التحجر فيها .

ومما يدفع به هذه المضار أن يكثر فيه من الخميـر والبورق ، ويتعهـد الآكل لـه السكنجبين(٨) البزوري ويأخذ بزر البطيخ وبزر الكرفس(٩) مـع السكر الطبرزد(١٠) متى أحس بثقل تحت الأضلاع مـن الجانب الأيمن . فأما متى أحس بثقـل في البطـن والقطن وعسر في خروج البول أو قلة فيـه فليأخذ من هذا الدواء أياماً قبـل الطعـام بثلاث ساعات .

● **سفوف قوي :**

وصفته أن يؤخذ من بزر البطيخ المنقى وزن عشرة دراهم ، ومـن حب القلت(١١) واللوز المر والدوقو(١٢) من كل واحد وزن درهمين ، فيستف منـه وزن ثلاثـة دراهم ويشرب عليهـا مـاء حـاراً قد أغلي فيه برشاوشان(١٣) الى أن يفقد ذلك العارض .

●● **التحقيق :**

يقول الأستـاذ حسين الحموي محقـق الكتاب مبيناً دوره وجهده في تقديم الكتاب للقراء العرب بثوبه الجديد الذي صدر في طبعته الأولى بدمشق عام ١٩٨٤ عن دار الكتاب العربي .

« وقد حاولنا جهدنا شرح معظم الكلمات التي كنا نشعر بالحاجة الى شرحهـا لاتمام المعنى وايصاله الى القارىء .

أما الأسلوب ، فهو أسلوب علمي ينم عن عبقرية طبيب وفيلسوف وكيميائي فلم نستطع أن نغير أو نبدل في طريقة السبك والتأليف، واكتفينا بالشرح والتوضيح لأهم التراكيب التي وجدنا أنها بحاجة لشيء مـن ذلـك ، وقد أشرنا في نهاية الكتاب الى أهم المراجع والمصادر التي كانت لنا عوناً فيما ينبغـي ونتوخى ، وأن كان ما ينبغي ونتوخى هـو الاستفاضة في الشروح لا الاختصار بقصـد الموازنة بين حجم الكتاب وعدد صفحاته ،وبين الغايـة التي نهدف الى تحقيقهـا في حدود الامكان .

●● وفيما يلي نقدم بعض ما اختاره المحقق للقراء الكرام عن أهمية بعض الأغذية :

● **السبانـخ :**

تحدث ابن سينا عن السبانخ فقال :

انها تنفع لأمراض الصدر والرئة وتزيل العطش ، ويمكن أكلها نيئة أو مطبوخة ، وعصيرها المحلى بالسكر يفيد في معالجة اليرقان ، والحصى البولية وعسرة البول ، وتعتبر غذاء جيداً للمحمومين والناقهين ، وهي تفيد أيضاً في أوجاع الحلق والظهر والنزلات الدائمة ، واذا طبخت أوراقها مع الباقلاء ، كانت فائدتها الغذائية أكبر ، ويحسن عدم استعمال هذه الأوراق بعد أن تظهر البذور بينها » .

● **السفرجل :**

يحتوي على كثير من الأملاح الكلسية والمواد الهضمية وحامض التفاح وفيه(٧١٪) من الماء و (٥٪) من البروتين و (٨ر١٢) من الألياف و (٥ر٧) من السكر و (٣) مواد دهنية و (٩ر١٤) رماد ، و (١٣) بوتاس و (١٩) فوسفور و (١٩) صودا و (٢) كلور و (١٤) كلس ومقدار وفير من فيتامينات أ ، ب ، ج ، ب ب وخصائصه للتسكين والتقوية وفتح الشهية ، وعلاج المعدة والكبد وهو يشفي الاسهال المزمن ، ويقوي القلب ، ويفيد المصابين بسل الأمعاء والصدر والنزيف المعدي والمعوي ، وانهيارات الرئة ، ويقوي الهضم والأمعاء ويمنع القيء ، ويفيد الأطفال والشيوخ ، ويشفي من سيلان اللعاب ، ومن الزكام الشديد ، ومن سيلان المهبل ، وفقد الشهية ، والعجز الكبدي .

ومنقوعه يفيد أكثر من تناوله ، واذا أضيف مقدار ملعقة من مسحوق السفرجل الى كمية من الأرز المسلوق في ٢٥٠ غراماً من الماء أفاد الأطفال المصابين باضطرابات الهضم . والمسلولين والنحيلين .

● **البصل :**

ينقي الدم وينظم دورته ويدر البول ، وينفع في تضميد الجروح والدمامل ، وبعض أمراض الكبد والكلي ، وتبين من الأبحاث الحديثة أنه في طليعة النباتات التي تقتل الجراثيم وبخاصة جراثيم التيفوس . أما فائدة البصل الغذائية فهي تفوق فائدة التفاح وفيه عشرون ضعفاً من الكلسيوم الموجود في التفاح وضعف ما فيه من الفوسفور وثلاثة أضعاف ما فيه من فيتامين آ والحديد وفيه الكبريت وفيتامين ج ومواد مدرة للبول والصفراء وملينة ومقوية للاعصاب ، ومقوية للقدرة الجنسية ومؤثرة في القلب ودورة الدم ، وفيه مادة الفلوكونين التي تحدد نسبة السكر في الدم وهي تعادل الأنسولين في مفعوله .

● **الثوم :**

يحتوي على نسبة كبيرة من البروتين والأملاح والكبريت والماء ولدى اجراء التجارب عليه ظهر أنه مطهر معوي ومنبه معدي وموقف للاسهال الميكروبي ، يؤكل بلعاً على الريق أو يستعمل فص أو فصان تحميلة ويؤكل مع اللبن الرائب لتطهير الأمعاء ومعالجة السعال والربو والسعال الديكي وهو يطرد الأرياح ويفيد الأعصاب وينشط القوة الجنسية وهو مدر للبول .

● **العسل :**

غذاء منشط جداً ، فهو يعطي ٣٠٠ حروري في كل مائة غرام وهو ذو قيمة غذائية كبيرة والكيلوغرام الواحد منه يعادل في قيمته الغذائية (٥) كيلوات من الحليب أو ٢٦ موزة أو ٦٠ برتقالة أو ٥٠ بيضة أو (٧٥٠ر١١) كغ من لحم العجل أو (١٢) كغ من الخضراوات والمواد السكرية الموجودة

فيه هي سكاكر سهلة الهضم وهو يقدم لعضلات الجسم نشاطاً سريعاً وقوياً ٠

● **القهوة :**

ان ثلاثة فناجين من القهوة يحتسيها الانسان في اليوم الواحد ، تعتبر منبهاًقوياً، أما ما زاد عن ذلك فهو منبه شديد الضرر ولا فائدة منه على الاطلاق وان الاكثار من القهوة يؤدي الى تسمم بطيء يخفف النوم ويزيد الهواجس ويضعف الشهية ٠

● **الشاي :**

الشاي مادة مغذية ومنشطة اذا تناولها الانسان باعتدالوهي منبهة وضارة اذا أفرط بها لأن مادة الشايين الموجودة فيه تشبه الكافهئين الموجودة في القهوة منبهة للاعصاب والقلبومدرة للبول وهو يساعد على الهضم بعد الطعام ، ويفيد الشاي في دفع العطش ومساعدة الجسم على مقاومة الحر، هذا ويؤذي الشاي بعضالأشخاص ذويالاستعداد للبدانة وتولد الحصيات لأنه يسبب لديهم خللا في احتراق الأغذية وبالتالي يسببتراكم الرمال وترسبها ٠

● **البابونج :**

ينشط الهضم ويجلب النوم ويخفف الحرارة والتهاب المجاري البولية وينفع الرمد والبثور والحكة والوجع والجرب ويذهب اليرقان ويدر البول ٠

● **البيض :**

مادة غذائية هامة تحتوي علىالفسفور والحديد والفيتامينات والكلسيوم والبروتين والكبريت والبوتاسيوم والزنك والنحاس والصوديوم والكلور واليود وهو غذاء كامل لذا فان تناول بيضة أو بيضتين صباحاً يمد الجسم بحاجته الغذائية بما يعادل٣٥٠ غراماً من الحليب أو ٥٠ غراماً من اللحم ٠

● **الحليب واللبن :**

غذاء حيواني كامل ، ولا حد للفوائد التي يجنيها الانسان منه ويكاد يكونمستحيلا علينا أن نجد غذاء يماثل الحليب فيخصائصه وصفاته ، فهو أساس حياة الانسانوالحيوان وعمادها ، فكل الكائنات اللبونة تعتمد على الحليب في حياتها الأولى ٠

● ولابدمنالاشادةبدورالمحققالأستاذ«حسين الحموي » الذي بذل جهداً مشكوراً في شرح كثير من معاني الكتاب حتى أن هذه الشروح فاقت على مادة الكتابمرات ٠٠ فعددصفحات الكتاب الأصلي كما يذكر محقق الكتاب كانت ٦٨ صفحة ، بينما جاء الكتاب المحقق يضم ٣٦٥ صفحة اضافة الى ملحق من اعداد المحقق الشارح يقع في نحو خمسين صفحة تحدث فيه عن قيمة كثير من المواد الغذائية الهامة٠٠ كالعسل والقهوة والشايوالبابونج والبيض والحليب ٠٠ الخ اضافة الى قائمة بالمراجع ضمت ٥٦ مرجعاً وجعل له فهرساً مفصلا لسهولة الرجوع الى المادة المطروحةفي الكتاب ٠٠ وهذا العمل جعل أيضاً قيمة مضاعفة لكتاب علاّمتنا الرازي اذ أنه بشروحه الضافية صار قريب المتناول والفهم من جميع المثقفين المعاصرين للاستفادة منه٠

دمشق : **حسان الكاتب**

□ الحواشـي :

١ ـ السميد : الدقيق الأبيض ، ويقال له السميد بالدال وهو المادة الأساسية التي تدخل في صناعة الحلوى ٠

٢ ـ الحوارى : الخبز الأبيض المصنوع من الدقيق المنخول المقطوف بشكل جيد وفي القانون لابن سينا (الطحين الأبيض) قريب من النشا لكنه اسمن ٠

٣ ـ الخشكار : (الخشكر) هو ما خشن من الدقيق ٠ وهو كلمة فارسية ٠ والخشكار (القصري) ما بقي في المنخل بعد الانتخال ٠ وهو ما نسميه (النخالة) ٠ ينفع في أورام الثدي ٠

٤ ـ الفطير والمختمر : الخبز الفطير هو كل ما اعجلته قبل اوانه في الاختمار والمختمر عكس ذلك تماماً ٠

٥ ـ البورق : ويقال له (النطرون) وهو اقوى مـن الملح ، ولكن ليس له قبض وهي كلمة فارسية وقيل يونانية٠

٦ ـ الملة : هنا نوع من الخبز الرقيق الجيد النضج وفي اللغة موضع الخبزة ، كان الأصمعي يقول : لا يقولن احدكم اكلت ملة ، بل يقول : اكلت خبزة ، وانما الملة موضع الخبزة ٠

٧ ـ الطابق : الناس من الخبز يقول صاحب العين ، الخبز الذي قد ذهب طعمه وبلله من شدة الطبخ ، وهو هنا الخبز المدور المرقق الناضج الذي تسميه العامة (خبز الصاج) ٠ وقـال ابن دريد معـاني كثيرة في أنـواع الخبز وكذلك صاحب العـين ٠

٨ ـ السكنجبين : وهي كلمـة فارسية معربـة بمعنى شـراب من الخل والعسل ٠

٩ ـ الكرفس : نبات ثنائي حولي من الفصيلة الخيمية Ombellifcres اول ما زرع على انه نبات طبي ثم تحول بعد ذلك الى نبات غذائي ٠

١٠ـ الطبرزد : ويقـال له (الطبرزذ) وهي كلمـة فارسية أصلها تبرزد وهو السكر الصلب ولعله المقصود ب (السكر نبات) الذي تستخدمه العامة لتجديد الصوت وترطيب الحنجرة والحلق ٠

١١ ـ القلت : ربما كان المقصود به (القت أو الجت)وهو نبات يشبه نبات (الاقاقيا) الذي يسمى (الشوكة المصرية) من فصيلة القطانيات يكثر في البلدان الحارة ٠ واذا كان المقصود به الجت فمن اسمائه (الفصفصة ، والفصة ، والبرسيم الحجـازي ، والرطبـة) اذا كانت غضة اما اذ جفت فيطلق عليها اسم (القت) وهي نبات عشبي معمر جذوره تتفرع قليلا الا انها تتعمق كثيراً في التربة والسلت : حب بين الشعير والبر اذا نقي انجرد من قشره ٠ ويقول ابن دريد السلت : هو حب يشبه الشعير أو هو الشعير بعينه ٠

١٢ ـ الدوقو : نوع من البذور ٠

١٣ ـ اقراص رقيقة يوضع فيها مسحوق الادوية ٠

★ ★ ★

أبواب دمشق

نادية الغزي

يصل المسافر الآتي من البحر... من ثغور بلاد الشام القديمة الى خانق الربوة جبل عن يمينه وجبل عن شماله ٠٠ نهر ٠٠ نهران ٠٠ ثلاثة ، بل سبعة أنهر كالتعويذة تستهل السهل الفسيح الذي ينبثق فجاة أمام نظر المسافر الآتي من الغرب ٠٠٠ عن وردة السهل ٠٠ وردة كبيرة تبث أنواع عطورها الغريبة ، مخترقة سندس البساتين مخترقة جو الشام الحلو المدغدغ العالم ، المصبوغ بالدم والحرائق على مدى العصور ٠٠

لتقول دمشق على مدى الأجيال ٠٠٠ كلمتها الخالدة الدائمة ٠٠ (أهلا وسهلا) ٠٠ دمشق ترحب بكم ٠٠ دوماً دمشق ٠٠٠ ترحب بكم ٠٠٠

أهلا وسهلا تقول الدمشقية لضيوفها حين تفتح باب بيتها ٠٠ بل أهلين وسهلين بل مئة أهلا ومئة سهلا ٠٠ تفتح الأبواب مشرعة، ويستقبل الدمشقيون الضيوف فاذا البلدة قناديل وفوانيس وصدور ، وتبقى دمشق على مر العصور شامخة لا تضربها غائلة من الدهر الا رأيناها تشتد وتعمر ٠٠ وتلبس القشيب من عاداتها وألوانها ٠٠

قد تكون دمشق ، هي (إِرَمَ) ٠٠ كما ذكر بعض المؤرخين ٠٠ ذات العماد ٠٠ ذات العشرين ألف عمود في أيام آرام ٠٠٠ بل قيل في مبالغات وصف عمدها انها كانت أربعمئة ألف عمود ٠ والله يا دمشق لتبقين ٠٠ فلقد قال رسول الله ﷺ :

ستكون دمشق في آخر الزمان أكثر المدن أهلا ٠٠ ولأهلها معقلا٠٠ وأكثرأبدالا وأكثرها مساجد ٠٠ وأكثرها زهّاداً ٠٠٠ وأكثرها مالا ٠٠ وأكثرها رجالا ٠٠٠ وأقلها كفاراً ٠

وفي قيل عن قيل عن كعب الأحبار قال: يبقى في دمشق مسجد يبقى بعد خراب الدنيا أربعين عاماً ٠

★ ★ ★

فلنصمت أمام مدينتنا المقدسة التي أحبها الرومان كثيراً وقالوا عنها : دمشق الجميلة المقدسة ٠٠٠ ولنصمت أمام مدينتنا المباركة التي ذكر مسجدها العظيم في القرآن الكريم ٠٠ فلقد جاء في مقدمة سورة (التين) بسم الله الرحمن الرحيم (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين) ٠

أما البلد الأمين فهو مكة ٠ أما الطور فحيث كلم الله موسى عليه السلام ٠ أما الزيتون فهو مسجد القدس ٠ أما التين فهو مسجد في دمشق ٠٠ ويقال انهم أدركوا فيه شجراً من تين قبل أن يبنيه الوليد ٠ فما أروع أن تنبت نبتة في مقر عبادة ٠٠ وما أخشع العبادة في الساحات التي يظللها شجر التين ٠٠ وأي ثمر أشهب هو : انه أشهى من العسل ٠

انما دمشق الصبية ٠٠ دمشق المعمرة ٠٠ دمشق الخرافة ٠

قبل أن تكون دمشق ٠٠ كانت هناك بحيرة واسعة ٠٠ بدأت تجف تدريجياًمع مرور الزمان والأحقاب الجيولوجية ٠٠ ولقد جفت البحيرة على خمس مراحل جيولوجية حتى بقي منها بحيرة العتيبة وبحيرة الهيجانة ٠

وفي الزمن البعيد ٠٠ كان الانسان القديم يسكن الكهوف المحيطة بدمشق ٠٠ وكان انسان نيادرتال قد تركز في التلال الأربع التي تحيط بدمشق ٠٠ وكان لمدينة برزة شأن عظيم ومنها انطلق الانسان نزولا الى السهل الجاف ليبني أول حجر في دمشق ٠٠ أما اليوم فلقد أصبحت برزة حياً من أحياء دمشق ٠٠ أصبحت الأم ضلعاً من أضلاع وليدتها ٠٠ انه منطق الحياة ٠٠ والتطور ٠٠ والأضواء ٠٠ هذه الأضواء التي فرضت المدنية والتوسع على دمشق ٠٠ فانطلقت عبر التاريخ ٠٠ من أسوارها الثلاثة مشكلة هيكلها النجمي الرائع الحالي ٠٠ مشكلة شكلا نجمياً خماسياً سداسياً سباعياً ٠٠ يشع وميضاً، يجذب الناظرين في الليل الهادىء ٠ أترى دمشق زمان كانت أجمل من دمشق الان ؟٠

☐ الشـــام :

كان يقال لها ٠٠ أرض بني كنعان ٠٠ وقد تكون الشام قد سميت لاتجاهها نحو الشأم أي الشمال بالنسبة لمكة وكلمة (شام) حتى في الوقفيات القديمة تعني ـ بدون شك ـ الشمال وليس اليسار ٠

وقد تكون قد سميت باسم (سام بن نوح) واسمه (شام) بالعبرية ٠

أما دمشق فقد يكون اسمها مشتقاً من (DO-MESKOSS) أي مسك مضاعف (فالدو) للتضعيف ومسكوس هو المسك ٠

وقد تكون منسوبة الى قائد غزاها فبناها وهو (DAMASCUS) .

وقد تكون [دم ٠ شق] ترمز لدم شق الأرض حين قتل قابيل أخاه هابيل ٠

فاسم دمشق قديم قديم ٠٠ ورد في اللوائح الارامية ٠

ومن الأقوال في بنائها أنجيرون بناها ٠٠ فمن ؟٠ وما هو جيرون ؟

جيرون من أبناء سليمان بن داود ٠٠ بنته الشياطين ٠٠ وكان الشيطان الذي بناه

يدعى جيرون وهو سقيفة مستطيلة على عمد ·· وسقائف على عمد ·· وحوله مدينة تطوف بجيرون (هذا القول لاسحق بن أيوب القرشي) ·

ويقال ان نوحاً بناها حين هبط من السفينة وأشرف على جبل حشمش أي تل حران ·· فكانت أول مدينة خطت بعد الطوفان ثم دمشق ··

ومن الممكن أنها إرم ذات العماد ·· وليس موضع أكثر حجارة من دمشق ··

ويقال هما جيرون وبريد اللذان كانا أخوين ·· ابني سعد بن لقمان بن عاد ·· هما اللذان بنياها ويعرف باب جيرون وباب البريد باسميهما ··

ومن الممكن أن يكون (العازر) · غلام براهيم الخليل ·· وكان حبشياً وهبه له نمرود بن كنعان حين خرج ابراهيم من النار ·· واسم الغلام دمشق · – هو الذي بنى المدينة أو (بيوراسب) الملك اليوناني الذي بنى بابل وصور ؟·

أو دمشقش دمشقُق (DAMASCUS) . غلام الاسكندر ؟··

وفي كل الأحوال فان من بنى ··دمشق واسوارها ·· بناها في مواقع الكواكب السبعة · مرحباً بالكواكب على أبواب دمشق ·· فباب كَيسان لزحل ·· والباب الشرقي للشمس وباب توما للزهرة ··· والباب الصغير للمشتري ·· وباب الجابية للمريخ ·· وباب الفراديس لعطارد ·· وباب الفراديس الاخر المسدود للقمر (ابن عساكر) ·

لله در الشام ·· هذه الأرض المباركة·

قال ابن تبيع : تخرب الشام ··وتعمر الشام ·· حتى تكون في العمران كالرمانة ولا يبقى فيها خربة من جبل أو سهل الا عمرت ·· ويغرس فيها من الشجر ما لم يغرس في زمان نوح ·· وتبنى فيها القصور اللائحة في السماء ··

وقيل العكس في بلاد الشام ·

ماذا يمكن أن يروى عن دمشق ··· كل ما يروى قليل ·· قاله أبو هريرة عن رسول الله ﷺ بأن دمشق واحدة من أربع مدائن الجنة وكثيرون لا يستطيعون تفسير اللغز الرباعي للأمور التي ذكرها أبو هريرة عن الرسول اذ قال :

الملائكة أربعة : جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل ·

واختار الله من النبيين أربعة :ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ·

ومن المهاجرين أربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ·

ومن الموالي أربعة : سلمان الفارسي وبلال الأسود وصهيب الرومي وزيد بن حارثة ·

ومن النساء أربعة : خديجة بنت خويلد ومريم بنت عمران وفاطمة بنت محمد وآسية ·

ومن الأهلة أربعة : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ·

ومن الليالي أربعاً : ليلة القدر وليلة النحر وليلة الجمعة وليلة النصف من شعبان·

ومن الأيام أربعة: الجمعة ويوم الفطر ويوم النحر ويوم عاشوراء ·

ومن الشجر أربعة : السدرة والنخلة والتينة والزيتونة ٠

دمشق هي التينة ٠٠ دمشق التي هي من مدائن الجنة ٠٠

ثياب أهلها خضر٠٠هي مدينة الأشجار ومدينة الأنهار ٠٠ هكذا قال كعب الأحبار٠

ما أصل هذه المدينة ؟ ومتى وجدت؟٠ من سكنها ؟٠ ومن عمرها ؟٠ كيف عاش أهلها ؟ ٠ كيف أمنوا غارات الأعداء المتلاحقة عبر عصور وعصور ٠ كيف استطاعوا حماية مدينتهم ، كيف زرعوا أشجار غوطتهم ؟٠ التيكان يرعى فيهاغنم يعقوب عليهالسلام؟

ما سر هذه المدينة التي أشرف عليها عيسى بن مريم عليه السلام٠٠ فما أن وصل الى الغوطة ورأى شجرهاحتى داخلته الروعة والسكينة فقال : (يا غوطة) ٠

وقيل آدم قد خلق من طين الجابية وعجن بماء الجنة ؟٠

وأسوار دمشق المزدوجة وما تبقى من هذه الأسوار الداخلية والأحجار التيتشاهد في أحياء المدينة العتيقة الى اليوم !٠

وتعلن عن حضارات موغلة في القدم ٠

فلنتصور معاً ٠٠ حادثة زلزال دمشق الكبير ٠٠ الذي تعرضت له المدينة بعد سلسلة من الزلازل ضربتكل بلاد الشام الىانطاكية ٠٠ لم تتأثر دمشق بالزلازل الأولى بقي سورها كما هو وبقيت أبوابها مغلقة ٠ الى أن حل نهار السادس من ربيع الأول لسنة ١٧٥٩م ٠ كانت دمشق آمنة ٠٠ عامرة ٠٠ زاهرة ٠٠ والناس فيها قد آووا الى بيوتهم هانئين منهم من نام ومنهم من تهيأ للنوم في تلك البيوت الرائعة الجمال ٠٠٠ كانت الساعة هي العاشرةليلا وكما ورد فيالتذكرة المسماة بالدر المكنون والجمال المصون من فرائد العلوم لكمال الدين الغزي المتوفى عام ١٢١٤ هـ ٠ قال في وصف الزلزال ٠٠ ولسوف أقتطع من النص لطوله :

رجفت الأرض رجفة مقلقة برياح وعواصف ٠٠ ورعود قواصف ٠٠ فطاشت لها العقول وحصل غاية في الذهول تخلعت السقوف وتشققت الجدران ٠ وهدمت في الشام بيوت لا تحصى وسقطت رؤوسمآذن دمشق ٠٠ الشرقية والغربية في جامع بني أمية ٠٠ ومنارة العروس ذهب منها شيء يسير ٠ ثم رجفت الأرض في اليوم التالي فسقط من الجامع الأموي جداره الشرقي والشمالي ٠٠ وسمع لها صوت هائل ٠٠٠ وبقيت الرجفات والاهتزازات تتوالى ليلا نهاراً حتى آخر شهر ربيع الأول ٠٠ مات من مات من الأنفس ٠٠ وهدم ما هدم من البيوت ٠٠

عندئذ فتحت أبواب دمشق كلها ٠٠٠ وخرج الناس الى الفلاةاتقاء للزلزالالعظيم حتى هدأ ٠٠

عاد الزلزال مرة أخرى في ربيع الثاني السادس منه٠٠ بعد صلاة العشاء في الجامع الشريف بنحو ثلث ساعة ٠٠ رجفت الأرض الرجفة العظمى ٠٠ صارت الجبال تمور والأرض تخور ٠٠ والمياه تفور ٠٠ ودام الحال كل الليل ٠٠ تضرع الناس لعلاّم الغيوب وحارت العقول ٠٠ وطاشت الرجال الفحول ٠٠ وشمل الزلزال كل القرى والمناطق المحيطة حتى حوران وحمصوالتل وغيرها(١)٠

عندئذ وقع سور دمشق من طرف نهر بانياس ٠٠ وسدت الطرق ٠٠

بقي أهل دمشق ثلاثة أشهر تحت الخيام خارج دمشق ٠٠٠

ورغم كل هذا الخراب عمرت الشام من جديد ٠٠ عمر الجامع والبيوت وساعدت الدولة العثمانية آنذاك في اعادة بناء الجامع العظيم ٠

لكن أبواب دمشق وأسوارها لم تكن مؤسسة للوقاية من الزلازل فقط كان لها شأن آخر ٠

وقبل أن أبدأ بتعداد أبواب دمشق وذكرها ٠٠ أريد أن ألفت الانتباه الى الأبحاث التي تشير الى الاسوار الثلاثة التي تحيط بثلاث دمشقات ٠٠ دمشق الكنعانية ٠٠ ثم دمشق الآرامية ٠٠ ثم دمشق الرومانية اليونانية التي جددت أبوابها جميعاً من قبل المسلمين ٠٠ بل فتحت في أسوارها أبواب جديدة أخرى ٠

ولربما كان هذا هو السر ٠٠ الذي يفسر وجود بعض الأبواب الضخمة في داخل المدينة عدا أبواب الحارات والأحياء وأبواب الخانات بالذات التي نشاهد في منتصف كل منها باباً صغيراً يدعى (الخوخة) يفتح للداخلين والخارجين لئلا يلجأ الى فتح الأبواب الضخمة في كل حين وعلى مسار الساعات والدقائق ٠

دمشق مغرمة بالأبواب ٠٠ تُغلق المدينة أبواب أسوارها لتحفظ السكان من المهاجمين وتغلق الأحياء أبوابها ليظل لكل حي رجاله وفرسانه وميليشياته(٢) ٠٠٠ وتُغلق أبواب الخانات ليستتب الأمن في الليل ٠٠ وتغلق أبواب البيوت لتبقي كل أسرة أسرارها في معزل عن الأخرى ٠٠ ويُغلق الدمشقيون أبواب نفوسهم ٠٠ يفتحونها بمقدار وكأن لباب النفس خوخة كبقية الأبواب يطل منها الدمشقي على العالم بحذر وذكاء ٠٠ لقد علمته الأحداث هذا الحذر ٠ علمه تيمورلنك وهولاكو والصليبيون وغيرهم ٠٠

فاذا وثقوا بعدذلك ملكوك من نفوسهم ما شئت ٠٠ وفتحوا أبوابها وشرعوها ٠٠٠ وهناك العجب العجاب ٠٠ فأهل دمشق كمدينتهم ٠٠ كفراديسهم ٠٠ كأشجارهم ٠ كوردهم ٠٠ عطاء ٠ عطور ٠٠ عطور ٠٠٠

وحذر ٠٠ حذر ٠٠ انه منطق الأبواب ٠٠ منطق نفوس أهل مدينة لا يمكن معرفتها ومعرفتهم بسهولة ٠

رمان هم ٠٠ قشور خارجية متماسكة ٠ وعالم داخلي مرصوص ٠٠ ذكي ٠٠ متموج ٠٠ خيِّر ٠

فلننزل الى دمشق القديمة ٠٠ ولندر حول سورها العموري الكنعاني الحجري الثقيل فلقد كانت هناك بداخله دمشق صغيرة فيها معبد وقصر ولها أسواق وأحياء منفصلة وسوق كبير تحيط به حدائق وبساتين ومساكن للطبقات غير الميسورة ٠

كان نمط البيوت الكنعانية مشابهاً لبيوت دمشق القديمة الموجودة حالياً ٠٠ باحة في الوسط ٠٠ حولها غرف ٠٠ مدخل في صدر الباحة يكون مبلطاً على الأغلب ٠٠ وقد توجد بئر وقد يوجد في البناء طابق آخر ٠ وسطح مسوّر يفرش عليه الزبيب والقمح والمؤونة ٠

بانياس أو نهر (أبانا) أو (باناس) هو الذي كان يحد المدينة شمالا ٠٠ وعلى ضفتيه بني السور ٠٠ وتؤكد منطقة (السبع طوالع) أن كل الشوارع العرضانية محدودة بالسور ، مسدودة في نهايتها ٠٠

أما الأبواب القديمة فهي :

باب جيرون ـ باب البريد ـ باب الفراديس الداخلي ـ باب الخواصين فيسوق الحرير . وتؤكد الدراسات الحديثة وجود مدينة عمورية بسور وأبواب .. تتوالى مع الأبواب التي فتحت في الأسوار المحدثة بعد ذلك لتكوّن ما يشبه السلسلة ..

ولنعلم أن العموريين كانوا عرباً هاجروا من شبه الجزيرة العربية .. وكانوا في البدء وثنيين يلجأون الى عبادة الشمس والنجوم. وتؤثر عليهم الجهات الأربع المرتبطة مع النجوم ..

وعمور أو عمورو هي لفظة التدليل التي تطلق على كل بلاد الشام .. ولكن الا يمكن أن يكون اسم عمر أو عمرو هو اسم عمورا نفسه .

العموريون هم الذين بنوا المعبد الذي كان يسمى بمعبد (حود) الاله الذي تحول وشوهد منقوشاً فيها بعد بهيئة البعل الأعظم (بل) .

ولا بد لمن يزور دمشق القديمة .. من أن يلاحظ أزقتها المقطوعة بشكل فجائي عند السور العتيق .. وهذا مايؤكد وجود دمشق الكنعانية المسوّرة .

☐ جيرون :

نطفة دمشق هي جيرون .. فلنبدأ من جيرون .

قد تكون تصغيراً لكلمة فينيقية تعني الغريب أو الدخيل المستجير .. كذلك في السريانية وما أقرب كلمة (الجار) العربية من جيرون ..

وقد تكون من الجرن والحوض ... فلقد وجد في منطقة جيرون حوض كما قال ياقوت الحموي .

من هو جيرون ؟ انه جيرون بن سعد بن عاد .. حل بأرض دمشق .. وهو الذي جمع عمد الرخام .. وأحضر المرمر .. ثم شيد بناء جيرون .. وسماها (إرم .. ذات العماد) ..

ان دمشق كما قال المسعودي .. هي ارم صاحبة قصة جيرون .. وأبوابه النحاسية العجيبة . وقد يتعارض هذا القول مع النقش الذي وجد على حجر في بيت العبادة الذي تحول الى المسجد الجامع وكان في النقش الكلام التالي :

« بنى هذا المعبد دامشقيوس على اسم الالهة ازيس » . ازيس هو نجم المشتري فهل دامشقيوس هو الذي بنى المعبد فعلا ؟ أم وسعه عن المعبد القديم .. معبد (حدد) .

وفي قيل عن قيل ان منطقة جيرون ، المتاخمة لباب الجامع الأموي الشرقي هي من بناء سليمان بنتها الشياطين !! وان الشيطان الذي بناها يدعى ـ جيرون ـ وهي سقيفة مستطيلة على عمد .. وحولها مدينة دمشق .

وفعلا .. فان الباب الشرقي في معبد جوبيتر كان يدعى باب جيرون .. وهو نفسه باب الجامع الأموي الآن .. وكلمة جيرون تعني باللغة اليونانية الهيكل أو فناء الدار وهذا ممكن .

وقد يكون جيرون شيطاناً .. لكنه شيطان آدمي .. مهندس معمار نابغة في ذلك الحين .. سميت المنطقة باسمه .

السقيفة قد زالت .. وفوارتها المحدثة بعد ذلك قد اندثرت .. ولم يبق الا الدرج

الحجري النازل الى المنطقة خلف الجامع الأموي .. والا مقهى يدعى قهوة النوفرة تظلله خميسة وتغطيه من جنباته .. ويجلس اليه رجال يقرقرون النراجيل والى جانبهم .. فوارة جيرون المشهورة .. التي تحولت الى بحيرة عادية . مرصوفة بالبورسلين البلدي الأزرق .. محاطة بقفص حديدي .

وأولاد منها يستقون..وبالماءيلعبون.

وبالرغم من كل هذا ..

فالمنظر ساحر يأخذ بالألباب .. وباب الجامع الأموي الشرقي الخشبي الكبير الذي تحرسه نافذتان مسدودتان بالحجر .. يطل بجبروت على فوارة جيرون .. وعلىماتبقى من باب جيرون بل من أبواب جيرون الثلاثة التي تشاهد الى اليوم الباب النصفي سالك وبابان جانبيان مردومان بالأتربة حتىثلاثة أرباعهما .

وبائع فلافل يقلي فلافله المشهورة مع اذان الظهر .. أوان خروج الأولاد من المدارس يقول بائع الفلافل : جيرون ملك . كان ملكاً .. وربما كان شيطاناً أيضاً تاريخ بأكمله يطل أمامنا في هذه الفسحة الرائعة. عمد وأحجار وأبواب ومياهوفوارات.. أسواق أسطورية .. وحارات للغرباء .. وفنادق في الخيال .. نساء مجهولات الزي رجال مجهولون .. بعير وأفراس وأضاح ..

بائع فلافل.. يقلي فلافله وقتالظهيرة ويواكب أبواب دمشق .

اقتراح : يا حبذا لو نأتي بواحد من فنانينا القديرين .. ينحت لنا فوارةجديدة .. يصنع تمثالا خرافياً لجيرون .. يجري ماء حقيقياً كما لو كان الماء يجري من فوارة جيرون قادماً من بستان الحجاجية(٣).

لو ينطلق الماء منها بثخن ذراع رجل عبل كما كان ينطلق .. لو يهبط الماء من حولها فكأنه شجرة وارفة ولكن من ماء ..

يا حبذا .. لو تصير درجات معبد جوبيتر الخارجية .. مسرحاً .. لو يبعث تاريخ هذا الباب الرائع .. المختفي تحت الأنقاض .

لو نجعل لمقهى النوفرةمذاقاً فولكلورياً خاصاً ...

لو موسيقى .. شيء من الماضي ..لو تعود أيام جيرون ..

لو تبنى القبة الرخامية التي بنيتعام ٣٦٩ هـ .

أترانا نحتفل بافتتاح مياه نافورة جديدة كما بنيت في الماضي .. عام ٤١٦ .

وجرت ليلة الجمعة لسبع ليال خلونمن ربيع الأول عام ٤١٧ .

ألا نعيد بناء ما سقط منها في صفة عام ٤٥٧ من جمال تحاكت به ..

ألا نعيد بناءها بعد حريق اللبادين ورواق دار الحجارة ودار خديجة عام ٥٦٢ لله درك يا جيرون المحروقة عام ٥٥٩ بعد رجوع أسد الدين شيركوه الى دمشق .

لله أنت يا جيرون المحترقة بخمورك وعطورك وفنادقك وملاهيك .

لو لم تكوني جميلة يا جيرون .. لما ذكرك (ابن جبير) في القرن السادس في وصف خاص بك .

أو ما عرفت الفتنة التي وقعت بين أنصار الأمويين وأنصار الضحاك بن قيس بيوم جيرون ؟ .

يا جيرون ..

يا جيرون المحترقة في فتنة تيمورلنك في القرن التاسع .. أكواماً من التراب ظللت .. ثم جاء (كمُش-بغا طولو) نائب قلعة دمشق فجعلك مخزناً للخشب .. وكانت تقع فيك منكرات .. ووجد فيك قتيل كذلك .

أهكذا شأن العظماء يا جيرون ؟.

كيف ؟ كيف كان لباب جيرون في القرن السابع شأن آخر .. فكان سبباً لمناقشات بين الفقهاء .. وألفت فيك الرسائل ..

ثم سد فرخك الشمالي يا جيرون .. وزعم أن فيه مزاراً كريماً .. ثم منع المرور منه .. لماذا ؟.

كيف حصل كل هذا ؟ حتى جاء الأشرف (قايتبي) سنة ٨٩٢ فأمر بهدم مخزن الخشب وأعيد فتح بابك؟ كيف عادوا فأذلوك يا جيرون.. وجعلوك مخزن حطب من جديد للفرن القريب ؟.

أما تزال عتبة بابك الجنوبي داخل دكان الى اليوم ؟ وفرخك المهدوم يبين يطلب الانقاذ ؟ .

ايه يا مدخل الأضاحي الرومانية .. من هناك كانت تساق .. تتجمع في الأقبية حتى تصل الى الباب الجنوبي للمعبد ... أقباء معقودة .. وعمد منصوبة يفرق بينها عضد محكمة .

يا مدخل المراسم في المعبد الروماني عند جيرون .. يا مدخلا ينزل اليه بدرجات تحت الأرض. أوما اكتشفك الحرافي الكاتب المجدد حين نزل ما تحت الساعات ليقوم ببعض العمائر فوجد تحت الأرض هذا الرواق الخرافي .

عمدك الخرافية يا جيرون معقودة بالعرض لا بالطول .. وفي العصور الغابرة كانت ساحتك تعج بالمنجمين .والمشعوذين.

ان باب جيرون .. هو ما يسمى اليوم بباب النوفرة .

☐ باب البريد :

ما هو باب البريد ؟

باب من أبواب دمشق الداخلية ... ووفق بعض الآراء فهو باب المدينة الكنعاني الغربي .. وكانت فيه دار أبي الدرداء .

وهو في غرب المدينة .. يتألف من ثلاث فتحات : الكبيرة في الوسط .. وفتحتان جانبيتان .. وهو ثغر دمشق .. حارسها. وحاميها الأمين .

مسكينة دمشق .. دمشق المشانق .. دمشق الهدم .

في قرب باب البريد .. في دار هناك. وفي عام ١٢٤٧ بعد قرون وقرون من انشاء الباب .. قتل سليم باشا والي دمشق .. بعد أن هدم عليه العامة المخدع الذي كان فيه .. هدموه على رأسه . فقتل هو ومن معه ...

شهد هذا الباب ملايين الناس .. شهد طفولة كنعان وآرام وآشور اشهد.. ويونان ورومان وآشوريين وأمويين وعباسيين ... شهد فاطميين وسلاجقة وقرامطة وأتابكة ومماليك وأيوبيين وعثمانيين وافرنسيين وانكليز .. وشهد طفولتنا ..

الباب ليس صامتاً هذا المساء .. انه يذكرنا بحادثة وقعت أثناء مذابح دمشق.

في عصر اليوم التاسع من تموز عام ١٨٦٠ م .. أمر الوالي العثماني باخراج الرعاع المسجونين من المسلمين .. ليطوفوا في الشوارع وهم مكبلون .. بالقيود ارهاباً للثوار من المسلمين والدروز .. وكان قد نصب المدافع على أبواب الجامع الأموي بحجة الحماية ..

ولما وصل الرجال المقيدون بموكبهم اليائس الى باب البريد .. ذقون طويلة ثياب مهلهلة .. نظرات حقد .. كان باب البريد ينتظر .. وهجم بضعة من الناس على الخفر فبطشوا بهم .. وخلصوا رفاقهم .. ونادوا بالجهاد ..

ساد الهرج .. وهجم بعض الأوباش المجهولي الهوية على المسيحيين في بيوتهم ومحلاتهم .. فقتلوا الرجال وسبوا العيال . وهتكوا الأعراض ..

والمؤسف أن أساس الفتنة كان حدثاً تافهاً ..

فلقد طلبت بعض العقول المثيرة للفتنة من بعض الصبيان أن يرسموا الصلبان على أرض الشوارع .. فأمر الوالي التركي بكنس الصلبان .. فقامت الفتنة .

وباب البريد .. واقف .. ثابت .. يرى أولاده .. أولاد دمشق يقتتلون في الفتنة لا يستطيع فعل شيء .. فلقد دخل الشيطان بينهم في ذلك اليوم الصيفي البعيد .

ان جيرون .. وسقف باب البريد وأعمدته قد هدمت .

☐ زلزال دمشق الكبير ؟

يمكن اعتبار باب الخواصين .. باباً ثالثاً للمدينة العمورية .. وهو في سوق الحرير . كذلك باب الفراديس الداخلي .

هـذه هي دمشق الصغيرة التي كان يحرسها نهر بانلياس .. أبانا . وكان النهر الثاني بردى Per - Per وتعني هـذه الكلمة (الفراشة) وكانت العرب تدعوه خرخر أو خرخار .. وغالباً هو بردى وليس نهر الأعوج البعيد عن دمشق . وكانت المدينة الوسطى .. الآرامية .

بنيت هذه المدينة .. دمشق الارامية عام ٨٤٣ ق.م. حيث شق نهر قنوات .

أما سور دمشق الارامي .. وهو السور الثاني .. الحلقة الوسطى من أسوار دمشق المتعاقبة فيعود الى مابعد ٢٥٠٠ـ١٥٠٠ ق.م

ورد ذكر السور الارامي في نقوش الآشوريين وفي التوراة .

وقد وردت عبارة عن بولس الرسول في الانجيل .

ولما تمت أيام كثيرة .. تشاور اليهود ليقتلوه .. فعلم شاوول بمكيدتهم وكانوا يراقبون الأبواب أيضاً نهاراً وليلا ليقتلوه . فأخذه التلاميذ ليلا وأنزلوه من السور مدلين اياه في سل .

جرت هذه الحادثة عام ٤١ م .

وان المدة التاريخية التي مرت بين بناء السور الارامي والروماني تعادل خمسمئة وألفاً الى ألفي عام .

ما هي الأبواب الارامية ؟

ندور مع السور : نبدأ من باب السلامة ـ باب توما ـ زقاق باب توما ـ التقاطع تلة الحجارة ـ الباب الصغير الارامي ـ الشارع المستقيم ـ بين السورين ـ باب الفراديس الآرامي .

أما الأبواب المتبقية من الأبواب الآرامية فهي :

١ ـ الفراديس (العمارة الداخلي) ١٢ م بين الباب المزدوج ·

٢ ـ باب المناخلية (الفرج الداخلي) ٨٫٧٥م بين طرفي الباب المزدوج ·

انها أبواب الشام القديمة ·· أبواب الفيحاء التي يقال عنها (اللماعة) واللماعة هي التي تدعو الركبان اليها ·· وهي الشام والشامين والشامات ·· معناها الطيب أطلق اسمها على دمشق من اطلاق العام على الخاص ·

□ أبواب دمشق في السور الروماني :

كان لدمشق قبل أن يسكنها العرب ·· سبعة أبواب ·· على السور الروماني : في جانبها الشمالي ثلاثة أبواب ·· لأنه أكثر الجوانب تحصيناً ·· وحوله النهران والفراديس · أما الأبواب فهي :

١ ـ الباب الشرقي (شرق) ·

٢ ـ الباب الكبير (باب الجابية) غرباً ·

٣ ـ باب توما ·

٤ ـ باب الجينيق ·

٥ ـ باب الفراديس (في الشمال) ·

٦ ـ الباب الصغير ·

٧ ـ باب كيسان (في الجنوب) ·

ظلت هذه الأبواب على عهدها ·· حتى انتهاء الدولة الأموية ·· اذ قدم العباسيون وهدموا سور دمشق ·· بعد ذلك ·· جرت الترميمات والتغييرات فأعيد فتح أبواب وسد غيرها ·· وفتحت أبواب جديدة ·· وجددت أبواب قديمة ·

في دمشق الغامضة ·· وفي سورها الأشد غموضاً ·· كانت هناك أبواب صغيرة أخرى تفتح عند الحاجة اليها ·· لكن هذه الأبواب اختفت ·· ولربما تحول أكثرها الى أقواس داخل البيوت الشامية الممتدة المتوسعة في محيط دمشق ·

الغوطة ·· الفراديس ·· النيرب ·· الجابية ···

يا دمشق الغامضة ·· يا ذات الأسواق البهيجة والباشورات والبضائع والدفوف ·

يأتيك الناس من كل صوب ·· يبيعون تحت أسوارك ·· وداخل باشورات أبوابك يكسبون ·· يكتسبون ·· ويكتسب أهل دمشق على مر العصور السبق التجاري الأول ·

حين خلدك المماليك يا دمشق ·· خلدوا أنفسهم فيك ·· وحين نقشوا أسماءهم على أبوابك ·· ظلت أبوابك ·· وبقي منهم أسماؤهم ·

★ ★ ★

كنت يا دمشق ·· مدينة مقدسة ··· نظيفة ·· كل باب من أبوابك كان يحمل على كتفه جامعاً ومئذنة ··

بعض المآذن كانت أبراج كنائس ·· وكان عند أبوابك الكبرى حمامات للغرباء· فأنت تحبين النظافة يا ابنة الأنهار السبعة · والأبواب المجهولة المختفية بين الحارات والأسوار ··

يدخلك الغريب .. يغتسل .. يفرد بضاعته .. يشتري أهل دمشق .. يحبون كل جديد .. كل عطر .. يبتسمون ...

لقد بقيت أسواق كثيرة حتى يومنا هذا، منها .. سويقة باب الجابية التي بناها نور الدين عام ٥٦٠ هـ . ومنها سويقة باب الصغير التي تدعى الباشورة الى الان .

أما هذه الأبواب.. فقد جددت بهندسة عربية اسلامية .. عدا الباب الشرقي الروماني الذي لم يتهدم ..

أقواس مخمسة .. نعل حصان.. باب قديم من حجر يقول .. دمشق ترحب بكم.

☐ الباب الشرقي :

ـ سمي بالباب الشرقي لأنه شرق البلد .. وهو أكبر الأبواب .. ارتفاعه الى أول القوس ٢٩٢ سم وعرضه ٢٨٨ سم .

ـ كان له شأن كبير أيام الرومان .. وكان يتألف من ثلاثة أبواب ، سُد الكبير وفرخه الجنوبي .. وبقي الباب الشمالي.

ـ بني أيام Septeme-Sever , Karakalla مئتا سنة قبل المسيح وقليل من المئة الثالثة.

ـ باب ثابت هو .. وصل الى القرن العشرين كما بناه الرومان .

ـ لقد دخل منه خالد بن الوليد عند فتح دمشق عنوة وحيلة .

ودخل منه عبدالله بن علي العباسي عند سقوط الدولة الأموية .

ـ ما هي حكاية ابن الوليد ؟ ما حكاية (جلّق) الفيحاء الحليقة الرأس عند قاسيون ؟.

ما حكاية هذه الأرض المباركة ... أرض اذا قسم الخير فلها منه تسعة أعشار . وجزء لسائر الأرض ؟.

ـ فلنر الى خالد بن الوليد :

ظلت دمشق حلماً في رأس عمر بن الخطاب .. فتابع تغذية الحملة الاسلامية التي أرسلها (أبو بكر) بقيادة عمرو بن العاص لفتح بلاد الشام . أما الصديق رضي الله عنه .. فقد توفي قبل انتصار العرب في اليرموك بعشرة أيام واستخلف الخطاب من بعده .

كانت الجيوش الاسلامية بقيادة أبي عبيدة بن الجراح .. ويزيد بن معاوية وشرحبيل بن حسنة .. وعمرو بن العاص. وخالد بن الوليد .

وصل خالد الى ثنية (العقاب) في الغوطة .. تتقدم جيوشه وجحافله المنتصرة راية رسول الله ﷺ السوداء .. التي تسمى (العقاب) .

كانت دمشق الرومان .. مغلقة الأبواب .. مسلحة الأسوار في ذلك العام البعيد عام ١٣ ـ ١٤ هـ . وكان الشهر شهر رجب .

ـ سار خالد الى دمشق .. حاصر .. طالت أيام الحصار .. وتوالت الرسل بين أبي عبيدة والروم .. والروم لا يقبلون بالتسليم.. وقيل حوصرت دمشق حولاً كاملاً وأياماً .. نزل خالد على الباب الشرقي ويزيد بن معاوية على الباب الصغير والجراح على باب الجابية .

وطال انتظار حكام دمشق .. ولم يأت مدد هرقل .. والمسلمون يزدادون قسوة واصراراً ولا يفارقون الأبواب والأسوار .

وكان أبو عبيدة أحب الى سكان دمشق والروم من خالد .. لحكمته ولينه وقدرته على المفاوضة .. لكن المفاوضة دامت .. والمسايسة ازدادت .. وأبواب دمشق بعيدة المنال ..

- أما يزيد فشد والجراح يفاوض ويسايس منعاً لسفك الدماء . وخالد ازداد شدة وبقي أكبر الأبواب صامداً في وجه خالد بن الوليد . والكل متفقون .

- الذي حدث في ليلة فتح دمشق ؟

أن ولد للبطريق(٤) مولود ... فصُنع له(٥) ..

أكل القوم وشربوا .. وغفلوا عن مواقعهم .

وخالد يعلم بكل مايدور داخل الأسوار .. خالد لا ينام .. خالد لا ينيم .. لايهمه برد أو مطر .. أو حر .

ولا يخفى عليه .. من أمرهم .. شيء .

أعد خالد الحبال وشد السلالم ... وانتظر اللحظة الحاسمة .

كان القوم يلهون ويشربون .. حين تقدم ابن الوليد .. والقعقاع بن عمرو . ومذعور بن عدي ...

وكان القائد هو الذي يتقدم .. كان خالد في أول الصف .. في رشقة الرمح بعيداً عن الخوف .

قال : اذا سمعتم تكبيرنا أيها الجند فارقوا البناء .. وانهدوا على الباب .

تسلقوا الباب الأصغر .. ثم ارتقوا الباب الكبير .. ورموا بالحبال .. وعلى ظهورهم القرب التي عبروا بها خندقهم .. ولا يسمعهم الا الليل .

حفيف أذرعة بشرية تتحرك في العتمة . صوت نقيق ضفادع .. أفراح داخل دمشق الرومانية .

ثبتت الحبال جيداً .. وصعد القعقاع ومذعور .. ثم لم يدعا أحبولة الا وثبتاها والمكان أحصن مكان في دمشق .

وهل يخترق خالد بن الوليد .. الا أصعب الحصون .. وأعلى الأسوار ؟.

- تسلقوا جميعاً ثم انحدروا .. بعضهم يحمي بعضاً .. جند على السور .. وجند في الخنادق .. وجند أصبحوا داخل دمشق .

قال ابن الوليد : الله أكبر ..

هللوا .. كبروا : الله أكبر ..

كبر الذين على رأس السور .. فنهد الدمشقيون اليهم .

ونزل خالد .. فقتل البوابين .. وثار أهل المدينة .. وفزع الناس .

وحطم ابن الوليد .. بنفسه .. ومن معه .. أغلاق الباب الشرقي الروماني الكبير .. وفتحوا الباب للفتح العربي الاسلامي .

- قيل ان الأبواب الأخرى قد فتحت بعد ذلك صلحاً أو خوفاً .

- ربما .. لكن المهم أن الجيوش الاسلامية التقت عند (المقسلاط) باحة القصر هي .. انها اليوم مكان مجهول في منتصف سوق مدحت باشا .. الشارع

المستقيم ·· الشارع الارامي ·· شارع السور الكنعاني ·· الذي اقترح بأن يسمى شارع الفتح ·· فمدحت باشا (٦) لا علاقة له الا بفتح طريق بين الدكاكين التي جثت على خاصرتيه ·

– أبو عبيدة في دمشق عام ١٤ هـ ·· وكان لدمشق الأمان ·· الأمان ··

– ثم وصلت الكارثة مع طاعون دمشق!

– في عام ١٨ هـ اشتعلت دمشق به ·· ومات الكثيرون ·· وصل عمر بن الخطاب الى (الجابية) ولم يدخل دمشق ·· فالعرف في الأوبئة العظيمة أن يبقى أهل المدينة الموبوءة داخل مدينتهم ·· فلا يخرجون ·· وأن يبقى من هم خارج المدينة ·· فلا يدخلون ·

★ ★ ★

يا دمشق المسك ·· كان مكحول ··· اذا أطفئت قناديل الجامع الأموي يعترى من رائحة المسك ·· (المسكية)(٧)

يا دمشق القناديل ··

يا دمشق الأساطير ··

في أيام الوليد بن عبدالملك ·· وحين أمر ببناء المسجد الجامع في موقع الكنيسة · احتفر البناؤون موضعاً ·· فوجدوا باباً من حجارة مغلقاً ·· فلم يفتحوه حتى جاء الوليد فأمر بفتحه ففتح الباب بين يديه ·· فاذا مغارة فيها تمثال انسان من حجر على فرس من حجارة · في يد التمثال الواحدة : الدرة التي كانت في المحراب تشع كالسراج · ويده الأخرى مقبوضة ·· فأمر بها فكسرت فاذا حبة قمح وحبة شعير ·· قيل ان حكماء اليونان جعلوا هذه الحبات طلسماً حتى لا يسوس في دمشق القمح ولا الشعير ·

أترى ؟ لو ظلت الساعة المائية المقامة عند باب الساعات (الصاغة) والتي كان يعرف بها الوقت في كل ساعة من النهار والليل بهندسة مائية عجيبة ·· وعلى الساعة حية وغراب وعصافير ·· كلما تمت ساعة من الوقت خرجت الحية ·· وزقزقت العصافير وسقطت حصاة من فم الغراب في الطست ··

ترى ؟ لو بقيت هذه الساعة ·· أكنا عنينا بساعات الأزهار والنواقيس والعصافير

أما (المسكية) فقد أطلق عليها اسمها لرائحة المسك التي كانت تعبق حين تضاء قناديل وشموع الجامع الأموي ··

وهل من المعقول أن الطلاسم التي كانت تصد الحشرات ·· كانت فعلا تردها عن الجامع ؟

فلما احترق ·· احترقت الطلاسم ·· وعادت الحشرات ··

أحقاً يا دمشق السحر ؟··

وهل يمكننا التخيل ·· والمأمون قد وصل من بغداد الى دمشق رقيقاً ·· فسمن فيها ··

وهل يمكننا تخيل القبة التي بناها المأمون في (دير مرّان) وهو مكان يشرف على الربوة · فاذا الضوء يبلغ ثنية العقاب (الثنايا) وجبل الثلج (الشيخ) ·

☐ **هلا اتجهنا الآن حول السور الى الباب الصغير ··**

وهو أصغر أبواب دمشق ·· ارتفاعه ٣ر٧٣ ·· وعرضه ٢ر٠٥ ·· وهو الذي

نزل عليه يزيد بن أبي سفيان في حصار دمشق .

وفي مقبرته دفن بلال مؤذن الرسول ﷺ الذي سكن في داريا .. وعاش وتزوج فيها .. ومات فيها ..

فوق الباب قوس عربية .. وفوق القوس قوس عليها كتابات .. وكان هذا الباب مركزاً لتجمع الميليشيات الشعبية .. ومنطقة تجمع أحداث دمشق .

ومنه دخل تيمورلنك الى دمشق عام ٨٠٣ هـ .

وصل تيمورلنك .

بجيوشه الصفراء وألويته الجرارة وضفائره اللائحة السواد.. وعيونه المائلة الغامقة شرس هو تيمورلنك .. قاس كالهملايا .. وجبار كآسيا .. وظالم كبحر الظلمات ..

تيمورلنك كان يريد كل شيء ..

لما وصل الى دمشق .. نزل عند سفح جبل الثلج .. (جبل الشيخ) في قطنا ..

أرسل الى نائب دمشق رسولا للمفاوضة الصلحية .. فقتل النائب هذا الرسول قبل أن يسمع كلامه .

حدث ذلك في دمشق كما حدث في حلب تماماً ..

لم يقدر نائبا المدينتين قوة هذا القادم الأصفر .. فاعتصم أهل الشام وجيش الشام في المدينة .. وأغلقت أبوابها تجاه العسكر الأصفر المؤلف من : رجال آسيا رجال توران . وأبطال ايران . ونمور تركستان . وفهود الخشان . وصقور الدشت والخطا ونسور المغول . وكواسر الجتا . وأفاعي خجند . وثعابين ايدكان . وهوام خوارزم . وجوارح جرجان . وعقبان صفانيان . وضواري حصار شادمان . وفوارس فارس . وأسود خراسان .. الخ .

غلطة ارتكبها نائب دمشق المغرور بالسلطان .. قضت على أعظم مدينة في الأرض ...

في أول وقعة قتل من عسكر تيمورلنك ألفان .. فارسل تيمورلنك يطلب من أعيان دمشق رجلا من عقلائهم .. للصلح . فلما وصلت الرسالة اشتور أهل دمشق واختاروا (القاضي تقي الدين بن مصلح الحنبلي) فلقد كان انسانا طلق اللسان يعرف بالتركية وبالأعجمية .

أرخوه من أعلى السور بسرياق ضخم ومعه خمسة أنفس .. فلما رجعوا بعدساعة أخبروا الجماعة بتلطف تيمورلنك . وبعزوفه عن القتال (قتال دمشق) لأنهابلد الأنبياء وشرح الحنبلي محاسن تيمورلنك . فانقسم أهل البلد الى قسمين ، قسم راغب بالقتال وقسم راغب عنه .. وكان أكثرأهل البلد يرون مخالفة الحنبلي .. لكن رأيه غلب في النهاية فأراد أن يفتح باب النصر فمنعه من ذلك نائب قلعة دمشق وقال :

تحرق البلدة اذا فتحنا الباب ..

زاد تيمورلنك من خبثه ودهائه .. وطلب (الطقزات) وهي عبارة عن تسعة أصناف يطلبها اذا أراد الدخول صلحاً الى مدينة ما .. من مأكول ومشروب وملبس .

أقنع ابن مفلح الناس فأرسلوا اليه ما طلب .

بعد ذلك طلب مالا ·· فدفعه أهل دمشق الأغنياء ·

لم يكتف ·· طلب أكثر ·· فدفع أهل دمشق ·· عاد فطلب أكثر ··

وابن مفلح يروح ويجيء ··

طلب منهم الأسلحة فرموها ··

حتى أدرك أن أهل دمشق قد فرغوا من كل شيء ·· هدهم الخوف ·

عندئذ ·· طلب تيمورلنك من ابن مفلح أن يرسم له أحياء دمشق وحاراتها ·· فاضطر ابن مفلح الى رسمها ·· عندئذ قسم تيمورلنك المدينة ·

ونزل أمراء التتار عليها مطالبين بالأموال والمتاع ·· وحل البلاء العظيم ·· ودخل الغازي من الباب الصغير ·· نهبت البيوت ·· وهتكت الأعراض ·· وسيق الذكور ما فوق الخمس سنوات مربوطين بالحبال ··

وأشعلت النار في المدينة الخالدة ··

انها من المرات المؤسفة التي رحبت فيها دمشق بقادم ما ·· فكان ترحابها خاطئاً ··

قال بهاء الدين البهائي يرثي دمشق (المظلومة) :

لهفي على تلك البروج وحسنها
حفت بهن طوارق الحدثان

لهفي على وادي دمشق ولطفه
وتبدل الغزلان بالثيران

وكان يوماً ريحاً عاصفاً ·· ضبضباً ·

طرح الرجال في النار ·· واحترقت دمشق حتى سقطت سقوف جامع بني أمية ··

ثلاثة أيام ·· ودمشق تحترق ··· وتيمورلنك يتفرج ··

رحل تيمورلنك ·· وعمرت دمشق ·· من جديد ··

* * *

ولقد اصطدم الفاطميون ·· في أثناء فتح دمشق التي دخلوها من منطقة الميدان بجماعات الأحداث فيها ·· الذين شكلوا ما يشبه المليشيات الشعبية ·· وكان يرأس هذه المليشيات شخص ·· اسمه محمد بن عصودا ·· الذي اتفق مع القرامطة فيما بعد فهزموا الفاطميين وقتلوا جعفر بن فلاح والي دمشق · وجعفر بن فلاح هو والي دمشق آنذاك ·· وقد قتل عام ٣٦٠ هـ · حين وصل القرامطة الى دمشق ·· ونصبوا على أسوارها السلالم ·· تعلقوا ·· فتحوا الأبواب غصباً ·· وأوقعوا بأهلها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ··

لما وصل القرامطة الى دمشق ··· تجمعوا في الرحبة فجمع جعفر خواصه واستشارهم ·· فاجمعوا أن يكون لقاء القرامطة في أطراف البرية قبل أن يتمكنوا من العمارة ··

ووقعت الواقعة ·· ووجد جعفر قتيلا بين الغبار سيما وأنه كان مريضاً ·

ويقال ان الشخص الذي قتل جعفر يدعى أبو محمد محمد الحسن بن أحمد القرمطي (الأعصم) ·

أما محمد بن عصودا ·· فقد وصل الى جثة جعفر ·· واجتث الرأس ثم صلبه على حائط داره ·

فلقد أراد أن يأخذ بثأر أخيه اسحق بن عصودا ..

* * *

ولقد ارتبطت معظم الأحداث الشعبية والمليشيات بالباب الصغير .. وحتى ما قبل ثلاثين عاماً ظلت الأحياء القديمة كالشاغور والميدان لها رجالها وزعماؤها وشجعانهــا وحماتها ..

بل أكثر من ذلك .. وبعد المظاهرات في حي الميدان والشاغور والصالحية في العصر المملوكي كانت تقام استعراضات عسكريـة للحرافيش .

* * *

بل أكثر مـن ذلك .. فان المقاومـة الحقيقية للافرنسيين والانكليز .. انطلقت من تلك الحارات الضيقة المتعرجة الغامضة .. من دمشق الحقيقية .. من أبواب دمشق الحقيقية .. من دمشق العريقة في المسك والقناديل والليمون والفل ..

يا دمشق الفل .. أما زلت ترحبين ؟؟

أما زلت تذكرين ؟.

كيف هرب مساجينك أيام العثمانيين في الفتنة التي ذكرتها .. هربوا مـــن الباب الصغير !.. من هرّبهم ؟..

حماهم زعماء الأحياء .. ومن زقاق الى زقاق .. من بيت الى بيت .. وصلــوا الى الباب الصغير ثم هربوا الى الغوطة .. ومنها الى العالم الواسع ...

* * *

يروي الباب الصغير حادثة غريبة وقعت خلال الحملة الصليبية الثانية على دمشق ..

قال الباب :

كنت مغلقاً .. مصفحاً بالحديد ... شأن كل أبواب دمشق التي تختلف عن أبواب القاهرة المغلفــة بالجلد .. ترامى الي أن الصليبيين أصبحوا على عتبات الأبواب ... وأن الفقيه المالكي عبد الرحمن الحلحولي قد استشهد في ربوة بردى ..

مالت الشمس الى الغروب .. أقبــل الليل .. أقبل الصمت ..

طلب المتعب راحته .

عـاد كل الى مكانه ورقـد .. نامت الجند والناس .

أهل دمشق ورجالها كانوا على الأسوار كلها .. وكانوا قريبين مني ..

العدو كان قريباً جداً .. في منطقة القنوات .

وصلت المعونات .. رأيتها أنا البـاب الصغير الخالد .. ورشق العـدو بالنشاب والأحجار والسهام النارية .. ولم يظهر أحد من عساكر دمشق .. كانت الأمور تجري في السر .. رجل يصطاد رجلا .. حتى ظـن بالمكيدة .

وقد سمعت وصفاً لما جرى آخر أيام حصار الصليبيين ..

قال : أخرج الناس الصدقات على قدر أحوالهم .. جلسوا في الجوامع نساء ورجالا وصبيانـاً نشروا مصحف عثمان .. بكـوا وتضرعوا ..

وفي الصباح ..

اذا قائد كبير من الصليبيين .. طويـل اللحيـة .. يركب حماراً .. وقـد علـق

التعاويذ على رقبته وعلى عنق الحمار ‥ وقدجمع الخيالة ‥ والكتب‥ والرجالة٠

تقدم نحو السور ‥ والصليبيون من خلفه ‥ وقد شربوا وصلوا للصلاة ‥٠ للموت ‥ وركبوا جميعاً الا من يحفظ الخيام ٠

وكان يقول : وعدني الله انني أفتح اليوم ‥

وفتح أهل دمشق الأبواب ‥وخرجوا من الباب الصغير ‥ واستسلموا للموت ‥ وأغاروا وحملوا حملة رجل واحد ٠

واذ بشاب شجاع من أحداث دمشق ‥ يذهب مباشرة الى الرجل الطويل اللحية ‥ الذي يتقدم الصليبيين‥ يخترق هذا الشاب الصفوف‥ ويضربه في مقتل ويرميه أرضاً٠ ثم يقتل حماره ثم يأتي شاب آخر فيطيح برأس الزعيم الصليبي ‥

وحمل الرجال ‥ وانهزم الفرنج ‥ وتبعهم أهل دمشق الى الخيام ‥ حتى حال بينهم الليل ‥ فلما أصبحوا ‥ وجدوا الصليبيين قد أدبروا ‥

ترى ؟٠ من هو هذا الشاب ؟٠

من هو طربون الحبق الدمشقي ؟٠

من هو هذا الفدائي المجهول ؟٠ لأية أسرة كان ينتمي ؟٠ أي أب أنجبه ؟٠ وأية أم أرضعته ؟٠ لا شك أن له أحفاداً الى الآن لايعرفون عنه شيئاً ولا يدركون شجاعته التي كانت عام ٥٤٣ هـ ‥ هذا الشاب كان من آل الدبوسي ٠

ولقد دافع أمير دمشق الاتابكي العظيم (معين الدين أونر) دفاعاً بطولياً خارقاً ‥ هذا الأمير الذي لم يبق من ذكراه سوى حجر بناء تربته الذي نقل الى المتحف الوطني بعد هدم التربة (أثناء شق شارع الثورة) ‥

★ ★ ★

يا أبواب دمشق ‥ يا من شاهدت رؤوس القتلى وشعورهم محملة على الجمال كل جمل يحمل فارسين ‥ ٠ وراية منشورة٠ ورؤوساً مدماة لقتلى ‥ وأهل الشام يفتحون الأبواب يصرخون ‥ يحتفلون بنصرهم ‥ ونصر معين الدين ‥

والأسرى مربوطون كل أربعة في حبال معقودة ‥ مرتزقة وتركبولية وسرجندية ٠

انها لوحة من لوحات الهزيمة الصليبية ‥ كان الرومان قد استخدموها حين جروا زنوبيا في روما مكبلة بسلاسل من ذهب ‥

فمنطق الحرب لا يرحم ‥ غالب ومغلوب ٠

ولا غالب الا الله ‥

★ ★ ★

□ باب توما :

ينسب هذا الباب الى عظيم من عظماء الروم اسمه توما ‥ وتسميه العرب باب توماء ‥ ولقد كانت على بابه كنيسة جعلت مسجداً ٠

نزل عليه ‥ يوم فتح دمشق ‥عمرو ابن العاص ‥ ودخل منه نور الدين عندما فتح دمشق أعاد بناءه الملك ناصر داود ‥ ثم رممه تنكز ٠

في منطقة باب توما دار خالد بن الوليد ومسجده ‥ وفي هذا المسجد كان خالد يصلي قبل الفتح ٠

الباب جميل جداً ٠٠ له قاعدة من الأحجار الرومانية الضخمة ٠٠ وقوسه مخمسة ٠٠ وكان أمامه جسر روماني ٠٠ اختفى مع الأيام ٠٠٠

وظل المسجد والمئذنة الى جانبه ٠٠ الى عام ١٩٤٠ تقريباً ٠٠ حتى رفع المسجد لترميم الطريق ٠٠ وتعريضه ٠

وجاء المهندس ايكوشار فهدم المئذنة بعد ذلك ٠

☐ باب السلامة :

طوله ٤ر١٤ وعرضه ٢٩٨ سم ٠

يسمى باب السلام وهو في شمالي المدينة ٠٠ اسم جميل يرمز الى السلام ٠٠ ومنه كانت الصعوبة الفائقة لأي عدو كان في عملية اختراق المدينة ٠٠ فالأشجار الكثيفة ٠٠ والأنهار تشكل غابات دفاعية أقسى وأشد صعوبة من الأسوار ٠٠

باب السلام باب جميل ٠٠ يصل اليه القاصد الى السلامة في طريق عذب يفصله عن النهر خط واحد من الأبنية ٠٠ فاذا سكينة مطلقة ٠٠ وأصوات الأقدام تسمع على اسمنت الحواري النظيفة ٠٠

وهناك في باب السلام ٠٠ (شأن آخر) ٠٠ فكان دمشق الحديثة ليست دمشق ٠٠٠ كأن شيئاً ما يهيمن على الحي ٠٠ شيء من الأمن ٠٠ شيء من الاطمئنان ٠

أبواب مغلقة لو يفتح أي باب منها ٠٠ لو يطل أي انسان ٠٠ لو تطل امرأة وتقول أهلا وسهلا ٠٠ لو تعرف باحات البيوت ٠٠ لو تقطف أزهار الشام القديمة ٠٠ لو عطر النهر يسري ٠٠ لو شجرة تين زاهدة هناك ٠ تنادي ٠٠ لو عطر نهر يسري ٠

انه لغز باب السلام المهيمن قرب باب السلام ٠٠

فاسم هذا الباب لم يأت عبثاً ٠٠ أبداً ٠٠ لم يأت عبثاً ٠٠

يعد هذا الباب أجمل أبواب دمشق ٠٠ قوسه عربية بديعة ٠٠ وقد بناه نور الدين ٠٠ ثم تهدم فجدده الملك الصالح أيوب ٠٠٠ ورمم بعد ذلك حديثاً ٠٠

☐ باب الجابية :

قال أبو هريرة : خلق الله آدم من طين الجابية ٠٠ وعجنه بماء الجنة ٠٠

وحين خرج كعب الأحبار من باب الجابية ٠٠ ووصل الى الكسوة قال : أما وقوفي على الثنية فلأن البنيان يتصل من باب الجابية حتى يصل اليها ٠

نصل الى منطقة باب الجابية ٠٠٠ تستقبلنا عن بعد ٠٠ المئذنة الفيروزية (جامع سنان باشا) ٠٠ تنحرف الى سوق مدحت باشا ٠٠ أول زقاق عن يميننا ٠٠ ثم أول زقاق عن يسارنا فاذا ٠٠ يبرز ٠٠ فجأة ٠ باب غريب الأطوار ٠٠ مطمور في غرابة الهواء الذي تملؤه نتف الصوف ٠٠ وأكياس الصوف هنا وهناك ٠٠ باب مغروس بين الدكاكين ٠٠ يمشي تحته أشخاص لايحفلون به ٠٠ يافطات انتخابية ملصقة على أحجاره الأبدة ٠٠ أوراق النعي لوجهاء الحي تنعي الأشخاص ٠٠ وتتعشق الحجارة الموغلة في القدم ٠

يبكي باب الجابية ٠٠

محاولة لرفع عجلة مرمية هناك !! محاولة لزحزحة الباب الخشبي المصفح

بالحديد ! الباب لا يتحرك.. الحديد لايتحرك.. الزمان وحده ٠٠ هو الذي مشى ٠٠ وترك باب الجابية ٠ في هذه الزاوية ٠

كان هذا الباب هو الباب المقابل للباب الشرقي ٠٠ قبل أن ينحرف السوق الى وضعه الحالي ٠٠ وكان لـه شـأن كبير كالباب الشرقي تماماً ٠

باب ثلاثي ٠٠ الأوسط كبير ٠٠وحوله بابان فرخان٠٠من كل باب منهما كان ينبثق سوق يمتد الى داخل المدينة ٠٠ وأغرب الغرائب أن الباب الأوسط كان للناس ٠٠ والبابان الجانبيان واحدهما كان لمن يشرق بدابته ٠٠ والثاني لمن يغرب بدابته ٠

أي ٠٠ وبدقة تامة ٠٠ كان نظام السير الموحد ٠٠ يطبق منذ ألف من السنين ٠٠٠ طريق للعجلات الداخلة ٠٠ وطريق للعجلات الخارجية ٠٠ وطريق للبشر ٠

سد باب الجابية الكبير ٠٠ وفرخه الصغير الشمالي ٠٠ بقي الجنوبي الصغير٠ فأين ضاع الباب الكبير ٠٠ والفرخ الشمالي أين ! ٠

أمن هذا الباب دخل أبو عبيدة دمشق؟ عام ١٤ هـ ٠

ومن هذا الباب ٠٠ كان الانطلاق الى الجابية (أشهر مناطق تجمع القبائل العربية في جنوبي الشام ٠٠ والجابية اليوم قرب (نوى) في حوران ٠٠

ماذا يريد هذا الباب العتيق أن يتكلم٠ أيريد أن يروي لنا قصة قتل الأمير شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بن ظهير الدين أتابك ٠؟

كان ذلك العام ٠٠ عام زلازل هائلة ٠ رجتلها بلاد الشام٠٠ من أقصاها الى أدناها ولما دخل شعبان وكان موافقاً شهر نيسان ٠ جاء رعد هائل مختلف من عدة جهات ٠٠٠ وانتشر البرق ٠٠ ونزلت حبات من البرد ٠ كان وزن الحبة الواحدة منها في الغوطة والمرج ثمانية دراهم ٠٠ وقالوا سبعة عشر درهماً٠

ومات الطير٠٠ وأتلف الزرع والشجر٠

وتهيأ الجو المأساوي اذ هلّت ليلة الجمعة ٠٠ الثالث والعشرين من شوال ٠

وفي أثناء نوم شهاب الدين في فراشه ليلة الجمعة المذكورة ٠٠ ولما انتصف الليل انقض غلمان شهاب الدين ٠٠ وقتلوه ٠٠

كان الأول يدعى : البغش ٠٠ حارس شهاب الدين الأمين ٠

والثاني يوسف الخادم ٠٠ الذي وثق به الأمير في نومه لديه ٠

والخركاوي ٠٠ الفرّاش الراقد حواليه ٠ ٠

قتلوا الأمير ثم انسلوا في الليل البهيم وما درى أحد ٠٠

كشف الأمر في أولى ساعات الصباح ٠ فهرب البغش ٠٠ وأمسك بيوسف ٠٠ والخركاوي ٠٠

أخذا الى باب الجابية ٠٠ وهناك صلبا ٠٠ كل منهما في طرف من طرفي الباب ٠٠ ليكونا عبرة لمن يعتبر ٠ وطعاماً للغربان والنسور ٠

وظلت الجثتان حتى أمر برفعهما ٠٠

والباب ساكت٠٠ ودماء المماليك تسيل

استلم الحكم بعد شهاب الدين ٠٠٠ أخوه الأمير جمال الدين أتابك ٠٠ فاذا مرض يلم به في جمادى الأولى ٠٠ وصار يثقل تارة ويخف أخرى ٠٠ حتى اشتد به المرض ٠٠ ووقع اليأس منه الى أن قضى نحبه في ليلة الجمعة ٠٠

الغريب ليس هو المرض٠٠ ولا الموت٠

الغريب أن الأخ مات في نفس اليوم ٠ والليلة نفسها ٠٠ التي قتل فيها أخوه قبل عام وفي الساعة نفسها ٠٠

سار الموكب الجنائزي ٠٠ اخترق الحي المعروف اليوم بالعمارة ٠٠ وحي جيرون ٠ اخترق السور القديم ٠٠ ثم قطعت الجنازة باب الفراديس ليدفن جمال الدين في مقبرة الفراديس ٠ (وقد زالت مقبرة الفراديس منذ القديم) ٠

فاين يقع باب الفراديس ؟

انه في القسم الشمالي من المدينة ٠٠ الباب الذي كان يفتح منطقة العمارة على ما كان من فراديس الشام ٠٠ يسمى اليوم بباب العمارة ٠٠ وهو باب مزدوج ٠٠٠ الخارجي منه بني بحجارة رومانية ضخمة ٠ وعلى عتبته كتابة طمست ٠٠ وهو من أسوأ أبواب المدينة حالا ٠

هناك نظريات تقول أن هناك عدة أبواب فراديس مؤدية الى بعضها بحسب توسع المدينة ٠٠ باب الحديد ــ باب عند ستي رقية باب الفراديس المزدوج ٠

☐ **في باب الحديد :**

ظفر المغاربة بالقصارين فأخذوا ثيابهم قاتلهم أهل دمشق ٠٠ وقالوا النفير ٠

أما المغاربة فقد وصلت من ناحية (لؤلؤة الكبرى) (الحلبوني) الى باب الجابية وحتى باب الحديد ٠٠

ظلت المناوشات دائرة بين أهل البلد والمغاربة وباب الحديد مفتوح على علم الأمير ظالم في دار الامارة ٠٠ فأمر باغلاق الباب ٠٠ ورتب قوماً على جسر (باناس) للحراسة ٠٠ فلما اشتد انهزام الناس ٠٠ والمغاربة ٠٠ ضرب الأمير بيده على فخذه٠٠ ثم استدعى رمحه وعبر جسر بانياس وحمل على المغاربة ٠٠ لكنه انهزم ٠٠٠

ــ جاءت المغاربة حتى الفراديس ٠٠٠

كان هناك أجمل البناء ٠٠ وأحلى الدور ٠٠ وأروع القصور ٠٠ وخرجت شرارة الحريق الأولى واحترقت دمشق حتى مسجد القاضي ٠

والنار تشتعل ٠٠ والمغاربة يهزجون بأغنياتهم الوحشية ٠٠ ويصرخون صرخات الحرب٠٠ ويدخلون دمشق من باب الحديد٠

احترق تلك الليلة درب الفحامين ٠٠ ــ درب القصارين ــ ثم غربت النار مع الريح الى مسجد معاوية ٠٠ أحرقت درب السماق ــ حمام العجمي ــ زقاق المشاطين ــ والقنوات واحترقت اللؤلؤتان الكبرى والصغرى ٠

باب الحديد مفتوح ٠٠ العمارة تلتهب ٠٠ المغاربة يعيثون ٠٠ دمشق تحترق بأكملها ٠٠ حتى حجر الذهب (العصرونية) احترق ٠٠ احترق الغرب والشرق والشمال والفراديس والجنوب وقصر حجاج (الحجاجية) ٠٠ يا للأهوال الكبرى ٠٠ للحرائق الكبرى ٠٠ يا للعجب ٠

انها نفسها ٠٠ التي جعلت دمشق تقاوم وتعمر من جديد ٠

ايه يا باب الفراديس .. فله تاريخه ومنه عبر كعب الأحبار ومكحول دخولا من قاسيون الى دمشق ، العاصمة ذات الجسور الاثني عشر .. فمنذ آلاف السنين ودمشق ترتكز على جسورها .. تعبرها الناس .. ينظرون في مياه

بردى : فرفار ... وأبانا .... بانياس . ثم بقية الأنهر يزيد وثورا .. والقنوات وغيرها .. ويلثمون خد دمشق .

□ باب الفرج :

هو باب أحدثه نور الدين .. لم يكن هذا الباب موجوداً من قبل .. أسماء باب الفرج تفاؤلا لما وُجد من الفرج لأهل البلد بفتحه ..

اذا لاحظنا أسماء الأبواب الشمالية . فاننا نسمع فيها نغماً : السلامة ـ الفراديس الفرج ـ أسماء معطرة آمنة خضراء .. عنى بها العرب الكثير .. وأرادوا الكثير ..

وهذه الأسماء ولا شك .. تعبر عن نفسية العربي المستمتع بالطبيعة .. الغارق في تأملات النفس الكبرى ..

الفرج .. باب مزدوج .. الداخلي على حذاء السور قبل أن يدفع الى ضفة بردى .. عضادته الأولى ذات نقوش عربية مخرمة والثانية أكلتها الدكاكين التالية لمنطقة (بين السورين) أمام الباب .. عضادتان .. يقوم عليهما قوس سقطت .. ومن الشرق والغرب .. رسمت زهرة الزينة (اللوتس) .. رمز نور الدين الشهيد (بعض أمراء المماليك) .. وفي داخله المدرسة النورية في الصباح الباكر .. في دمشق الأيوبية .. كانت طاحونة باب الفرج الواقعة بين البابين ترمي بأكياس الطحين الى الناس .. فيعجن العجانون .. وتوقد الأفران .. وترتفع في الجو الصباحي الباكر رائحة خبز دمشق .. رائحة قمح الشام .

وكان هناك جسر أمام باب الفرج .. كملت عمارته أيام المماليك ٧٣٦ هـ .وكان الباب يغلق كل مساء شأنه . شأن كل الأبواب .

وتبقى دمشق .. سرية .. محفوظة . آمنة .. مؤمنة ..

أما باب الجينق . فلم تصل الى اليد طرائفه وحوادثه الغامضة ..

هذه هي الأبواب المفتوحة .. وهناك أبواب كثيرة مسدودة أو مزالة منها ... وأهمها :

□ باب كيسان :

ينسب هذا الباب الى كيسان مولى معاوية على قول ابن عساكر . وقد سده نور الدين وفتح باب الفرج .

وقد جدد فتحه في زمن المماليك ٧٦٥هـ

وفي عام ١٩٣٩ أقيمت كنيسة على مدخله (بمساعدة الفرنسيين) واتخذ من الباب نفسه مدخلا لبعض الكنيسة . فاختفى عن الأنظار .

انه باب له قيمة تاريخية ودينية كبرى وان الحادثة التالية تؤكد قدم هذا الباب لأنها تعود الى عام ٤١ م .

عندما زار القديس بولس دمشق في ذلك العام بعد تجواله في بعض البلاد العربية مدة ثلاث سنوات عاد بعدها الى دمشق .

ولما تمت أيام كثيرة تشاور اليهود ليقتلوه ··

فعلم شاءون بمكيدتهم ·· وكانوا يراقبون الأبواب ليلا نهارا ليقتلوه ··فأخذه التلاميذ ليلا وأنزلوه مدلين اياه بسل ·

هذا هو النص القديم ·· فماذا تقول الحكاية ؟·

قبر صغير موجود في حنانيا ·· يقال له قبر جرجس البواب ·

سمع جرجس بالنصرانية فآمن بها ·· وكان أدرى بتنقلات القديس بولس الذي تنصر قرب دمشق · وفي تلك الليلة اجتمع رأي اليهود على التخلص من بولس · وهل هناك ···· الا القتل من وسيلة ··حوصر بولس ·· ربما كان في منزل (يوحناس) · (أو جوداس) ·· ربما كان هناك سرداب طويل بين منزل يوحناس وبين منزل حنانيا ·· فالسور ·

كل شيء ذهب في كتمان العصور ··· المهم أن القديس بولس وصل الى حنانيا ·

عقد جرجس حبلا طويلا ·· حول سلة من خوص دمشق ·· يا خيزران دمشق المنقذ ·· في هذا السل تجمع بولس ·· وفيه وبمساعدة جرجس البواب وبعض التلاميذ· في ليل كيسان الصامت ·· أدلي بولس وهرب من اليهود ·· حتى طرسوس فأنطاكية ·

النتيجة في الغداة كانت على حساب جرجس ·· لقد ضحى البواب بنفسه من أجل التبشير النصراني وقطع رأسه بعد أن تأكدت قصة اسهامه في تأمين هرب بولس ··

وما زال قبره هناك الى اليوم ·· مضاءاً دائماً بقنديل ناعم ·· وأهل دمشق يعتبرونه شهيداً ··

في قبو تحت كنيسة حنانيا ·· يوجد باب مغلق يؤدي الى سرداب ··

لربما كان هذا السرداب يوصل الى دار ما·· ومن بين الدور يصل المتخفي الى منزل يوحناس أين هذا الباب المجهول ؟ · أي دار هي ؟ لا أحد يدري ··

لقد مر غنم يعقوب ·· ورعى في مرج الغوطة ·· والغوطة ممزوج ترابها بدماء شهداء أهل الشام ·· وبدم الغزاة أيضاً ·

ويا فواكه الشام احلولي ·· ففيك عصارة الماضي ·· فيك سلافة الشهداء ·· فيك مسك دمشق ·

★ ★ ★

حادثة أخرى من كيسان ·· يقول كيسان :

كان يوم أربعاء مستهل المحرم ··· والطالع للعالم الجوزاء ·· وصل الى ظاهر دمشق جيش بقيادة الأمير أسد الدين شيركوه ·· رسولا من نور الدين صاحب حلب ·· وخيم العسكر بناحية القصب من مرج دمشق (مز القصب) ·

كان عدد العسكر ألفاً ··

وتكررت المراسلات بين الأسوار فلم تسفر عن شيء ·

وغلا سعر الأقوات·· لانقطاع الواصلين بالغلات من الغوطة·· حتى وصل نور الدين بعسكره الى شيركوه ·· في صفر ·· فخيم بعيون فاسريا عند دومة ·· ثم زحف الى

البلد من شرقيه ·· كان يرسل العيون ·· ويأتيه الخبر ·· حتى كان ·· يوم الزحف ووقع الطراد بينه وبين عسكر دمشق ·كانت الخيول تهمهم ·· وقد جن جنون الطراد والنزال ·· وكل فارس يهمز فرسه ··· ويغرس رمحه وبينما هم على هذا الحال ·· تسلل بعض جند نور الدين الى سور كيسان الدباغة ·· من قبلي البلد ·· وليس على السور حارس أو نافخ بوق ·· لسوء تدبير صاحب الأمر ··

وكانت هناك امرأة يهودية تنتظر ·· فما أن شاهدت عسكر نور الدين حتى أدلت اليهم حبلا من سور باب كيسان · فتسلقوه وحصلوا على السور ولم يشعر أحد ··

ركض الرجال وقطعوا أخشاب الباب الشرقي بفؤوسهم ·· وكسروا الأغلاق ·· فدخل منه جند نور الدين ··

ثم فتح باب توما ·· ومن هناك دخل نور الدين رسمياً مع خواصه ···

وسر الناس جميعاً ·· وزال البأس ··

ربما لغيانة اليهودية·· سد نورالدين باب كيسان وفتح باب الفرج ·· فلربما وقعت الخيانة مرة أخرى من ذلك الحي ·· عليه لا من أجله هذه المرة ··

في ذلك العام ·· ثار في دمشق وباء مختلف الحميات ·· مات الشيوخ والشبان· وعانت دمشق من البلاء ·· حتى انحسرعنها البلاء ·· وكان ذلك فيعام ٥٤٩ هـ ·

□ باب آخر ·· هو باب النصر :

كان باب النصر أو ·· باب السرايا·· أو باب الجنان ·· أو باب السعادة ··أحد أبواب دمشق الغربية·· وكان في موقع سوق الاروام في اول سوق الحميدية ·

وعندما قرر الوالي العثماني (شرواني باشا) توسيع سوق الحميدية ·· هدم هذا الباب العظيم ·· وكان ذلك عام ثلاثةوستين وثمانمئة ١٨٦٣ م · وفي هذا العام ·· منذ مئة واحدى وعشرون سنة فقط ·· هدم هذا الباب الذي شهد الفتح السلجوقي الذيكان بين عامي ٤٦٨ ـ ٤٩٠ هـ ·

فبعد التخلخل الفاطمي الذي هزالبلاد هزأ ·· لم تستطع دمشق أن تصمد أمام الفتح السلجوقي التركماني الذي قضى على الدولة الفاطمية في دمشق ·· ولقد أظهر التركمان من الجلادة والفروسية والشجاعة العربية ما أدهش الناس في أثناء الحصار ·

وكان الظلم قد زاد في الشام أيام الفاطميين ·· وجلا أهلها عنها ·· وخلت الغوطة من فلاحيها·· وارتفعت الأسعارحتى أكل الناس بعضهم فعلا ·· أكل الناس

ودمشق ما زالت لم تفتح بعد ·· دمشق الجائعة ·· الضعيفة المهزولة ·· عندئذ · عاد (اسز) ·· السلجوقي التركماني ··· للمرة الثالثة الى دمشق المحاصرة ··ودخلها صلحاً بلا مقاومة ·· فلم يكن هناك باب يقاوم ·· أو رجل يقف ·· أو امرأة تلد · في عهد الفواطم ·

كان القمح قد نفذ ·· وأصبح سكان دمشق ٣٠٠٠ بدل ٥٠٠٠٠٠ أفناهم الفقر والغلاء وبقي خبازان في المدينة ·· بعد أن كان فيها مئة أو مئتان ·

وأكلت الكلاب والسنانير والفئران · وكان الناس يقفون في الأزقة الضيقةفيأخذون المجتازين ·· فيذبحونهم ويشوونهم ··

حتى وصل السلاجقة ٠٠ فعادت دمشق فعمرت ٠٠ وعاد أهلها فرجعوا ٠٠ وعادت نساؤها فولدن وفتحت الأبواب للجميع ٠

هل رأينا الى بردى ٠٠ فلنتخيله أكبر بكثير ٠٠ أعرض بكثير ٠٠ ولنعد الى دمشق سنة ١٢٣٥هـ في ولاية درويش باشاالعثماني انه النهر الذي حمل جثث الغرقى في واقعه المزة٠٠ التي كانت بين درويش باشا والأمير بشير ٠

يومها أطلقت عساكر دمشق المدافع والزنبركات ٠٠ فهجم الأمير بشير هجمة واحدة ٠٠ دكت أسوار دمشق الغربية ٠٠ فامتلكت الأسوار والأبواب ٠٠

أسر الكثيرون٠٠ وقطعت رؤوس يومها وظل بردى عدة أيام يحمل الغرقى من عسكر درويش باشا حتى بلغ عددهم ١٢٠٠ رجل بين قتيل وجريح ٠

بردى بكى وغسل دماءه٠٠ دمشق عادت فيحاء رضية ٠٠ يا لجبروتك يا دمشق ٠

ولنمر على بقية الأبواب عدا :

باب الخضراء- باب الجينيق وقد مررت به مروراً - باب العمارة عند مدخل العمارة باب المربعة أو المصلبة كما تدعى الان -باب الجنان المسدود - با بالحديد وقد ذكرته - باب ابن اسماعيل عند حارة الخاطب على السور الجنوبي ٠

أبواب ٠٠ أبواب ٠٠

البريد وجيرون والخواصين وباب زقاق عطاف والقصاعين وباب الشاغور وباب دار البطيخ وباب القلعة ٠

★ ★ ★

أمن مئذنة الباب الشرقي سوف ينزل عيسى عليه السلام ؟٠

وآدم خلق من طين الجابية ؟ ٠

أغنم يعقوب ترعى في مرج الغوطة ؟

أيبقى الجامع الأموي أربعين عاماً بعد خراب الدنيا ؟٠

لم تعد لدمشق الحديثة أبواب ٠

أما أبواب دمشق القديمة ٠٠ فكلها الان مفتوحة٠٠ أبواب الأسوار والأبواب الوسطى والأبواب الداخلية وأبواب الحارات ٠٠ أما أبواب نفوس أهل دمشق ٠٠ فيفتحونها بقسط كما تفتح الخوخة ٠٠ حتى يثقوا ٠٠ فاذا وثقوا ٠٠ فالله أكبر ٠٠

★ ★ ★

ستظل مدينة الأنهار السبعة قائمة ٠٠ ستزيد نسب الماء في تشرين الأول ٠٠٠ وسترضع الينابيع الأزهار في نيسان ٠

وسيظل أهل دمشق يستقون من مياه جبالهم العذبة المخبوءة في مغارات الصواعد والنوازل ٠

لن ينزل الآن الملك الأشرف في ظاهر دمشق من ناحية القبلة ، فيقطع الماء عن قلعتها ويسد نهر بانياس ٠٠ لن يقطع نهر القنوات الواصل لى باب الجابية ٠٠

من أجل الماء خرج عسكر دمشق وقاتلوا أصحاب الملك الأشرف ٠٠

من أجل الماء والقمح قاتل الرجال والنساء حتى أعادوا الماء الى دمشق ٠٠

وهم دوماً أعادوا بناء ما احترق من بلدتهم ٠٠

ودوماً بنوا ما دمره الأعداء ..
ودوماً كانوا رضيين في فراديسهم ..
ودوماً .. سوف تزهر أشجار الغوطة
التي صنعها الانسان منذ آلاف السنين زرعها
.. وسقاها وقطفها .. ورعاها شجرة
شجرة .. سنبلة سنبلة .. نبتة نبتة ..

ودوماً تبقى دمشق تقول أهلا وسهلا .
بل أهلين وسهلين .. بل مئة أهلا وسهلا .
وتبقى لافتتها التاريخية الواسعة كالأقدار .

تقول للجميع بخط عربي أصيل ...

أهلا وسهلا .. دمشق ترحب بكم .

★ ★ ★

☐ الحواشي :

١ ـ وصف زلزال دمشق لكمال الدين الغزي .

٢ ـ الدكتور سهيل زكار .

٣ ـ هو البستان الواقع خلف الحلبوني أي « زقاق الجن » ومكان تجمع الباصات

٤ ـ بطريرك الروم .

٥ ـ احتفل به وصنع من اجله الطعام .

٦ ـ الواقع انه هو الذي شقه بعد ان تراكمت فيه الدكاكين والدور دونما انتظام - ويعتبر الشارع الحالي انحرافا عن الشارع المستقيم خاصة في منطقته الغربية (باب الجابية)

٧ ـ سميت المسكية لانتشار رائحة مسك الجامع الأموي فيها .

٨ ـ هو في المصادر (قسيس) لكني حرفت منعا للنعرة الطائفية .

★ ★ ★

☐ مراجع البحث :

ـ خطط الشام .... للعلامة الأستاذ محمد كرد علي
ـ تاريخ دمشق .... لابن عساكر
ـ مكتشفات تغير تاريخ دمشق القديم .... للاستاذ غسان سبانو
(ارم ذات العماد)
ـ تاريخ دمشق .... لابن القلانسي حققه د. سهيل زكار
ـ دمشق القديمة : ابراجها ، اسوارها ، أبوابها .... للدكتور صلاح الدين المنجد
ـ في رحاب دمشق .... للاستاذ محمد احمد دهمان
ـ وصف دمشق .... للفارس دارفيو Le chevalier d'arvieux

استدراك
على ديوان « ديك الجنّ »

خير الدين شمسي باشا

في أواخر عام ستين وتسعمئة وألف أخرج أديبا حمص الشاعـران الأستاذ محي الدين الدرويش رحمـه الله ، والأستاذ عبدالمعين الملوحي مدّ الله في حياته ، ما عثرا عليه في بطون الكتب من شعر شاعر حمص الذي شهد بتفوقه «أبو نواس» وزاره في منزله تقديراً وإعجاباً ، وغرف من بحره « أبو تمام » وحفظ شعره صغيراً ، ذلك هو عبدالسلام بن رغبان المعروف بـ (ديك الجن)وشرحاه ونشراه ديوانا مرتب القافية .وقالا في المقدمة :

« ونحن نجد شرفاً لنا وإكراماً لشاعرنا، أن يدلنا كل أديب يشعر بقرابة الأدب ، وكل شاعر، على بيت واحد أو شطر واحد لهذا الشاعر لا يجده في الديوان ، لنستطيع ضم ما فاتنا في هذه الطبعة الى طبعات لاحقة ... ومـن أجدر من « ديك الجن » بقرابة الأدباء ونسب اخوان الصفاء ، وهو أول مـن قرر هـــذه القرابة حين قال :

بكـاك أخٌ لـم تحـوهِ بقرابـــة بلـى ان اخـوان الصفاء أقارب »

انتهى

وكنت أثناء قراءاتي في كتب الأدب أعثر على بعض الأبيات لهذا الشاعر الذي ظلمته الأيام فضاع معظم شعره ، فكنت أنقل ذلك على صفحات الديوان بحسب القافية ، ومنه ما ليس موجوداً في الديوان ، وما هو موجود على اختلاف في بعض الألفاظ . وقد أخبرني الصديق الأستاذ عبدالمعين أن بعض الأدباء مهتم باخـراج ديوان موسع لهـــذا الشاعر ، فرأيت من المفيد نشر ما عثرت عليه كما قرأته في مصادره ليضاف الى ديوانه .والله الموفق .

١ ـ روى الشمشاطي في كتابه (الأنوار ومحاسن الأشعار) (نشرته وزارة الاعلام في الكويت ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م) في الجزء الأول ص ٣٨٥ في « باب التطير من الابل والكراهية لها ، لأنها تحمل الظعائن وتشتت الخلان ، وتصييرها كغراب البين ، البيتين التاليين ل (ديك الجن) وأشار المحقق في الحاشية الى أنهما في حماسة الخالديين (٢/ ١٩٥) والزهرة (٢٥٨) :

ما المنايا الا المطايا وما فرّ ... ق شيء تفريقها الأحبابا
ظل حاديهم يسوق بقلبي ... ويرى أنه يسوق الركابا

* * *

٢ ـ وروى أيضاً في الجزء الثاني ص٢٧٤ في باب البواشيق الأبيات التالية :

قال : ولديك الجن من قصيدة :

وغُضفاً ينتظمن الأرض نظماً ... تَنَشَّر فيه حبّات النفوس
لها في كل معركة ضجاج ... وداهية كداهية البسوس
وسرب حباريات فوق جلس ... أشبّهه بمشيخة جلوس

وفيها :

بطاوية الأجادل أو بُزاة ... محجّمة لداهية شَموس
تراها في بُراها منغصات ... بأرؤسها بحسٍ أو حسيس
فأمْ الطير في شرٍ وعرٍ ... وأمْ الوحش في يوم عبوس

وفيها :

وأحمر مذبح وقراً وزور ... هموس زيارة القرن الهموس
وأبيض ما اطمأن من الذنابى ... الى الحاذَين كالقصب اللبيس
وأسود لهذم السَّرين جون ... وأزرق منسر أقنى نهوس
وأصفرَ قمة وحجاجَ عين ... فتحسبه تكحل من وَرْوس
اذا بُعثت سمعت لها زهاء ... وجَهورة كجهورة القُسوس
كأن على القرا ديباج وشي ... تكشّف عن غلالة خندريس
كأن جاجئا منها وهاما ... أعارتها النفوسَ يدا عروس

* * *

٣ ـ قرأت في (ثمار القلوب) للثعالبي (دار نهضة مصر ١٩٦٥) ص ٣٣٩مايلي:
(ثمار النحور) هي الثدي ، من قول مسلم بن الوليد وهو من استعاراته الحسنة :

فغطت بأيديها ثمار نحورها ... كأيدي الأسارى أثقلتها الجوامع

وأخذه (ديك الجن) الحمصي فقال :

ظللت بها أجني ثمار نحورها ... فتوسعني سبا وأوسعها صبرا

وأخذه كشاجم فقال :

غذتها نعمةٌ ولذيذ عيش ... فانبت صدرها ثمر الشباب

وما أملح قول ابن المعتز :

لا ورمان النهود ... فوق أغصان القدود

وقول الصابي من أبيات :

وقال شفاؤه الرمان مما ... تضمنه حشاه من السعير
فقلت له : أصبت بغير قصد ... ولكن ذاك رمان الصدور

* * *

٤ ـ وذكر صاحب كتاب (الأنوار ومحاسن الأشعار) أيضاً فيما يروي عن الخيل (ج ١/ص ٣١٧) قال :

« ولعبد السلام بن رغبان :

وأحمَّ من أولاد أعوج عُجْتُه ... وأظنه للبرق كان حميما
متكفئاً لو أنه جارى الصَّبا ... شأوا لبات أديمها محموما
مستقبلاً أعلى الذُرا مستعرضاً ... بَسط القَرا مستدبراً ململوما
حرُ الأهاب وسيمه برّ الأبا ... ب كريمه محض النصاب صميما
ان قيد جاءك زينة أو ريض ريض بنيه أو ريع ريع ظليما
فارّعت فيها الوحش عن مهجاتها ... وجعلته بنفوسهن زعيما

وهذا من الكلام الجزل ، الحسن النظام الصحيح الأقسام » .

انتهى

* * *

٥ ـ وقرأت في كتاب (ثمار القلوب)أيضاً (ص/٢٧) ما يلي :

(شمس الله) عهدي بالأمير السيد أدامالله تأييده ينشدني فأئية (ديك الجن) من أولها الى آخرها ، وهي فائقة رائقة يزدادحسنها لجريها على لسانه ، وتكتسي شعاراً أنيقاً من عباراته ٠ ومنها :

وصفراوين مـن جَلَب الأمانـي اذا جُليَت ومن حلَب القطاف
أدِرْا منهمـا فلكا وشمســاً وشمس الله مُسرَجَة الغلاف

* * *

٦ ـ وقرأت في (ثمار القلوب) أيضاً(ص ٦٩) ما يلي :

(ديك الجن) هو عبدالسلام بن رغبان الحمصي : شاعر مفلق في المحدثين ٠ أدرك زمان المتوكل ، حتى قال في قصيدة له :

حتى حسبتُ أنو شروان منخدمي وخلتُ أن نديمي عاشر الخلفا(١)

ولست أعرف سبب تلقيبه بـ (ديك الجن) ٠ ويشبه أن يكون قال بيتاً يشتمل على ذكر ديك الجن فلقب بذلك ، كما لقب كثيرمن الشعراء بأقوال تجري لهم مجرى الشواذ والنوادر ٠ انتهى

٧ ـ وقال الثعالبي في موضع آخر من(ثمار القلوب) (ص ٤٧٠) ما يلي : (ديك الجن) يضرب مثلاً للديك النجيب الحاذق الكثير السفاد ٠ ومنه سمي (ديك الجن) الشاعر المشهور، وهو أحد شعراء سيف الدولة بن حمدان ٠ انتهى ٠

* * *

٨ ـ وقرأت في كتاب (خزانة الأدب)لابن حجة الحموي (دار القاموس الحديث للطباعة والنشر ـ بيروت) ص ٧٨ عندذكر(التخيير) في القوافي قوله :

التخيير هو أن يأتي الشاعر ببيت يسوغ فيه أن يقفى بقواف شتى فيتخير منها قافية يرجحها على سائرها يستدل بتخييرهاعلى حسن اختياره ٠ [وأورد أمثلة ٠٠٠ ثم قال] ويعجبني قول (ديك الجن) :

قولي لطيفك ينثني عن مضجعي عند المنامْ الرقاد الهجوع الهجود الوسنْ
فعسى أنام فتنطفي نار تاجـج في العظامْ الفؤاد الضلوع الكبود البدنْ
جسدٌ تقلبـه الأكف على فراش من سقـام قتـاد دمـوع وقـود حـزَن
أما أنا فكما علمت فهل لوصلك من دوامْ معـاد رجوع وجود ثمـن

فهذه القوافي المثبتة يقابل كل بيت بمايليق منها ، والأولى أولى وأرجح ٠ انتهى ٠

* * *

٩ ـ وقرأت في الديوان (ص ٨٦) مايلي : وقال يفضل الحب الأخير :

اشرب على وجه الحبيب المقبل   وعلى الفم المتبسم المتقبل
شرباً يذكر كل حب آخر   غض ، وينسي كل حب أول
نقل فؤادك حيث شئت فلن ترى   كهوى جديد أو كوصل مقبل
ما ان أحن الى خراب مقفر   درست معالمه كأن لم يؤهل

وأشار ناشرا الديوان الأستاذان الدرويش والملوحي ، الى أن هذه الأبيات في (محاضرات الأدباء) ٠ وورد في (الصناعتين) قوله (وهو ديك الجن) يخالف أبا تمام في قوله :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى   ما الحب الا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى   وحنينه أبداً لأول منزل

انتهى

أقول : وجدت في (ديوان الصبابة) لابن أبي حجلة المطبوع بخط الامام الشعراني (رض) في أواخر شهر ذي القعدة ١٢٧٩ وهوضمن مجموعة كتب في العشق بمكتبة الدكتور عبدالكريم اليافي (ص/٣) ٠ وهي أيضاً في الطبعة اللبنانية لديوان (الصبابة) المجلد مع كتاب (تزيين الأسواق في أخبار المشاق) من منشورات (دار : حمد ومحيو) ص / ٥ : ما يلي :

[قال في شرح البيت] :

فيا دارها بالخيف ان مزارها   قريب ولكن دون ذلك أهوال

فان قلت : الفضل للمتقدم وهل غادرالشعراء من متردم ؟

قلت : نعم ، في الخمر معنى ليس في العنب ، وأحسن ما في الطاوس الذنب فدع كل صوت بعد صوتي فانني : أنا الصائح المحكي والآخر الصدى فكم ترك الأول للاخر، ولا اعتبار بقول الشاعر :

نقل فؤادك ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ (بيتي أبي تمام)

فقد سقط في يده ، وقيل في الرد عليه:

افخر بآخر من كلفت بحبه   لا خير في حب الحبيب الأول
أتشك في أن النبي محمداً   ساد البرية وهو آخر مرسل

وقال (ديك الجن) الحمصي يرد على(حبيب) قوله المتقدم :

كذب الذين تحدثوا أن الهوى ... لا شك فيه للحبيب الأول(٢)
ما لي أحن الى خراب مقفر ... درست معالمه كأن لم يؤهل

فقال (حبيب) حين بلغه قول (ديك الجن) المذكور :

كذب الذين تخرصوا في قولهم ... ما الحب الا للحبيب المقبل
أفَطيِّبٌ في الطعم ما قد ذقته ... من مأكل أو طعم ما لم يؤكل

فقال (ديك الجن) أيضاً حين بلغه قول(حبيب) هذا :

ارغب عن الحب القديم الأول ... وعليك بالمستانف المستقبل
نقل فؤادك حيث شئت فلن ترى ... كهوى جديد أو كوصل مقبل

وقال أبو البرق ، وسلك بينهما جادة الانصاف ، وبقوله يجب الاعتراف ، لأنه أحسن في المقال حيث قال :

زادوا على المعنى فكل محسن ... والحق فيه مقالة لم تجهل
الحب للمحبوب ساعة وصله ... ما الحب فيه لآخر ولأول

انتهى

* * *

١٠ ـ وقرأت في معجم الأدباء (طبعةدار احياء التراث العربي ـ بيروت المصورة) (جـ ١٣ ص ٢٩١) هذا البيت :

قنا تنصبُ في ثُغَر التراقي ... كما ينصب في المقل الرقاد

وكتب الشارح (عبدالخالق) في الحاشية ما يلي :

« كانت في الأصل « فتى » ينصب في ثغر القوافي »(٣)

فاصلحت الى ماترى • وقد جهدت أن أعثر عليه في مظانه كشرح العكبري وكتابي الابانة في سرقات المتنبي والوساطة وما شاكلذلك فلم أجدها • والبيت لديك الجنواسمه عبدالسلام ابن رغبان ـ بفتح الراء ـوالثغةجمع ثغرة : وهي النقرة في النحر ، وكل نقرة بين عظمي الترقوتين ‹ » انتهى •

أقول : لعل المحقق لم يخطىء التوفيقفي تصحيحه ، ذلك أن البيت ورد في معرض (السيوف والرقاب) عند ذكر بيتي أبي الحسن الناشىء :

قال ياقوت : وحدث الخالع قال : حدثني أبو الحسن الناشيء قال : كنت بالكوفة في سنة خمس وعشرين وثلاثمئة ، وأنا أملي شعري في المسجد الجامع بها والناس يكتبونه عني ، وكان المتنبي اذ ذاك يحضر معهم ،وهو بعد لم يعرف ولم يلقب بالمتنبي فامليت القصيدة التي أولها :

بآل محمد عُرف الصواب ... وفي أبياتهم نزل الكتاب

وقلت فيها :

كأن سنان ذابله ضمير ... فليس عن القلوب له ذهاب

وصارمه كبيعته بخُمٍ ... مقاصدها من الخلق الرقاب

فلمحته يكتب هذين البيتين ٠ ومنها أخذ ما أنشدتموني الآن من قوله :

كأن الهام في الهيجا عيون ... وقد طبعت سيوفك من رقاد

وقد صغتَ الأسنة من هموم ... فما يخطرن الا في فؤاد

قال الخالع : وأصل هذا لأبي تمام :

من كل أزرق نظار بلا نظر ... الى المَقاتل ما في متنه أوَدُ(٤)

كانه كان ترب الحب مذ زمن ... فليس يعجزه قلب ولا كبد

وعليه وقع المتنبي : وسبق الى ذلك (ديك الجن) أيضاً في قوله :

قنا تنصبُ في ثغر التراقي ... كما ينصب في المقل الرقاد

[ثم قال ياقوت] : وأبيات المتنبي أمثل من الجميع اذا تركت العصبية ٠

١١ ـ وقرأت في كتاب (أبو تمام الطائي تأليف خضر الطائي) وهو مطبوع في العراق (ص ٤٢) الأبيات التالية على غير ترتيبها في الديوان وعلى اختلاف ببعض الألفاظ :

بها غير معدول فداوِ خُمارها ... وصِلْ بعشيات الغبوق ابتكارها

وقم أنت واشرب كاسها غير صاغر ... ولا تسق الا خمرها وعقارها

موردة من كف ظبي كانما ... تناولها من خده فادارها

فقام يكاد الكاس تحرق كفه ... من الشمس أم وجنتيه استعارها

أقول : سقط من العجز لفظة (من) ولعله من خطأ الطابع :

فظلْنا بايدينا نُتعتعُ روحها ... وتاخذ من اقدامنا الراح ثارها

فنل من عظيم الوزر كل عظيمة ... اذا ذكرت خاف الحفيظان نارها

وهاهي كما وردت في الديوان (ص٣٨):

بهـــا غير معدول فداو خمارهـــا   وصل بعشيات الغبوق ابتكارهـــا
ونَلْ من عظيم الردف كل عظيمة   اذا ذكرت خاف الحفيظان نارها
وقم أنت فاحتث كأسها غير صاغر   ولا تسق الا خمرها وعقارهـــا
فقـــام تكاد الكأس تحرق كفـــه   من‌الشمس أممن وجنتيه‌استعارها
ظللنـــا بايدينا نتعتع روحهـــا   فتأخذ من أقدامنا الراح ثارهـــا
موردة مـــن كف ظبـــي كأنمـــا   تناولهـــا مـــن خده فأدارهـــا

★ ★ ★

١٢ ـ قصيدته في رثاء (ورد) المنشورة في الديوان(ص/٤٠) قرأتها في كتابي (تزيين الأسواق) المذكور آنفاً لداود الأنطاكي و (مدامع العشاق) للدكتور زكي‌مبارك، مختلفة في بعض ألفاظها عما جاءت في الديوان (ص/٤٠و٤١) وفيما يلـي بيـان الاختلاف :

في الديوان	:	قمر أنا استخرجته من دجنه	لبليتي وجلوته من خدره
عندالانطاكي‌ومبارك	:	قمرٌ قد استخرجته « «	« وأثرته « «
في الديوان	:	فقتلته وله عليّ كرامـــة	ملء الحشا وله الفؤاد بأسره
عند الانطاكي	:	« « « « «	فلي الحشا « « «
عند مبارك	:	« « « « «	فله الحشا « « «
في الديوان	:	عهدي به ميتاً كأحسن نائم	والحزن يسفح عبرتي‌في‌نحره
عند الانطاكي	:	« « « « «	« يسفح دمعتي «
عند مبارك	:	« « « « «	« يسفح مدمعي «
في الديوان	:	لو كان يدري الميت ماذابعده	بالحي حلّ بكى له في قبره
عند الانطاكي	:	« « « « «	بالحي منه « « «
في الديوان	:	غصص‌تكاد تفيض منهانفسه	وتكاد تُخرج قلبه من‌صدره
عند الانطاكي	:	« يكاد « «	ويكاد « « « «
عند مبارك	:	« تكاد « «	ويكاد يخرج « « «

★ ★ ★

١٣ ـ بقافية النون : في الديوان (ص ١١١) :

خذ ياغلام عنان طرفك فاتنه عني فقد ملك الشمول عناني

في كتاب عقلاء المجانين: خذ ياغلام عنان طرفك فاحمه » » » » »

في الديوان : سُكران: سكر هوى وسكر مدامة أنى يُفيق فتى به سكران

» » » » » فمتى » » » »

* * *

١٤ ـ قافية الهاء في الديوان (ص ١١٢/١١٣) رثاؤه لجاريته :

١ ـ يا طلعة طلع الحِمامُ عليها وجنى لها ثمر الردى بيديها

٢ ـ روّيتُ من دمها الثرى ولطالما روّى الهوى شفتيَّ من شفتيها

٣ ـ حكمت سيفي في مجال خناقها ومدامعي تجري على خديها

٤ ـ فوحق نعليها وما وطيء الحصى شيء أعز عليَّ من نعليها

٥ ـ ما كان قتليها لأني لم أكن أخشى اذا سقط الغبار عليها

٦ ـ لكن ضننت على العيون بحسنها وأنفتُ من نظر الحسود اليها

قرأتها في (تزيين الأسواق) و (مدامع العشاق) على اختلاف يسير في ترتيب الأبيات وفي بعض الألفاظ · وفيما يلي البيان :

الترتيب : عند الانطاكي وعند مبارك هكذا : الأول ثم الثالث وبعده الثاني فالرابع حتى السادس ·

☐ **الألفاظ :**

في البيت الأول : عند الانطاكي ومبارك (فجنى لها)

في البيت الرابع : عند الانطاكي (لما وطيء الحصى)
عند مبارك (وما وطيء الثرى)

في البيت الخامس : عند الانطاكي ومبارك (أبكي اذا سقط الذباب عليها)

في البيت السادس :عند الانطاكي :

لكن بخلت على العيون بلحظها وأنفت من نظر العيون اليها

وعند مبارك :

لكن ضنت على الوجود بحسنها وأنفت من نظر العيون اليها

★ ★ ★

١٥ ـ وللاديب اللبناني (رئيف خوري) رواية (ديك الجن ، الحب المفترس) نشرتها دار المكشوف عام ١٩٤٨ في سلسلة (أشهر العشاق) أورد فيها أبياتاً من شعر (ديك الجن) تختلف في بعض ألفاظها عماوردت في الديوان ، نذكرها فيما يلي بحسب ترتيب القافية :

قافية التاء ص ٢٨ **البيت الثالث** : قال ذو الجهل قد حلمت

وعند خوري : قال ذو الجهل : لو حلمت

قافية الدال ص ٣٣ **البيت الأول** : مفارق خُلَّة من بعد عهد

وعند خوري : مفارق خِلِّه من بعد عهد

البيت الثاني : بحق الود كيف ظللت بعدي ؟

عند خوري : بحق الود كيف غدوت بعدي ؟

قافية الدال ص ٣٤ **البيت الأول** : اذا استعبرت في الظلماء وحدي

وعند خوري : « في الظلمات » وهو خطأ

البيت الثاني :

وجدٌ تنفسي وعلا زفيري وفاضت عبرتي في صحن خدي

عند خوري :

وجدٌ تنهدي وعلا زفيري وسالت عبرتي من فوق خدي

البيت الخامس : يقول : قتلتها سفهاً وجهلا

عند خوري : يقول : قتلتها ظلماً وجهلا

البيت السادس : كصياد الطيور له انتحاب

عند خوري : كذباب الطيور له بكاء

قافية الراء ص ٣٩ **البيت الرابع** : موردة من كف ظبي كأنما

عند خوري : موردة من كف ظبي كأنه

قافية الراء ص ٤٦ قافية البيت الخامس (القذرة)

وعند خوري : (العذِره) وفسرها بالوسخة النتنة

ص ٤٧ **البيت الرابع** : أ أترك لذة الصهباء عمداً

عند خوري : أ أترك لذة الصهباء صِرفاً

ص ٥٣ **البيت الأول** : تكلّفنَ اسعاد الغريبة أن بكت

وعند خوري : تكلفن اسعاد الحزين اذا بكى

ص ٥٥ **البيت الأول** : لم تبلَ عينك أبيضاً في أسود

عند خوري : لم تبك عينك أبيضاً في أسود

ص ٥٦ قافية البيت الثاني (الدهور)

عند خوري : (العصور)

ص ٥٧ **البيت الثاني** :

بأبي بذلتك بعد صونك للبلى ورجعت عنك صبرت أو لم أصبر

وعند خوري :

بأبي بذلتك بعد صون للبلى . . . . . .

★ ★ ★

١٦ ـ ووقفت على البيتين التاليين في كتاب (المستطرف) للأبشيهي (نشر مصطفى البابي الحلبي ١٣٧١ـ١٩٥٢/جـ٢/٢٠٧)

ولي كبد حرّى ونفس كأنها بكف عدوّ ما يريد سراحها

كأن على قلبي قطاة تذكرت على ظمأ وِرداً فهزت جناحها

١٧ ـ في كتاب (التمثيل والمحاضرة) لأبي منصور الثعالبي (نشر عيسى البابي الحلبي ٠ القاهرة ١٣٨١ هـ) في (باب الأمثال السائرة للمولدين) (ص ١٠٠) هذا البيت ، وهو ليس في الديوان :

سبحان من جعل الآداب في عَصَبٍ خطأً وصيّرها غيظاً على عُصبِ

وفيه أيضاً (ص ٩٩) :

وشافي النصح يعدل بالأشافي ومن جعل القوادم كالخوافي

وليس القِدر الا بالأثافي

وفي الديوان (ص ٦٧) :

وشافي النصح يُعدل بالأشافي وليس القدر الا بالأثافي

وفي (خاص الخاص) للثعالبي (دارالحياة بيروت ١٩٦٦ م/ص١٢٨) :

أبا عثمان معتبة وصبراً وشافي النصح يعدل بالأسافي

وفي (نهاية الأرب) للنويري (المؤسسة المصرية ص ٩٨) :

وشافي النصح يعدل بالأشافي وليس القدر الا بالأثافي

١٨ ـ وفي الديوان (ص ٦٧) :

اذا شجر المودة لم تجده سماء البر أسرع **بالجفاف**

وعند الثعالبي (التمثيل والمحاضرة)ص ١٠٠ وكذلك في نهاية الأرب : ص ٩٨ :

اذا شجرُ المودة لم تَجُدْه بغيث البر أسرع **في الجفاف**

وفي (خاص الخاص ص ١٢٨) :

اذا شجر المودة لم تجده سماء البر أسرع **في الجفاف**

١٩ ـ وفي الديوان ص ٣٢ :

رقّ حتى حسبته ورق الورد جنياً يرف بين الرياح

وفي (خاص الخاص ص ١٢٨) :

رق حتى حسبته ورق الورد ندياً يرف بين الرياح

□ **الحواشي :**

١ ـ ورد في الديوان ص ٧١ كما يلي :

حتى توهمت نوشروان لي خولا وخلت ان نديمي عاشر الخلفا

٢ ـ أذكر بهذه المناسبة البيت المشهور لمجنون ليلى :

محا حبها حب الألى كنّ قبلها وحلت مكانا لم يكن حلَّ من قبل

٣ ـ وهي في الديوان : « فتى ينصب في ثغر الفيافي » وقال ناشراه في الشرح : المعنى : هذا الفتى يألف الصحارى وينصب فيها انصبابا كما يألف النوم العيون وينصب فيها .

٤ ـ الأوْد : الاعوجاج .

ابن البيطار

ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد

محمد أمين الميداني

□ **توطئــة :**

حفلت كتب التراجم والسير في مكتبة التراث العربي بالحديث عن العلماء والأدباء في شتى الميادين ومختلف المجالات • فكان أن حفظت هذه الكتب أخبار شهرتهم وحوادث علومهم وأمارات نبوغهم ، ودوّن أصحابها ما ذاع من صيت هؤلاء العلماء والأدباء وما ألفوه ووضعوه من كتب ومجلدات وقد تركوا بصماتهم على أحداث عصرهم شاهداً على ما عرفته تلك العصور من ازدهار وتقدم وتألق في ميادين المعرفة ومجالات العلوم والآداب والفنون • وجاء المحدثون لينفضوا ما علق على كتب التراث هذه من غبار ويجلوا ما لف أصحابها من نسيان أو اهمال وليعرفونا على سيرهم وما جادت به قرائحهم وما خطته أقلامهم وما توصلوا اليه من طرق للدراسة ومناهج للبحث والتأليف •

وكتب التراث العربي ورجالاته قد حظيت بالقدر المقبول من الاهتمام على أن هذه الحظوة لم تكن كافية ولا عادلة فكان نصيب بعضهم من الدراسات والبحوث ووافر الاهتمام بهم وبأعمالهم أكثر من بعض • وانطلاقاً من ذلك جاء مقالنا هذا محاولة متواضعة لتسليط مزيد من الأضواء وللفت انتباه المختصين الى واحد من علماء النبات والأعشاب وهو ابن البيطار ، الذي كان حسب رأي ابن ابي أصيبعة[1] : « أوحد زمانه وعلامة وقته في معرفة النبات وتحقيقه واختياره ومواضع نباته ، ونعت أسمائه على اختلافها وتنوعها »[2] •

وهو بنظر أحد المستشرقين الطبيب العربي الوحيد الذي وقف حياته كلها لدراسة علم النبات[3] •

ولم تقتصر علوم ابن البيطار على النبات والأعشاب بل شملت الطب والصيدلة أيضاً، وفاقت شهرته على جميع الصيادلة في القرون الوسطى[٤]، حيث كانت له تفاسير لأسماء أدوية كتاب ديسقوريدس[٥].

١ ـ في التعريف بحياة ابن البيطار :

ان لمحة وجيزة عن حياة هذا العالم العربي وعن رحلاته ومكانته العلمية والعصر الذي عاش فيه ضرورية لأن تجعلنا نقف على المشوار الذي قطعه قبل أن نتطرق للقسم الثاني من هذه المقالة والذي يبحث في منهج ابن البيطار في الدراسة واكتشافاته العلمية وما أغنى به مكتبة التراث العربي من كتب ومؤلفات.

آ ـ اسمه ولقبه وتاريخ وفاته :

هو ضياءالدين أبو محمد عبدالله بن أحمد المالقي ـ نسبه الىمدينة مالقة في الأندلس[٦] ـ المعروف بابن البيطار. ولد هذا العالم في الربع الأخير من القرن السادس الهجري (لم يعرف تاريخ ميلاده بالضبط[٧]) في مدينة مالقة، وتلقى تعليمه في مدينة اشبيلية حوالي عام ٦١٧ هـ / ١٢١٩ م، على أيدي علمائها أبي العباس النباتي، وعبدالله بن صالح، وأبي الحجاج.

أما وفاته فكانت في مدينة دمشق في شهر شعبان من عام ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م.

ب ـ رحلاته ومكانته العلمية :

ان العلوم التي وقف عليها ابن البيطار حياته وحبه وتفانيه لها كانت دافعاً له للانتقال من قطر الى آخر ومن بلد الى بلد.

فبعد أن تلقى هذا العالم علومه الأولى في الأندلس اتجه نحو المشرق حوالي عام ٦١٧-٦١٨ هـ / ١٢١٩-١٢٢٠ م ـ بعد أن سبقه اليها أستاذه أبو العباس حوالي عام ٦١٣-٦١٤ هـ / ١٢١٦-١٢١٧ م[٨] ـ ماراً في البداية ببلدان المغرب العربي ليجتمع هناك بالباحثين في علم النبات والمشتغلين به. فكان يجوب الأماكن ليمتحن الأعشاب ويصفها ويذكر فوائدها.

ومن المغرب تابع ابن البيطار طريقه بعد ذلك فزار آسيا الصغرى ماراً بمدينة أنطاكية ليصل منها الى سورية ولينتقل بعدها الى مصر، ومنها رحل الى الحجاز، فغزة، فالقدس، فبيروت، وقد زار اليونان حسب رواية احد المستشرقين[٩].

وقد زادت هذه الرحلات من خبرة هذا العالم في ميدان علم النبات وساعدت على اكتشاف المزيد من الأعشاب. وكما قلنا لم يكن ابن البيطار يألو جهداً في سبيل الاجتماع بالعلماء العرب أينما حل. فكان لقاؤه ـ على سبيل المثال ـ بنفيس الدين وتاج الدين البلغاري وغيرهم كثير[١٠].

مكانتـه العلميـة :

أما في مصر فقد اتصل ابن البيطار بالملك الكامل الأيوبي[11] الذي كـان يحكم مصـر ودمشق[12] • واعتمـد الملك الكامل الأيوبي على هذا العالم في الأدوية والحشائش وجعله مقدماً في أيامه وحظياً عنده[13]، فسلمه حوالي عام ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م منصب رئيس العشابين وأصحاب البسطات في الديار المصـرية[14] ، كما جعله رئيساً للأطباء في مصـر[15] • وكان تفاني هذا العالم في خدمة الملك الكامل الأيوبي واخلاصه لذكراه دافعاً له ليبقى في خدمة ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب[16] بعـد وفاة أبيـه ، فكان حظياً مقرباً عنده في الوقت الذي عرف فيـه ابن البيطار وذاع صيتـه واشتهر شـهرة عظيمـة •

جـ ـ عصـره :

عاش ابن البيطار في عصر عرف باضطراب الأحوال السياسية وتدهور الأوضاع العامة •

ففي الأندلس كانت دولة الموحدين على وشك الانهيار ، فحمد الناصر ٥٩٦-٦١١ هـ/ ١١٩٩-١٢١٤ م - أحد أحفاد مؤسس دولة الموحدين عبدالمؤمن الكومي[17] - انهزم أمام جيوش الافرنجة وفرّ الى مراكش ، وكان أن سقطت بعـدها دولة الموحدين عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م[18] بعد ان تعاقب على حكمها عـدة أمراء لم يفلح أحد منهم في الابقاء على هـذه الدولـة •

أما في العراق فقد كانت الخلافة الاسلامية تعيش عصيب أوقاتهـا • فالفـرس والأتراك يتحكمون بمقاليـد الحكم ، ويسيرون أمور الدولة على حسب أهوائهم • وكان الخلفـاء العباسيون ألعوبة في أيديهم[19] • وكان الخطر يحـدق بالخلافة العباسية منـذ أوائل القرن السابع للهجرة ، فالمغول بقيادة جنكيز خـان استولوا على بخارى وسمرقند وبلـخ حوالي عام ٦١٦-٦١٧ هـ / ١٢١٩-١٢٢٠ م ، ولقي المسلمون على أيديهم ضروباً مختلفة مـن الذل والهوان والعذاب • وكانت نوايا المغول تتجـه نحو غزو العراق الذي اجتاحته جيوشهم بعد معارك مختلفة انقضت بـين كرّ وفرّ الى أن بلغوا تخوم بغـداد عام ٦٣٥ هـ/١٢٣٧ م[20] ليحاصروها ويضربوها بالمناجيق وكان أن سقطت بغداد عام ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م وكان ذلك ايذاناً بزوال الخلافة العباسية •

أما حالة العلم والعلماء فكانت في أعصب أوقاتها • فبعد أن عرفت بغداد ذلك العصر الذي تألقت فيه العلوم والآداب والفنون، حيث كانت حركة الترجمة من لغات الشعوب والأمم المختلفة، على ما حوتها من آداب وعلوم وفلسفات ، الى اللغة العربية على أشدها في ذلك الوقت، وفتحت هـذه الحركة أمام علمائنا وأدبائنا آفاقاً جديدة ووضعت بين أيديهم امكانات هائلـة ما كانوا ليصلوا اليها أو يعرفوها لولا تلك الترجمـات الغزيرة، لتجيء بعدها القرائح والأفكار العربية

فتزيد عليها وتبتكر فيها بعد أن تمثلتها ووعتها وشرحتها • بعد ذلك العصر المتألق أصبحت معالم الازدهار والتقدم تضمحل وشعلة الحضارة تتلاعب بها رياح الاضطرابات والانقسامات والحروب التي عرفها القرن السابع للهجرة ، الى أن خبت وانطفأت مع استيلاء المغول على بغداد •

أما في الأندلس فان الحركتين العلمية والأدبية كانتا في أوج الازدهار والتقدم منذ أوائل الحكم الاسلامي فيها وبخاصة أيام الناصر الأموي[٢١] • فقد كان الاهتمام والاعتناء بمختلف نواحي العلوم والآداب والفنون جلياً واضحاً ، والآثار العمرانية المتعددة والمنتشرة في أطراف الأندلس شاهدة على هذا الاهتمام ، وذلك الاعتناء • الا أن هاتين الحركتين سرعان ما أصابهما الضعف مع تعاقب حكم الدول على الأندلس الى أن سقطت في أيدي الأفرنج عام ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م[٢٢] •

٢ ـ منهج ابن البيطار في الدراسة والبحث واكتشافاته العلمية وما أغنى به مكتبة التراث العربي :

لعلنا في هذا القسم نبلغ بيت القصيد فنتعرف على ما أسهم به ابن البيطار ، بنبوغه وتفوقه ومهاراته ، في العلوم التي برع فيها وأضاف اليها المزيد من الاكتشافات مغنياً مكتبة التراث بمؤلفاته ودراساته وبحوثه التي كان لها الأثر البعيد واليد الطولى في تطوير علوم النبات والصيدلة والطب مبتدئين بشهادة تلميذه فيه •

أ ـ شهادة ابن أبي أصيبعة في ابن البيطار :

كان ابن أبي أصيبعة صاحب كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) تلميذاً لابن البيطار ، وقد صحبه في الكشف عن النباتات في منطقة دمشق ، وحدثنا ابن أبي أصيبعة عن اجتماعه بأستاذه وعن أخلاقه ومنهجه في الدراسة والبحث وطريقته في الكشف عن النباتات والأعشاب فقال: « وأول اجتماعي به كان بدمشق في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، ورأيت أيضاً من حسن عشرته وكمال مروءته وطيب أعراقه وجودة أخلاقه ودرايته وكرم نفسه ما يفوق الوصف ويتعجب منه ، ولقد شاهدت معه في ظاهر دمشق كثيراً من النباتات في مواضعه ، وقرأت عليه أيضاً تفسيره لأسماء أدوية كتاب ديسقوريدس ، فكنت أجد من غزارة علمه ودرايته وفهمه شيئاً كثيراً جداً ، وكنت أحضر عدة[٢٣] من الكتب المؤلفة في الأدوية المفردة ، مثل كتاب ديسقوريدس وجالينوس والغافقي وأمثالها من الكتب الجليلة في هذا الفن فكان يذكر أولاً ما قاله ديسقوريدس في كتابه باللفظ اليوناني على ما قد صححه في بلاد الروم ثم يذكر جملة ما قاله ديسقوريدس من نعته وصفته وأفعاله وما يتعلق بذلك • ويذكر أيضاً جملاً من أقوال المتأخرين فيه • ومواضع الغلط والاشتباه

الذي وقع لبعضهم في نعته ، فكنت أراجع تلك الكتب معه ، ولا أجده يغادر شيئاً مما فيها ، وأعجب من ذلك أيضاً أنه ما كان يذكر دواء الا ويعين في أي مقالة هو من كتاب ديسقوريدس وجالينوس، وفي أي عدد هو من جملة الأدوية المذكورة في تلك المقالة »[٣٤] .

ب - منهجه في الدراسة والبحث :

ان الأسلوب الذي سلكه ابن البيطار في وضعه لمؤلفاته والطريقة التي اعتمد عليها في بحوثه ودراساته تستحقان كل تقدير واعجاب. وحري بمن يضع مناهج للدراسة والبحث في أيامنا هذه أن يعتمدها لما فيها من براعة ودقة وأمانة علمية . ولنترك لابن البيطار نفسه أن يحدثنا عن الأغراض التي توخاها والمنهج الذي اتبعه في التأليف حين أخرج كتابه المشهور (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) .

كتب ابن البيطار في مقدمة كتابه هذا : (الغرض الأول) بهذا الكتاب استيعاب القول في الأدوية المفردة والأغذية المستعملة على الدوام والاستمرار عند الاحتياج اليها في ليل كان أو نهار ، مضافاً الى ذلك ذكر ما ينتفع به الناس من شعار ودثار واستوعبت فيه جميع ما في الخمس مقالات من كتاب الأفضل ديسقوريدس بنصه وكذا فعلت أيضاً بجميع ما أورده الفاضل جالينوس في الست مقالات من مفرداته بنصه ثم ألحقت بقولهما من أقوال المحدثين في الأدوية النباتية والمعدنية والحيوانية ما لم يذكراه ووصفت فيها عن ثقات المحدثين وعلماء النباتيين ما لم يصفاه وأسندت في جميع ذلك الأقوال الى قائلها وعرّفت طرق النقل فيها بذكر ناقلها واختصصت بما تم لي به الاستبداد[٣٥] وصح لي القول فيه ، وصح عندي الاعتماد عليه .

(الغرض الثاني) صحة النقل فيما أذكره عن الأقدمين وأحرره عن المتأخرين فما صح عندي بالمشاهدة والنظر وثبت لديّ بالخبَر ، ادخرته كنزاً سرياً وعددت نفسي عن الاستعانة بغيري فيه سوى الله غنياً وما كان مخالفاً في القوى والكيفية والمشاهدة الحسية في المنفعة والماهية للصواب والتحقيق أو أن ناقله أو قائله عدلا فيه عن سواء الطريق نبذته ظهرياً وهجرته ملياً وقلت لناقله أو قائله ، لقد جئت شيئاً فرياً ولم أحاب في ذلك قديماً لسبقه ولا محدثاً اعتمد غيري على صدقه .

(الغرض الثالث) ترك التكرار حسب الامكان الا فيما تمس الحاجة اليه لزيادة معنى وتبيان .

(الغرض الرابع) تقريب مآخذه بحسب ترتيبه على حروف المعجم مقفى ليسهل على الطالب ما طلب من غير مشقة ولا عناء ولا تعب.

(التنبيه الخامس) التنبيه على كل دواء وقع فيه وهم" أو غلط لمتقدم أو متأخر لاعتماد اكثرهم على الصحف والنقل واعتمادي على التجربة والمشاهدة حسب ما ذكرت قبل .

(الغرض السادس) في أسماء الأدوية بسائر اللغات المتباينة في السمات مع أني لم أذكر فيه ترجمة دواء الا وفيه منفعة مذكورة أو تجربة مشهورة »(٢٦) .

ومن هذه المقدمة نلاحظ أن أسلوب ابن البيطار في وضعه لمؤلفاته كان البدء بالتعريف باسم احد الأدوية ثم اعطاء عدة مرادفات لهذا الدواء مع العودة الى ما كتبه العلم اليوناني ديسقوريدس وكذلك العالم جالينوس فيما يختص هذا الدواء ومن ثم يستشهد ابن البيطار بالمحدثين من العلماء العرب في أيامه وبالدرجة الأولى الغافقي واسحاق بن عمران والدينوري (٢٧) كما عرفنا ذلك من شهادة ابن أبي أصيبعة .

وكان ابن البيطار يعتمد على الخبرة والتجربة ولا يتردد عن نبذ ما يراه مخالفاً لما شاهده ولمسه بعد الخبرة والتجربة مع الدقة في النقل وعدم التكرار حريصاً في الوقت نفسه على حسن الترتيب على حروف المعجم مع التيبيه على كل وهم أو غلط ارتكبه أحد من الأقدمين او المحدثين مبدياً رأيه في حال وجود تناقضات او اختلافات بين العلماء المختصين(٢٨) محتفظاً لكل دواء باسمه الذي يعرف في موضع نباته مترجماً له ان كان فيه منفعة أو فائدة، وفي هذا كل الصدق والأمانة العلمية اللتين يجب أن يتحلى بهما كل باحث أو دارس ، وهكذا كان حال ابن البيطار الذي وضع منهجاً فريداً في البحث وطريقة مثلى للدراسة فاستحق أن يلفت انتباه الباحثين والمختصين وأن تترجم كتاباته ومؤلفاته لتكون في متناول كل طالب للعلم وكل مجتهد للدراسة والبحث .

جـ ـ اكتشافاته العلمية :

لقد أسهم ابن البيطار في مجالي النبات والصيدلة باكتشافاته العلمية البارزة سواء عن طريق العثور على نباتات جديدة أثناء تجواله ورحلاته ذاكراً خواصها وفوائدها الطبية ، أم بالشروح والملاحظات التي دونها فيما يتعلق بتخزين النباتات المختلفة وحفظها وبمؤلفاته الهامة في علم الأقرباذين .

١ ـ ففي ميدان حفظ النباتات وتخزينها: كان ابن البيطار : « أول من شرح تأثير التخزين والحفظ على المواد الفعالة والمكونات الغذائية الموجودة في النبات »(٢٩) : مما سمح فيما بعد بوضع « الأسس العلمية لحفظ وتخزين النباتات الطبية والفطرية ، بالاضافة الى الحبوب أمثال الحنطة وغيرها »(٣٠) . وبذلك سبق هذا العالم بشروحه الدراسات الحديثة التي اعتمدت أصلاً على مؤلفاته ومؤلفات غيره من العلماء العرب لوضع الأصول التي ساعدت على حسن تخزين وحفظ مختلف أنواع النباتات والحبوب لنصل الى ما نعرفه اليوم من أسس وطرق للحفظ والتعليب .

٢ ـ أما عن عثوره على نباتات جديدة : فسيكون من الاطالة أن نعدد كل ما عثر عليه

ابن البيطار اثناء تجواله وتنقلاته بين قطر وآخر، وحسبنا أن نشير هنا الى بعض النباتات سواء المعروفة منها في أيامنا هذه لدى عامة الناس، أو تلك التي هي أقل تداولاً ومعرفة مشيرين في الوقت نفسه الى ظاهرة جد هامة في طريقة التدوين التي اتبعها ابن البيطار لأسماء النباتات ألا وهي احتفاظه بالأسماء البربرية للنباتات التي وجدها وقطفها[٣١] ، فعلى سبيل المثال نبات Argan أو (ارجان) وهو ما يعرف ثمره في بلدان المغرب باسم (لوز البربر) • فقد كتب ابن البيطار عن هذا النبات ما نصه : « (لوز البربر) ابن رضوان[٣٢] هو ثمر شبيه بصغير البلوط أصفر اللون في أحد جوانبه ثقب غير نافذة الى داخله وداخله شبيه بحب الصنوبر يجلب من شجر كبار بالمغرب الأقصى حار يابس للبطن ودهنه ينفع من الطرش القديم ووجع الأذن نفعاً بيناً والشربة منه التي تمسك البطن نصف درهم • لي هذا[٣٣] هو الهرجان والبربر بالمغرب الأقصى يسمونه أرجان وهو شجر يكون بالمغرب الأقصى بقبيلة مراكش ببلاد حاحا وركراكا كثير الشوك حديده يمنع شوكه من الوصول الى جني ثمرته ويستخرج من ثمرته دهن بأن تعطى ثمرته المعز او الإبل تأكله عند نضجه على شجره ، فاذا أكلته ورمت بنواه من بطونها فحينئذ يلقطونه ويكسرونه كاللوز ويأخذون لبه فيطحن كالزيتون ويستخرج منه دهن يتأدم به وهو عندهم من أفضل الأدهان وأرفعها ويسمى زيت الأركان»[٣٤]•

فلوز البربر اسم بربري لأحد النباتات الذي احتفظ به ابن البيطار حين وضع مؤلفه المشهور (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية)[٣٥] • وفي ذلك ما يدل على الدقة والأمانة العلمية اللتين تحدثنا عنهما أثناء تعرضنا لطريقته في البحث والتأليف •

ومن النباتات التي جاء ابن البيطار على ذكرها والموجودة في مناطق (مصر) هناك العديد المعروف منها في أيامنا هذه ، فعلى سبيل المثال لا الحصر : البامية ، الترمس ، الشمام ، الطرخون ، الهليون[٣٦] •

اما عن النباتات الجديدة، ففي خلال تجواله بالقرب من مدينة قسطنطينة (الجزائر) ، قطف ابن البيطار لأول مرة نبات Le PYRÈTHRE أو ما يسمى بعرديب • وفي تونس عثر على نبات Le TAFRAIT ، أو ما يسمى بالعربية دلدغ[٣٧] • وفي ليبيا دوّن ملاحظاته لأول مرة عن نبات L'OUCHCHAR [٣٨] • هذا عن رحلته في بلدان المغرب[٣٩] ، أما في بلدان المشرق فقد قطف ابن البيطار في غزة La PASSERINE او ما يسمى بحشيشة العصفور ، وفي القدس قطف Le COIX LACRYMAJOB ، وفي لبنان Le DAPHNOÏDES ، وفي أنطاكية L'HIPPOHÄE .أو ما يسمى بشولة الصبار[٤٠]•

اما مؤلفاته الهامة في علم الأقرباذين فسنفرد لها فقرة خاصة الا أننا نشير سلفاً الى الطريقة

التي اتبعها ابن البيطار وأمثاله من العلماء العرب في وضعهم لكتب العقاقير من شرح للمترادفات اليونانية والعربية واللاتينية مما جعل علماء الغرب أمثال سيمون دي كوردو Simon DE CORDO يحذون حذوهم فيما بعد في وضعهم لمعاجمهم ومؤلفاتهم[41] .

د ـ كتبه ومؤلفاته :

لقد كان حصيلة ما تركه ابن البيطار من كتب ومؤلفات دليلاً واضحاً وبرهاناً جلياً على تفوق هذا العالم ونبوغه في مجالات النبات والطب والصيدلة مما جعله يرقى الى مصاف كبار علماء المسلمين الذين أغنوا المكتبتين العربية والاسلامية بالبحوث والدراسات والمجلدات ، وان لم نفلح نحن أحفاد أولئك العلماء باستغلال ذلك الرصيد الهائل من المعرفة والعلوم تاركين لأوروبا أن تستفيد منه وتستغله في بناء حضارتها ومجدها العلمي ، فحريّ بنا اليوم ان نولي هذه الثروة العلمية اهتمامنا ونكرس لها من وقتنا ما يعيد اليها بريقها ولمعانها بالبحث والدراسة والتنقيب .

أما ما عرفناه من كتب ابن البيطار ومؤلفاته فهي :

١ ـ كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية :

هذا الكتاب من أشهر كتب ابن البيطار عمد فيه الى ذكر الأدوية المفردة وأسمائها وتحريرها ومنافعها مبيناً الصحيح منها وما وقع الاشتباه فيها .

ولقد ذكرنا في معرض حديثنا عن منهجه في الدراسة والبحث الأغراض التي توخاها حين وضع مؤلفه هذا ، وحسبنا ان نشير هنا الى شهادة ابن أبي أصيبعة – الذي كان كتابه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) أعظم الكتب وأوفاها في تراجم الأطباء العرب[42] – فقد قال : « لم يوجد في الأدوية المفردة كتاب أجلّ ولا أجود منه »[43] ، ذاكراً أن ابن البيطار قد صنف كتابه هذا للملك الصالح نجم الدين أيوب حين كان مقيماً في مصر[44] .

لقد كان المرجع الأساسي لكتاب (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) حسب رواية الدكتور ماير هوف[45] – كتاب أحمد الغافقي المتوفى سنة خمسمائة وخمسين هجرية .

طبع هذا الكتاب في القاهرة (بولاق) سنة ١٢٩١ هـ – ١٨٧٤ م، في أربعة أجزاء وقد ترجمه الى اللغة الفرنسية الدكتور لوسيان لوكلير Lucien LECLERC وسمحت هذه الترجمة بالقيام بأبحاث عديدة في علم الأقرباذين عند العرب . وقد قام ابن منظور صاحب (لسان العرب) بوضع مختصر لكتاب ابن البيطار ، وهذا المختصر موجود في الخزانة التيمورية[46].

٢ – ومن كتبه المشهورة أيضاً كتاب (المغني في الأدوية المفردة)[47] ، وهو مرتب

بحسب مداواة الأعضاء ، وقد استعمله ابن السُّوَيْدي[٤٨] – تلميذ ابن البيطار – لتأليف كتابه (السمات في أسماء النبات)[٤٩] .

لقد ألّف ابن البيطار كتابه هذا بعد ان كتب (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) مما أتاح لهذا العالم أن يضيف عدداً لا بأس به من الوثائق الجديدة في كتابه المغني ، الذي ينقسم الى عشرين فصلاً يحوي كل واحد منه على الأدوية النافعة لمعالجة مرض من الأمراض ، فعلى سبيل المثال :

الفصل الأول : يحوي على الأدوية المتعلقة بمعالجة أمراض الرأس .

الفصل الثاني: يحوي على الأدوية المتعلقة بمعالجة أمراض الأذن .

الفصل الثالث: يحوي على الأدوية المتعلقة بمعالجة أمراض العيون .

أما الفصول الأربعة الأخيرة من هذا الكتاب القيّم فهي :

الفصل السابع عشر : يحوي على الأدوية المستعملة للتجميل .

الفصل الثامن عشر : يحوي على الأدوية المستعملة ضد الحرارة أو فساد الجو .

الفصل التاسع عشر : يحوي على الأدوية المستعملة ضد السموم .

الفصل العشرون : يحوي على الأدوية الأكثر استعمالاً في الطب[٥٠] .

ولم يكتف ابن البيطار في كتابه هذا بذكر الأدوية بل أدلى برأيه فيها بعد أن أخضعها للتجربة والملاحظة . فمثلاً مما ذكره عن مرض الجدري . أنه حالما تظهر البقع عند الطفل يجب أن ندلك له باطن القدم بالحنة مما يجنبه – حسبما لاحظه ابن البيطار – أن تظهر مثل هذه البقع على العيون[٥١] .

وقد لاحظ لوكلير أن (المغني في الأدوية المفردة) كان معتدلاً في التفصيلات المتعلقة بعلم الأمراض على خلاف تلك المتعلقة بالتاريخ الطبيعي وفي هذا النطاق نجد عدة وقائع لا نجدها في كتاب (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية)[٥٢] .

ولا يزال كتاب (المغني في الأدوية المفردة) مخطوطاً[٥٣] ، وقد ساعد هذا الكتاب على التعرف على حياة ابن البيطار[٥٤] . وقد أهدى هذا العالم كتابه المغني للملك الصالح نجم الدين أيوب[٥٥] .

٣ – كتاب (الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام) : والمنهاج هو كتاب ابن جزْلة[٥٦] (منهاج البيان فيما يستعمله الانسان) – مخطوط – وقد رتبه ابن جزْلة على الحروف وجمع فيه اسماء الحشائش والعقاقير والأدوية[٥٧] . وفي كتابه (الإبانة والإعلام بما في المنهاج من

الخلل والأوهام) عمد ابن البيطار الى شرح أدوية كتاب ديسقوريدس[٥٨] .

٤ – كتاب (ميزان الطبيب) ولا يزال مخطوطاً[٥٩] .

٥ – كتاب (الأفعال الغريبة والخواص العجيبة)[٦٠] .

٦ – (رسالة في الأقضية والأدوية)[٦١] .

٧ – (مقالة في الليمون وشرابه ومنافعه)[٦٢] .

٨ – كتاب (جامع المنافع البدنية في طب البرية)[٦٣] .

٩ – (رسالة في تداوي السموم)[٦٤] .

☐ **الخاتمة :**

وبعد ، فهذا غيض من فيض لما احتوته مكتبة التراث العربي ، وما كتبه المستشرقون عن العالم الاسلامي ابن البيطار ، الذي شملت علومه واختصاصاته مجالات النبات والصيدلة والطب، وان كنا قد أغفلنا من ذكر أخباره أو كبير قدره وسعة اطلاعه وعلومه وعظيم تفوقه ونبوغه فعذرنا أنها محاولة متواضعة أردنا منها أن نلفت انتباه اخواننا المشتغلين والمتخصصين في علوم ابن البيطار لعل ما بقي من كتبه المخطوطة أو المطبوعة – وما أندرها – يلقى الاهتمام للتفرغ للطبع والشرح والتعليق ، فمهما تعاقبت القرون والسنون على كتب التراث فان قيمتها لا تضيع وبريقها لا يتلاشى وبخاصة ما جاء به نبوغ ابن البيطار وذكاؤه ، فما قامت عليه علوم الصيدلة والنبات قد بني على هذه الكتب وعلى غيرها من مؤلفات العلماء العرب والتي لها علينا ولأصحابها الحق كل الحق بالحفظ والإشادة والتذكير .

★ ★ ★

☐ **هوامش :**

١ – هو موفق الدين أبو العباس احمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي : طبيب مؤرخ ولد في مدينة دمشق عام ٥٩٦ هـ/١٢٠٠ م . سليل عائلة خرجت عدة أطباء . أقام في مدينة دمشق وتوفي بصرخد – المعروفة اليوم بصلخد – (حوران) عام ٦٦٨ هـ/١٢٧٠ م . له عدة مؤلفات أشهرها (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) . راجع الأعلام لخيرالدين الزركلي منشورات مطبعة كوستاتسوماس وشركاه . القاهرة : ١٣٧٤ هـ/١٩٥٤ م . الطبعة الثانية جـ ١ ص (١٨٨ – ١٨٩) . والموسوعة الاسلامية الصادرة باللغة الفرنسية الطبعة الثانية منشورات :
E. J. BRILL LEYDE - G. - P. MAISONNEUVE et LAROSE S. A. PARIS 1971
الجزء الثالث ص (٧١٥ – ٧١٦) .

٢ – ابن أبي أصيبعة . عيون الأنباء في طبقات الأطباء . الباب الرابع عشر ص (٦٠١) . شرح وتحقيق الدكتور نزار رضا . منشورات مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٥ م .

٣ – لوسيان لوكلير : « دراسة تاريخية ولغوية عن ابن البيطار » . مقالة منشورة في المجلة الآسيوية الصادرة باللغة الفرنسية ص (٤٣٧) . شهر حزيران من عام ١٨٢٦ م .
LECLERC lucien « Etude Historique et Philologiques sur EBN BEITAR ». Journal Asiatique. Juin 1962, p. 437.

٤ ـ جلال مظهر • أثر العرب في الحضارة الأوروبية • منشورات دار الرائد بيروت ١٩٦٧ م • ص (٢٧٣) •

٥ ـ ديسقوريدس : طبيب يوناني ولد في عين زربة في آسيا الصغرى في القرن الأول بعد الميلاد •

٦ ـ مالقة ـ حسب ما أخرجه ياقوت الحموي في معجم البلدان• منشورات دار صادر بيروت ١٩٧٧ • الجزء الخامس ص (٤٣) : « مدينة بالأندلس عامرة من أعمال ريّة سورها على شاطىء البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية » •

٧ ـ هناك من المستشرقين من ذكر أن ولادة هذا العالم كانت في عام ١١٩٧ م • الا أن الدكتور لوكلير لم يعتمد هذا الرأي • راجع لوسيان لوكلير • تاريخ الطب العربي • منشورات برت فرانكلين ـ نيويورك ١٨٧٦ م • الجزء الثاني ص (٢٢٥) •

LECLERC lucien. Histoire de la médecine arabe. Editions Burt Franklin, N.Y. 1876. Tome II, p. 225.

٨ ـ المرجع السابق ص (٢٢٦) •

٩ ـ رينية باسية • الأسماء البربرية للنباتات في الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار • في مجلة الجمعية الآسيوية الايطالية • لعام ١٨٩٩ م • ص (٥٣) •

BASSET René. les nom berbères des plantes dans le traité des simples d'Ibn ELBEITAR. Giornal della Societa Asiatica Italiana. Volume Doclicesiom 1899, p. 53.

١٠ـ لوكلير • تاريخ الطب العربي • الجزء الثاني ص (٢٢٨)•

١١ـ هو محمد بن محمد بن أيوب من سلاطين الدولة الأيوبية• ولد بمصر وتولى حكمها بعد وفاة أبيه سنة ٦١٥ هـ/١٢١٧م• وامتدت حدود الدولة الأيوبية أيام حكمه لتصل إلى ديار الشام ، كما دخل ابنه (الملك المسعود) سنة ٦٢٠ هـ/ ١٢٢٢ م • مكة المكرمة • وقد توفي الملك الكامل في دمشق عام ٦٣٥ هـ/١٢٣٨ م • ودفن في قلعتها • راجع الأعلام للزركلي • الطبعة الثانية الجزء السابع • ص (٢٥٥)•

١٢ـ الدكتور أحمد السعيد سليمان • تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسر الحاكمة • منشورات دار المعارف بمصر عام ١٩٧٢ م • الجزء الأول ص (١٤٢) •

١٣ـ محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي • فوات الوفيات ص (٤٣٤) • وهو ذيل على كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان • حققه وضبطه وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد •وطبع في مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥١ م •

١٤ـ ابن أبي أصيبعة • عيون الأنباء في طبقات الأطباء •الباب الرابع عشر •

١٥ـ أرنست سيكينبرجر • النباتات المصرية لابن البيطار •مقالة منشورة في مجلة المعهد المصري الصادرة باللغة الفرنسية• الجزء الثاني ، رقم (١٠) لعام ١٨٨٩ م • القسم الثاني من العدد ص (٣) •

SICKENBERGER Ernest. « les Plantes Egyptiennes d'Ibn Beithar ». Bulletin de l'Institut Egyptienne. Deuxième Série No. 10. Année 1889. Deuxième Parlie, p. 3.

١٦ـ هو أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب من كبار ملوك بني أيوب في مصر • ولد في القاهرة عام ٦٠٣ هـ/١٢٠٦ م ، وولي الحكم بعد وفاة أبيه عام ٦٣٥ هـ/١٢٣٨ م • مات الملك الصالح بالمنصورة في مصر عام ٦٤٧ هـ/١٢٤٦ م • وقد عرف بالشجاعة والحزم أيام حكمه • راجع الأعلام •للزركلي • الطبعة الثانية الجزء الأول ص (٣٨٢) •

١٧ـ هو عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان ،أبو محمد الكومي ، مؤسس دولة الموحدين في المغرب ، وافريقية وتونس • كانت ولادته عام ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م في مدينة تاجرت قرب تلمسان في الجزائر • بويع أميرا للمؤمنين عام ٥٢٦ هـ/١١٣١ م بعد أن تم له الأمر في المغرب الأقصى عقب وفاة المهدي ابن تومرت • دخل مراكش عام ٥٤١ هـ

/١١٤٦ م وخضع له المغربان الأقصى والأوسط ٠استولى على اشبيلية وقرطبة وغرناطة والجزائر والمهدية وطرابلس الغرب ٠ توفي في رباط سلا عام ٥٥٨ هـ/١١٦٣ م ونقل الى تينملل ليدفن فيها ٠ راجع الأعلام ٠ للزركلي ، الطبعة الثانية ٠ الجزء الرابع ٠ ص (٣١٩) ٠

١٨ـ محمد أسعد طلس ٠ تاريخ الأمة العربية ٠ عصر الاتساق٠ الطبعة الأولى ٠ منشورات دار الأندلس بيروت ١٩٥٨ م ٠ ص (٢٥٤) ٠

١٩ـ محمد أسعد طلس ٠ تاريخ الأمة العربية عصرالانحدار ٠الطبعة الأولى منشورات دار الأندلس بيروت ١٩٦٣ م٠ص (٨)٠

٢٠ـ المرجع السابق ص (٩) ٠

٢١ـ هو عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم الربضي بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، أبو المطرف المرواني الأموي ٠ كان أول من تلقب بالخلافة من رجال الدولة الأموية في الأندلس وكان ذلك عام ٣١٦ هـ/ ٩٢٨ م ٠ ولد في عام ٢٧٧ هـ/٨٩٠ م في قرطبة وتوفي فيها عام ٣٥٠ هـ/٩٦١ م ٠ راجع الأعلام للزركلي الطبعة الثانية ٠ الجزء الرابع ٠ ص (٩٩ ـ ١٠٠) ٠

٢٢ـ محمد أسعد طلس ٠ تاريخ الأمة العربية ٠ عصر الاتساق ٠ الطبعة الأولى ص (٢٥٧) ٠

٢٣ـ ولعله قصد : أحضر دراسة عدة من الكتب ٠٠٠

٢٤ـ ابن أبي أصيبعة ٠ عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٠ الباب الرابع عشر ٠

٢٥ـ ولعله قصد (الاسناد) ٠

٢٦ـ نقلنا ما جاء في هذه المقدمة من احدى نسخ كتاب ابن البيطار (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) ٠ الجزء الأول ص (٢ ـ ٣) ٠ والمطبوع حسب ما ورد في الصفحتين (٢١٠ ـ ٢١١) من نهاية الجزء الرابع في مطبعة (اسماعيل ابن ابراهيم بن محمد علي) ـ بولاق ـ حيث تمت طباعة هذه النسخة في أواخر ذي القعدة من سنة مائتين وألف واحدى وتسعين هجرية ٠ (وهذه النسخة موجودة في المكتبة الوطنية لمدينة ستراسبورغ بفرنسا تحت الرقم س ١١٢٥٩ ٠

٢٧ـ هو أحمد بن داود بن وتند الدينوري ، أبو حنيفة ٠ عالم ومؤرخ نباتي وهو من أوائل المسلمين الذين قاموا بوضع أسس تصنيف النبات في القرن الثالث الهجري ٠ ترك عدة مؤلفات منها ما طبع مثل « الأخبار الطوال » وهو مختصر في التاريخ ٠ لم يعرف تاريخ ميلاده ، الا ان وفاته كانت في عام ٢٨٢ هـ/٨٩٥ م ٠ راجع الأعلام ٠ للزركلي ٠ الطبعة الثانية الجزء الأول ٠ ص (١١٩) ٠

٢٨ـ لوكلير ٠ دراسة تاريخية ولغوية عن ابن البيطار ٠ ص(٤٣٤) ٠

٢٩ـ الدكتور علي مجذوب ٠ علوم الزراعة والبيطرة في الحضارة الاسلامية ٠ الاسلام اليوم : مجلة المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة ٠ العدد الأول ٠ ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م٠ص (٥٧) ٠

٣٠ـ المرجع السابق ٠ ص (٥٧) ٠

٣١ـ لوكلير ٠ تاريخ الطب العربي ٠ الجزء الثاني ص (٢٢٦)٠

٣٢ـ بدأ ابن البيطار بذكر ما كتبه أحد العلماء العرب عن هذا النبات وهو ابن رضوان ٠ وابن رضوان هذا هو علي ابن رضوان بن علي بن جعفر ، أبو الحسن : طبيب ، رياضي ومن العلماء من أهل مصر ٠ لم يعرف تاريخ ميلاده وكانت وفاته عام ٤٥٣ هـ/١٠٦١ م ٠ له عدة مؤلفات وترجمات ومن كتبه المطبوعة « دفع مضار الأبدان » ٠ وقد كان حسب ما ذكره ابن تغري بردي : من كبار الفلاسفة في الاسلام ٠ ومن كتبه في هذا المجال « حل شكوك الرازي على كتب جالينوس » و « المستعمل من المنطق في العلوم والصنائع » و «التوسط بين أرسطو وخصومه» ٠ راجع الأعلام ٠ للزركلي، الطبعة الثانية ٠ الجزء الخامس ص (١٠٠) ٠

٣٣ـ ويقصد هنا ابن البيطار نفسه .

٣٤ـ ابن البيطار . كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية .مطبعة اسماعيل بن ابراهيم بن محمد علي ١٢٩١ هـ/١٨٧٤ م. الجزء الرابع ص (١١٢) .

٣٥ـ رينية باسية . الأسماء البربرية للنباتات في الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار . ص (٥٨) .

٣٦ـ أرنست سيكيبنرجر . النباتات المصرية لابن البيطار .ص (٩ ، ١٠ ، ١١) .
ذكر سيكينبرجر أن ابن البيطار أشار الى تسع وتسعين نباتا من نباتات مصر وانه (أي سيكينبرجر) أكد وجود واحد وخمسين من هذه النبات . وان هناك أحد عشر نباتا لم يتعرف أحد على وجودهم وانـه قد توصل لتحديـد خمسة منهم على خلاف الستة الباقية وانه رفض وجود أو طعن في ستة وثلاثين نباتا وبذلك يكون المجموع تسعا وتسعين نباتا .
راجع مقالته ص (٦) .

٣٧ـ جاء ابن البيطار على ذكر هذا النبات في كتابه (الجامع لمفردات الأدويـة والأغذيـة) ، الجـزء الثـاني ص (٩٥) :
« (دلدغ) أبو العباس النباتي يقـال مضموم الدال ساكن اللام بعدها دال أخرى مضمومـة ثم غين معجمة اسـم ببلاد بيت المقدس للنـوع العـريض الورق من الكلخ المعروف بغرناطة من بلاد الأندلس بالكلخ الدلبي وبغيرها مـن بلاد البربر بالتافيفرا مختبر عندهم في النفع للأوجـاع ويزيد في الباه شربا قال المؤلف هذا الدواء المسمى باليونانية سفندوليون » .

٣٨ـ لوسيان لوكلير . تاريـخ الطب العربي . الجـزء الثاني ص (٢٢٦) .

٣٩ـ المرجع السابق . ص (٢٢٦) .

٤٠ـ المرجع السابق . ص (٢٢٨) .

٤١ـ جلال مظهر . اثر العرب في الحضارة الأوروبيـة . ص (١٩٨) .

٤٢ـ الدكتور نشات حمارنة . تراجم الأطباء العرب . مجلـة التراث العربي . العدد الرابع . السنة الثانية . آذار ١٩٨١ م. ص (٣٦) .

٤٣ـ ابن أبي أصيبعة . عيون الأنباء في طبقات الأطباء . الباب الرابع عشر .

٤٤ـ شحاته قنواتي . تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهـد القديم والوسيط . منشورات دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م . ص (١٦٩) .

٤٥ـ المرجع السابق ص (١٦٩) .

٤٦ـ راجع مجلة المجمع العلمي العربي . دمشق . المجـلد الثالث . الجزء الحادي عشر ـ تشرين الثاني عام ١٩٢٣ م . ص (٣٦١) .

٤٧ـ في ترجمة فوات الوفيات اسم الكتاب (المغني في الطب).

٤٨ـ هو ابراهيم بن محمد بن علي بن طرخان الأنصاري ، أبو اسحاق ، عز الدين ، من ولـد سعد بن معـاذ ، من الأوس ، نسبته الى السويداء . طبيب دمشقي كانت ولادته عام ٦٠٠ هـ/١٢٠٤ م . عمـل طبيبـا في « البيمارسـان النـوري وبيمارسان باب البريد » في دمشق . نه في الطب « التذكرة الهادية » و « الباهر في خواص الجواهر » . توفي عـام ٦٩٠ هـ/١٢٩١ م . راجع الأعلام . للزركلي . الطبعـة الثانية . الجزء الأول ص (٦٠) .

٤٩ـ شحاته قنواتي . تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهـد القديم والوسيط . ص (١٦٩) .

٥٠ـ لوسيان لوكلير . تاريخ الطب عند العرب . الجزء الثاني ص (٢٣٥ ـ ٢٣٦) .

٥١ـ المرجع السابق ، ص (٢٣٦) ،

٥٢ـ المرجع السابق ، ص (٢٣٦) ،

٥٣ـ هذه المخطوطة موجودة في باريس وهناك عدة روايات لرقمهذه المخطوطة ، فقد كتب لوكلير أنها تحت الرقم /١٠٠٨/ في المجموعة القديمة ، أما في المجموعة الجديدة فهي تحت الرقم /١٠٢٩/ ، أما في موسوعة بروكلمان ص (٦٤٨) فالمخطوطة موجودة في باريس تحت الرقم (I/٢٩٩٠) ، أما في الملحق الأول لنفس الموسوعة ص (٨٩٧) فهي تحت الرقم (٦٦٢٣و٥٧٧٧) ،

٥٤ـ لوسيان لوكلير ، تاريخ الطب عند العرب ، الجزء الثاني ص (٢٣٦) ،

٥٥ـ الموسوعة الاسلامية الصادرة باللغة الفرنسية ، الطبعة الثانية ، الجزء الثالث ص (٧٦٠) ،

٥٦ـ هو يحيى بن عيسى بن جزلة البغدادي ، ابو علي ، لم يعرف تاريخ ميلاده ، كان باحثا من أهل بغداد ، وامام انطب في عصره ، كان مسيحيا واسلم في سنة ٤٦٦ هـ واتصل بالمقتدي بالله العباسي ، من كتبه بالاضافة للمنهاج : « تقويم الأبدان » وهو مطبوع ، و « الاشارة في تلخيص العبارة » ، ورسالة « الرد على النصارى » ، ورسالة في « فضائل الطب » كانت وفاته في سنة ٤٩٣ هـ/١١٠٠ م ،
راجع الأعلام ، للزركلي ، الطبعة الثانية ، الجزء التاسع ، ص (٢٠٢ ـ ٢٠٣) ،

٥٧ـ في الفاتيكان نسخة منه وقد ترجم الى اللاتينية عام ١٥٣٢ م ، الاعلام للزركلي ، الطبعة الثانية ، الجزء التاسع ، ص (٢٠٢) ،

٥٨ـ ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، الباب الرابع عشر ،

٥٩ـ الأعلام ، للزركلي ، الطبعة الثانية ، الجزء الرابع ص(١٩٢) ،

٦٠ـ ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، الباب الرابع عشر ،

٦١ـ الموسوعة الاسلامية الصادرة باللغة الفرنسية ، الطبعة الثانية ١٩٧١ ، الجزء الثالث ص (٧٥٩) ،

٦٢ـ موسوعة بروكلمان ، الصادرة باللغة الألمانية ، الملحق الأول لعام ١٩٣٧ م ، ص (٨٩٧) ،

٦٣ـ المرجع السابق ، ص (٨٩٧) ،

٦٤ـ موسوعة بروكلمان ، الصادرة باللغة الألمانية طبعة عام ١٩٤٣ م ، ص (٦٤٨) ،

★ ★ ★

كتب تراثيّة وفكريّة

العالم الاسلامي اليوم THE MUSLIM WORLD TODAY

تأليف س. أمجد علي(١)

هو الكتاب المصور الوحيد الشامل الذي يتناول العالم الاسلامي الراهن في مجلد واحد. مقدمته تزود بمعلومات ثمينة كتبها العلامة البارز ن. ا. بالوخ وتوطئته المنيرة وضعها ال. بروهي ومدخله يروي بقصة مثيرة تحرر العالم الاسلامي وخلاصه من سيطرة الاستعمار واليقظة السياسية والدينية التي كانت سبب ذلك الخلاص والتحرر .

يتناول الكتاب بفصوله البلدان الستة والأربعين الاسلامية المستقلة ويفرد لفلسطين دراسة خاصة .

وهو يصف في كل فصل أرض البلد جمعاء ثم يصف شعبه الذي يعيش فيه ثم يعطي خلاصة عن تاريخه من أوغله في القدم إلى أحدثه في العصر الحاضر . ويتطرق الكتاب الى الاقتصاد أيضاً بوقائعه وأرقامه وثمة مقاطع عن الشؤون المالية والتخطيط والزراعة والصناعة والنقل والتجارة والتربية والصحة ويخص الكتاب ببحثين مستقلين في الفصل السادس انتشار الاسلام والنجاح الذي لقيه في أوربة وأمريكة .

وثمة خريطة لكل بلد من البلاد الاسلامية والعربية وألف صورة ملونة وهذا يضفي على الكتاب قيمة وأهمية خاصة :

- الفصل الأول : مقدمات .
- الفصل الثاني : مسلمو الشرق الأقصى .
- الفصل الثالث : مسلمو الشرق الأوسط.
- الفصل الرابع : مسلمو شمالي افريقية .
- الفصل الخامس : مسلمو جنوبي الصحراء الافريقية .
- الفصل السادس : مسلمو أوروبة وأمريكة .

والكتاب صدر ضمن سلسلة يصدرهـاالمجلس الوطني للهجْرة في باكستان احتفـالا بدخول القرن الخامس عشر الهجري وقد ظهرعام ١٤٠٥ هـ الموافق ١٩٨٥ م في اسلام أباد ويقع في ٦٢٧ صفحة من القطع الكبير تزينهاللوحات والرسوم الملونة والخرائط وهو بحق موسوعة ممتازة في التاريخ الاسلامي والعربيباللغة الانكليزية ٠ والراجـح ان كـل بلد أشرف على كتابة الفصل الذي يتعلق به وحبذالو عمدت البلاد العربية الى اصدار موسوعـة أكثر تفصيلا وتخصصاً بالوطن العربي أجمع٠

★ ★ ★

ملتان تاريخها وفن عمارتها : تاليف : أحمد نبي خان

MULTAN HISTORY AND ARCHITECTURE

كتاب صادر عن معهد التاريخ والثقافـةوالحضارة الاسلامية التابع للجامعة الاسلامية في اسلام أباد باللغة الانكليزية ٠

تعد ملتان من أقدم مدن باكستان وقـداستمر تاريخها الثقافي والديني بشكل متواصل مدى خمسة آلاف سنة ٠ وبعض البراهين الأثرية تثبت أن تلك المنطقة قطنها الناس حتى قبل التاريـخ في حضـارة يسمونهـا الهندوسيـة Indus Civilization وفي فجر التاريخ كانت ملتان متوارية في الظـل حتى بداية التاريـخالميـلادي اذ أصبحت احـدى عشريـن مقاطعة تابعـة للامبراطوريـة الأخامانية فيالقرون الأولى الميلاديـة وشاعت فيها عبـادة الشمس وشيدت لذلك معابد في أرجاء المدينةالى أن جاء الفتح الاسلامي فادخـل قيمـاً اجتماعية ودينية جديدة ٠ بعد انهيار امارةبني سماح انتشرت فيها الدعوات الاسماعيلية التي كانت تنظمها الخلافة الفاطمية في مصرثم تحولت المدينـة في القرنين الثـالث عشـر والرابـع عشـر الى مركز كبـير للسلسـلةالسهروردية التي كان على رأسهاشيخ الشيوخ بهاء الدين زكريا ، وخانقاه هـذه السلسلة فيتلك المدينة كانت مشهورة في العالمالاسلامي بأسرهوفي هذا الوقت تدفقت جموع المهاجرينمن مختلف المراكز الثقافيـة والحضاريـة في آسية الوسطى وايران عندمـا اجتاح المغـولمدينة ملتان وقد أعطى هـذا الوضع تلوينـاً متنوعاً للمجتمع المحلي فظهر أدبـاء بارزونوصوفية وعلماء وقادة وشعراء ومعماريون ومهندسون وملوك وحكام ٠ وبينمـا كانتقوافل الناس المتاجرة من مختلف البلدان تأتي الى ملتان تعبداً وتجارة كان بعض الملتانيينيذهبون لزيارة المراكـز الأخرى في العـالـم الاسلامي وبالفعل تكونت فيها لبنة اجتماعيـةوثقافية وسياسية جديدة متميزة عن المراكـز الجغرافية السياسية في شبه القارة الهندية ٠

لقد ساهمت ملتان خاصة في وضع وتطوير أسلوب في فن البناء متميز وفريد ورغـم أن أقدم شواهد هذا الأسلوب ظهر في مواضعأخرى ولكن استقطابه وتمثلـه تمَّا في هـذه

المدينة بالذات بسبب الخدمات المتميزة التيكان يتطلبها الصوفية السهروردیون وخاصة بهاء الدين زكريا وحفيده الشيخ ركن الدينركن العالم ٠

لقد شاهد الداعية السهروردي العظيمبهاء الدين نماذج فن العمارة الاسلامي أثناء اقامته في مختلف مراكز العالمالاسلامي وعندماتقدمت به السن وأراد أن يبني قبره في ملتان نقل ملاحظاته الى عمال البنـاء والمهندسين فيآسية الوسطى وكانت تلك المحاولة الأولى من نوعها على أرض باكستان وتبعه حفيده الشيخركن الدين ركن العالم الذي بنى بدوره نصباً فاخراً يكون قبراً له بعـد وفاته وهو مثمـنالقاعدة يستدق كلما ارتفع وتزيينات الضريح أصبحت نموذجاً يحتذى للنصب الجنائزيـةعلى مدى القرون الثلاثة التالية ٠

الكتاب يقع في ٣٩٠ صفحة من القطـعالكبير مزين بالزخارف والنقـوش ولوحـات الأضرحةالشهيرةالتيتمثلفن العمارةالاسلاميةفي أوجه ٠ وفي الملاحق ذكر لما رواه المؤرخون العرب عن مدينة ملتان ومعبد الشمس فيهـا(باللغـة العربيـة) من أمثـال القزوينـي والاصطخري وياقوت الحموي وغيرهم ٠

نقتطف ما جـاء على لسان ياقـوت فيمعجم البلدان في مادة ملتان ٠ « مولتان : بضم أوله وسكون ثانيه واللام يلتقي فيه ساكنـانوتاء مثناه من فوق وآخره نون وأكثر ما يسمع فيه مُلتان بغير واو ، بلد في بلاد الهنـد علىسمت غزنة قال الاصطخري٠وأماالمولتانفهي مدينة نحو نصف المنصورة ويسمى فَرْج بيتالذهب وبها صنم تعظمه الهند وتحج اليه من أقصى بلدانها ويتقرب الى الصنم كل عام بمالعظيم ينفق علىبيت الصنموالمعتكفين عليهمنهم وسمي المولتان بهذا الصنـم ٠ وانمـا سميالمولتان فرج بيت الذهب لأنهـا فتحت في أول الاسلام وكان بالمولتان ضيق وقحط فوجـدوافيها ذهباً كثيراً فاتسعوا به الخ ٠٠٠

★ ★ ★

مدينة اج أو اش ـ تاريخها وفن عمارتها ـ تأليف أحمد نبي خان

UCHCH HISTORY AND ARCHITECTURE

قدم المعهد القومي للأبحاث التاريخيـةوالحضارية في باكستان لهذا الكتاب بقوله : « جرت العادة أن نقرأ تواريخ الملوك وممالكهمونعرف الكثير عن عواصمهـم ولكن نـدر أن ننوه بأهمية المراكز أو المدن الصغيرة التـيأثرت تأثيراً بالغاً في النمو الحضاري والثقافي لمنطقة ما ٠ واذا أردنا أن نذكـر أحد هـذهالمراكز للتنبيه على أهمية الاسلام في وجهـه الاجتماعي الحضاري فاننا لن نجد في مناطقالهند الوسطى أفضل من (اج) ٠

مدينة صغيرة تجثم على طرف الصحـراءوتحمل في طياتها أخبار الماضي وتطالبنـا أن نسبر غـور صفحتهـا التاريخيـة في العصـرالبرونزي وفي العصور التاريخية الموغـلة في القدم وهو أمر لا بد من بحثـه في المستقبـلبانتظار ذلك فان الدكتور أحمد نبي خان أخذ على عاتقه أن يجمع في مؤلف واحـد جميـعالوقائع التاريخيـة التي يمكـن التقاطهـا في

المؤلفات المتوافرة ويحكيها في قصة عن مدينة اج ذلك أن تاريخ منطقة ما هو جزء لا يتجزأ من قدرها ·

وفي هذه الصفحات لا يتكلم الدكتور خان على الملوك فقط بل ينظر نظرة أوسع فيتناول بالبحث الأولياء ومريديهم لأنهم هم الذين أعطوها المكانة الدائمة والقيمة اللائقة في تاريخ المنطقة بأسرها ومن خلال هؤلاء الأولياء والصوفية ندرك الى أي مدى والى أي عمق كان تأثير الاسلام في شعوب الهند· وان التعداد الزمني أو التاريخي لأولئك الأولياء مع الرؤساء الاداريين والشخصيات السياسية يزودنا بمعيار نقيس به مجريات التاريخ ودون ذكرهم يصبح تاريخ اج قصة فقيرة اذ ان هذه المدينة تمتعت بكونها عاصمة مرة واحدة طوال تاريخها وذلك بزمن ناصر الدين قباجة (المعزي)(٢) ولكنها ظلت على التاريخ ملتقى التقاة من الدراويش الذين آثروا الاقامة في الجزء الأسفل من المجرى الشرقي لنهر (السوتلج) ونفثوا آثارهم اللطيفة على السواء في المستوطنين وفي القبائل الرحل من الصحراء الشرقية · ولا عجب ان المساكن التي شغلها أولئك الأولياء ومقاماتهم وبيوتات عبادتهم تشغل اليوم أمكنة بارزة بين الأبنية التي لم تندثر · وقد خصص الدكتور خان جزءاً كبيراً من كتابه للنسق المعماري الذي شيدت به تلك الأبنية كما أبرز المكانة التي تشغلها في النموذج العام لتطور الآثار في المنطقة · فهندسة العمارة وهي جزء مما كان يسمى (مدرسة الملتان) أمر مزدهر وجذاب وهي تبني بالتأثيرات الواردة من آسية الوسطى · والدراسة تبرز الأسلوب المبتكر بصرف النظر عن الطين والخشب المتوافرين في تلك المنطقة ذلك أن أسلوب الآجر هو الصفة المميزة لهذه الهندسة والأطر الخشبية هي هيكلها الخلفي ولكن القرميد المتألق الصقيل كان يجتذب المؤمنين والمنبوذين على السواء · وما دام ذلك السحر المعماري يسم تلك المباني فان الناس يحتشدون حولها يطلبون الارشاد والعزاء من الأولياء في دار الفناء لأجل دار البقاء ·

ان (اج) تجسد في التاريخ الرسالة الخالدة للعرب المسلمين · وقد أجاد الدكتور أحمد نبي خان في وضع خطة كتابه كما أجاد في الأسلوب والكتابة لذا جاء مؤلفه المصدر الرئيسي للمعلومات عن تاريخ المدينة وفنها المعماري » · يذكر المؤلف في مدخل الكتاب لمحة عن باكستان ويعتبرها أرضاً قامت عليها أعظم حضارات الشرق القديم ونشأت فيها مدن كبيرة وصغيرة ساهمت في صنع التاريخ بعضها مع عواصم في فترات معينة بينما شهر بعضها الآخر مثل اج وملتان وديباليور وباكباتان ولاهور وبيشاور بكونها مراكز للثقافة والحضارة منذ فجر التاريخ ·

ويذكر أن اج عندما أصبحت عاصمة بزمن ناصر الدين قباجة المعزي تحولت الى مركز عالمي استقطب علماء الدين والأدباء والفنانين والمهندسين وان بلاطه أصبح ملتقى جميع أولئك المهاجرين من البلاد البعيدة الى آسية الوسطى لاجئين أو مستعطفين أو مؤيدين كما ان وزيره عين الملك كان زعيم الفن والعلم وظهرت في المدينة شخصيات بارزة أمثال : محمد عوفي منهاج الدين سراج جزجاني ، ضياء الدين سجزي ، شمس الدين محمد الكاتب البلخي الخ · ويروي كيف أنشأ قباجة الخانقاهات والمعاهد والسراي (القصور)

في أرجاء المملكة ومن بين المدارس التي اشتهرت المدرسة الفيروزية ومن أشهر من كان فيها المؤرخ منهاجي سراج الذي أشرف على كتابة أول تاريخ للسند (الشاهنامة) وأقدم مختارات من تراجم الشعراء الفرس وهو (لباب الآدب) ٠ ومع زوال ملك ناصر الدين تقلص المجد المادي لمدينة اج ولكن عظمتها الروحية ظلت متألقة ومسيطرة دائماً وقدم اليها صوفية عظام وشخصيات روحية عالية لتعظ الناس وتدعو الى الحياة الفضلى وبفضل هؤلاء ثبت الاسلام أقدامه في القارة ٠

قيل الكثير عن أصل كلمة اج ربما كانت مشتقة من أوشاس الهة السحر وربما شيدها غزاة في الألف الثانية قبل الميلاد ثم فقدت أهميتها على مر الزمن حتى القرن الرابع ق٠م ، اذ يذكر المؤرخون اليونان أن الاسكندر بنى مدينة جديدة هناك وسماها الاسكندرية لذا يطلق عليها البعض اسم أوشا الكسندريا مازجين الاسم القديم بالاسم الجديد ٠

ويرى الكسندر كاننغهام ان الاسم ربما اشتق من أوشا أو أونشا أي المكان العالي والمشرف ولكن هذا غير مرجح وقد أطلق عليها أسماء أخرى مثل باسماد أوساوندي عند المؤرخين العرب وشاشبور أو اسكالاندا الكوفي واج المعصوم على أي حال فان الاسم الذي تعرف به الآن هو اج أو اش ٠

والمدينة القديمة تقسم الى عدة أحياء يعيش في كل حي اتباع أحد الأولياء المشهورين اج الجيلاني اتباع باندا غيلي محمد غاوس المشهور بالجيلاني الثاني اج البخاري وكانت أكبر قسم من المدينة بخدماتها وبيوتها يسكنها أتباع البخاري المخدوم في حين اج مغلة Mughla كانت مركز المقاطعات الادارية للسلطنة الدهلية حيث يعيش نخبة أهل المدينة والمهاجرون المغول ٠ وقد دعمت المناطق الثلاث من وقت لآخر بالحصون وبالبوابات القوسية ويفصل ٣٠٠ ياردة بين اج البخاري واج الجيلاني بينما تقع اج مغلة نائية منهما ولا تبدو هذه الفواصل في المدينة الآن مع أن معالم هذا التقسيم يمكن تمييزها فما تزال اج الجيلاني واج البخاري تزدهران منطقتين من مناطق المدينة على حين اج مغلة أصبحت قرية قريبة على الأرباض ٠ وثمة عدد لا يحصى من المباني الخربة والأكوام التي تدل على حضارة بائدة تتناثر هنا وهناك وتذكر بالماضي المجيد ٠ المساجد والخانقاهات وأضرحة الشيوخ تلقى التقدير والاحترام الذي تستحقه ولا بدأنها كانت ، أيام الازدهار ، تزين مختلف الأماكن في المدينة لقد صممها المعلم المعماري ونفذها بكفاءة عالية وبها نشأ أسلوب جديد في فن العمار متميز عن الفن الذي كان مألوفاً في الأماكن الأخرى المجاورة فقد كان السقف المسطح تطوراً حقيقياً والأضرحة ذات القبب والمساجد كانت اشتقاقاً رفيعاً ومتطوراً لأسلوب ملتان في فن العمارة ولكن تميز شخصية فن العمارة في اج أمر بديهي في البناء كما في التزيين ٠

ويلقي المؤلف نظرة تاريخية على المنطقة ماراً بالعهود القديمة ثم بفتح الاسكندر والحكام اليونان حتى يصل الى الفتح الاسلامي فيروي سببه كما ورد على لسان المؤرخين العرب ونسمح لأنفسنا عرض تلك الرواية مسهبة نظراً لقلة تداولها ورغبة في التذكرة ٠

« الحجاج بن يوسف الثقفي سيَّر عبدالله بن نبهان الى خور الديبل لتخلية النسوة اللاتي ولدن في جزيرة الياقوت مسلمات ومات آباؤهن وكانوا تجاراً فاراد ملكها التقرب بهن الى الحجاج فأهداهن اليه فعرض للسفينة التي كن فيها قوم من ميد الديبل في بوارج فأخذوا السفينة بما فيها فنادت امرأة منهن وكانت من بني يربوع يا حجاج ! وبلغ الحجاج ذلك فقال لبيك ! فأرسل الى داهر يسأله تخلية النسوة فقال انما أخذهن لصوص لا أقدر عليهم فأغزى الحجاج عبيدالله بن نبهان الديبل فغزاهم وقتل في ذلك الغزو بأرض السند في فتوح البلدان(٣) .

ثم استأذن الحجاج الخليفة وسير محمد بن القاسم الثقفي ومع ستة آلاف مقاتل وجهزه بكل ما يحتاج اليه حتى المسال والابر والخيوط ، فسار محمد الى مكران فأقام بها أياماً ثم أتى فتزبور ففتحها ثم سار الى ارمائيل ففتحها ثم سار الى الديبل وأنزل الناس منازلهم ونصب منجنيقاً يقال له العروس كان يمد به خمسمائة رجل وكان بالديبل بد عظيم عليه دقل (الدقل الخشبة العظيمة يرفع عليها القلع الذي تجري به السفينة وهو السارية العظيمة) عظيم وعلى الدقل راية حمراء اذا هبت الريح أطافت بالمدينة وكانت تدور ، والبد صنم في بناء عظيم تحت منارة عظيمة مرتفعة وفي رأس المنارة هذا الدقل وكل ما يعبد فهو عندهم بد فحصرها وطال حصارها فرمى الدقل بحجر العروس فكسره فتطير الكفار بذلك ثم ان محمداً أتى وناهضهم وقد خرجوا اليه فهزمهم حتى ردّهم الى البلد وأمر بالسلاليم فنصبت وصعد عليها الرجال وفتحت عنوة ٠٠٠ ثم عبر محمد مهران مما يلي بلاد راسل الملك على جسر عقدة ـ وداهر مستخف به ـ فلقيه محمد والمسلمون وهو على فيل وحوله الفيلة ومعه التكاكرة فاقتتلوا قتالا شديداً لم يسمع بمثله وترجل داهر فقتل عند المساء ثم انهزم الكفار وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا وقال قاتله :

الخيل تشهد يوم داهر والقنا	ومحمد بن القاسم بن محمد
أني فرجت الجمع غير معرد	حتى علوت عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجندلا	متعفر الخدين غير موسد

فلما قتل داهر غلب محمد علي بلاد السند وفتح مدينة راور عنوة وكان بها امرأة لداهر فخافت أن تؤخذ فأحرقت نفسها وجواريها وجميع مالها ثم سار الى برهمناباذا العتيقة وهي على فرسخين من المنصورة ولم تكن المنصورة يومئذ ، كان موضعها غيضة وكان فيها المنهزمون من الكفار فقاتلوه ففتحها محمد عنوة وسار يريد الرور وبغرور فلقيه أهل ساوندي (آي اج) فطلبوا الأمان فأعطاهم اياه واشترط عليهم ضيافة المسلمين ثم أسلم أهلها بعد ذلك ثم تقدم الى بسمد وصالح أهلها ووصل الى الرور وهي من مدائن السند على جبل فحصرهم شهوراً فصالحوه وسار الى السكة ففتحها ثم قطع نهر بياس الى الملتان فقاتله أهلها وانهزموا فحصرهم محمد فجاءه انسان ودله على قطع الماء الذي يدخل المدينة فقطعه فعطشوا فالقوا بأيديهم ونزلوا على حكمه فقتل المقاتلة وسبى الذرية وسدنة البد

وهم ستة آلاف وأصابوا ذهباً كثيراً فجمـع في بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية آذرع يلقي اليه من كوة في وسطه فسميت الملتان فرج بيت الذهب والفرج الثغر · وكان بد الملتان تهدي اليه الأموال ويحج من البلاد ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنـده ويزعمون أن صنمـه هو أيـوب النبي ﷺ وعظمت فتوحه ونظـر الحجاج في النفقـة على ذلك الثغـر فكـانت ستين ألف ألف درهم ونظر في الذي حمل فكان مائة آلف ألف وعشرين ألف ألف فقال ربحنـا ستين ألفاً وأدركنا ثأرنا ورأس ذاهر(٤) ·

كان محمد بن القاسم الثقفي في السابعة عشرة من عمـره عندمـا فتح السند ثم مـات الوليد بن عبد الملـك وولي سليمـان بن عبدالملك فاستعمل صالـح بن عبدالرحمـن على خـراج العـراق وولي يزيـد بن أبي كشـير السكسكي السند فحمل محمد بن القاسم مقيداً مع معاوية بن المهلب فقال محمد متمثلاً :

أضاعونـي وأي فتى أضاعـوا ... ليـوم كريهــة وسـداد ثغـر

فبكى أهل الهند على محمد وحبسه صالح بواسط فقال :

فلئن ثويت بواسـط وبأرضها ... رهـن الحـديـد مكبـلا مغلولا

فلرب فتيـة فارس قد رعتهـا ... ولرب قرن قـد تركـت قتيـلا

وعذبه صالح في رجال من آل بني عقيل حتى قتلهـم وقـال حمـزة بن بيض الحنفي يرثي محمـداً :

ان المروءة والسماحة والنـدى ... لمحمـد بـن القاسم بـن محمـد

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ... يا قـرب ذلك سودداً من مـولد

وكانت وفاة الحجاج في شوال سنة خمس وتسعين ووفاة الوليـد وتولية سليمـان في جمادى الآخرة سنة ستة وتسعين وفي تلك السنة عذب محمد وقتل بواسط كما في الكامل وفتوح البلدان وغيرها من كتب الأخبار ·

واليوم لم تفقد اج على صغرها مكانتها مركزاً دينياً يقصده المؤمنون لمشاهدة مزاراتها وقبور الصوفية والأولياء المشهورين أمثال أبي حنيفة الكازي وبيبي جاوندي · وقد كان أعيد اصلاح المزارات وترميمها في القرن التاسع ·

كتاب اج يقع في ١٠٠ صفحة من القطع الكبير وهو مزين بالرسوم والصور واللوحات·

الخصائص الديمغرافيـة للشعب العربي الفلسطيني

كتاب يضم أبحاث الندوة التي دعا اليها المعهد العربي للتدريب والبحوث الاحصائيـة في بغداد وعقدت في تونس في الفترة بين ١٣ ـ ١٥/١٠/٨٤ وحضرها نخبة من الديمغرافيين العرب ليعالجوا المسألة السكانية للشعب العربي الفلسطيني من كافـة جوانبها الفكريـة والاحصائية والاقتصادية والاجتماعية والديمغرافية مع كيفية استخدام المقاييس المباشرة وغير المباشرة ولا يخفى ما لهذا الكتـاب من أهمية نظراً لأنه يتناول بالبحث حالة مفردة لشعب يتعرض كل يوم لمحاولات الابادة ولأبشع ألوان الاستعمار الاستيطـاني الذي يقتلـع مجموعات من البشر من أراضيهـم ليصبحوا لاجئين ويجتلب مكانهم شـذاذ الآفاق من كـل أقطار المعمورة ليصنعوا وطناً كسيحاً في أرض لا يمتلكونها ٠

يقع الكتـاب في ٦٩٣ صفحـة ، بعض مقالاته كتب باللغة الانكليزية وطبع في بيروت، دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع عام ١٩٨٥ ٠

★ ★ ★

ملخص حول الأوضاع والامكانات الاقتصادية والاجتماعية للشعب العربي الفلسطيني

صدر عن اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسية وطبع في الأمم المتحدة في نيويورك عام ١٩٨٥ ٠ وهو دراسـة موجـزة ومكثفـة للأوضاع والامكانات الاقتصادية والاجتماعية التي يعيشها الشعب الفلسطيني الموزع حاليا في مختلف بلـدان غـربي آسية نتيجة تشـرد الجزء الأكبر منه مع قيام العدوان الاسرائيلي عام ١٩٤٨ ، ووقوع الجزء الآخر تحت سيطرة هذا العدوان المباشرة في الأراضي المحتلة ٠

وتهدف الدراسة الى التعرف على هول المعاناة التي يعيشهـا الفلسطينيون بعـد أن جُرِّدوا من أراضيهم ومواردهم ٠ وفي الفصل الأول فقرة عن الشعب الفلسطيني من الزاوية التاريخية وفيها فوائد تاريخية وتراثية مهمة منها ما ورد عن تزييف الدعاية الصهيونيـة فيما يخص جدب فلسطين قبل مجيء الصهاينة. فقد ركز عدد من الصهاينـة ومنهم الخبيـر الزراعي غرانوت والمندوب السامي هربرت صموئيل على مقولة جدب فلسـطين فوصف صموئيل مثلا سهل مرج ابن عامر الذي انتقل الى الحركة الصهيونية بأنه ٠ « صحراوي في معظمه وغيـر مستغل قبـل مجيء الاستيطـان الصهيوني » على حين ان هذا السهل نفسه ورد ذكـره في كتـاب لـورانـس أوليفـانـت Haifa or Life of Modern Palestine عام ١٨٨٧ بأنه « بحيـرة ضخمة من القمـح المتماوج حيث ترتفع تلالـه المتوجة بالقـرى كالجزر وسطها وهي تقدم للناظر احدى الصور البالغة التأثير عما يمكن تصورة من الخصب الوفير» وفي عام ١٨٩٧ وصف الكاتب الأمريكي مارك توين فلسطين لدى زيارته لها بأنهـا « رقعة من الخضـرة المتشابكة » لقـد كانت فلسطين قبل الاحتلال الصهيوني أرضاً خصبة عامرة بالزراعة والمزارعين الفلسطينيين ٠

ومنها ما يعلن للناس جميعاً عداوة بريطانيا المستحكمة للعرب وذلك فيما يتعلق بتطبيق قانون الطابو وهو قانون أصدرتـه الدولة العثمانية في القرن السابق ولم يتم تطبيقه على نحو شامل حيث بقيت مساحات عديدة من الأراضي غير محددة أو مسجلة واستمر الفلاحون يعيشون ويعملون فوق الأرض على النحو الذي كانوا عليه في القرون السابقة • وكان أول اجراء اتخذته السلطات البريطانية عقب احتلالها فلسطين مباشرة خلال الحرب العالمية الأولى وقبل صدور صك الانتداب هو تعليق عمليات انتقال الأراضي وذلك من تشرين أول ١٩١٨ حتى ايلول ١٩٢٠ وعندما أعيد فتح السجلات البريطانية في ذلك التاريخ الأخير تبين وجود استملاكات يهودية تقدر مساحتها بنحو ٦٥٠ ألف دونم ويرجح الدارسون لتلك الفترة بأن هذه الاستملاكات تمت على شكل انتقالات غير مشروعة في غضون فترة التعليق التي استغرقت ٢٢ شهراً •

وفي الفصل الثاني احصاء للشعب الفلسطيني ومناطق توزعه ثم تتوالى الفصول فتتناول أوضاع الشعب الفلسطيني الاقتصادية والاجتماعية والتقرير يقع في ٢٩ صفحة من القطع الكبير •

□ العيد الذهبي لمجمع اللغة العربية ١٩٣٤ م ــ ١٩٨٤ م :

مسرد كامل لمقرراته اللغوية ، تسجيل تصويري لمؤتمراته السنوية ١٩٧١ــ١٩٨٤ بقلم الدكتور عدنان الخطيب •

يسرد الدكتور المؤلف في الفصل الأول وقائع احتفالات مجمع اللغة العربية في القاهرة بعيده الخمسين وقد دامت خمسة أيام من ١٨ جمادى الأولى الموافق ٢٠ شباط حتى يوم ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٤٠٤ هـ الموافق ٢٤ شباط ١٩٨٤ في هذا الاحتفال يصف الدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع ماصنعه المجمعيون خلال نصف قرن بقوله : « ان درس المجمعيين جادّ وان بحثهم عميق واستقرت لديهم مبادىء لها شأنها فهم يرون ان اللغة ظاهرة اجتماعية تسير بسير الزمن وتتطور بتطور المجتمع وهي ملك لأهلها وفي وسعهم أن يغذوها بغذاء لا ينقطع واستطاعوا أن ييسروا العربية في ألفاظها وتراكيبها ، في كتابتها واملائها ، وبرهنوا على أنها في مرونتها واستقامتها ليست أقل كفاية من اللغات الحية الكبرى في مواجهة متطلبات العلم والحضارة واجهت ذلك في الماضي البعيد ولا تزال أهلا لمواجهته اليوم وللمجمعيين في ذلك توصيات وقرارات تملأ صحفهم ومحاضر جلساتهم ويضيفون اليها جديداً كل عام ويقبل الباحثون والدارسون عليها ويفيدون منها ما استطاعوا » •

صدر الكتاب عن دار الفكر بدمشق عام ١٩٨٦ وهو في ٣٦٥ صفحة •

□ نداء اقبال ، مؤتمر اقبال بدمشق :

أحتفالا بذكرى ميلاد اقبال قامت السفارة الباكستانية في دمشق بالتعاون مع وزارة الثقافة والارشاد القومي في الجمهورية العربية السورية بتنظيم ندوة فكرية مدتها ثلاثة أيام في مكتبة الأسد في الفترة الواقعة من ٩ ــ ١١ تشرين الثاني ١٩٨٥ ألقى فيها مجموعة من العلماء

والمفكرين البارزين بحوثاً تتناول حياة الشاعروفلسـفته ولا غرو فـان اقبـال هو الشاعـر الوطني للباكستان ويدعونـه شاعر الشـرقوكان لا يني يخاطب الأمة العربية في مؤلفاته ويذكرها بأمجادها الغابرة ٠

طبعت المحاضرات والقصائد الملقـاة فيهذا المهرجان في كتاب ليتسنى لمن فاته سماعها الرجوع اليها والافادة مما تتضمنه من معلومات زاخرة تقوي الأواصر الفكرية العتيدة بين الشعبين السوري والباكستاني صدر الكتابعن دار الفكر بدمشـق عـام ١٩٨٦ في ١٨٤ صفحـة ٠

☐ العلاقات بين الحضارتين العربية والأوربية :

هذا الكتاب هو سجل وقائع ندوة همبورغ (ألمانية الغربية) التي عقدت بين ١١ ــ ١٦ نيسان عام ١٩٨٣ وكانت الحلقة الأولى مـنالحوار العربي الأوربي وشارك فيها عدد من كبار الشخصيات الثقافية والفكرية من البلادالعربية ومن أوربة الغربية وكان الهدف منها تقريب وجهات النظـر لدى الفريقـين ازاءالمشكلات الانسانية المعاصرة ومحاولة ايجـاد الحلولالمناسبةلها بروحمنالتعاونوالتفاهمدعماًللسلام العالمي وتحقيقاً للتنمية التي تتطلـع اليها الدول العربية وتعميقاً للاحترام المتبادل.وقدأعدللندوةلجنة متخصصةضمت ممثلينعنكل من المجموعتين الأوربية والعربية عقدت عـدةاجتمـاعـات في السـنوات ١٩٧٨ و ١٩٨١ و ١٩٨٢ و ١٩٨٣ وأقـرت برنامج النـدوةوموضوعاتها ٠

ولكل موضوع طرح في الندوة دراستانيقدم الجانب الأوربي واحدة والجانب العربي واحدة وكل بحث كان يلقيه مفكر من أحـدالطرفين يعقب عليه مفكر من الطرف الآخر ٠

انتهت الندوة الى اصدار مجموعة مـنالتوصيات منها أن يصار الى طبع وقائعهـا في كتاب وقد أشرف على هذه الطباعة لجنة مـنمستشاري وموظفي جامعة الدول العربية الى جانب لجنة من المفكرين الأوربيين والكتـابفي ٤٥٨ صفحة وصدر عـن الدار التونسيـة للنشر عام ١٩٨٥ ٠

☐ فهرس المخطوطات العربية في مكتبة ستراسبورغ الوطنية والجامعية ٠

كتاب من منشورات معهد المخطوطات العربية التابعة للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أعده الدكتور نزيه كسيبي ٠ بعد أنصدّره الدكتور خالد عبد الكريم جمعة مدير معهـد المخطوطات العربيـة قدم له المؤلف فأعطى لمحة عن مكتبة ستراسبورغ وما تحويه من مؤلفات مهمة تتعلـق بالحضارة العربيـةالاسلامية ٠ في المكتبة سبع مجموعات غالبـاً ما أغفلت أهميتها في المصادر البيبلوغرافية ٠

١ ــ مجموعة ورق البردي منها ٦٨٠بردية باللغة العربية ٠

٢ ــ مجموعة النقود والمسكوكات ومنها٥٠٠ قطعة اسلامية ٠

٣ ـ القطع الفخارية والعظمية ٠

٤ ـ مجموعة الأختام والموازين الزجاجية الاسلامية ـ الصنوج (١٢٥٠ قطعة) ٠

٥ ـ الخرائط ومنها نسخة منقولة بالحرف العربي من خريطة الشريف الادريسي عن البنجاب تاريخ ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م

٦ ـ مجموعة الكتب المطبوعة النادرةكمؤلفات ابن رشد والزهراوي والكندي المترجمة الى اللاتينية ٠

٧ ـ المخطوطات ومنها ٢١٤ مخطوطاًباللغة العربية ٠

وهذا القسم الأخير هو موضوع الكتابوقد رتب المؤلف هذه المخطوطات حسب تسلسل الأحرف الهجائية وألحق عمله بفهرس لهاحسب موضوعاتها العامة وفهرس للأعلام والأماكن والمصادر والمراجع ٠ والكتاب في١٩٥ صفحة وصدر عام ١٩٨٥ في الكويت ٠

☐ المدرسة القرآنية :

كتاب يضم محاضرات أو دروساً القاهاسماحة الامام محمد باقر الصدر سجلها الناشر صوتياً ثم نشرها دون زيادة أو نقصان تتناولالتفسير الموضوعي والتفسير التجزيئي في القرآن الكريم ثم السنن التاريخية في القرآنالكريم وأخيراً عناصر المجتمع في القرآن الكريم نشره دار التعارف للمطبوعات في بيروت ١٩٨١ ٠

وهو يميز بين مدارس التفسير المختلفةاتجاهين مهمين : أحدهما يسميه التجزيئي والمفسر في اطار هذا المنهج يسير مع المصحفويفسر سوره تدريجاً بأن يلقي الضوء على مدلول الآيات التي يريد تفسيرها في سياقهاالذي وردت به وهذا الاتجاه بدأ في عصر الصحابة والتابعين بتفسير لبعض آيات القرآنوشرح مفرداتها وانتهى بالصورة التي قدمها ابن ماجة والطبري وغيرهما ممن كتب فيالتفسير في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع ٠ أما الاتجاه الثاني وهو الاتجاهالتوحيدي أو الموضوعي فيحاول أن يقوم بدراسة موضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية كما ظهرت في القرآن الكريم مثل عقيدة التوحيد في القرآن أو النبوة فيالقرآن أو المذهب الاقتصادي في القرآن ٠ وهو يرى أن هذين الاتجاهين مختلفان في ملامحهماوأهدافهما وحصيلتهما الفكرية٠ولكن لاينبغي أن يكون المقصود الاستغناء عن التفسير التجزيئي وانما اضافة اتجاه الى اتجاه ثم يختار موضوعاً ليفسره هو سنن التاريخ في القرآنالكريم هل للتاريخ البشري سنن في مفهوم القرآن الكريم ؟ هل له قوانين تتحكم في مسيرتهوحركته وتطوره ؟ ويؤكد فكرة السنن التاريخية مستخلصة من نصوص أكد عليهاالقرآن ٠

وأخيراً يبحث عناصر المجتمع في القرآنالكريم وهي :

١ ـ الانسان ٠

٢ ـ الأرض أو الطبع .

٣ ـ العلاقة المعنوية التي تربط الانسان بالأرض كما تربط الانسان بأخيه الانسان .

ويتناول كل عنصر بالدراسة ليصل الى صورة شاملة للفلسفة القرآنية من وجهة نظره. فهو يرى ان القرآن الكريم لا يطرح نفسه بديلا عن قدرة الانسان الخلاقة ولا عن مواهبه وقابلياته كادحاً في ميادين الحياة والمعرفة والتجربة وانما طرح نفسه طاقة روحية موجهة للانسان مفجرة لطاقاته محركة له في المسار الصحيح فهو كتاب هداية وتوجيه لا كتاب اكتشاف وعلم .

والكتاب في ٢٥٧ صفحة من القطع المتوسط .

☐ آراء حول قديم الشعر وحديثه :

دأبت مجلة العربي على اصدار سلسلة فصلية باسم (كتاب العربي) كل عدد منها يتناول موضوعاً واحداً بقلم عدة مؤلفين أو يكون مجموع مقالات أو موضوعات لكاتب واحد .

وقد تناول الكتاب الثالث عشر الصادر في ١٥ تشرين الأول ١٩٨٤ الشعر قديمه وحديثه دراسات بقلم عدد من أشهر النقاد العالم العربي نذكر منهم على سبيل المثال الدكتور محمد مندور والدكتور زكي نجيب محمود والدكتور أنيس المقدسي والأستاذ شوقي بغدادي وغيرهم وقدم لهذه الدراسات الأستاذ محمد الرميحي رئيس التحرير .

والكتاب في ١٧٦ صفحة وفيه آراء طريفة وصريحة ومفيدة .

☐ وحدة الوجود في الفكر العربي :

صدر من منشورات اتحاد الكتاب العرب كتاب للأستاذ محمد الراشد بعنوان « وحدة الوجود في الفكر العربي الله والانسان والعالم » . يدرس في المقدمة وحدة الوجود كاشكال حضاري ويبرز أهمية هذه المشكلة فيقول :

« وحدة الوجود من أهم التيارات الفكرية في التراث الانساني عامة والعربي خاصة ولكن أهميتها ذات حدين سلبي وايجابي فهي التي تساهم باعطاء الحضارة أفقها الوجودي كما أنها قد تساهم بانهيار الحضارة » .

وفي المدخل العام يقدم تعريفات ومواقف ليدخل بعد ذلك الى الفصل الأول فيبحث فيه وحدة الوجود في الشرق الأقصى (الهند ـ الصين) . في الفصل الثاني يتناول المؤلف وحدة الوجود في الفكر الغربي عند الاغريق والغرب الأوربي وخاصة عند اسبينوزا وفي الفصل الثالث يدرس وحدة الوجود في الفكر العربي القديم . ثم يعالج في الفصل الرابع مواقف الفارابي وابن سينا من هذا الموضوع . في الفصل الخامس يتناول وحدة الوجود في المغرب

العربي عند ابن مسرة وابن السيد البطليموس وابن باجه وابن طفيل وابن رشد وفي الفصل السادس يصل الى وحدة الوجود في الفكر (العربي) الحديث فيذكر محمد اقبال وأحمد حيدر وغيرهما ٠

ويختم الدراسة في الفصل السابع بوحدة الوجود في الفكر العلمي ٠

والكتاب معالجة حديثة لتيار فلسفي قديم فيه الكثير من المعلومات المفيدة والكاتب في الختام يرحب بكل حوار أو مناقشة تخطر على بال القارىء وهو في ٢٧٩ صفحة ٠

□ شعر من المهجر :

ديوان زكي قنصل ج ١ دققه لغوياً وعروضياً ابراهيم جمعة من منشورات وزارة الثقافة في دمشق عام ١٩٨٦ والكتاب يضم بين دفتيه معظم منظومات الشاعر حتى أواخر سنة ١٩٨٤ ولم يراع في ترتيب القصائد التسلسل الزمني ٠

وفي مطلع الكتاب حياة الشاعر في كلمات مع اشارة الى بداياته الصعبة في أرض المهجر وعصاميته وميله الى المطالعة وتكون ثقافته الأدبية بعد أن سبقه أخوه الشاعر الياس قنصل ووالدهما ٠

وقد زار الشاعر وطنه سورية عدة مرات ولقي الحفاوة وأعجب بالنهضة العمرانية والثقافية الحديثة ٠

الكتاب يقع في ٤٧٠ صفحة والشعر رقيق عميق عذب ولا عجب فالشاعر أحد أعمدة أدب الاغتراب الذي يتناول على البعد آلام الوطن وآماله بريشة مضخمة بالحنين ٠

□ جواد الحلم للشاعر خوان فان هالين :

صدر عن المعهد الاسباني العربي للثقافة كتاب (جواد الحلم) للشاعر خوان فان هالين قدم له بكلمة فرانشيسكو غارفياس ضمن مجموعة ابن زيدون الشعرية برقم ٥ في مدريد عام ١٩٨٥ ٠

وللمؤلف مجموعة من الدواوين نال عليها جوائز أدبية متعددة ورغم أن المؤلف مولود في محافظة مدريد في قرية توريلدونيس فانه يحس بأنه أندلسي وكتابه ذاك حافل بالأصداء العربية الأندلسية فوّاح بعواطف تاريخية عميقة الجذور ٠

□ محنة العرب في الأندلس : تاليف الدكتور أسعد حومد ٠

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٨٠ في بيروت وهو الآن قيد الطبعة الثانية ٠ ويتألف من مقدمة وخمسة أقسام يعرض المؤلف فيها ما لقيه العرب المسلمون في الأندلس على يد السلطات الاسبانية بعد سقوط دولتهم في غرناطة عام ١٤٩٢ ويشير الى نكثهم بالعهد وحنثهم بالايمان الذي قطعوه اذا أسلم العرب المدن والقواعد صلحاً ٠ ثم يعقد مقارنة طويلة بين نكبة الأندلس ونكبة العرب في فلسطين ويخشى أن تكون حبائل الاستعمار ما تزال شركاً ممدوداً ويأمل ونأمل معه ألا تصبح فلسطين ملكاً مضاعاً !

في القسم الأول من الكتاب تنـاول المؤلف باختصار قصة الفتح الاسلامي للشمال الافريقي واسبانيا ثم تناول التاريخ العربي في الأندلسحتى سقوط غرناطةوتوقف عند حكم الطوائف الذي كان مقدمة لانهيار الدولة الاسلامية ثميذكر سقوط أمهات المـدن بسطة ورونـدة والمريـة ومالتة وانتهـاء الحكم العـربي فيالأندلس بسقوط غرناطة ٠

في القسم الثاني تعرض المؤلف للمعاملةالتي عامل بها المسلمون الاسبان ابان حكمهم في الأندلس وفصّل في بسط القواعـد الأساسيةالتي وضعها الفقهـاء في معاملة أهل الذمـة والأحكام التي تطبق على أشخاصهم وأموالهموأرضهم وأشار الى احترام عهود الأمان التي يعقدونها مع أهل البـلاد المفتتحة صلحـاً ثميبحث ما لقيه العرب من الحكام الاسبان بعـد سقوط غرناطة من المعاملة السيئة التي دامتمدة قرن وربع القرن ٠

وفي القسم الثالث : تناول المؤلف الثورات التي قام بها العرب وكيف كانت السلطات في اسبانيا تجد هذه الثـورات ذريعة لابـادةبقايا العـرب ونهب أموالهم واجبارهـم على ترك أراضيهم ٠

القسم الرابع جعل عنوانه خاتمة المحنةوتناول فيه أفعال محاكم التفتيش الشنيعة ٠

وفي القسم الأخير أورد المـؤلف بعض ماقاله الأندلسيون من الشعر يرثون به أنفسهم وحضارتهم في الأندلس ٠

في الطبعة الثانية هذب المؤلف الطبعةالأولى وأضـاف ثلاثـة فصول فتوسـع في بسط تاريخ دول الطوائف وفي ابراز المواقف المخزيةلبعض ملوكها ابان حروب المصـير مع الاسبان وكذلك تنـاول الأسـباب التي رآها قـررتمصير الأندلس وقضت على الحضارة الأندلسية الفريدة ٠

فاطمة عصام صبري

□ **الحواشـي :**

١ ـ س امجد علي ولد وتعلم في دلهي وحصل على درجـةالشرف في شهادته الجامعية وحصل على شهادة الماجستير على يد البروفيسور س.ب يونغ ٠ زاول التدريس قبـل الاستقلال في دلهي وبعد الاستقلال في لاهور وأصبح رئيس تحرير مجلة فصلية باكستانية وظل يكتب مدى عشرين عاما كماشغل منصب مدير عـام لقسـم الاعـلام والمطبوعـات في وزارة الاعلام في باكستان ٠

٢ ـ السلطان ناصر الدين قباجة المعزى الملك العادل كان منمماليك الشهاب محمد بن سـام الغوري خدمه زمانا وقاتـل أعداءه فولاه الشهاب السند فملكها وفتح البـلاد الىساحل البحر وفتح لاهور غير مرة وساس الأمور واحسن الى الناس وقاتل جلال الدين خوارزم شاه سنة احدى وعشرينوستمائة وقاتل الخلج سنة ثلاث وعشرين وستمائة فهزمهـم وتزوج بابنتي قطب الدين ايبك واحدة بعد أخرى وكذلك تزوج بابنة تاج الدين الدز وكان ولي عهده بعـده ابنه علاء الدين بهرام شاه سبط قطب الدين ايبك ٠ ووزيره عين الملك فخر الدين الحسين بن أبي بكر الأشعري ٠ وكان من من أجواد الدنيا اجتمع اليه السـادة والأشراف ووفـدالعلماء عليه من العراق وخراسان والغور وغزنة وكان عصره أحسن العصور وزمانه انضر الأزمان ولم يزل على ذلكحتى هزمه شمس الدين الايلتمش وغرق ناصر بماء السـند في التاسع عشر من جمادى الآخرة خمس وعشرين وستمائة٠

٣ ـ كتاب نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٠

٤ ـ الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ١١١ ذكر قتل ذاهر ملـكالسند ٨٩ ٠

نشاطات في خدمة التراث

اعداد: عبد اللطيف الأرناؤوط

□ توصيات المؤتمر الثاني للرابطة العربية للأدب المقارن(١) :

بدعوة من رئاسة جامعة دمشق (كلية الآداب) عقدت الرابطة العربية للأدب المقارن مؤتمرها الثاني ، في الفترة الممتدة من ٦ ـ ٩ تموز ١٩٨٦ وكان موضوع المؤتمر [الأدب العربي المقارن : مجالاته النظرية والتطبيقية] وحضر المؤتمر باحثون جامعيون من ثمانية بلدان عربية هي : سورية ـ الأردن ـ فلسطين ـ الكويت ـ العراق ـ مصر ـ السودان ـ الجزائر ·

وقد دارت الأبحاث العلمية في ثلاثة محاور :

١ ـ الأدب العربي المقارن ·

٢ ـ الأدب العربي المقارن والعالم ·

٣ ـ الأدب العربي في علاقته مع الآداب الأخرى ·

كما اتخذ المؤتمر في ختام أعماله التوصيات التالية :

١ ـ ضرورة تأسيس مركز عربي للادب المقارن ، ويطلب من مكتب الرابطة الاتصال بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، واتحاد الجامعات العربية لتحقيق هذا المشروع العربي الهام ·

٢ ـ ضرورة تدعيم الجامعات العربية للرابطة علمياً ومادياً بتسهيل مهمة المقارنين وتوفير الظروف الملائمة للقيام بنشاطاتهم العلمية والمساهمة في أعمال الرابطة ومؤتمراتها ودفع اعانات واشتراكات وتسهيلات أخرى لعمل الرابطة ·

٣ ـ ضرورة دعوة الجامعات العربية للرابطة الى أية نشاطات علمية أو ملتقيات أو مؤتمرات لها علاقة ما بالأدب المقارن ·

٤ ـ ضرورة تأسيس فروع للرابطة في مختلف الأقطار العربية لتكون روافد لها ، وعلى أعضاء الرابطة العمل على تحقيق ذلك ·

٥ ـ يوصي المؤتمر كل المقارنين العرب بضرورة مكاتبة الأمانة العامة لاعلامها بكل ما يجري من مستجدات في مجال

الأدب المقارن عربياً وعالمياً لنشر تلك المعلومات والأخبار في نشرة الرابطة ٠

٦ ـ يوصي المؤتمر أعضاء الرابطة بتزويد الأمانة العامة ، والمقر الدائم بكل نتاجات أعضاء الرابطة لتكون أرشيفاً، ومنطلقاً للبحث ٠

٧ ـ تدعيماً لما ورد في بيان المؤتمر الأول بعنابة (١٩٨٤) بشأن ترجمة كتب في الأدب المقارن فان المؤتمر يؤكد ضرورة ترجمة كتب نظرية في الأدب المقارن ٠

٨ ـ كما يوصي بضرورة عقد ندوات علمية في مختلف الجامعات حول اسهامات رواد الدراسات الأدبية المقارنة العرب ٠

٩ ـ يوصي المؤتمر أن تدور أعمال المؤتمر الثالث (١٩٨٨) حول موضوع : « المذاهب الأدبية وتمثلاتها في الأدب العربي ونقده » ٠

★ ★ ★

□ الآثار الاسلامية في الوطن العربي(٢) :

عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وضمن سلسلة وقائع مؤتمرات الآثار التي تقدم نتائج المكتشفات الأثرية الجديدة في البلاد العربية في شكل بحوث ودراسات ، والتي تناقش مستقبل العمل الأثري ٠ صدر كتاب بعنوان (الآثار الاسلامية في الوطن العربي) وينقسم الكتاب الى ثلاثة محاور تبحث في العمارة العربية الاسلامية والتنقيبات الأثرية والفن والحضارة ٠

وقد اهتم المحور الأول بالتطور التاريخي للمدينة العربية ، التي تعيش حالة من الجذب الدائم بين الأصالة والمعاصرة فهي لم تعد مجرد بنايات معمارية ، بحكم انها أصبحت خاضعة لمنطق التطور المعاصر ٠ ولكن الجديد بالاهتمام هو البحث في أشكال تطور هذه المدينة لفهم طبيعة تغيرها حتى تتلاءم مع حاجيات العصر ٠ فهناك جهد ملحوظ لتحديث المدينة العربية الاسلامية ، واخضاعها لمنطق العصر ، ولكن هذا الجهد يحتاج الى تخطيط يأخذ بعين الاعتبار العوامل السياسية والاقتصادية والديمغرافية والحاضرية ، فقد كان للمدينة العربية الاسلامية نظام معين تخضع له ، وتنظم حياتها وحاجياتها وفق ذلك النظام ٠ ولكن هذا النظام بدأ يتعرض الآن الى الاهتزاز ، نتيجة دخول الحضارة المعاصرة بكل ثقلها الى المدن العربية المعاصرة ٠

فاذا كانت المدينة العربية الاسلامية توفر الأجهزة والمنشآت الدينية والاجتماعية كالجامع والمدرسة والحمام ٠٠ فان مقتضيات الحياة المعاصرة تفترض تغييراً في مورفولوجية المدينة حتى تتلاءم مع حاجيات الحياة ٠

فالمدينة العربية تواجه عدداً كبيراً من التحديات التي فرضها العالم المعاصر ، برغم الارتباط الروحي بين هذه المدينة والانسان العربي ٠ فهي لم تعد تعكس اليوم القيم الروحية والجمالية المحيطة بها ، أي أنها أصبحت في شبه قطيعة مع محيطها الخارجي ٠

ويتحدث الدكتور شوقي شعث عن أشكال وطرق صيانة مدينة من المدن العربية الاسلامية، متخذاً من مدينة (حلب) نموذجاً، ذلك أن البحث في صيانة المدن العربية الاسلامية ليس بالأمر الهين ، رغم تشابه

عناصر وجودها ، نظراً للوحدة الجغرافية والتاريخية والبشرية والعقائدية التي كانت قائمة فيما بينها في فترات طويلة من فترات التاريخ ٠

ثم تعرض باحثون آخرون الى نماذج من المعمار العربي ، شارحين كيفية تطوره ونوع الاهتمام الموجه اليه ، باعتبار أن التراث المعماري جزء لا يتجزأ من فكرة الأمة ووعيها التاريخي ٠

وفي هذا الجزء الخاص، تعرض باحثون الى تجارب متعددة في مجال صيانة المدن كشكل من أشكال صيانة الوجه الحقيقي للمدن العربية الاسلامية ٠ وقد كشف هذا الجزء عن ثراء المعمار العربي الاسلامي وغزارة ابداعاته في مختلف المجالات ٠

ولا غرابة في ذلك لأن المدينة العربية ساهمت مساهمة فعالة في نشر الاسلام وتركيز الحضارة الاسلامية لأن الاسلام دين حضارة، لا يستوفي كل أغراضه ولا يحقق كل آماله الروحية والاجتماعية الا في اطار المدينة حيث تتوافر الأجهزة والمنشآت الدينية والاجتماعية كالجامع والمدرسة والحمام ٠٠٠

واذا ما تحدثنا عن الناحية المعمارية في التاريخ العربي الاسلامي، فلا بد من الاشارة الى أثر الفنون العربية قبل الاسلام في الفن الاسلامي ، من حيث اهتمامها بالعمارة وتخطيط المدن ، والنحت والتشكيل والفنون الزخرفية ، والكتابة والزراعة وطرق الري، والعمارة وتخطيط المدن ٠

وفي هذا الاتجاه يتحدث الدكتور عبدالرحمن الانصاري عن أثر الفنون العربية قبل الاسلام في الفن الاسلامي مبرزاً جوانب الاستفادة وطبيعة الروابط التي تجمع بين الفنون في العصرين ، وبعد تبيان مختلف وجوه الالتقاء والاختلاف ، يخلص الباحث الى أن الجسور متصلة بين الحضارة العربية والحضارة الاسلامية، وذلك لأن العرب هم مادة الاسلام، فكان طبيعياً أن ينقلوا تجربتهم الانسانية الى الشعوب التي فتحوها ، ويبلوروا تجربتهم هذه بما يتناسب مع الرسالة التاريخية للاسلام ٠

أما الدكتور عفيف بهنسي فقد عرض بحثاً عن أثر الفن العربي الاسلامي على الفن الغربي ، ذلك ان الفن العربي الاسلامي ليس الا حصيلة حضارية مجسدة لعالم الشرق العربي ، وكان على الفنانين الذين زاروا هذا العالم ، أن يأخذوا عن هذا الفن أساليب جديدة استحوذت بسرعة على قلوب المتذوقين، وكان لها رواج بعيد المدى، مما دفع الفنانين المستشرقين وبسرعة الى أعلى مراتب الشهرة٠

وقد استهوى الأوربيين الفن الشرقي الغريب لديهم والذي يقترب مما أسميناه بالفن التطبيقي ، أما التصوير والنقش، فلم يكن بطرافة الفنون التزيينية الأخرى رغم تقدمه وتطوره ، خلافاً للاعتقاد السائد بأن الرسم كان ممنوعاً على المسلمين ٠

وقد ازدهر الفن الشرقي في حياة الأوربيين ، في البلاد التي كان بينها وبين العرب تجارة مستمرة ، أو مبادلات للتمثيل الديبلوماسي كما كان في أيام الحكم العثماني٠

وتحدث الدكتور عبدالهادي التازي عن [مصادر الآثار الاسلامية] ، معتبراً أن القرآن الكريم هو أهم تلك المصادر باعتباره قد اهتم بتحديد أقدس الأمكنة في عالمنا الاسلامي ، كما أكد على وجود مصدر آخر من المصادر المبكرة أيضاً ، وأعني بذلك

مصنفات الحديث الشريف ، وخاصة كتب الصحاح ، البخاري ومسلم ، وما يأتي في منزلتهما من المرويات والمأثورات .

هذه المصادر مجتمعة تؤكد على ثراء المعلومات ووفرتها ، خاصة فيما يتصل بتطور المعمار العربي الاسلامي ، كما لا يفوتنا في هذا المجال أن نبين أهمية الرحلات كمصدر للاثار الاسلامية ، فستظل هذه الرحلات المرجع الأساسي لما شيده المسلمون في الشرق والغرب .

وتضمن هذا الكتاب جزءاً كاملاتحدث عن الوثائق والنصوص ، المصاحبة لندوة صنعاء . وقد أبرزت هذه الوثائق جهود المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في مجال المحافظة على المدن والمواقع التاريخية ، ومدى تطور الحملة العربية الاسلاميةلصيانة مدينة القيروان .

كما تضمن هذا الجزء أيضاً تعريفاً بمشروع قانون الآثار الموحدوعرضاً لتقارير الدول العربية عن أوضاع الآثار .

ويأتي هذا الكتابفي نصوصهوتوصياته تأكيداً علىالاهتمام العربي فيكل المستويات، بالمعمار العربي الاسلامي صيانة ورعاية واهتماماً ، باعتباره وجهاً مشرقاً من وجوه الحضارة العربية الاسلامية ،وترسيخاً للهوية القائمة منذ عصور تاريخية .

★ ★ ★

□ **مكتبات المخطوطات في الهند :(٣)**

وضع الأستاذ عبدالرحمن عبد الجبار الغريوائي تقريراً عن أهم مكتبات المخطوطات في الهند التي تشتهر بمخطوطاتها ومطبوعاتها القديمة في التفسير والحديث والفقه واللغة العربية.. مع الاشارة أن هناك مكتبات قيمة في كل مركز من مراكز التربية والتعليم المنتشرة في أنحاء بلاد الهند :

١ ـ مكتبة رضا الشعبية :

رام فور (شمال الهند) : وهي من أقدم مكتبات الهند الشهيرة للمخطوطات النادرة ، أنشأها النواب السيد فيض الله خان بهادر والي رامفور في ١٧٩٤ م/١٢٠٨ هـ ، وطار صيتها في الافاق في النصف الآخر من القرن التاسع عشر الميلادي بفضل جهود الأمير السيدكلب علي خان بهادر ، وازدهرت المكتبة في عصر محمد رضا علي خان بهادر الذي تولى عرش الولاية سنة ١٩٣٠ م ،وعين الأستاذ امتياز على عرشي أميناً للمكتبة ، وبعد استقلال الهند أدارتها الحكومة ،ويبلغ عدد المخطوطات فيها ١٤٠٠٠ مخطوطة ، معظمها باللغة العربية والاردية والفارسية. ونشر فهرس المخطوطات العربية في ستة مجلدات ، وعدد مخطوطات علوم القرآن والحديث وأسماء الرجال ١٤٢٠ مخطوطة.

٢ ـ مكتبة خدا بخش للعلوم الشرقية :

بانكي فور بتنة ، (ولاية بهار) :وهي مكتبة عظيمة تمتاز بين مكتبات الهند بمخطوطاتها النادرة في علوم القرآن والحديث ، وضع حجرها الأساسي والد خدا بخش الشيخ محمد بخش (ف١٨٧٦م)الذي كان مولعاً باقتناء الكتب النادرة ، وترك لابنه خدا بخش ١٤٠٠ مخطوطة حين وفاته،

واستطاع خدا بخش بجهوده الفردية أن يقدم للامة الاسلامية أروع مكتبة طار صيتهـا في الآفاق ، وسار اليها الركبان ، ويبلغ عـدد المخطوطات والمطبوعات فيها ٤٦٢٩٨ نسخة، وعدد المخطوطات العربية : ٤١٠٦ نسخـة ، وقد ظهر الى الآن ٣٢ جزءاً من فهارسها، منها جزءان للحديث وجزآن للقرآن وعلومـه ، ويقدر عـدد مخطوطات التفسير والحديث حوالي ألفي مخطوطـة ، ومـن نفائس المخطوطات: مصحف بخط النسخ بقلم ياقوت (٦٨٨ هـ) ، والأمالي لأبي القاسم عبدالمالك بن محمد بن عبدالله ، وتاريخ دمشق ، وهـي نسخة وحيدة كاملة في العالم ·

٣ ـ مكتبة الجمعية الآسيوية بكلكتا :

أيضاً مـن المكتبات الشهيرة في الهند لمخطوطاتها الكثيرة ولمطبوعاتها ، ويقدر فيها عدد المخطوطات أكثر مـن الفي مخطوطة ، وتديرها حكومة البنغال ·

٤ ـ مكتبة الحكومة الشرقية :

هي مكتبة قيمة عظيمة في جنوب الهند، وصدرت فهارسها المشروحة في اللغة الانجليزية، وعدد المخطوطات العربية فيها حوالي ١٥٠٠ مخطوطة ، معظمهـا في الحديث والتفسير والأدب والكلام ·

٥ ـ مكتبة أسرة القاضي بدر الدولة :

بمدراس : أسرة بدر الدولة من الأسر العلمية التي لعبت دوراً مهماً في نشر الثقافة الاسلامية في الهند ، وهاجر بعض أصحابها الى حيدر آباد واشتهر من هذه الأسرة الأستاذ الدكتور حميدالله (فرنسا) ، وتوجد في هذه المكتبة ٧٠٠٠ مخطوطـة ، غالبهـا في علوم القرآن والسنة والفقه والكلام والعربية ، كمـا روى الشيـخ عبدالغني في حيدر آبـاد وهو مـن أفراد الأسرة ، واشتهرت مكتبة مدراس « بمكتبة أمانتي » ·

٦ ـ المكتبة السعيدية :

بحيدر آباد : هي مكتبة ثانيـة لأسرة القاضي بدر الدولة ، وفيهـا ثلاثـة آلاف مخطوطة في الحديث والقرآن والفقه والكلام، ومديرها الحالي الشيخ عبدالغني حفظه الله وكلتا المكتبتـين لأسرة القاضي بدر الدولة تملكها السيدة خير النساء زوجة الشيخ محمد غوث ، وهي خالة الشيخ عبدالغني المذكور، وكلتا المكتبتين في حالة كئيبة ، تحتاج الى نظام وادارة وتنسيق ومعونة ماديـة ، وإلا يخشى التلف والفساد عليها ·

٧ ـ المكتبة الآصفية :

هي مكتبة أنشأها الأمراء المسلمون في حيدر آباد ، والآن تديرهـا الحكومة وهـي كبرى المكتبـات في حيـدر آبـاد ، وفيهـا مخطوطات جيدة ، ومطبوعات قديمة ·

٨ ـ مكتبة متحف سالار جنك :

أنشأها نواب مـير يوسف علـي خـان سالار جينك (الثالث) ، وهي من المكتبات الشهيرة في الهند ، تحتوي على مئتي ألف كتاب من مطبوع ومخطوط ، وعدد المخطوطات فيها ٧٦٥٠ مخطوطة ، والعربيـة فيهـا ٢٤٥٩ ، ومخطوطـات علوم القرآن والحديث وأسماء الرجال والفتاوى لأهل السنة تبلـغ ٢٩٨ مخطوطـة · وكتب السنة والتفسير والفقـه والفتاوى للشيعة تبلغ ٢٧٤ مخطوطة ، ولهـا فهرس منشور من دائرة المعارف بحيدرآباد ·

وفي حيدر آباد مكتبات أخرى مثل المكتبة العثمانية ومكتبة آزاد ·

وزرنا بعض أسر النواب ورأينا هناك مئات من المخطوطات يعرضونها على المشترين يبيعونها بثمن بخس ·

٩ ـ مكتبة المعهد الهندي :

للدراسات الاسلامية (تابعة لمؤسسة همدرد بدهلي) : هي مكتبة حديثة أنشأها الحكيم عبدالحميد الدهلوي ، وصارت المكتبة من كبرى مكتبا تالهند من حيث المخطوطات توجد فيها خمسة آلاف مخطوطة معظمها بالعربية · وجدير بالذكر أن فيها مخطوطات كثيرة مصورة من مكتبات روسيا ، وهي من أبدع المكتبات في تنسيقها ونظمها وادارتها ·

١٠ ـ ١١ ـ مكتبة الجامعة العربية : بدهلي ومكتبة أبي الكلام ـ آزاد بدهلي :

مكتبتان قيمتان ، وفيهما عدد غير قليل من المخطوطات ، والجدير بالذكر أن ما في مكتبة الجامعة الملية أهديت اليها من مكتبة دار الحديث الرحمانية وقت استقلال الهند سنة ١٩٤٧ م التي كانت من أهم مكتبات الهند ·

١٢ ـ مكتبة آزاد ـ بالجامعة الاسلامية بعلي كره :

وهي مكتبة عامة للجامعة ومن كبرى مكتبات العالم وفيها عدد من المخطوطات العربية من الكتاب والسنة والفقه والأدب ·

١٣ ـ مكتبة دار العلوم ديوبند :

هي مكتبة عظيمة شهيرة في الهند ، تحتوي على آلاف من الكتب القيمة ، وفيها عدد كبير من المخطوطات ، الا أن شهرة المكتبة من كثرة الكتب المطبوعة القديمة ·

١٤ ـ مكتبة ندوة العلماء ـ بلكناؤ :

هي مكتبة لدار العلوم ، وكبيرة جداً ، يرجع تاريخها الى وقت تأسيسها قبل ست وثمانين سنة ، وأهديت اليها مكتبة العلامة عبدالحي الحسني ومكتبة النواب نجم الحسن ومكتبة النواب علي حسن خان بن النواب صديق حسن خان · وعدد المخطوطات فيها : التفسير ٧١ مخطوطة ، وعلوم الحديث والمصطلح وأسماء الرجال ٢٢٠ مخطوطة ، والفقه وأصوله ١٥٠ مخطوطة ·

١٥ ـ المكتبة الناصرية :

في لكناؤ وهي مكتبة مشهورة بكتبها القيمة النادرة ، وفيها مخطوطات جيدة ·

١٦ ـ مكتبة دار المصنفين :

أعظم كره : دار المصنفين تعتبر أكاديمية علمية ، اسلامية كبيرة ، أسسها العلامة شبلي النعماني بعد انعزاله عن دار العلوم (ندوة العلماء) ، ثم خلفه تلميذه البار العلامة السيد سليمان الندوي ، ثم اجتمع في هذه الأكاديمية نخبة ممتازة من المؤلفين ، وبجهودهم صارت مكتبتها من نفائس المكتبات في الهند ، ويوجد فيها عدد من المخطوطات العربية ، وهي أكبر مكتبة في شمال الهند للكتب الدينية والاسلامية ·

١٧ ـ مكتبة طوك :

وقد أخبرني بعض الاخوة أن في طوك عدداً كبيراً من المخطوطات الجيدة في مختلف العلوم والفنون الا أن مكتبة طوك غير معروفة ، ولذلك لا نستطيع القول فيها أكثر من ذلك ·

١٨ ـ مكتبة بومباي :

وهي مكتبة شهيرة تحتوي على كتب قيمة وفيها بعض المخطوطات ، وقد سمعت من

بعض الاخوة عنها كثيراً ، ولكن ليس لدي معلومات عن المكتبة ·

١٩ ـ مكتبة الجامعة السلفية :

بنارس : مكتبة حديثة أنشئت سنة ١٩٦٦ م ، وقد أهديت الى المكتبة بعض المكتبات الأهلية كمكتبة العلامة محمد أبو القاسم المحدث البنارسي التي يبلغ عددها قرابة خمسة آلاف كتاباً من نفائس كتب التفسير والحديث والأدب ·

٢٠ ـ مكتبة بومباي :

مكتبة شهيرة تحتوي على كتب قيمة وفيها بعض المخطوطات وقد سمعت من بعض الاخوة عنها كثيراً ، ولكن ليس لدي معلومات كثيرة عنها ·

ومكتبة العلامة الأديب عبدالمجيد الحريري البنارسي التي تحتوي على أكثر من ألفي كتاب في علوم الأدب واللغة ،والحديث والتفسير ومكتبة عبدالرحمن بقا الغازيفوري، وبعض مكتبات ميرته وغيرها · وبهذه المكتبات الأهلية صارت هذه المكتبة من أنفس المكتبات للكتب القديمة ·

هذه هي نبذة عن المكتبات الاسلامية التي نالت شهرة عظيمة في بلاد الهند ، وطار صيتها في الآفاق . ومعظم هذه المكتبات تحتاج الى مساعدة مادية وتشجيع أدبي ، فان قلة وجود الخبراء في مكتبات الهند بلغت الى حد كبير ، وقد لاحظنا في بعض المكتبات سوء التنظيم والتنسيق ، وهذا لقلة امكاناتهم المادية والأدبية ،حتى رأينا في بعض المكتبات القيمة أن بعض المخطوطات النادرة قد أكلتها الحشرات ، وتحتاج الكتب الى تجليد جديد ، ونظراً لأهمية المخطوطات أصدرت الحكومة الهندية قراراً بمنع اخراج المخطوطات من الهند الى البلاد الأخرى ، ومن المعلوم أن هناك مكتبات أهلية ، يعض عليها أصحابها بالنواجذ مع عدم امكاناتهم ليحتفظوا بها ·

* * *

□ سلسلة « نصوص تراثية » :(٤)

تقرر اصدار سلسلة تراثية من مائة كتاب بعنوان « نصوص تراثية » : وقد وضع السيد محمود الأرناؤوط الذي كلف بالاشراف على السلسلة منهجاً لها وهدفاً ، تم التأكيد من خلاله على تقديم نصوص مختارة بعناية ودقة من بطون المصنفات والمجاميع التراثية المخطوطة ، أو المطبوعة من كتب التراث ، على أن يكون لها تأثير طيب النتائج في الأوساط الاجتماعية كافة ، كما تم التأكيد على أن هذه السلسلة مفتوحة لمشاركة الأساتذة الباحثين في كل مكان من الوطن العربي ، بشرط أن يلتزم المشارك بالمنهج الموضوع ·

وجاء في التقديم الذي كتبه الأستاذ محمود لأول نص صدر من السلسلة ـ وهو نص « الأوائل » من كتاب « المعارف » لابن قتيبة المتوفى ٢٧٦ هـ بتحقيق محمد بدر الدين القهوجي ـ جاء فيه :

لقد كانت غايتنا من اصدار هذه السلسلة هي تقديم الزاد الثقافي الى القراء على طبق من ذهب ، فكان أن اقتصرنا في البرنامج الذي وضعناه لها على تقديم نصوص مختارة بعناية ودقة من بطون بعض المصنفات والمجاميع التراثية المخطوطة · وربما انتقينا مجموعة من النصوص مما

جرى طبعه من كتب التراث ، على أن يكون للنصوص المختارة تأثير طيب النتائج في الأوساط الاجتماعية كافة ، فكان أن اشترطنا لقبول أي من النصوص التي رشحت للصدور في « السلسلة » ـ أو تلك التي سيجري ترشيحها مستقبلا ـ أن تنال حقها من الدراسة والتحقيق ، بحيث لا يدع محقق النص أي لفظة ترد في النص مما يحتاج الى الضبط ، والشرح ، والتعريف ، والبيان ،والتخريج، والتوثيق دون أن يفي به على أفضل وجه ، وأن يشير في نهاية كل نقل الى المصدر الذي استقى منه المعلومات التي دونها ، وأن يقوم بفهرسة علمية لجميع ما ذكر في النص من الآيات ، والأحاديث ، وأبيات الشعر ، والأعلام ، والبلدان ، والأماكن ، والموضوعات ·

فهرس مخطوطات الأدب في المتحف العراقي(٤):

صدر فهرس بعنوان « مخطوطات الأدب في المتحف العراقي » أعده أسامة ناصر النقشبندي وظمياء محمدعباس وضمناه وصفاً لألف وتسع مائة وسبع وخمسين مخطوطة ، فيها أربع مائة ديوان ، من بينها مجموعة مهمة من دواوين شعراء العراق الذين عاشوا بعد القرن الحادي‌عشر للهجرة ، ومجاميع شعرية وأدبية نادرة ·

وقد اشتمل الوصف على ذكر عنوان المخطوطة ، اسم المؤلف ، ترجمته ،اقتباس بعض الأسطر من أول المخطوط ، معلومات عن المحتويات وسبب التأليف والأبواب والفصول والمباحث، أهمية النسخةومميزاتها وما تتضمنه من حواش وشروح وتعليقات وتملكات وسماعات واجازات ومقابلات وفوائد وقراءات ، نوع الخط ، اسم الناسخ وتاريخ النسخ ومكانه وترجمة الناسخ اذا كان من الأعلام ، مقاس المخطوطة والمصادر والمراجع التي ذكرت المخطوطة ومؤلفها ، بالاضافة الى الالماح الى طبعات المخطوطة ، اذا كانت قد طبعت ، والاشارة الى كونها محققة أو غير محققة، وآخر طبعةصدرت‌لها·

ومن نوادر المخطوطات التي تضمنها الفهرس نسخة من « سحر البلاغة وسر البراعة » للثعالبي ، كتبت فيعام ٤٨٢هـ و « ديوان‌المستنصريات» بخط ابن أبي‌الحديد، و « ديوان الحماسة الكبرى » لأبي تمام‌كتب ٥٠٤ هـ ، و « نهج البلاغة » كتبت ٥٥٦ هـ، ونسخة فريدة من «الفصول‌الأدبيةوالمراسلات العبادية » للصاحب بن عباد ، كتبت٦٢٨هـ، ومجموعات تضم كتباً ورسائل فريدة ، منها « فصول التماثيل في تباشير السرور » لابن المعتز ، و « دارات العرب » للاصمعي ، و « وصايا أفلاطون » و « المختار من شعر ابن المعتز » ، كتب ٦٤٥ هـ ·

وذكر المعدان أنهما فصلا الحديث عن المجاميع الشخصية ، التي هي أشبه ما تكون بالمذكرات الخاصة ، والتي‌تنقل الكثير من الرسائل والفصول والقصائد غير المعروفة ، كما في « المجموعة الوسطى » لأبي الثناء الآلوسي ··· كما أن بعض المجاميع‌تضمنت حكايات‌ومحاورات شعرية ومناظرات‌وخواطر وتعليقات وردوداً ونقولات ، اضافة الى تسجيل بعض الأحداث والأخبار والفوائد التأريخية ·· وبعض تلك المجاميع تمثل نتاجات لما كان يدور في المجالس الأدبية ، ومنها : مجموعة أحمد بن رمضان الهيتي وصالح‌السعدي الموصلي وأبي‌الفتح‌التونسي الدمشقي وخليل النعاجي المقدسي ومحمد أمين العمري وعبدالوهاب النائب ويحيى بن عبدالرحمن البعلبكي وغيرهم ، ومعظم هذه المجاميع كتبت بخطوط جامعيها ·

وقع الفهرس في ٧٨٣ صفحة من القطع المتوسط ، وذيل بكشافين للأعلام والأمكنة استغرقا الصفحات من ٦٦٣ الى ٧٥٨ ، وعرضت في بقية الصفحات نماذج مصورة لبعض المخطوطات .

* * *

□ أعداء المكتبات والكتب التراثية:(٥) :

كتب الباحث الأستاذ (محمد حافظ عبدالله الرفاعي) دراسة قيمة عن أعداء التراث المكتوب .. والتي نشرت في الملحق الاسبوعي «ألوان من التراث» لجريدةالمدينة السعودية العدد ٦٠٥٠ ويعدد فيها أبرز وأهم أعداء الكتب والمكتبات التي تضم في خزائنها ذخائر التراث العربي والاسلامي وهي :

أولا ـ البشر :

لعل بعضنا تصيبه الدهشة عندما يسمع بأن البشر من أشد أعداء الكتب ، وبخاصة عندما يقف على الجهود ، التي بذلت ، ولا تزال تبذل ، في المحافظة على الكتب والمخطوطات ، ولكن عجبه سيزول عندما يدرك أن التاريخ سجل لنا أحداثا أليمة ، ووقائع جسيمة ، أصابت مجموعات هائلة ، وأعداداً كبيرة من الكتب ، كان للانسان دور كبير في وقوعها . سواء كان ذلك الدور عدائياً ، قصد به الاعتداء على ثمار الفكر الانساني ، أو غير عدائي مقصود ، انما وقع نتيجة الجهل والاهمال وعدم الحيطة .

وعلى سبيل المثال : فقد امتدت يد العدوان على مكتبة الاسكندرية ، قبل الفتح الاسلامي ، وبعده ، فقضت على الآلاف المؤلفة من كتب العلم والحكمة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل زعم بعض الكتاب أن هذا العمل الشنيع قام به والي مصر عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ بأمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بحجة أن المسلمين ليسوا بحاجة اليها ، ولكن هذا الزعم الباطل يسقط أمام كل من تمعن في تعاليم الاسلام ، وتتبع أخلاق المسلمين ، ابان الفتوحات الاسلامية ، اذ يجد أن المسلمين ليس من عادتهم اطلاقاً حرق الكتب الدينية اليهودية والنصرانية ، واذا حصل شيء من هذا فلا يتجاوز الكتب ، التي تتحدث عن الوثنية ، وتروج لها ، كما يجد حرص المسلمين على الانتفاع بكتب الطب والحكمة ، والفلسفة ، وينفقون الكثير في سبيل ترجمتها ، وتعريف المسلمين بها . أما أعداء العرب فالتاريخ يشهد بأن هناك ممن يحرصون على طمس معالم الحضارة ، ودك حصون المدنية ، وخير دليل على ذلك ـ المأساة الكبرى ، التي أصابت البلاد والعباد ، من الهجوم المغولي ، وما رافق ذلك الهجوم من اعتداء على الكتب والمخطوطات ، حتى ان مياه نهر دجلة اصطبغت بالسواد (لو نمداد المخطوطات) من جراء القاء الاف الكتب والمخطوطات فيها ، ولم يغادر القائد المغولي (هولاكو) مدينة بغداد الا بعد أن حولها الى خراب ، في حين أنها كانت تعد من أجمل مدن العالم آنذاك .

وبمثل تلك الفظاعة يستمر أعداء الثقافة في ممارسة نشاطهم العدواني تجاه الفكر الانساني ، حتى القرن العشرين ، وخير شاهد على ذلك جرائم اليهود المستهدفة للكتب العربية والثقافة الاسلامية ، ولا أحد يجهل دور الصهاينة البارز في قضية احراق المسجد الأقصى ١٣٨٩/٦/١٧ هـ وما تلك الجريمة النكراء

الا واحدة من الجرائم الموجهة ضد الفكر الانساني ، بهدف القضاء على التراث المكتوب .

ثانياً ـ النار والماء :

لا يخفى على الجميع أن ما تلتهمه النار من الكتب ، خلال فترة قصيرة ، قد لا يمكن تعويضه في سنوات ، وربما لا يمكن استعاضته على الاطلاق .

أما الماء فرغم أنه من الوسائل الشائعة في اخماد النار ، الا أنه غير مجد ضد الكتب والمخطوطات ، وذلك لاحتمال التلف ، الذي قد يسببه وصول الماء اليها من التصاق الأوراق ، واصابتها بالعفن ، الى سيلان المداد بالنسبة للمخطوطات ، وغير ذلك من الأضرار، التي تصل الى أبعد حد من التلف، الذي تسببه النار نفسها ، الأمر الذي يجعلنا نعتبر الماء ضمن أعداء الكتب ، شأنه شأن النار .

وحرصاً على المواد المكتبية يجب أن يكون مبنى المكتبة معداً لمقاومة الحريق ، ومزوداً بالمنبهات « الأوتوماتيكية » بعيداًعن شبكة المياه والمجاري المائية ، أما في حالة نشوب الحريق فيجب استعمال الأجهزة ، المحتوية على « ثاني أكسيد الكربون » كما يجب التشديد على عدم التدخين ، داخل المكتبة .

ثالثاً ـ الرطوبة :

تلعب الرطوبةدوراًهاماً في تلفالكتب، رغم أن وجودها بنسبة معينة يعد ضرورياً لمرونة الورق . وقابليته على الانثناء ، فالرطوبة العالية جداً والتي تصل الى ٧٥٪ تعطي الفرصةلنمو الفطر (العفن) الذي يترتب عليه اضعاف الورق ، وتحول لونهالى بقع كريهة ، ذات لون أسود أو بني ، كما تسببفي جفافالجلد ، الذي يحمي الأوراق.

أما الرطوبة القليلة التي تقل عن ٣٠٪ فانها تتسبب في جفاف الورق واضعافه وقابليته على التقصف ، لذا يستحسن أن تكون نسبة الرطوبة قريبة من الوسط ،أي بين ٤٥ـ٥٥٪ فقط .

رابعاً ـ الحرارة والضوء :

عند تعرض الأوراق للحرارة أو الضوء القوي لفترة طويلة ، ونتيجة سقوط أشعة الشمس عليها ، أو نتيجة الاضاءةالصناعية، فانها تفقد لونها وتضعف مقاومتها ،وتصبح هشة ، وسرعان ما تتقصف وتتكسر ، عند أدنى استعمال ، ولكي نحافظ على الكتب القيمة ، والمخطوطات النادرة ، والوثائق المهمة ، أكبر فترة ممكنة من الزمن ، يجب أن نهييء لها الجو المناسب ، بحيث يكون جو المكتبة ، بين ١٨ر ـ٢٤درجة مئوية فقط، وهذا يساعد على اطالة حياة الأوراق ، ويؤخر تقادمها .

خامساً ـ الهواء الجوي :

يعتبر الهواء الجوي الملوث مسؤولا مباشراً عن بعض التلف ، الذي يحدثللكتب نتيجة تفاعله مع المواد الداخلة في تركيب الورق ، وتحلل مواد اللصق والتجليد،وذلك لتوفر عناصر التحلل والأكسدة فيه (كالأكسجين ، النتروجين ، بخار الماء ،ثاني أكسيد الكربون .. الخ) كما أن الهواء الملوث يصدىء المعادن ، ويفقد المادة البرونزية الموضوعة على أغلفة الكتب بريقها ولمعانها .

ولكي نتفادى خطورة الهواء لا بد أن يكون بالمكتبة جهاز تكييف مركزي ، يمكن التحكم في درجة حرارته ، بحيث تكوندرجة جو المكتبة بين ٢٠ــ٤٠ درجة مئوية ، وان يتولى فـريق الصيانـة مسؤوليـة تشـغيل التكييف ، والاشراف عليه ، طوال ٢٤ ساعة يومياً لأن أي تعطيل في التكييف ــ ولو لمدة قصيرة ــ تنعكس آثاره الضارة على المـواد المكتبية نتيجة التغيير الكبير المفاجىء . الذي يحدث في درجة الحرارة والرطوبة .

سادساً ــ الحشرات والقوارض :

هنـاك عـدد كبير مـن الحشرات والقوارض ، بعضهـا يعيش بين الكتب ، ويتغذى على صفحاتها ، وبعضها الآخر يشن هجومه عليها ، كلما سنحت لـه الظروف الملائمة ، وقد أمكن التعرف على أكثر من سبعين نوعاً من الحشرات ، كلها بمثابةأعداء الكتب ، منهـا على سبيل المثال (قارضة الورق ، الأرضة ، دودة الكتاب ، العثة ، الفطريات .. الخ) .

لكن العلماء تمكنوا مـن ايجاد طـرق مقاومتها ، ووسائل القضاء عليها ، ومنهذه الوسائل طريقـة التبخير الكامل للمكتبـة والمخازن ، وهي طريقة ناجحة في القضاءعلى الحشرات وابادتهـا ، كما أن هناك طرقاً أخرى ، الهـدف منهـا طرد الحشـرات ، والقوارض ، ومنعها من زيارة المكتبة ، مثل طريقة توزيع خليط من حامض «البوريك» و « النشا » على ظهور الرفوف والدواليب (وهي طريقة وقائية) .

سابعاً ــ الأنانية والعبث :

يعتبر جمهور القراء نفسـه في بعض الحالات مسؤولا مسؤولية مباشرة عن الضرر ، الذي يلحق الكتب ، وذلك بتمزيقه ، أوقصه بعض الصوروالخرائط والأوراق منالكتب، ويكون ذلك اما بدافع العبث ، والطيش ، أو بدافع الأنانيـة ، وحب التملك ، الأمـر الذي يوقع المسؤولين بالمكتبة في حرج أمـام القراء والباحثين الآخرين .

ويمكن الحد من هذه الظاهرة الخطيرة بتأمين أكثر من نسخة واحدة، بالنسبة للكتاب، وتسهيل عملية الاعارة ، بالاضافة الى نشر الثقافة والوعي المكتبي ، بين عموم القراء المترددين علىالمكتبة ، وتعتبر عملية ملاحظة القراء عن طريق الشاشة « التلفزيونية »من أنجح وسـائل القضاء على ظاهرة العبث ، واختفاء بعض الصور واللوحاتوالخرائط! ومن الوسائل الحديثة المستعملة ، لحمايـة الكتب والوثائق في المكتبات الكبيرة عمليـة المغنطة الكهربائية و « الألكترونية » بالنسبة لجميع مقتنيات المكتبة ، بحيث تصدراشارات تنبيهية متتابعة ، عنـد محاولة أي شخص الخروج بأيكتابأو ورقة ، من داخلالمكتبة، وهذه الوسيلة أثبتت نجاحها وفاعليتهـا في المحافظة والابقاء على مقتنيات المكتبة .

* * *

أهم مراجع البحث :

١ ــ الاجراءات الفنية للمكتبات : د. أحمد أنور علي .
٢ ــ عـالـم الكتـب والقـراءة والمكتبـات : د. محمد أمين البنهاوي .
٣ ــ مـاذا بعد احـراق المسجـد الأقصى : عبد الحميد السائح .
٤ ــ أشهـر مشاهـير الاسلام في الحروب والسياسة : رفيق العظم .
٥ ــ الاسلام وفلسطين:رفيق شاكرالنتشة.

☐ **المسرح والتراث العربي :(٥)**

في محاضرة للدكتور سمير سرحان عن [المسرح والتراث العربي] يحاول أن يجد العلاقة بين المسرح والتراث العربي . وذلك من خلال المراحل التاريخية التي ظهروتطور فيها مسرح خيال الظل .. الى أن وصل الى شكله وصيغته المعاصرة .. ويرى أن الفن المسرحي الذي أضحى جزءاً من وجداننا لا يمكن بأي حال أن ينعزل عن تاريخ الأمة وعن أصالة تراثها .

ففي التراث العربي المكتوب والمدون وفي الفولكلور العربي المتوارث مواقف بطولية شامخة ، وشخوص انسانية أخاذة وأشكال احتفالية ومسرحيات مؤثرة .

واذا عرفنا أن الفن الحقيقي الأصيل هو التقاط للظواهر الجوهرية والتيارات الرئيسة في الحياة الانسانية واستبعاد لكل ماهو سطحي ووقتي ، لعرفنا أهمية استلهام تراثنا العربي في صيغته الجدلية التي تبحث في كل القيم والخصائص الانسانية المتميزة في حضارتنا العربية الاسلامية وعندئذ نستطيع أن نركن الى الحصيلة المنتقاة من تراثنا لنستغلها استغلالا مجزياً في أعمالنا الفنية بالأسلوب الأمثل والتناول الأنفع والمعالجة الأجدى .

من هذه الزاوية يمكننا أن نستنتج الحقائق التالية :

١ ـ ان المسرح العربي الحالي ـ في معظمه ـ يقوم في شكله ومضمونه على التراث المسرحي الأوربي خاصة الاغريقي اليوناني .

وحيث أن تأصيل هذا المسرح مهد جذوره في الثقافة العربية يتطلب ايجاد بديل في الثقافة العربية فان أفضل السبل هو العودة الى التراث العربي الذي يختلف عن الحضارتين اليونانية والاغريقية لاستنباط أشكال ومضامين تمثل بحق « الروح » العربية .

٢ ـ ولأن التراث العربي يحمل طابعاً مميزاً خاصاً ، هو نتيجة تطور تاريخي للمجتمع العربي الاسلامي بفنونه وآدابه وعلومه فان استلهام هذا التراث لا بد بالضرورة أن يؤدي الى اثراء أي عمل مسرحي عربي ينشد التأصيل على صعيد الهوية القومية .

٢ ـ ان التراث العربي هو نتاج الثقافة المدونة والمنقولة والشفاهية وهو يشكل مجموع التكوينات المميزة للشعب العربي في المشرق والمغرب وهذا مايؤهله لاعطاء البديل الحقيقي لغياب الفعل المسرحي عن ساحة الآداب العربية في الماضي وللمسرح الحالي القائم أساساً على النقل والاقتباس عن الغرب أو على الأشكال الغربية في المسرح .

والجيل الجديد الذي تحمل مسؤولية توظيف التراث في المسرح العربي يحاول تأصيل عطاءاته انطلاقاً من تقديم أعمال مسرحية هادفة ابتداء من الستينات حيث عرف المسرح العربي العديد من الأبحاث والدراسات والتجارب التي دارت كلها أو معظمها حول محور أساسي هو : هل عرف العرب المسرح أم لا ؟ وهل بالامكان التعامل مع التراث العربي كركيزة أساسية للعمل المسرحي العربي ابرازاً للشخصية الثقافية المميزة للامة ، وانطلاقاً من ضرورة البحث عن صيغة مسرحية عربية مميزة ومختلفة عن المسرح الغربي ؟

ومن أهم هـذه التجارب والدراسـات والارهاصات والمحاولات في هذا المجال دعوة الدكتور يوسف ادريس في مطلـع الستينات الى ابتداع مسرح عربي أصيل عـن طريق الاعتماد على النموذج التراثي المتمثـل في مسرح السامر ·

وكـان يوسـف أدريس قـد عـرض نظريته عن الدراما العربية الأصيلة فيثلاث مقالات بمجلة الكاتب نشرها عام ١٩٦٤م بعنوان « نحو مسرح مصري » ·

ويشعـر يوسـف ادريس أن الكاتـب المسرحي لكي يبدع مسرحـاً عربياً أصيـلا ينبغي أولا أن يفتش عـن الذات والهويـة العربية ، ويقترح في هـذا السبيل أن ينظـر الكاتب الى ماضي بلاده التاريخي والأدبي ، وهو يشجـع الكتاب على البحث عـن أدبهم الشعبي المنسي فهنـاك سيجدون هويتهـم الأصيلة · ويعد يوسف ادريس من المصـادر القيمة في ابتداع شكل مسرح عربي معتمد على الأشكال التراثية « القافية » أو الحوار المقفى الذي هو لون من الكوميديا المرتجلة يمارسها النـاس في مجالات عدة ، وكذلك مسرح السامر والفصل المضحك الذي يوجد في الريف ، وكذلك مسرحيات خيال الظل وأخيراً القراقوز أو الأراجوز ·

وفي رأيه أن كل هذه الوجوه من الأدب الفولكلوري كان ينبغي أن تستخدم عندمـا برزت مسرحيات القرن العشرين ويعتقديوسف ادريس أن المسرح العربي ــ حتى الآونـة الأخيرة ــ كان مقلداً للدراما الأوربيـة في في القرون الثامن عشـر والتاسع عشـر والعشرين · فالكتاب المسرحيون العرب عن طريق الترجمة والاقتباس بل عـن طريق الابتكار أيضاً قد عبروا عن أفكار أوربية· مستخدمين أشكالا أوربية ، بل عندما كانوا يكتبون أيضاً عـن أوضاع محليـة ، كان الوجدان أو الوعي الأوربي هو الماثل دائماً وبذلك لم يحصل المسرح العربي على هويته وفرديته· وفي رأي يوسف ادريس أن القول بأنه لم يكن أمام الدراما في الشرق الأوسط الا طريق واحد هو الطريق الأوربي فحسب هو قول مضلل وغير صحيح ·

فالأمة العربية قد أوتيت تاريخاً غنياً من الأدب الشعري والفولكلوري ، وشيئاً من الأشكال المسرحية المبكرة بحيث يتاح للكاتب العربي أن يستلهم هـذا الموروث الفني من الثقافة العربية الأصيلة ·

وفي عام ١٩٦٧م صدر كتاب « قالبنا المسرحي » لتوفيق الحكيم دعا فيه الى ايجاد صيغة مسرحية عربية خاصـة تقوم أساساً على الحكواتي والمداح ولكنالحكيم ــكمؤلف مسرحي ــ لم يشأ أو لم تتح له الفرصة لأن يؤلف مسرحية ضمن هذا القالب ، وبالتالي ظلت دعوته دعوة نظرية لم يختبرها فيمجال التطبيق العملي ·

ويجيئنـا الكاتب المسرحي سعـد الله ونوس من سوريا معتمداً في مسرحياته على شخصيـة الحكواتي ·· الشخصية العربيـة المعروفة في هذا المجال والتي تعتبر احدى الشواهد التي يدلل بها النقاد والمهتمونعلى انها تميز مسرحنا العربي ·

« فالحكواتي » في مسرح سعداللهونوس عنصر فعـال يغني الحدث وليس مجرد راو يروي الأحداث وينظر اليها من الخارج أو يعلق عليها دون أن تكون له بها أدنىصلة· ويهدف سعدالله ونوس من استخدامه لصيغة

الحكواتي الى ايجاد لغة مسرحيــة متميزة تستفيد من التراث العربي مستخدمة الحكاية الشعبية أو وقائع التراث اطاراً وهيكلا ٠
وتأتي تجارب مجموعة المؤلفين المخرجين العرب الذين تزودوا بكل خبرات التجربة الفنيــة والفكريــة لجيل الستينات بعدمـا استعانوا بدراساتهم الأكاديمية والعلمية ، وبالرصيد الهائـل المتطور مـن الامكانـات المسرحية التي هيأتها الأجيال السابقة ليحدد اختباراته من خلال ادراكه الواعي للتراث ٠

★ ★ ★

البلاغة والبلاغيون العرب في مجلة الفكر العربي :

تقوم مجلة الفكر العربي بتحضير عدد خاص بالبلاغة والبلاغيين العرب ٠ وايماناً من رئاسة التحرير والهيئة الاستشارية للمجلة بالثقة المتبادلة والدور المشترك للعاملين في التراث الاسلامي والمشتغلين في الثقافة العربية ٠ فقد وزعت الرسالة التالية :

تحية طيبة وبعد :

تعمل مجلة « الفكر العربي » على تخصيص أحد أعدادها لدراسات وأبحاث محورها البلاغة العربية ورجالاتها ٠ فأي رائد من رواد هذا العلم يمكن أن يشغل ــ من خلال فكره ــ عدة أبحاث ٠ وأي موضوع أو مفهوم أساسي في البلاغة يمكن أن يدرس عند أحد البلاغيين أو عند أكثر من واحد ٠ وانّنا البلاغة العربي من جهة ، ولشخصيات البلاغيين نرحب بذلك اذ الهدف من هذا المشروع اطلاع القارىء والمثقف على صورة واضحة المعالم من جهة ثانية ٠ وهكذا يكون أملنا أن ينهض العدد المنشود بجناحين :

١ ــ البلاغة والبلاغيون من الجاحظ حتى عبدالقاهر الجرجاني ٠

٢ ــ البلاغــة والبلاغيــون من الجرجــاني حتى الشريف الجرجاني وكتاب « الاتقان » للسيوطي ٠

وقد جاءت علوم البلاغة منتشرة ومتنائية ضمن أدبيات شتى ، بيننا وبين استقصائها النظر في أعمال أناس لم يكونوا (بعضهم على الأقل) يفكرون في التأسيس لعلم جديد هو (علم البلاغة) وأولئك القوم ينتمون الى فروع معرفيــة متعددة ، فمنهم الموسوعي كالجاحظ الذي التزم في البيان والتبيين نصوصاً أدبية نثرية وشعرية بالاضافة الى آراء مختلفة في اللغة والأدب على درجة عالية من الذكاء والعبقرية ٠ ومنهم من ينتمي الى اللغة والأدب كـ « الكامل » للمبرّد الذي يستهل الباب ٤٦ من كتابه بقوله : « نذكر في هذا الباب من كل شيء شيئاً لتكون فيه استراحة للقارىء وانتقال ينفي الملل » فهذه قاعدة بلاغية تليها ثانية في السطر عينه : ونخلط ما فيه من الجد بشيء من الهزل ليستريح اليه القلب وتسكن اليه النفس ٠ تلي ذلك أقوال سيقت كالشواهد لأبي الدرداء وعلي وابن مسعود وابن عباس ٠ ويمكن أن نضيف الى هذين « أدب الكاتب » لابن قتيبة ، وكتاب « النوادر » لأبي علي القالي ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع منها ، كما جاء في

مقدمة ابن خلدون . ويلي هؤلاء نوع من الكتابة المتخصصة اذ تعددت المؤلفات في الشعر مفصولا عن النثر من مثل « قواعد الشعر » لثعلب ، و « البديع » لابن المعتز ، و « عيار الشعر » لابن طباطبا العلوي ، و « نقد الشعر » لقدامة بن جعفر .

ثم جاءت حلقة جديدة من التخصص قائمة على نقد شاعر واحد أو الموازنة بين شاعرين أو أكثر ك « الموازنة بين أبي تمام والبحتري » للآمدي ، و « الوساطة بين المتنبي وخصومه » للقاضي الجرجاني .

تبع ذلك المؤلفات الاعجازية حيث قام الاعجازيون بجهد بالغ في الكشف عن أسرار اعجاز القرآن . كأنما جاشت حميتهم ازاء التأليف المختص بالشعر أو بالشعر والنثر ، فألف الرمّاني (أبو الحسن علي بن عيسى) كتابه « النكت في اعجاز القرآن » . وتداول النقاد من نظّار الفنون الكلامية والتأليف في قواعد الجمال التعبيري الكلامي ضامّين جناحيه المقدس أي القرآن وغير المقدس أي الشعر والنثر . وكان الشريف الرضي حلقة الوصل بين هؤلاء ومن سبقهم ، فكتابه « تلخيص البيان في مجازات القرآن » يشكل اشارة الى اشتراك المجاز في القرآن مع المجاز في الشعر والنثر بالاسم، كما أشرك ابن ناقيا البغدادي الاثنين في تعبير « التشبيهات » من خلال عنوان كتابه « المجاز في تشبيهات القرآن » . ويقابل هذا الالتفاف كتب مثل كتب « الصناعتين : الشعر والنثر » ، لأبي هلال العسكري . واستفاق الفلاسفة فتناولوا موضوع العبارة اللفظية وبالتحديد الفنية . فكتب ابن سينا: « الحكمة العروضية في معاني الشعر » ، ولا يمنع ذلك من التأثر بكتاب الفارابي « الموسيقى الكبير » (بغض النظر عن تأثرهما بأرسطو) . ويكون بذلك قد انتقلت العدوى الى نظّار جدد يتطلعون الى الجمال التعبيري من زاوية تختلف عن زوايا من عداهم ، نعني بهم أصحاب النظر والحكمة .

ظلت الدراسات البلاغية ملتبسة بغيرها من ضروب القول حيث تؤخذ الفكرة البيانية أو البلاغية الى عند هذا النص من النثر أو هذه المقطوعة من الشعر حتى قيض للبيان رجل عالم عاشق لعلمه ، فاستقدم الى أفكاره النصوص من القرآن والشعر الجاهلي وغير الجاهلي والأقوال والخطب وغير ذلك ـ مبررأ ذلك بقبول الاسلام النظر في ما هو موضع اشكال ـ ليبني أول مؤلفين في ما يصح أن نسميه (البلاغة العامة) وذلك في كتابيه الشهيرين : « دلائل الاعجاز » و « أسرار البلاغة » يشير الى تحرره من عقدة الفصل بين كلام الخالق وكلام المخلوق . وظهر أنه غير متعصب لشيء أكثر من تعصبه للعلم الذي وضع « أسراره » : البلاغة كعلم محور تدور بجاذبيته وبدورانه سائر النصوص المقتطفة من الكلاميين .

بعد الجرجاني ، اتضح في المؤلفات الأدبية النقدية فرعان : فرع واصل النظر في علم البلاغة ، مهتدياً بهدي صاحب « الأسرار » ، وفرع واصل النظر والمضاهاة في المباحث الأولى : اعجاز القرآن ، وتفسير الدواوين و« بديع الشعر » والنثر وسرقات الشعراء .

غير أن مؤلفات البلاغة ، على خطى عبدالقاهر ، لم يسعها أن تفوق أستاذها مع أنها ناقشت مفاهيمه ورأتها غير مارآها، فبدلت في تعريفها ، وبعضهم فرّع على أصول

الجرجاني وفروعه • ثم تلا هذه المرحلةمرحلة التطويل والاختصار أو التلخيص والتنسيق ثم الشروح ومواقف مختلفة •

الى أن كان النظرالمعاصر في قضايا اللغةوالأدب بقيام سور في التأسيس لعلم اللسانية فانحرفت الأنظار نحو الأسس التيجاء بها الرجل • وتفرعت الدراساتاللسانية تفرعاً غير تفرع دراساتنا النقدية ثمالبلاغية • ولم ينفتح بعدمجرى دراسات التعبيربالكلام على آفاقدراساتنا البلاغية بمثل ما تستحقه • ولذلك ظلت علوم البلاغة والبيان العربي في حالتها الأولى دون أن يسمح التياربا ستشراف آفاقها في ضرورتها منصة للانطلاق نحو الطور الثاني من علم البلاغة •

فانطلاقاً نحو هذه المرحلة الجديدة المؤمل فيها ندعو كتّابنا الى مراجعة دفاترنا بما عندنا من فكر بلاغي ، والتعريف برجاله من خلال مخاضهم ونشاطهم طريق التأسيس لعلم البلاغة والبيان • فعلينا أن نستبرهذا العلم ونصيده من مظانه فيالمؤلفات التي تعتبر بلاغية والتي تنتمي الى دراساتعلم النطقسواء كانميدانها الفلسفة أو الدين أو النقد الشعري والنثري أو الدراسةاللغوية بشتى فروعها ، وسواء كانت أشتاتاً في مجامع القول أو تتداولها الألسن مشافهة مما حفظه القرآن الكريم في مثل هذهالآية الكريمة : « ألم ترَ كيف ضرب الله مثلاكلمةطيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء » •

وبما أن طموحنا كبير وقدراتنا في مجال ضم الجهود البلاغية الى بعضها يمكن أن تنمو شيئاً فشيئاً ، فاننا نقصر عددنا الحالي من مجلة « الفكر العربي » على أبحاث في البلاغة البلاغيين الأصوليين راجين أن يربوالعمل الذي ننتظر على ما هو في الانتظار • وعلى المكافأة المتواضعة التي نخصص له • وانا نرسل ربطاً قائمة بأسماء المشاهير من علماء البلاغة والنقد مع أسماء مؤلفاتهم المتداولة وقد رتبناها زمنياً لتوخي رؤية التطور من رجل نقدي أو بلاغي الى آخروللتركيز على الوجهة العامة للدراسات التي نطلبها • ان فيهؤلاء الرجالمنخلال أعمالهم • وان في فرع من علوم البلاغة تناولته مختلف الأقلام تناولا جديراً بالرصد البحث • ونحنعلى استعداد للتشاور معكم ، أخي الكاتب، في الموضوع الذي تريدون • فنرجو أن توافونا باسم موضوع البحث الذي اخترتم مع صورة أولية للتصميم لنكون على اتصال وتشاورفيما يلزم • ونحب لو تزودون خزانة مجلتنا بقائمة من أعمالكم المنشورة تبين تاريخ ومكان النشر لخير نرجوه لسعيكم سعينا • ونرجو لكم التوفيق •

رئيس تحرير مجلة الفكر العربي
د• حسن قبيسي

مستشار العدد
نعيم علوية

بعض رواد النقـــد والبلاغـة
مـــع بعض مؤلفاتهم وتسلسل وفياتهـــم

١ ـ ابن سلام الجمحي	طبقات فحول الشعراء	ت ٢٣١ هـ
٢ ـ الجاحـــظ	البيان والتبييـن	ت ٢٥٥ هـ
٣ ـ ابن قتيبة	الشعر والشعراء ، أدب الكاتب	ت ٢٧٦ هـ
٤ ـ المبرّد ، أبو العباس محمد بن يزيد	الكامل في الأدب	ت ٢٨٥ هـ
٥ ـ ثعلب ، أبو العبـاس أحمد بن ثعلب	قواعد الشعر	ت ٢٩١ هـ
٦ ـ ابن المعتز	البديـــع	ت ٢٩٦ هـ
٧ ـ الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير)	جامع البيان عن تأويل آي القرآن	ت ٣١٠ هـ
٨ ـ ابن طباطبا العلوي	عيار الشعر	ت ٣٢٢ هـ
٩ ـ ابن وهب (أبو الحسن اسحق الكاتب	البرهان في وجوه البيان	ت ٣٣٥ هـ
١٠ـ قدامة بن جعفر ، أبو الفرج	نقد الشعر ، (نقد النثر ؟)	ت ٣٣٧ هـ
١١ـ الفارابي ، أبو النصر	الموسيقي الكبير رسالة في قوانين صناعة الشعر ـ كتاب الخطابة ـ كتاب الحروف	ت ٣٣٩ هـ
١٢ـ القاضي الجرجاني	الوساطة بين المتنبي وخصومه	ت ٣٦٦ هـ
١٣ـ الآمـــدي	الموازنـــة	ت ٣٧٠ هـ
١٤ الرماني ، أبو الحسن علي بن عيسى	النكت في اعجاز القرآن	ت ٣٨٤ هـ
١٥ـ المرزباني ، (أبو عبدالله محمد بن عمران)	الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء	ت ٣٨٤هـ
١٦ـ الحاتمي ، أبو علي محمد بن الحسن	سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره	ت ٣٨٨ هـ
١٧ـ ابن وكيع التنيسي	المنصف للسارق المسروق	ت ٣٩٣ هـ
١٨ـ أبو هلال العسكري	كتاب الصناعتين	ت ٣٩٥ هـ
١٩ـ أبو حيان التوحيدي	الهوامل والشوامل ، الامتاع والمؤانسة ، المقابسة	ت ٣٩٣ هـ

٢٠ـ الباقلاني ، أبو بكر	اعجاز القرآن	ت ٤٠٣ هـ
٢١ـ الشريف الرضي	تلخيص البيان في مجازات القرآن	ت ٤٠٦ هـ
٢٢ـ القاضي عبدالجبار	اعجاز القرآن	ت ٤١٥ هـ
٢٣ـ المرزوقي ، أبو علي أحمد بن محمد ابن الحسن	شرح ديوان الحماسة	ت ٤٢١ هـ
٢٤ـ ابن سينا	الحكمة العروضية في مكاني كتاب ريطوريقا ـ رسالة في البلاغة والخطابة ـ الفن التاسع : الشعر ـ أسباب حدوث الحروف	ت ٤٢٨ هـ
٢٥ـ ابن رشيق القيرواني	العمـــدة	ت ٤٥٦ هـ
٢٦ـ ابن حزم (أبو محمد علي الأندلسي	الاحكام في أصول الأحكام	ت ٤٥٦ هـ
٢٧ـ ابن سنان الخفاجي	سر الفصاحة	ت ٤٦٦ هـ
٢٨ـ الجرجاني ، عبدالقاهر	أسرار البلاغة ، دلائل الاعجاز	ت ٤٧١ هـ
٢٩ـ الشنتمري ، (يوسف بن سليمان)	في علم مجازات العرب ـ شرح شواهد سيبويه	ت ٤٧٦ هـ
٣٠ـ ابن ناقيا البغدادي	الجمان في تشبيهات القرآن الشافية	ت ٤٨٥ هـ
٣١ـ الراغب ، الأصبهاني ،أبو القاسم حسن بن محمد	محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء	ت ٥٠٢ هـ
٣٢ـ الغزالي (أبو حامد)	المصطفى من علم الأصول معيار العلم في فن المنطق	ت ٥٠٥ هـ
٣٣ـ الزمخشري	أساس البلاغة ، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل	ت ٥٢٨ هـ
٣٤ـ الشهرستاني ، محمد	نهاية الاقدام في علم الكلام	ت ٥٤٨ هـ
٣٥ـ أسامة بن منقذ	البديع في نقد الشعر	ت ٥٨٤ هـ
٣٦ـ ابن رشد (أبو الوليد محمد)	الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة	ت ٥٩٥ هـ
٣٧ـ الرازي ، فخر الدين محمد بن عمر	نهاية الايجاز في دراية الاعجاز التفسير الكبير : مفاتيح الغيب	ت ٦٠٦ هـ

٣٨ــ علي بن ظافر بن حسين الازدي	بدائـع البدائـه	ت ٦١٣ هـ
٣٩ــ أبو البقاء العكبري	التبيان في شرح الديوان	ت ٦١٦ هـ
٤٠ــ السكاكي ، يوسف بن أبي بكر	مفتـاح العلـوم	ت ٦٢٦ هـ
٤١ــ ابن الأثير (ضياء الدين)	الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور	ت ٦٣٧ هـ
٤٢ــ ابن يعيش (موفق الدين أبو البقاء)	شرح المفصل للزمخشري شرح التصريف الملوكي	ت ٦٤٣ هـ
٤٣ــ ابن الزملكاني (أبو المكارم)	التبيان في علوم البيان	ت ٦٥١ هـ
٤٤ــ الزملكاني (كمال الدين)	البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن	ت ٦٥١ هـ
٤٥ــ ابن أبي الاصبع المصري	تحرير التحبير	ت ٦٥٤ هـ
٤٦ــ حازم القرطاجني	منهاج البلغاء وسراج الأدباء	ت ٦٨٤ هـ
٤٧ــ الخطيب القزويني ، جلال الدين	التلخيص في علوم البلاغة	ت ٧٣٩ هـ
٤٨ــ يحيى بن حمزة العلوي	الطراز ٣ ج	ت ٧٤٩ هـ
٤٩ــ التفتنازي ، (سعد الدين مسعود بن عمر)	المطول في شرح تلخيص المفتاح	ت ٧٩١ هـ
٥٠ــ الشريف الجرجاني (السيد أبو الحسن)	حاشية السيد على المطول	ت ٨١٦ هـ
٥١ــ السيوطـــــي	الاتقان في علوم القرآن	ت ٩١١ هـ

* * *

منشورات مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية :

أصدر مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية باستانبول ــ تركيا ، عدداً خاصاً من نشرته الاخبارية ، استعرض فيها أهدافه ونشاطاتـه ومنشوراته • وفيما يلي قائمة بالأعمال التي نشرها المركز المذكور :

١ ــ النشرة التعريفية المصورة لمركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية باللغات العربية والانجليزية والفرنسية ، ١٩٨١ • (نفدت) •
٢ ــ دليل المؤسسات الثقافية الاسلاميـة ، باللغة الانجليزية (نفد) •
٣ ــ النشرة الاخبارية (صدر العدد الأول منها في شعبان ١٤٠٢ هـ مايو ١٩٨٢ باللغات الثلاث) •
٤ ــ أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين ، بالعربية والانجليزية • (نفد) •
٥ ــ عناوين المؤسسات الثقافية في الدول الأعضـاء في منظمـة المؤتمر الاسلامـي ، بالانجليزية ١٩٨٢ (نفد) •
٦ ــ الفهرس الموحد للتقاويم العثمانية (السالنامات والنوسالات) بالعربية والانجليزية، ١٩٨٢ • (نفد) •
٧ ــ مركز الأبحاث •• نشرة تعريفية مصورة ، باللغات الثلاث ، ١٩٨٣ • (نفد) •
٨ ــ الأشرطة الوثائقية (شريطان وثائقيان ، أولهما بعنوان « حياة الخطاط حامـد

الآمدي وآثاره الهامة وفن الخط الاسلامي » وثانيهما : « فن التذهيب والزخرفة الاسلامية » · والشريطان بالعربية ،وقد أرفق بهما نص بالانجليزية ·

٩ ـ الدليل الدولي للمؤسسات الثقافية الاسلامية ·

١٠ـ فهرس مخطوطات الطب الاسلامي (يشمل حصراً لكتب الطب الاسلامي في ١٢٩ صفحة مكتبة في تركيا) ·

١١ـ التعليم العربي الاسلامي في السنغال ·

١٢ـ ببليوغرافيا لأقدم كتب الكيمياء ، ١٩٨٥ ·

١٣ـ الببليوغرافيا العالمية لترجمات معاني القرآن الكريم ، بالانجليزية ، ١٩٨٦ ·

١٤ـ فهرس المخطوطات الاسلامية في مكتبة كوبريلي باستنبول ، بالعربية ، ٣ مجلدات (٢٠٠٠ صفحة) ، ١٩٨٦ ·

* * *

☐ الجمعية المغربية للتراث :

أسست مجموعة من أساتذة الجامعات المغربية جمعية علمية أطلقوا عليها اسم « الجمعية المغربية للتراث » ، وذلك بهدف احياء تراث الأمة العربية في مختلف ميادين العلم والمعرفة · وقد اعتمدت الجمعية عدة وسائل لتحقيق أهدافها ، منها : الفهرسة ـ التصوير ـ التحقيق ـ الطبع والنشر والتوزيع ـ التأليف والدراسة ـ الترجمة ـ اصدار النشرات والمجلات المتخصصة ـ تنظيم الندوات والمحاضرات ـ عقد المؤتمرات واللقاءات الثقافية والمشاركة فيها داخل المغرب وخارجه·

وتعقد الجمعية آمالا كبيرة على المعاهد والمؤسسات والجمعيات المعنية بالتراث ·· وعلى الأفراد من الباحثين والعلماء ، في مساعدتها ومد يد العون لها لوضع أهدافها موضع التنفيذ ، كما تضع بالمقابل كل امكاناتها المتواضعة في خدمتهم ·

* * *

☐ المصادر :

١ ـ نشرة (انباء جامعة حلب) ·

٢ ـ نشرة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم العدد١٢ آب ١٩٨٦ ·

٣ ـ اخبار التراث الاسلامي العدد ٢ السنة الثانية مايو ١٩٨٦ ·

٤ ـ نشرة « اخبار التراث العربي » العدد ٣٦ تموز ـ أب ١٩٨٦ ·

٥ ـ صحف ومجلات مختلفة من البلاد العربية والأجنبية ·

في رحاب الرحمة والخلود

كان هذا العدد من مجلة التراث قدخُتِمَ صفه حين نعى مجمع اللغةالعربية بدمشق رئيسه الأستاذ الدكتور الحاج حسني يحيى سبح الذي انتقل الى رحمة الله ورضوانه يوم الثلاثاء ٢٨ ربيع الآخر=٣٠ كانون الأول ١٩٨٦ وفي ليلة الأربعاء قبيل منتصفها بعد أن ملأ صدرحياته الفاضلة كلها حتى آخر يوم منها علماً وتدريساً وعملا وجهداً في خدمة الطب واللغة العربية والادارة الحازمة الحسنة .

وكان فيمن شيَّعه عصر يوم الأربعاء تلاميذه الأطباء الكثُر وأعضاء مجمع اللغة العربية ، وقد أبَّنه فيمن أبَّنه عند مثواه الأخير الدكتور عبدالكريم اليافي عضو المجمع بهذه الأبيات :

سمعتُ بنعيه فوجمتُ حزناً وكيف وانه الركن المنيع
لمجمعنا فوا أسفاً عليه لتندبْه المجامع والربوع
فكم خدم العلوم وذاد عنها له في أفقها العالي سطوع
ألا انَّ النجوم على علاها يصير الى الغروب بها الطلوع
ومن للطبِّ بعد أبي نصير ومصطلحاته وهو الضليع
حياة من طبيعتها الرزايا ولكنَّ العلوم هي الشفيع
نشيِّعه ونعرف من فقدنا ولا يُغني التفجع والدموع
نؤبِّنه ونكْمل ما بناه ويعصر حبة القلب الخشوع
مضى عَبِقَ الشمائل والمزايا طَوالَ العُمر يحمده الجميع
مآثره كثير ليس تُحصى ففي الجنَّات منزله رفيع

أسبغ المولى الكريم على الفقيد الغالي فيض رحمته وجميل رضوانه .

رسالة من اتحاد الكتاب العرب الى الكتاب والأدباء والأصدقاء في العالم

الأصدقاء الأعزاء :

نتوجه اليكم مثقفين وزملاء قلم ، تعنون بالحقيقة وتبحثون عنها، تؤسسون قناعاتكم في ضوء وقائع وقيم أخلاقيةوروحية وانسانية محكمين في ذلك العقل والضمير والوعي المعرفي وترفعون أصواتكم مع الحق والعدل ، مهما كانت القوى التي تمارس الظلم وتتحكم بالواقع .

لا نشك في أنه تناهى اليكم ما عاناهشعبنا العربي عامة والشعب الفلسطيني خاصة من ويلات الحرب والاضطهاد والتشريد منذ نفذ الاستعمار البريطاني تصريح بلفور باقامة وطن قومي لليهودفي فلسطين ، حيث أعطى الذي لا يملك للذي لا يستحق وطن شعب بات مشرداًوملاحقاً بالمذابح وأنواع الارهاب الرامية الى ابادته لاثبات الكذبة الكبرى التيروجتها الصهيونية بأن فلسطين أرض بلا شعب .

واستمرت منذ اقامة دولة اسرائيلفي فلسطين أعمال العدوان واحتلال الأراضي بالقوة واضطهاد الشعبالفلسطيني وملاحقته وابادته وتشريده ، كما استمرت الحروب وعمليات الاستنزاف الدورية لطاقات شعبنا العربي وثرواته بهدف منعه من التحرر والتقدم.

وانكم تذكرون دون شك حرب السويس ١٩٥٦ وحرب حزيران ١٩٦٧

واكتوبر (تشرين) ١٩٧٣ وغزو اسرائيل للبنان وحصارها لبيروت عام ١٩٨٢ ومذبحة صبرا وشاتيلا التي كانت آخر سلسلة المذابح العلنية التي ارتكبت ضد شعبنا ، وتذكرون عمليات الارهاب الدولي التي مارستها اسرائيل مثل عملية مطار عنتيبي ، ومهاجمة المفاعل النووي العراقي ، والهجوم على تونس ، وممارساتها الارهابية اليومية ضد الشعب اللبناني واحتلالها لجنوب لبنان والجولان السورية ، واقدامها على اعتراض الطائرات العربية المدنية وأحياناً تدميرها كما حدث لطائرة ليبية فوق سيناء ٠

هذا عدا ممارساتها اليومية لأنواع وأشكال تشويه الثقافة الوطنية والتاريخية ونهب الآثار وتزوير الحقائق في المنطقة ٠

وتقوم اسرائيل بكل ذلك بدعم مستمر يغذي احتلالها ونزوعها العدواني يأتي بالدرجة الأولى من الولايات المتحدة الأمريكية حيث يبلغ متوسط الدعم السنوي في الثمانينات ثلاثة مليارات دولار سنوياً عدا المساعدات العسكرية المستترة ٠

ولأن سورية بقيادة الرفيق حافظ الأسد الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي رئيس الجمهورية وقفت وتقف في وجه مخططات أمريكا واسرائيل للسيطرة على المنطقة وتصفية القضية الفلسطينية على نهج كامب ديفد الذي رفضته جماهيرنا ، ولأنها أحبطت خطة أمريكا التي قادت الدول الاستعمارية للسيطرة على لبنان وتقسيمه واحتلاله من جديد وواجهت بحزم المخططات والمؤامرات الامبريالية والصهيونية في المنطقة ، وقادت حركة التحرر العربي مطالبة بالحرية وبحق تقرير المصير لشعبنا العربي عامة وللفلسطيني خاصة فقد قررت الامبريالية الأمريكية والصهيونية بتخطيط وتعاون مع بريطانيا حصار سورية ومنعها من ممارسة دور تحرري في المنطقة ، وقد مارست ضدنا حصاراً اقتصادياً وسياسياً بعد طرد القوات الأمريكية من لبنان والغاء اتفاق /١٧/ أيار الذي فرضته اسرائيل على اللبنانيين بقوة الحديد والنار ، وعندما لم تفلح بتركيع سورية لجأت الى تشويه سمعتها الدولية ، وبثت ضد أبنائها خاصة وضد العرب بشكل عام روح العداوة والعنصرية التي أخذت تفوح من بعض العواصم الامبريالية متهمة اياها بممارسة الارهاب وتم التواطؤ بين أجهزة المخابرات

الأميركيـة والبريطانيـة والاسرائيليـةلافتعال قضية (هنداوي) في مطار لندن من أجل تصعيد حملة العـداء ضد سوريةوذلك تمهيداً لشن عدوان مباشر عليهـا تحت ستـار مقاومـة الارهاب ، تدبـرهاسرائيل وأميركا وبريطانيا على نسـق ما سبق ومارسته تلك الدول من ارهـابدولي في هذا العصر منذ حـرب السويس وحتى آخر عمليات قوات التدخل السريعالأميركية مروراً بالعدوان على السـكن الشخصي للعقيـد القـذافي في طرابلسوبعمليات بريطانيا ضد جـزر المالفيناس وممارسات الأساطيـل الأميركية ضـدالشعوب في البحار والمحيطات وتهديدهـا المستمر لتلك الشعوب ٠

ان شعبنا الذي كان ضحية الارهاب ،ودفع وما زال يدفـع أغلى ثمن لأبشـع عملية ارهاب دولي في العصر الحديثوهيانشاء اسرائيل في فلسطين على حسـاب الشعب الفلسطيني ، يكره الارهاب ويدينه ويقاومه ولكنه يفرق بين الارهـاب والمقاومة الوطنية المشروعة لتحرير الأرض والارادة واستعادة الحقوق المغتصبـة وتثبيت حـق تقـرير المصـير للشعوب فيأوطانهـا بحريـة ، ويرفض محـاولات بريطانيا وأميركاواسرائيل تشويه صورةالمقاومة الوطنية وخلط أوراق المقاومين على أرضهم ضد الاحتـلال بأوراق الارهابيين الجبناء ٠

اننا من موقعنا كزملاء لكم في البحثعن الحقيقة والدفاع عنها ، وفي الحفـاظ على حقوق الانسان وحرياته وكرامته ،نعلن ادانتنا لكل أشكال الارهاب وخاصة تلك العمليات التي توجه ضد المدنيـينوالطائرات ، ونعلن وقوفنا الى جـانب المقاومة الوطنية التي تعمل بشـرف منأجل حرية أوطانهـا وحقـوق شعوبهـا وحريات الانسـان وحقوقـه الأساسية ،ونتطلع بأمل كبير الى تفهمكـم العميـق لمخاطر تشويه صورة الشعوب والبـلدانالتي تدافع عـن وجودهـا ومستقبلهـا وحرياتها وحقهـا في تحـرير أراضيهـاوتقرير مصيرها ٠

اننا نتوجه الى وعيكم وضمائركـموقيمكم النبيلة وحبكم للحق ، لتعلنـوا موقفكم بصدق ووضـوح من ممارسـاتبريطانيا واسرائيل وأميركا ضد شعبنـا وبلدنا وثقافتنا ، ولتتنبهـوا وتنبهـواالعالم الى التهديد والتمهيدات التي تتم الآن لشن عـدوان جـديد على شعبنا فيسورية لأننا نرفض أن نستسلم ونرفض

أن نقدم أرضنا المحتلة الى اسرائيل ،ونرفض أن نخضع للاستعمار الأميركي ومخططات الهيمنة الامبريالية ، ونصر على أن نعيش بحرية وشرف واستقلال في أوطاننا .

ان الحرص على السلام العادل لجميع الشعوب ، وعلى توجيه الطاقات والثروات البشرية والجهد العلمي والتقني لخدمة الانسان ولترسيخ قيم الحضارة والسلام على أسس دائمة وثابتة ، وعلى حق تقرير المصير لجميع الشعوب هو الذي يوجه طاقاتنا الابداعية وجهودنا اليوم من أجل عالم ينتفي فيه كابوس التهديد النووي عن البشرية ،وتزول عنه آلام المرضى والمقهورين ، ولا يموت فيه الأطفال جوعاً ، ولا تخرب فيه البيئة ، ولا ينعم فيه الانسان بشمس الوعي والحرية نتيجة الأمية والاضطهاد والجهل ، من أجل عالم لا تتحكم فيه نزوعات السيطرة على الآخرين والاستلاب والثقافة الاستهلاكية ، والتزييف الاعلامي وأجهزة المخابرات .

يا زملاء الكلمة ، ان شرف كلماتنا يستنبت في الحقيقة والحرية والالتزام بالحق والانسان ، والدفاع عن المظلومين وعن الشعوب ، من أجل السلام العادل والمستقبل الأفضل والوعي الأعمق بالذات وبالآخر ، من أجل رفع أشرعة الأمل أمام البشرية لتعيش بسعادة وهذا ما ندعوكم الى الدفاع عنه في وجه الارهاب الدولي والعدوان والافتراء الذي تمارسه أمريكا وبريطانيا واسرائيل وأطراف الأحلاف الاستعمارية ضد شعبنا وبلدنا ،وضد الانسانية ، والنصر للحق وللكلمة الشريفة وللانسان .

المكتب التنفيذي لاتحاد الكتّاب العرب

* * *